

كيف يبرمج القرآن الحياه

عبد المجيد محمد علي الغيلي



دار النشر للجامعات

كيف يبرمج القرآن الحياة

عبد المجيد محمد علي الغيلي



دار النشر للجامعات

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخة في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف.

الجمهورية اليمنية

صنعاء

ت : ٢١٤٥٤٩

فاكس : ٢١٤٣٠٥

ص.ب : ١٢٤١٢

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٩/٤٣١

التنفيذ الفني والإخراج

دار النشر للجامعات

للتواصل والنشر :

Universities1@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾
أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

عليننا الغراس، ويا ربنا

يكون اجتنى ليس من حظنا

فإن تبئن ما اثمرت نسترخ

والا فتفع لمن بعدنا

عبد المجيد محمد الغيلي

القاهرة_ ٢٠٠٣م

إهداء

إلى المصلحين الذين:

- يمشون في الأرض بنور الرحمن...
- ويسعون به لهداية الإنسان...
- ويقومونه على جادة القرآن...
- ويشعلون وجدان الناس بالإيمان...

إلى حملة الرسالة الذين:

- يسعون في الأرض ملئها بالسلام والأمان...
- ويؤدون واجبهم بإبلاغ البيان...
- وينذرون البشرية عواقب الريغ والعصيان...

إلى المخلصين الذين:

- تنظف جهودهم،،،
- وتنكثف أيديهم،،،
- وتنازر طاقتهم،،،؛
- من أجل إقامة المعروف الذي أمر الله به،
- وإزالة المنكر، الذي نهى الله عنه...

إلى فتية أسرعوا في إباء
يقيمون ديناً بهي السناء
ويرسون في الأرض وحي السماء
ويُحيون في الناس روح الإخاء

تقديم: القاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني (*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا كتاب (من شعاع القرآن)^(١)، الذي ألف فيه مؤلفه ولدي العزيز الشاب العالم الفاضل (عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي)، دراسة كاملة حول الكلام عن (٣٨) سورة نزلت من القرآن العظيم.

ولقد أعجبني هذا الكتاب إعجابا عظيما؛ لأن مؤلفه قد طرق في هذا المؤلف موضوعا لم يخطر على بال أحد من المؤلفين عن القرآن في هذا العصر. فسده الله ورضى عنه، وزاد في الشباب من أمثاله، فلقد أفاد وأجاد في هذا الكتاب فوائد قد لا يجدها أحد في كتب التفسير القديمة والحديثة. وسيقدم الكتاب نفسه للقارئ بمجرد ما يتصفح فيه بضع صفحات. ولا يحتاج هذا الكتاب إلى تقديم مني، ولكن حسن ظنه بي لكونه أحد تلاميذي. طلب مني تقديمه، وأنا لكوني من مشائخه لبيت طلبه؛ تشجيعا له على عمله، كما هو فخر لكوني أحد مشائخه.

أسأل الله له التوفيق والهداية إلى أقوم طريق. وسبحان الله وبحمده، سبحان الله

العظيم.

محمد بن إسماعيل العمراني
شوال ١٤٢٩ هـ / أكتوبر ٢٠٠٨ م

(*) العلامة الكبير، والشيخ الجليل، القاضي الإمام محمد بن إسماعيل العمراني، تخرج على يديه الآلاف من طلبة العلم، مدرس بجامعة الإيمان، وبالمعهد العالي للقضاء، مد الله في عمره ونفع به.

(١) كان هذا هو الاسم القديم لهذا البحث، وكان كذلك حين كتب فضيلة الشيخ العلامة مقدمته، ثم غيرته بعد ذلك إلى العنوان الحالي.

سنة الفجر الحزينة

القاضي :

محمد بن إسماعيل العمراني

التاريخ :

الرقم :

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لك يا رب العالمين . والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .
وعلى آله وصحبه وسلم يوم الدين . (وبعد) فهذا كتاب (من شعاع القرآن)
الذي ألفه في سنة الفجر ولدي عمر بن عثمان بن عفان (عليه السلام)
رسى على الخليلي) في سنة الفجر كما هو حال الكلام عند (سورة شريك
من القرآن العظيم) ولقد أعجبني هذا الكتاب أعجب أعظم الأثر مؤلفه قد
طرق في هذا المؤلف موضوعاً لم يختر على هذا المؤلف من أعزاه في هذا العصر
فقد روى في سنة الفجر من كتابه ولقد أفاد ولها في هذا الكتاب
غنى وفرد لا يحدها في كتب تفسير القرآن والحديث حتى يقدم الكتاب للقارئ المحرر
ما ينفعه في بعض صفحاته ولا يحتاج هذا الكتاب إلى تقديم مني
ويمكن ظنني أن يكون له أثر في طلبة من تقدموا ولا يكون من شأنه بيت
طلبه جميعاً على علم كما هو في القرآن الكريم حيث سئل أساميل التوفيق
والهداية إلى طرق وسبل السعادة والنجاة من النار في سنة الفجر

تقديم: الشيخ محمد بن علي الغيلي (*)

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف أنبياء الله، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى الآل الأطهار، والأصحاب الأخيار، والتابعين لهم بإحسان..
وبعد:

فهذا الكتاب (كيف يبرمج القرآن الحياة؟)، والذي بذل فيه مؤلفه الولد عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي جهداً كبيراً، نفع الله به المسلمين وغيرهم. فقد سلك فيه مسلكاً موفقاً، حيث تطرق إلى الكثير من مقاصد القرآن الكريم. وربط بين تلك السور التي رتبها حسب التنزيل. كما تطرق المؤلف عند عنوان كل سورة إلى الجزء الأكبر الذي تحتويه السورة. وهذا يدل على قوة فهم، وحدة إدراك.

كذلك تناوله لموضوعات السور بأسلوب جديد، فيه إبداع. وهذا الأسلوب يعد كنزاً جديداً يضم إلى التراث الإسلامي، ويحتاج إليه الدعاة والوعاظ والمحاضرون، وكل شرائح المجتمع المهتمة بعلوم القرآن الكريم.

ولقد لفت المؤلف فيه العقول. كثيراً. إلى التأمل في القوة الإلهية المنتشرة في الأرض والسماء، وأن الله سبحانه يدمر من ينازعه في ملكه، ومن يدعي القوة ليصد بها البشرية عن سنن الله، مهما كانت تلك القوة، ولو كانت تلك القوة غير التي عاصرت نزول الوحي. ويقرر المؤلف كثيراً أن البشرية ليست ناجية إلا إذا تمسكت بالوحي المحفوظ المنزل من عند الله.

ثم إنني أدعو ابني المؤلف إلى مواصلة هذه الطريقة بالأسلوب الذي سلكه، مع مراعاة ما تجدد من معجزات عصرية، كشفت عنها علوم العصر الحديث، وقامت باستكشاف الكثير من كنوز هذا الوحي الذي استودعه فيه منزله عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالى. فشهدت بعصمة الوحي، وبهدايته، ورحمته للعالمين.

ويكفيه شرفاً ما كتبه شيخنا العلامة الجليل القاضي محمد بن إسماعيل العمراني. حفظه الله. الذي هو (شوكاني العصر).

وإني لأرجو الله أن يمدد بالعون، والسداد، وأن يأخذ بيده إلى مزيد من الخير والعتاء والإبداع، وأن ينفع به البشرية جمعاء، إنه سميع مجيب.

محمد بن علي الغيلي

ذو القعدة ١٤٢٩هـ / نوفمبر ٢٠٠٨م

(*) هو العلامة الوالد الشيخ محمد بن علي الغيلي - عضو جمعية علماء اليمن، ومدرس مادة التفسير بالكلية العليا للقرآن الكريم، ومدير عام مدارس تحفيظ القرآن الكريم بالجمهورية اليمنية.

مقدمة

هنا مجموعة من الأسئلة . من حق القارئ أن يضعها بين يدي هذا البحث، وهذه الأسئلة ستتردد كثيرا، وأعتقد أنها بحاجة إلى بعض البيان. ومن أهم هذه الأسئلة:

- ❖ كيف نقدم القرآن للبشرية؟
- ❖ ولماذا نحتاج إلى قراءة جديدة؟
- ❖ وهل تزعم أنك تقدم رؤية جديدة في الدراسات القرآنية؟
- ❖ ثم ما معالم تلك الرؤية؟

هذه أبرز الأسئلة التي تضع نفسها كمدخل للبحث، وفي طياتها أسئلة أخرى، سأحاول الإجابة عنها ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

▪ لماذا نحتاج إلى قراءة جديدة؟

هناك المئات من كتب التفسير، بل أقول الألف المؤلفات من الكتب في تفسير القرآن الكريم، سواء أكانت تهدف إلى تفسيره تفسيرا كاملا، أم تتعلق ببعض القضايا فيه، ومنها ما ألف في معانيه وأسباب نزوله، وفي إعجازه، ومجازه، وفي ناسخه ومنسوخه، وفي إعرابه، وغريبه، وفي أمثاله، وموضوعاته. وقد قدمت هذه الكتب خدمات معرفية وتوجيهية عظيمة للمجتمع المسلم عبر القرون، بل للبشرية كلها.

وقد درج كثير من المفسرين على أن يفيد اللاحق من السابق، ولا ضير في ذلك، ولكن أدى هذا الأمر مع تتابع القرون إلى تكرار كثير، تكرر في الموضوعات، وفي الآثار، وفي طريقة تناول، وفي المنهج، ولا أغفل هنا عن القول بأن لكل مفسر شخصيته، وأسلوبه، وطابعه الخاص به في التفسير، وقد تربت الأمة على الموائد التي قدموها قرونا طويلة.

ولكن مع الثورات المعرفية المعاصرة، ثورات في المعرفة، وفي طريقة اكتسابها، وفي معالمها، وفي إنتاجها، وفي تطبيقاتها والإفادة منها . مع تَلُكُم الثورات المعرفية والمنهجية والتطبيقية، كان لا بد من نظرة جديدة في التعامل مع النص القرآني؛ باعتباره البرنامج الإلهي - ليس للمسلمين فقط، وإنما - للبشرية جمعاء. وهذه النظرة الجديدة تراعي أولا طبيعة النص الذي تتعامل معه، وتراعي ثانيا الحالة المعرفية التي وصل إليها البشر.

فأما طبيعة النص القرآني فهو وحي الله ﷻ، ورسالته الأخيرة إلى البشرية، وفيها رسم معالم البرنامج الذي على البشر أن يسلكوه بدقة، وقد أنزل الله ﷻ رسالته بلسان عربي

مبين، ولكنه لسان له من الخصائص اللغوية والدلالية، والطاقت التعبيرية، والاحتمالات التأويلية، والمقاصد الإرشادية، والسنن التوجيهية. ما يجعله قادرا في كل زمان ومكان على تلبية الحاجة البشرية إلى الهداية.

وأما الحالة المعرفية التي وصل إليها البشر. فهي كما أشرت سابقا، تعيش في نشوة ثورات معرفية، وانتصارات معلوماتية، وتنافسات بياناتية محمومة، وتعيش وراء ذلك في امتدادات كبرى لتطبيقات تلك المعارف المكتسبة، تطبيقات في كافة مجالات الحياة، في المجال التقني، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والعلمي، والخدمي... الخ. ولكن مع غياب برنامج يصنعه الإله لهذا الإنسان، فإن كل إنسان سيصبح إلها في هذه الأرض، وعندئذ لا تسلني عن مخاطر الطغيان الذي سيحدث بين الناس، وهو ما يحصل فعلا في عالم الإنسان؛ نتيجة لانصرافه عن البرنامج الإلهي المنزل.

من هذين المنطلقين، كان لا بد من قراءة جديدة للقرآن الكريم، ترقى بهذا الإنسان، وتحفظه من الانقراض، وتحفظ إنتاجاته المعرفية والتطبيقية من الضياع والانهيال.

هل ترعم أنك تقدم رؤية جديدة في الدراسات القرآنية؟

من دون شك، فإني أقدم شكري لأساتذة عظام، أساتذة تعلم العالم منهم كيف يفكر، بل تعلم منهم قبل ذلك أنه كإنسان من حقه أن يفكر. وهؤلاء الأساتذة أثروا المكتبة العالمية لقرون طويلة، ووجدت البشرية في ما أنتجوه ضوءا ينير أمام العين طريقا محفوفًا بالأشواك. وهؤلاء الأساتذة ثمرة من ثمار القرآن الكريم.

أدين بالفضل . بعد من الله ﷻ وتوفيقه، لهؤلاء، سواء من كتب في تفسير القرآن الكريم قديما وحديثا، أو من كتب في غيره من علوم الشريعة، واللغة، وكافة المجالات التطبيقية. فمنهم جميعا استطعت أن أستمد منهج دراستي للقرآن الكريم.

والقارئ الكريم لا شك أنه يعرف الاتجاهات والمناهج والأساليب⁽¹⁾ التي درس بها العلماء القرآن الكريم قديما وحديثا، ويمكن إجمالها تحت ثلاثة أساليب، هي: التفسير التحليلي، والتفسير الإجمالي، والتفسير الموضوعي.

والتفسير التحليلي أسلوب شائع بين المفسرين قديما وحديثا، وفيه ينتبع المفسر الآيات حسب ترتيب المصحف، وعليه درجت كثير من كتب التفسير. أما التفسير الإجمالي

(1) ينظر في الفرق بين هذه المصطلحات، وفي معرفة أساليب التفسير: بحث في أصول التفسير ومناهجه، فهد الرومي، ص ٥٥ وما بعدها، مكتبة التوبة، ١٤١٩هـ، ط ٤.

فلا يقف عند ألفاظ كل آية، وإنما يهدف إلى تقديم المعنى الإجمالي لمجموعة من الآيات، أو لسورة معينة. وأما التفسير الموضوعي، فله صور عديدة، فمنها تتبع كلمة أو حقل دلالي معين، ومنها تتبع قضية من قضايا علوم القرآن كالأمثال أو الناسخ والمنسوخ، ومنها تتبع موضوع معين من موضوعات القرآن الكريم، كالصبر، أو السنن الاجتماعية... الخ.

ومن صور التفسير الموضوعي التي لها صلة ما بقضيتنا، تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة، ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها. وليس هنا مجال الحديث عن مناهج المفسرين وأساليبهم المختلفة، إلا أنني أريد أن أضع بين يدي القارئ صورة عامة لهذه الاتجاهات، وليسمح لي القارئ بأن أقف عند بعض من كتبوا في التفسير الموضوعي.

فمن التزم بذلك سيد قطب في ظلال القرآن، حيث كان يحدد الموضوع العام الذي تتناوله السورة، فيتحدث عنه إجمالاً، ثم يقوم بتحليل السورة تحليلًا تفصيليًا. فهو جمع بين التفسير الموضوعي والتحليلي، واستخدم مناهج عدة في تفسيره، ومنها: المنهج الاجتماعي الذي يهدف إلى بيان وظيفة القرآن في المجتمع، والمنهج الحركي للقرآن، وذلك ببيان الطبيعة الحركية للقرآن الكريم، ورسم مسار الدعوة، ومنهج التذوق الأدبي، وذلك من خلال التأملات البيانية لبلاغة القرآن، وارتباط دلالة اللفظ بجرسه، والولوج إلى عمق التركيب القرآني. تلك أهم مميزات تفسير سيد قطب، وهو قد قدم قراءة جديدة للقرآن الكريم، في ضوء هذه المناهج والأساليب، ولم يسبق في هذه المناهج التي اتخذها في دراسة القرآن الكريم.

ومن أولئك الشيخ محمد عبد الله دراز، في كتابه النبأ العظيم، وهو كتاب قيم مليء بنظرات عميقة وجديدة حول الإعجاز القرآني في لغته وتشريع بنيانه، ويؤكد على أن "المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنين، بل كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان"، وأن هناك وحدة موضوعية تربط أجزاء السورة الواحدة، ومن النظرات الثاقبة التي بينها قوله بأن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقتضي بأن يكون النظر إلى الوحدة الموضوعية للسورة مقدما على النظر في تفاصيل السورة ومقاطعها. وهي نظرة موفقة ورائدة وسابقة. ثم تحدث في كتابه عن سورة البقرة، وبين الوحدة الموضوعية فيها وفق المنهج الذي تحدث عنه، ولم يتحدث عن غيرها من السور.

ومنهم الشيخ محمد الغزالي في كتابه (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم)، وذكر في مقدمته أنه متأثر بالشيخ محمد دراز، وهو تفسير مختصر، يهدف إلى رسم الوحدة

الموضوعية لكل سورة دون الخوض في تفاصيلها المختلفة. وقد تابعت جهود الباحثين والعلماء بعد ذلك في هذا الإطار^(١).

هذه خلاصة لبعض الجهود التي سعت إلى تجلية الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة، وكلها تعتمد على فكرة أن لكل سورة قرآنية شخصية مستقلة، تتميز بها عما سواها من السور. كما أن طريقتها في التناول يقوم على ترتيب السور في المصحف بترتيبها المعروف. ولم أجد من كتب في تفسير القرآن الكريم وفقا لترتيب النزول إلا الشيخ عبد الرحمن حبنكة في كتابه تفسير القرآن، حيث فسر السور وفقا لترتيب النزول، ولكنه تفسير تحليلي يعتمد على الأسلوب التحليلي في التفسير كسائر كتب التفسير، إنما يختلف عنها في كونه رتب تفسيره حسب ترتيب النزول.

ولا بد أن أشير إلى كتابين من الكتب التي ألفت قديما في القرآن الكريم، أولهما: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، للإمام إبراهيم بن عمر البقاعي [٨٠٩-٨٨٥هـ]، وهو كتاب لطيف، يهدف إلى بيان التناسب بين السورة والسورة التي تليها، كما يهدف إلى بيان التناسب بين الآية والآية التي تليها داخل السورة، بل إنه أحيانا يبين التناسب بين الجملة والجملة داخل الآية الواحدة. وقد حاول المؤلف أن يبين مختلف المناسبات التي تربط بين سورة وأخرى، أو آية وأخرى، وفيه نظرات لم يسبق إليها، وهو فريد في بابه، ولكنه يقع في التكلف أحيانا.

وأما الآخر فهو كتاب أسرار ترتيب القرآن للإمام السيوطي [ت: ٩١١هـ]، ومما تميز به عن كتاب البقاعي أنه كان يحاول أحيانا أن يقدم نظرة إجمالية لموضوع السورة الواحدة، أو بعبارة أخرى كان يحاول أن يقدم الوحدة الموضوعية للسورة، كما في تقديمه لسورة البقرة، إلا أنه لم يستمر على هذا النهج، حيث كان يغلب عليه بعد ذلك أن يبين تناسب السورة اللاحقة مع السورة السابقة، وهو كتاب صغير لا يتجاوز الخمسين صفحة، بخلاف نظم الدرر للبقاعي فهو تسعة مجلدات.

وكمواصلة لجهود هؤلاء الأفاضل، فإن دراستي للقرآن الكريم تأخذ أبعادا ومعالماً خاصة، تلتقي مع بعض من سبق في محاور وتفرق عنهم في آخر، وسأتحدث عنها في الفقرة القادمة.

■ معالم الرؤية الجديدة

(١) يمكن الرجوع إلى مقال (طرق تناول التفسير الموضوعي)، د. عبد الحميد غانم، مجلة البيان، عدد ١٧٧، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، أغسطس ٢٠٠٢م، ص ٦ وما بعدها.

هناك حكمة قديمة، تقول: "إذا وقفت في مفترق طرق، فاسلك الطريق التي لم يسلكها أحد؛ فإنك ستكتشف أشياء جديدة". وليسمح لي القارئ أن أتحدث عن معالم الرؤية الجديدة من ثلاث زوايا: الاتجاه، والمنهج، والطريقة. وسأتحدث عن الاتجاه أولاً، ثم الطريقة ثانياً، ثم المنهج ثالثاً، فأؤخر المنهج؛ حتى يتبين للقارئ طريقة دراستي.

الأولى: اتجاه الرؤية الجديدة في قراءة القرآن الكريم، يقوم على أساس أن القرآن الكريم برنامج كامل شامل، يهدف إلى إصلاح الإنسان، والمجتمع، والدولة. وإنما حين ندرك حقيقة مهمة . نستطيع أن نضع أيدينا على خطوط هذا الاتجاه، الحقيقة بكل ما تحمله من دلالات بديهية هي أن القرآن الكريم نزل للبشر جميعاً، ولم ينزل للمسلمين فقط، وخصوصاً المكي منه. إذا أدركنا ذلك عرفنا أن من واجبنا أن نقدم القرآن للبشرية، كبرنامج هداية وإصلاح، سواء اتبعوه أم لم يتبعوه. وحتى لو لم يتبعوه فنحن نقدمه لهم كبرنامج إصلاحي لمختلف المشاكل التي تمر بها البشرية.

وطالما كان الأمر كذلك فإن السؤال الذي يضع نفسه: كيف نقدم القرآن

البشرية؟

الإجابة تتجلى في . أروع صورها المبسطة . أن نقدم القرآن للبشرية كما قدم القرآن نفسه للبشرية حين نزل. فالقرآن الكريم نزل وفق ترتيب معين، وكان ينتقل في خطابه بالبشرية متدرجا في بنائها، وإصلاحها، وينقلها من مرحلة إلى مرحلة، ويخرجها من ظلمة إلى نور، ويردم الحفر المعرفية والفجوات السلوكية التي أصبحت متجذرة في حياة هؤلاء الناس.

كان القرآن يأخذ بيد البشرية لينقلها نقلات كبرى، ينقلها من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، وينتزعها من أوهاق⁽¹⁾ الرذيلة إلى آفاق الفضيلة، ومن أحوال العلاقات الاجتماعية إلى سموها، ومن البطالة العقلية إلى إثارة العقل، ومن التعلق بأهداب الخرافة إلى تسخير الكون، ومن الركون إلى الدعة والكسل إلى عمارة الحياة.

كان القرآن الكريم في كل مرحلة من مراحل تقديمه للبشرية دقات من نور المعرفة والسنن، ليصلح ركامات القرون الماضية، وما زال كذلك حتى أخرج للناس أمة استطاعت أن تقود مسيرة الركب الإنساني عبر قرون طويلة، ومنذ ذلك الحين، والإنسان يرتقي في سلم المعرفة، والعلم، والمعاملة، ونيل الحقوق، والقدرة على أن يحيا حياة طبيعية، سواء في ذلك من آمن به ومن لم يؤمن به. ولكن الإنسان عندما لا يؤمن به فإنه ينحدر إلى أعماق

(1) أوهاق، جمع: وهَق، والوهوق: الحبل في أحد طرفيه أنشودة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ.

سحيفة من التخبط النفسي والضلال المعرفي والتأزم الاجتماعي. وكذلك من أمن به ولكنه لم يهتد به كبرنامج إصلاح لحياته وآخرته.

جاء القرآن الكريم فبنى إنسانا متوازنا، يعيش لحياته الأولى، كما يعيش لآخرته، يعمر دنياه كما يعمر أخراه، ينير عقله كما يزكي نفسه، يسعى للرفي بإرادته كما يسعى لبناء جسمه، يعيش لنفسه كما يعيش لمجتمعه. أخرج إنسانا يدرك أنه خُلق بالحق، وأن الكون كله خلق بالحق، وأن عليه أن يقيم الحق في نفسه وفي مجتمعه، وأن يصدق به، وأن يضحى من أجله. حينئذ تكون له قيمة في الحياة على قدر الحق الذي يسعى في إقامته.

وعودة إلى رأس الموضوع، فإن المطلوب منا أن نقدم القرآن الكريم كبرنامج إصلاح وهداية، بالطريقة التي نزل بها القرآن أول مرة. وإن تقديم القرآن الكريم بهذه الطريقة لكفيل بأن يفتح للعقول معالم البرنامج الإصلاحي، معرفةً وممارسةً، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء: 9].

إن القرآن الكريم يهدي الإنسان والمجتمعات إلى أقوم حياة، وأحسن طريق، ويقدم لهم برامج إصلاحية عديدة، فيستطيع المصلح الاجتماعي أن يجد فيه برنامج الإصلاح الاجتماعي، ويستطيع المحنك السياسي أن يجد فيه برنامج الإصلاح السياسي، ويستطيع المرشد التربوي أن يجد فيه برنامج الإصلاح التربوي، ويستطيع القائد التعليمي أن يجد فيه برنامج الإصلاح التعليمي، ويستطيع الطبيب النفسي أن يجد فيه برنامج الإصلاح النفسي... الخ.

وكل ذلك يقدمه القرآن الكريم في صورة متدفقة من الكلمات، صورة مليئة بالحياة، صورة نابضة بالإمتاع والإقناع، لم تشم رائحة الجفاف التنظيري، ولم تذق نكهة البرود العلمي.

إذن فهو برامج لإنشاء حياة مستقيمة في كافة جوانبها، وإصلاح ما اعوج منها، وكل يستطيع أن ينهل منه، ويجد فيه موارد لظمنه، ومناهل لعطشه.

وأشير هنا إلى عنوان الكتاب (كيف يبرمج القرآن الحياة؟)، فلا ينتظر القارئ مني أن أقدم له برنامجا بنود محددة، وعناصر مغلقة. ولكن أقدم له القرآن كبرنامج حياة، أقدمه للبشرية جمعاء كبرنامج إصلاح وهداية، أقدمه للمصلحين كبرنامج إرشاد وتوجيه... أقدمه بالطريقة التي يقدم بها القرآن نفسه.

وقد هدفت في قراءتي للقرآن الكريم إلى أن أضع يدي على ما استطعت من تلك البرامج المختلفة، وحاولت جاهدا أن أجلي السنن الإلهية، والقوانين القرآنية، بقدر ما توصل

إليه فهمي، وفتح الله ﷻ به علي. وأنا أدعو الباحثين والمفكرين إلى أن يُثَوِّروا^(١) القرآن الكريم؛ لاكتشاف برامجه، ولكشف سننه وقوانينه للناس. فحسبي أن وضعت بذرة في حقل يمتد بامتداد الأجيال والآفاق، ونهلت قطرة من بحر عظيم لا ساحل له، (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَفَدَّ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَقْدَمَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [الكهف: ١٠٩].

كما هدفت إلى إبراز الحقائق الكبرى، والخطوط العريضة فيما يتعلق بأخطر القضايا التي تكتنف الوجود الإنساني في حياته، ثم التي تنتظره بعد مماته. كذلك هدفت إلى تصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة التي سادت بين المسلمين، وأخطر هذه المفاهيم هو الانقسام بين المعرفة والعطاء أو بين الدين والسلوك.

الثانية: الطريقة. إن الأساس الأول الذي انطلقت منه في هذه الرؤية الجديدة هو قراءة السور وفقاً لترتيب النزول. وسبب اختياري هذه الطريقة، أنني رأيت أن قراءة القرآن مرتباً حسب نزوله سيعطي صورة واضحة عن تربية القرآن للمجتمع البشري، وكيف تدرج في الخطاب مبتدئاً من نقطة الصفر، والقرآن أول ما نزل إلى رسول الله ﷺ يخاطب المجتمع البشري وهو ما زال كافراً. فكان الخطاب عالمياً لا يختص بطائفة معينة، إنما يخاطب الناس كافة، وهذا بخلاف الخطاب المدني الذي يغلب عليه الخطاب التشريعي للفئة المؤمنة به.

فانطلاقاً من عالمية الخطاب القرآني المكي، فإن هذه الدراسة مصبوغة بصفة الخطاب العالمي، فهي دعوة للبشرية جمعاء، وليس للمسلمين فقط، دعوة لهم أن يبحثوا عن إجابات أسئلتهم المختلفة، وأن يصوغوا شخصياتهم وفقاً لإرادة الخالق الذي خلقهم وشرع لهم، {الْأَلَهَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ} [الأعراف: ٥٤]، ودعوة لهم أن ينهلوا منه المعالم الحقيقية لبرامج الإصلاح المختلفة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دراسة القرآن الكريم وفقاً لهذه الطريقة ستضع أيدينا على السنن المؤسسة لفقهاء النهوض الحضاري، وكيف تعمل هذه السنن من أجل تغيير الإنسان والمجتمع والدولة. كما أنها تقدم برنامجاً عملياً لسير الرسول ﷺ في حياته الإصلاحية، وفي مسيرته الدعوية، وكيف كان يتحرك بالقرآن، وكيف كان يتدرج الخطاب القرآني معه من أجل إصلاح البشرية. إلى غير ذلك من الفوائد^(٢).

(١) قال ابن مسعود كما في المعجم الكبير للطبراني: (من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين)، قال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح. والمعنى كما قال ابن الأثير: "أي ليُنْقَر عنه ويُفكر في معانيه وتفسيره وقراءته"، وقال شمر: "تثوير القرآن قراءته ومفاتيحه العلماء به في تفسيره ومعانيه".

(٢) ربما ترد على هذه الطريقة بعض الإشكالات، ومنها: أن ترتيب السور وفق النزول ليس محل اتفاق بين العلماء، وللعلماء آراء عدة في الترتيب، ومنها: أن بعض السور اختلف العلماء في تحديد مكان نزولها، أمكة أم المدينة، وهي اثنتا عشرة سورة، ومنها: أن بعض السور المكية فيها آيات مدنية، وبعض السور المدنية فيها آيات مكية، ومنها: أن السورة

الثالثة: المنهج. ربما يفجأ القارئ المنهج المتبع في هذه الدراسة، فالقارئ لم يعهد في أي دراسة تفسيرية للقرآن الكريم أن يقسم المؤلف كتابه إلى أبواب وفصول. غير أن الذي يشفع لي أنني وجدت وحدة موضوعية . لا أقول تربط السورة الواحدة، فقط، وإنما . تربط بين مجموعة متعددة من السور التي نزلت متتالية، وبهذا فإنني أقدم للقارئ نظرة جديدة في الوحدة الموضوعية، تقوم على الترابط بين مجموعات السور المتعددة.

تأملت السور القرآنية، وكنت أحاول أن أسلم عقلي وفكري لما يوحيه السياق، وأحاول الغوص قدر استطاعتي وراء الخيط الذي يشد مجموعات السور المختلفة، ولقد منَّ الله ﷻ علي، وأرشدني إلى بعض تلك الخيوط، وكنت أحاول تتبعها في السور المختلفة، وعند التتبع وجدت . حقا . أن كل مجموعة من السور ينتظمها خيط معين.

عندما قرأت السور القرآنية وفق ترتيب النزول، تبين لي كيف عالجت أول (٣٨ سورة) نزولا . قضايا المعرفة والعطاء والجزاء والعبودية، بطريقة فريدة، وأسلوب معجز، وبيان مبدع، ولغة سهلة، وآفاق واسعة. ولقد عمدت إلى أول السور القرآنية نزولاً، فقامت أتتبع

الواحدة لم تنزل جملة واحدة، فقد ينزل جزء من سورة، ثم ينزل جزء من سورة أخرى، وهكذا. نعم هذه إشكالات واردة، وربما أجد مكانا آخر لأفيض القول فيها، غير أنني أقول بليجاز، أنني اعتمدت في ترتيب النزول على رواية ابن عباس رضي الله عنهما، وهي:

[عن عطاء الخراساني عن ابن عباس أنه قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أول ما أنزل من القرآن: اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمّل، ثم يا أيها المنثر، ثم تبنت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك الأعلى، ثم والليل إذا يغشى، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم أهلكم التكاثر، ثم أرأيت الذي يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم ألم تر كيف فعل ربك، ثم قل أعوذ برب الفلق، ثم قل أعوذ برب الناس، ثم قل هو الله أحد، ثم والنجم، ثم عبس، ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر، ثم والشمس وضحاها، ثم والسماء ذات البروج، ثم والتين، ثم لإيلاف قريش، ثم الفارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم ويل لكل همزة، ثم والمرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم بهذا البلد، ثم والسماء والطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص، ثم الأعراف، ثم قل أوحى، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم طسم الشعراء، ثم طس، ثم القصص، ثم بني إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حم عسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم إنا أرسلنا نوحاً، ثم سورة الأنبياء، ثم المؤمنين، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم عم يتساءلون، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين فهذا ما أنزل الله بمكة. ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة]، وهذا وإن كان سنده فيه ضعف، فإن هناك طرقاً أخرى تقويه.

ومن ناحية أخرى، فإنه من الصعوبة بمكان أن ننظر إلى ترتيب نزول الآيات، فقد عفا الأثر، ولم يكن هناك اهتمام بتدوين ذلك، ولكن الذي اهتموا به هو تدوين ترتيب نزول السور، وعليه فمن المنطق أن يقوم البحث على ترتيب السور لا ترتيب الآيات، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنه يحاول أن يقدم الوحدة الموضوعية للسورة كاملة في إطار وحدة موضوعية أشمل تضم تلك السورة مع غيرها من السور، ولهذا فمن المناسب أن تقوم الدراسة على ترتيب السور مع التغاضي عن بعض الإشكالات الواردة في سبيل تتبع تدرج الخطاب القرآني كما توجي به السور.

خيوط المعرفة والعطاء والجزاء، والعبودية، وحديث المصدر الإلهي المقدس فيها، تاركاً ما وراءه من أباطيل وفلسفات، وبهذا نرى أن أول حديث للقرآن الكريم إلى البشرية كان في هذه القضايا، وهذا وجه من وجوه إعجاز هذا الكتاب.

ولقد جعلت الكتاب هذا بابين، الأول: يتعلق بمعرفة الإنسان وعطائه وجزائه، وهو فصلان، فالمعرفة هي المدخلات التي تدخل إلى كيان الإنسان وعقله، والعطاء هو الإنتاج الذي يقدمه الإنسان بعد ذلك، والجزاء هو ما ينتظر الإنسان من ثواب أو عقاب؛ نتيجة لما قدم من أعمال. أما الباب الثاني، فقد توقفت فيه عند قضية العبودية، باعتبارها أعظم عطاء يقدمه الإنسان، وعليها يترتب الجزاء كله. وقد قسمته إلى أربعة فصول.

وفي كل فصل من الفصول نجد أن مجموعة السور تربطها وحدة موضوعية أخص من الوحدة الموضوعية التي تربط مجموعة السور التي تجتمع في باب واحد.

ربما أسمع همسا من القارئ، يزعم أن في ذلك تكلفاً، غير أنني أبادر بالقول بأنني حاولت القراءة بهذا المنهج دون تكلف أو عسف للفظ، وإنما كنت أتجه كما يتجه السياق، وكان السياق يساعدي في الوصول إلى هذه النتائج. والقارئ بين يديه عملي مفتوحاً، فليقرأ، وليكن هو الحكم بعد ذلك، إن كنت متكلفاً أم لا.

لقد وجدت أن هذه السور (٣٨) التي نزلت متتالية، السابق منها يقود إلى اللاحق في تناسق عجيب، وترتيب عظيم، وهي تقدم علاجاً شافياً ودواءً كافياً في أهم القضايا التي تحتاجها البشرية.

كما أن هذه القراءة كانت قراءة شاملة، أقرأ فيها السورة من أولها إلى آخرها، مبيناً الوحدة الموضوعية دون تكلف أو تعسف، وإنما حسب ما يحتمله اللفظ والسياق. ولم تكن بالقراءة الجزئية، فلا آخذ من السورة آيات وأدع آخر، وقد حرصت على هذا قدر الاستطاعة. وهذا كله استجابة للأمر الإلهي الأول إلى البشرية (اقرأ) فعملي في كتابه هو قراءة وليس شرحاً أو تفسيراً، إنما هو قراءة.

وعلى سبيل المثال، تأمل في السور التالية: (الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الإخلاص، النجم) هذه السور المتتالية نزلت لتبين للناس من المعبود الحق، فبعد أن وضعت سورة الكافرون مفاصلة بين معبود حق ومعبود باطل، جاءت سور: الفيل، الفلق، الناس،

الإخلاص، فبينت صفات المعبود الحق، ثم جاءت سورة النجم لتتعى على أولئك الذين يتخذون معبودات باطلة. ثم جاءت مجموعة من السور لتبين معنى العبودية من الناحية المعرفية والتطبيقية، ثم جاءت مجموعة من السور لتبين أهمية العبودية،... الخ.

وقد يقول قائل، إن في هذا التقسيم جفافا علميا، وروح القرآن أبعد ما تكون عن ذلك. فأقول له: مهلا، مهلا، فأنا لم أكمل بعد حديثي عن المنهج. إن انتظام مجموعة من السور تحت عنوان واحد لا يعني أن أسلوب القرآن في الحديث عن قضية ما هو ذلك الأسلوب العلمي الجاف. لا، بل نجد أن الأسلوب القرآني حين يعرض القضية يعرضها بأسلوب تتدفق فيه الحركة، وتتبض في كل حرف من حروفه أنفاس الحياة؛ حتى لتكاد الكلمة أو الآية تتطق بلسان مسموع.

ولهذا فحين نحاول أن نقسم الدراسة إلى أبواب وفصول، فإنما نلحظ الخيط الدقيق الذي تنتظم فيه مختلف السباحات؛ لتكون سبحة متكاملة، بفصوص متنوعة، وألوان زاهية، ومشاهد مختلفة، وكلها تصب في ذلك المصب.

ثم إنني أقوم بدراسة تحليلية للسورة، ليس كالمنهج التحليلي المتبع في كتب التفسير، وإنما بالمنهج الذي تمليه الوحدة الموضوعية لهذه السور أولا، ثم لمجموعة السور في الفصل ثانيا، ثم للوحدة الموضوعية للسورة نفسها، ولهذا تلاحظ أنني أحاول أن أختزل الوحدة الموضوعية للسورة في عنوان، يرسم الخط العريض للسورة، ثم أتناول مقاطع السورة وآياتها في ضوء ذلك العنوان.

فسورة (اقرأ) على سبيل المثال، عنوانها (أصول المعرفة)، حيث تحدثت عن أصول المعرفة، وأدواتها، وأدلتها، وكيف تسير في مسارها الصحيح، ثم ما العلاقة بين القراءة التي تحدثت عنها الخمس الآيات الأولى، وبين الطغيان التي تحدثت عنه بقية السورة، وكيف تحول القراءة دون الوقوع في الطغيان، وأهم مظاهر الطغيان التي يقع الإنسان فيها حين ينصرف عن تلك القراءة... الخ.

لقد سعيت جاهدا إلى تقديم رؤية جديدة في تناول السور القرآنية حسب ترتيب النزول، وفي عرضها بأسلوب معاصر، مع الاعتماد على فقه اللغة العربية، وأدوات تحليل النص اللغوية والسياقية، وروح الشريعة الإسلامية، والإفادة من تجارب البشرية ورصيدها

المعرفي، والنظر بعين الاعتبار إلى المشكلات المعاصرة التي تواجهها البشرية عموماً، والتي يواجهها المسلمون خصوصاً. كل هذه الأمور كانت موجّهات عند دراسة هذا النص القرآني.

وهذا ما أقوله في عجالة حول معالم الرؤية الجديدة، وسأدع الكتاب يقدم نظريته للباحثين، يقدم منهجه وطريقته، ويقدم أسلوبه واتجاهه، باختصار يقدم نفسه.

▪ ثلث القرآن!!

ثمان وثلاثون سورة من سور القرآن الكريم نزلت متتالية، وربما أجد تساؤلاً: هل لاختيار العدد (٣٨ سورة) دلالة معينة؟

وليدعني القارئ أسرع بالقول أن اختيار (٣٨ سورة) لا يحمل إلا دلالة الموضوع الذي تعالجه هذه السور، حيث وجدت أن هذه السور ينظمها موضوع الدراسة، وكلها جاءت تبني هذا الموضوع من زوايا مختلفة، ثم وجدت مجموعة من السور التي نزلت بعدها ترتبط بموضوع معين^(١)، وإن كان لا يفصل عن هذا الموضوع في سياقه العام.

ولكن ليسمح لي القارئ أن أطرح بين يدي الباحثين فرضية، أدعوهم . كما أدعو نفسي قبلهم . إلى تمحيصها، ووضعها على طاولة البحث، واختبارها، وأسأل الله ﷻ أن يعيننا جميعاً على ذلك.

كما قلت لك أيها القارئ، أنني لم أتعمد اختيار هذا العدد (٣٨) سورة، وإنما تتبعت السياق حتى وجدتني واقفاً عند سورة (ص) وهي خاتمة الثمانية والثلاثين، ولم أنتبه إلى كون هذا العدد ثلث القرآن إلا بعد حين^(٢)، ثم لاحظت أن الثلث الأول، يقدم برنامج إصلاح للإنسان، كما رأينا في قضايا المعرفة والعطاء والجزاء والعبودية، وكلها قضايا تتعلق بالإنسان وإصلاحه كفرد، فتساءلت: هل فعلاً أن الثلث الثاني يقدم برنامج إصلاح للمجتمع، والثلث الثالث، وأغلبه سور مدنية، يقدم برنامج إصلاح للدولة؟

لا أستطيع الآن أن أقول أكثر من هذا، فأنا ألقى الفرضية بين يدي الباحثين؛ أما أنا فلا أستطيع أن أجزم بها، أو أنفيها إلا حين أنتهي من قراءة القرآن الكريم وفق هذه الرؤية

(١) هذا المبحث الثاني إن شاء الله، وهو جاهز، ويعد للطبع.

(٢) لفت نظري إلى ذلك الأستاذ فؤاد دحابة.

الجديدة، وحينئذ يمكن أن أدلي بدلوي حول هذه الفرضية. وما أستطيع قوله الآن أن التلث الأول يمثل برنامج إصلاح للإنسان، من خلال صياغة معارفه، ورسم عطائه ومساره في الحياة.

وأخيراً، فإنني ألتمس من القارئ الكريم أن يوافيني بأية ملاحظة أو تنبيه، فسأكون شاكراً له صنيعه، وما وجد فيه من خير فليقل: هذا من فضل الله ﷻ على عبده، وما وجد فيه من زلل، فإنما هو لتقصير مني، ولا يبخل القراء والباحثون والمفكرون والعلماء أن يفيدوني بأية ملاحظة، وسأقبل كل شيء منهم، نقداً أو غير ذلك.

وإن أنس فلا أنسى أن أزجي شكري وتقديري لكل من أفادني في هذا البحث بمراجعة أو توجيه أو ملاحظة أو تنبيه أو تطوير، وأخص بالشكر: والدي الشيخ محمد الغيلي، فما أنا إلا ثمرة من ثماره، ونبته طالما تعهدا برعايته واهتمامه. كما أشكر الأستاذ محمد كحلاء - الذي راجع البحث قبل نشره. وكذلك الأستاذ فؤاد دحابة الذي أفادني بنظراته الثاقبة. كذلك أخص بالشكر والدتي التي علمتني معنى النجاح. وأسوق الشكر لزوجتي: ياسمين كحلاء، التي أرزنتني في رحلة حياتي وفي مسيرتي العلمية.

كما أخص بالشكر والتقدير الوالد الشيخ/ عبد الواسع هائل سعيد أنعم؛ فلقد دعمني في مسيرتي العلمية، وما زال يغمزني بإحسانه وكرمه، وطالما عرفناه ذا يد فياضة بالجود، ونفس سباقه إلى الخير، مهتما بدعم العلماء، مشجعاً لطلبة العلم، مسارعاً إلى التوضيح بماله وجهده في سبيل الخير. فأسأل الله أن يجزل له الأجر، وأن يكافئه بإحسانه، وأن يغدق عليه نعمه، وأن ييسر له طريقه، وأن يجعل التوفيق حليفه، والسداد رفيقه.

فاللهم أبدلنا بعد العسر يسراً، وأبدلنا بعد الذل ظفراً، وأبدلنا بعد الضعف نصراً، وأبدلنا بعد الخمول ذكراً، وضع عنا وزراً، واشرح لنا صدراً.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

اليمن . صنعاء / ٢٠٠٥م

abdmajidyemen@hotmail.com

الباب الأول: الإنسان معرفة وعطاء

❖ أسئلة تعصف بالشراء

يجد الإنسان نفسه في هذه الحياة فيتساءل: من أنا؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين أصير؟ وهل وجدت صدفة أو أوجدني خالق؟ ولماذا أوجدني؟ وما علاقتي بما حولي من الكائنات؟ وماذا يريد مني خالقي؟ وما البرنامج الذي يريد أن أتبعه؟ إلى غير ذلك من القضايا التي يريد أن يتعرف عليها.

ثم يقف ثانية مع نفسه وهو يعكس معارفه التي يحملها -يعكسها في تصرفات وأعمال وسلوكيات يعطيها للحياة، ويظل يعطى حتى يموت، أيا كان العطاء الذي يعطيه- خيراً أم شراً. ثم يقف ثالثة مع نفسه ليتساءل: ما هو الجزاء الذي ينتظرني نتيجة لما قدمت من أعمال. أو أن الحياة ستكون سدى، لا حساب ولا جزاء.

هذه الأسئلة وغيرها تعصف بشراع الإنسان حتى يجد مرفأً يستقر عليه شراعه، إن هذه الأسئلة عميقة ومهمة -كما ترى- فهي التي تحدد هوية الإنسان وتصوغ شخصيته. ولكن السؤال الأعمق والأهم: من أين نستقى الإجابات على هذه الأسئلة؟

إن الإنسان ليضل ويشقى حين يلجأ إلى إنسان مثله، فيستقي منه المعارف التي تحدد هويته، وطبيعته، ووظيفته في الحياة. لقد أراد الله ﷻ للإنسان أن يكون سامياً، غير مستذل ولا مستعبد، ومن ثم اختص الله ﷻ لنفسه أن يرسم للإنسان المعارف الأساسية، وأن يضع له منهج الحياة، وأن يبين له وظائفه فيها. ولكمال التحرر الإنساني، فقد أمر الله ﷻ الناس أن يعبدوه وحده، وألا يشركوا به شيئاً. فعبادة الله ﷻ . هي الأمر الذي يحول بين الإنسان وبين عبودية أي من البشر، وكلما تمرد الإنسان على عبودية ربه وقع في عبوديات دنيئة، تركسه في أحوال من القذارة الفكرية والروحية، وتمرغه في مستنقعات آسنة من الممارسات الخاطئة.

❖ الوجود الإنساني وكرامته

ولكن ماذا تعنى المعرفة والعطاء والجزاء بالنسبة للإنسان؟
إن المعرفة والعطاء يعنيان الوجود الإنساني، والجزاء يعنى كرامة الوجود الإنساني، المعرفة اسم جامع لكل تصور أو عقيدة أو قيم أو مبادئ أو مناهج تشكل سلوكيات الإنسان، أما العطاء: فهو اسم جامع لكل عمل يقوم به الإنسان سواء أكان كلمة مكتوبة أو منطوقة أم كان إبداعاً فنياً أو علمياً، وسواء أكان عطاء فرد أم عطاء أمة

وهو حضارتها. وباختصار فالعطاء كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل، وكل ما يصدر عن الأمة من أعمال وآثار تشكل مجموعها حضارتها.

إن الإنسان معرفةً وعطاء، وإن الأمة معرفة وعطاء، فالمعرفة هي القاعدة التي يرتكز عليها الإنسان، والعطاء هو البناء الذي سيقومه الإنسان في هذه الحياة، ولا يمكن أن يقوم بناء بمعزل عن القواعد، وعلى قدر القواعد يكون قدر البناء؛ فالقاعدة القوية تتحمل بناء قوياً، والقاعدة الهشة لا تتحمل إلا البناء الهش.

إذن فمعارف الإنسان هي التي تشكل إنتاجاته وأعماله، ومعارف الأمة هي التي تشكل حضارتها، وعليه فلا يمكن النظر -أبداً- إلى حضارة أمة أو إنتاج فرد دون إدراك المعارف التي انبثق عنها هذا العطاء. وإذا تقرر هذا فيجب أن ندرك أن كل معرفة تقتضى إنتاجاً أو حضارة معينة، فالمعرفة التي تحرم الكذب والغش مثلاً تنتج عطاء صادقاً لا يتسم بالكذب أو الغش، والعكس صحيح. وهذا مثل بسيط، وإلا فإن جميع المعارف تتفاعل وتمتزج لتشكل عطاء الإنسان.

أردت بهذه المقدمة الموجزة أن أبين لك خطورة هاتين القضيتين في تقييم العطاء الإنساني ذلك أن الإنسان يمكن أن يغالط فيدعى أنه يحمل من المعارف والقيم ما ليس عنده، ولكن هذه المغالطة سرعان ما تنكشف بمجرد عطاءه. فإن كان عطاؤه مخالفاً لمعارفه التي يدعيها، فالحقيقة أنه يستند إلى معارف أخرى.

❖ معرفة حاضرة وغائبة

وعليه فالمعرفة قسمان: معرفة حاضرة، ومعرفة غائبة، أما الحاضرة فهي المعرفة الأساسية التي لها تأثير قوى على العطاء، وأما الغائبة فهي المعرفة الثانوية التي لها تأثير ضعيف في العطاء، وبالمثال يفهم المقال، فالمسلم الذي يكذب أو يغش أو يقع في المحرمات، أو يقصر في أداء الواجبات، أو يرضى بالضعف والهوان، أو يرضى بالخضوع والضيغ.. - فهذا عطاء سلبي لا تقتضيه المعرفة الأساسية القائمة على أسس الألوهية، والربوبية لرب العالمين ورحمته وعدله، وما يتبع ذلك من وجوب إقامة الحياة وفق مبادئ الحق والعدل والمساواة والحرية والإخاء.

فالمسلم الغاش أو الكاذب . مثلاً . يظن أن هذه المعارف رئيسية حاضرة، والحقيقة أنها غائبة ثانوية، والشاهد على هذا عمله وعطاؤه. هذا العطاء لا يمكن أن يستند إلى هذه المعارف، بل هو مستند إلى معارف أخرى تبيح هذا العطاء وتدعو إليه، وليست هذه المعارف من الإسلام في شيء. وهذا حال كثير من هذه الأمة، فوجدانهم الإسلامي غائب -

أو مغيب- عن الحضور، والحاضر ليس هو الوجدان الإسلامي، إنما هو وجدان آخر جاء مزاجاً لعوامل كثيرة ومذاهب ونظريات غزت المسلمين، وتقاليد وعادات وفدت إلينا -حتى ظن أنها هي الإسلام.

ويدانى هذه الكارثة كارثة أخرى وهى أن تحضر المعارف حضوراً شكلياً، فتتعلق بعبء شكلي لا جوهرى. كمثل المسلم الذي يرى أن إسلامه يأمره بإطلاق اللحية، فيطلق لحيته، ولكنه لا يرى أن إسلامه يأمره بالصدق في معاملة الناس فتجده يغش ويخدع... أو المسلم الذي يرى إسلامه يأمره بالصلاة، فيصلى، ولكن لا يرى إسلامه يأمره بعدم الخضوع للظالمين. أو المسلم الذي يرى إسلامه يأمره بالتعلم ومحاربة البدع، ولكنه لا يرى إسلامه يأمره بالعمل له كي يقيمه في الحياة. أو المسلمة التي ترى دينها يأمرها بالحجاب، ولكنها لا ترى دينها يأمرها بغض البصر وعفة اللسان... وبهذا تحضر هذه المعارف في العطاء شكلياً لا جوهرياً.

❖ عمل الإنسان وجزاؤه

أما الأساس الثالث فهو الجزاء جزاء الإنسان وفق عمله. والجزاء هو من الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، ومن دون هذا الأساس يفقد الوجود الإنساني معناه، ويصبح عبثاً -تعالى الله - عن ذلك {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون ١٥]، فما معنى أن يعمل الإنسان ثم لا يرى جزاء لما أعطى - أياً كان عمله صالحاً أم فاسداً. وإذا كان أساسا المعرفة والعطاء ملقبيين على كاهل الإنسان العامل، فإن أساس الجزاء ليس إليه إنما إلى غيره. والناس قد يجازون بعضهم البعض، ولكن حديثي هنا عن جزاء الله ﷻ للناس على أعمالهم.

ولقد جاءت أول سبعة عشر سورة من القرآن الكريم تتحدث عن هذه القضايا حديثاً واضحاً، شاملاً، كافياً لمن كان له قلب. جاءت لتضع النقاط الأساسية المتعلقة بهذه القضية، لتكون ماثلة أمام أعين البشرية، ثم تتطلق في رحاب الحياة بأنوار المعرفة الإلهية لتقيض عطاء ربانياً، فتجد جزاءها الحسنى في الدنيا والآخرة.

وسأتناول الباب في فصلين، الأول يتحدث عن المعرفة والعطاء، والثاني يتحدث عن قوانين الجزاء ومقتضياته.

الفصل الأول: المعرفة والعطاء

مدخل:

١. ما أصول المعرفة؟ وما أدلتها؟ وما مسارها الصحيح؟ (سورة اقرأ).
 ٢. وكيف يتفاعل الإنسان مع تلك المعرفة؟ وكيف ينضبط سلوكه في ضوءها؟ (سورة القلم).
 ٣. وما المقتضى الطبيعي لهذه المعرفة؟ وما نتائج التعامل الصحيح معها؟ (سورة المزمل).
 ٤. وما مدى استجابة الإنسان لمقتضيات المعرفة؟ هل ينتج عطاء إيجابيا أو يشح به وينتج عطاء سلبيا؟ (سورة المدثر).
 ٥. وما مكانة المعرفة الإسلامية؟ وما حدود العطاء الذي على المسلم أن يقدمه؟ (سورة الفاتحة).
 ٦. وإذا كان الضلال يعني انفصال العطاء عن المعرفة وعدم استناده إليها، كما بينت سورة الفاتحة، فما خطورة الضلال في حياة الإنسان؟ (سورة المسد).
 ٧. ثم ما المخرج من هذا الضلال؟ أو ما السبيل إلى صيانة المعرفة من الانحراف، والعطاء من السلبية؟ (سورة التكوير).
- هذه أسئلة كبرى تكتنف قضية المعرفة والعطاء، وهماي أول سبع سور نزولا تتكفل ببيانها بيانا شافيا، ولا تترك الإنسان في حيرة من أمره.

أصول المعرفة (سورة اقرأ)

هذه السورة هي أول ما نزل من القرآن الكريم. ولما كانت أكبر قضية تؤرق الإنسان هي معرفة نفسه: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وما دورى فى الحياة أو لماذا جئت؟ ثم ما مصيرى؟ ومعرفة هذا الوجود وارتباطه بغيره من الكائنات، وارتباط كل الموجودات بخالقها العظيم – فقد جاءت السورة لتعالج هذه القضية، قضية المعرفة وأصولها وأدلتها؟ وكيف تسير فى مسارها الصحيح، وخطورة انحرافها عن هذا المسار، وما مضاعفات هذا الانحراف، وما آثاره على البشرية؟ وقد جاء حديث السورة فى ستة محاور، أولاً: القراءة الشاملة أساس المعرفة، ثانياً: الإيجاد والإعطاء – أدلة المعرفة، ثالثاً: كيف تسير القراءة فى مسارها الصحيح، رابعاً: خطورة الانحراف عن هذا المسار، خامساً: جزاء الطغيان، سادساً: ما واجب المؤمن بربه تجاه طغيان العصاة؟

أولاً: القراءة الشاملة أساس المعرفة

(أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥})، يأمر الحق هذا الإنسان أن يعرف أبجديات وجوده، وأن يدرك معنى حياته، وذلك بتحديد وسيلة المعرفة العظيمة، وهى القراءة "اقرأ". ولكن ما المراد بالقراءة؟

الدلالة اللغوية:

بالرجوع إلى المعاجم، يمكن استخراج ثلاثة معاني للقراءة:

١/ القراءة هي الجمع والتتبع:

قال ابن الأثير: "تكرّر ذكر القراءة والاقتراء والقارئ والقرآن، والأصل فى هذه اللفظة **الجمع**، وكلُّ شيءٍ جمعه فقد قرأته، وسمي القرآن؛ لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض"^(١).

والجمع هو من أهم أسس المنهج العلمي، وهو ما يسمى بالاستقراء، ولاحظ لفظ الاستقراء. قال فى المصباح المنير: "(وَسْتَقْرَأْتُ) الأشياء: تتبعت أفرادها لمعرفة أحوالها،

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناجي، وظاهر أحمد الزاوي، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ٣٠/٤.

وخواصها الكلية"^(١).

- قال رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عزّ وجل: "إنما بعثتك أبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان"^(٢). والمعنى . كما قال الزمخشري: "تجمعه في صدرك حفظاً في حالتي النوم واليقظة والكثير من أمتك كذلك فهو وإن مُحي رسّمه بالماء لم يذهب عن الصدور بخلاف الكتب المتقدمة فإنها لم تكن محفوظة"^(٣). ومنه قرأ الكتاب: أي تتبع كلماته نظراً ونطقاً بها. وقرأ الشيء: ضم بعضه إلى بعض.

٢/ القراءة هي التبين والتثبت

تقول العرب: واستقرأ الجمّل الناقّة إذا تاركها لينظر ألقحت أم لا... وهو منهج التبين والتثبت.

٣/ القراءة هي الإبلاغ والإعلام

تقول العرب: وقرأ عليه السلام يقرؤه: أبلغه، كأقرأه إياه، وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال لعائشة . رضي الله عنها، هذا جبريل يقرئك السلام^(٤). إذن فهذا هو مفهوم القراءة بلغة العرب، لا يقتصر على ما شاع . وهو مجرد الاطلاع، بل يشمل تلك المعاني كلها.

الدلالة القرآنية للفظ:

وإذا كان مفهوم القراءة كما رأينا في اللغة . هو: الجمع والتتبع، ثم التبين والتثبت، . فإننا نلاحظ أن لفظ القراءة بمفهومه الكبير . يعني المنهج العلمي، فلفظ: اقرأ، يعني: قم أيها الإنسان باتخاذ أسس المنهج العلمي القائم أولاً على الاستقراء، وثانياً على التبين والفحص بغية الوصول إلى النتائج.

ويعنى آخر فإن مفهوم القراءة في القرآن الكريم يعني: النظر بالجمع والتثبت إلى كل أثر متروك يمكن إيقاع القراءة عليه.

* فقد يكون أثر إنسان، ويتمثل في ما يخطه بيده، أو يصنعه، أو يبينه، أو أي أثر يتركه في علاقاته، وحضارته.

* وقد يكون أثر مخلوق من مخلوقات الله ﷻ، كالنحل أو النمل، فمطلوب من

(١) مادة: ق ر أ.

(٢) رواه مسلم (٥١٠٩).

(٣) الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣م، ١٧٧/٣.

(٤) رواه البخاري (٥٧٨٣).

الإِنسان قراءة هذا الأثر.

* وقد يكون أثر الخالق العظيم، وأثار الله ﷻ تتمثل في كتابه المسطور، وهو القرآن الكريم، وفي كتابه المنظور، وهو مخلوقاته سبحانه وتعالى.

وتأمل (اقرأ) وحذف المفعول، فلم يقل: اقرأ ما خطته يد الإنسان، أو ما تركه من أثر كلامي، فحذف المفعول ليتمكن إيقاع الفعل على كل أثر...ومما يدل على سعة مفهوم القراءة النص القرآني نفسه، ففي حين حذف المفعول، كرر الفعل مرتين: (اقرأ باسم ربك الذي خلق {١} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢})، والمرة الثانية (اقرأ وربك الأكرم {٣} الذي علم بالقلم {٤} علم الإنسان ما لم يعلم {٥})، فذكر الفعل أولاً مع كتاب الله ﷻ المنظور، حيث قرنه باسم ربك الذي خلق، وفيه إحاء إلى أن المستوى الأول من مستويات القراءة هو قراءة ما خلق الله ﷻ...ثم ذكر الفعل ثانياً مع الإنسان الذي علمه الله ﷻ البيان.

ضرورة تكامل القراءة

يرى د. ماجد الكيلاني أن القراءة تنقسم إلى قسمين، الأول: **قراءة كتاب الخلق**، وهذه تشتمل على المستويات التالية: قراءة النشأة والحياة والمصير، أو "آيات الكتاب"، وهي قراءة قام بها (الرسول) صلوات الله ﷻ وسلامه عليهم - من خلال الوحي الموحى إليهم، وهذه قراءة لا تحتاج إلى حروف مكتوبة، وإنما إلى نوع من البصيرة التي اختص بها الرسول دون سواهم، وقراءة كتاب الكون أو "آيات الآفاق" واستخراج ما أودعه الله ﷻ في الكون من مظاهر قدرته المتمثلة في تكوين عناصر هذا الكون والقوانين التي تحكمها وتنظم وجودها.

وهذه قراءة يقوم بها العقل الإنساني والحواس البشرية من خلال (العلماء الطبيعيين)، وقراءة سفر الاجتماع الإنساني، أو "آيات الأنفس" وتتضمن حركة المجتمعات الحضارية والنفسية والفكرية عبر العصور والأطوار؛ لاستخراج مظاهر فعل الله ﷻ وسننه التي تنظم حركة الاجتماع الإنساني ومنجزاته الحضارية. وهذه قراءة يقوم بها العقل الإنساني والحواس البشرية من خلال "العلماء الاجتماعيين" بمختلف تخصصاتهم وتوجهاتهم.

والقسم الثاني هو قراءة ما يسطره القلم في الأوراق والأسفار مما يقرأه الإنسان في كتاب الخلق ويتوصل إليه الرسول والعلماء المشار إليهم في القسم الأول من القراءة. ويشتمل القسم الثاني من القراءة على المستويين التاليين: قراءة المعاني التي ترمز إليها الحروف والكلمات والجمل. وهذه قراءة يقوم بها كثير من بني الإنسان منذ بداية الشباب، وقراءة الحروف والكلمات والجمل، وهذه يقوم بها الإنسان منذ سنوات طفولته، ويستطيع القيام بها كل إنسان^(١).

(١) فلسفة التربية الإسلامية، مؤسسة الريان، ١٩٩٨، ص ٢٢٩-٢٣٣.

فالقراءة بهذه المستويات هي وسيلة المعرفة، وجميع هذه المستويات تتكامل حتى تؤدي معرفة متكاملة شاملة، وإلا فأى نقص في القراءة يؤدي إلى نقص في المعرفة.

والحضارة الغربية اليوم استغنت عن قراءة النشأة والحياة والمصير، التي جاء بها الرسل، فشقيقت وأشقت، وضلت وأضلت، وغويت وأغوت. والعالم الإسلامي اليوم وقف عند أدنى مستويات القراءة، فتجمد رصيده الحضاري، ورجع إلى ذاته وتراثه يحييا عليه، وانغلق على نفسه، فأساء إلى دينه، واستعبده حضارة الغرب.

والحضارة الغربية بإغفالها قراءة النشأة والحياة والمصير بتربت معرفتها، فأنكرت خالقها، واحتقرت نشأتها، وعريدت في حياتها، ونسيت مصيرها. أما العالم الإسلامي فإغفاله قراءة كتاب الكون، وسفر الاجتماع. عاش في خواء، وأصبح دينه رسوماً وطقوساً، وضمرت روح عبادته، وبذلك حصر المعرفة الإنسانية في حدود ضيقة تبدأ بنشأة الإنسان ثم تتوقف لنراها تنتقل مباشرة إلى مصيره، أما الحياة وفلسفتها وارتباطها بالنشأة والمصير، وبخالق الوجود - فهي بعيدة عن ذلك.

ضرورة شمول القراءة

ولكن حتى تؤدي القراءة ثمرتها الصحيحة فيجب أن تكون شاملة، ولكنها لا تكون شاملة إلا إذا تجرد الإنسان في قراءته من تعصبه وتقليده وضيق أفقه القومي أو الإقليمي أو القبلي أو الطائفي أو المذهبي أو الديني أو... الخ. نعم، يجب أن يترك ذلك كله، وينطلق في حياته قارئاً باسم ربه العظيم، ومستثمراً قراءته في شكر ربه العظيم. والإنسان حين يقرأ باسم ربه فإنه يصل إلى حقائق المعرفة الصحيحة، ويغوص في أعماقها الدقيقة (أقرأ باسم ربك).

"والقراءة باسم الله ﷻ غايتها الأساسية معرفة الله ﷻ، ولقد أشاد القرآن إلى هذه الغاية في مواطن كثيرة مثل قوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد ١٩]، كذلك عرض تفاصيل هذا الإجمال في مختلف السور والآيات. ومعرفة الله ﷻ هي معرفة أفعاله وصفاته ومظاهر تدبيره وتصريفه في الخلق والوجود القائم، فهذه المعرفة هي السبيل الفعال لتحقيق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها وهي عبادته سبحانه، وعبادته هي طاعة كاملة بسبب محبته محبة كاملة" (١).

ويمكنك أن ترى ذلك في الحياة، فكم من عالم قرأ الكون أو النفس - ثم لما تجرد من كافة الأطر المضروبة عليه، وقرأ باسم ربه اهتدى إليه وأعلن إسلامه. ولهذا مزيد من البيان في سورة النمل [آية: ٤٣].

(١) نفسه، ٢٣٣.

ثانياً: الإيجاد والإعطاء – أدلة المعرفة

ليس المبدع الحقيقي من يوجد الشيء فقط، إنما المبدع الحقيقي من يوجد الشيء ثم يعطيه مقومات وجوده. إذن فالإيجاد والإعطاء هما من أعظم الأدلة على الإبداع والانفراد. والحق سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة بعد أن طلب من الإنسان أن يقرأ حتى يصل إليه، أعطاه الأدلة التي يبني عليها معرفته، ويصل من خلالها إلى ربه، وهما دليل الإيجاد ودليل الإعطاء. وبهذا نعرف قول موسى عليه السلام عندما سأله فرعون باستعلاء ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه ٤٩]، فأجابه موسى عليه السلام مشيراً إلى هذين الدليلين: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه ٥٠].

والهداية بمعناها الشامل هي إعطاء المخلوق مقومات وجوده في الحياة وهدايتها إليها، وإذا أدرك الإنسان هذين الدليلين فلا يمتلك إلا أن يسجد لربه الأعلى مسجاً باسمه العظيم (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى {١} الَّذِي خَلَقَ فَسُوِّىَ {٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {٣}) [الأعلى: ١-٣]. قال تعالى في هذه السورة (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥})... فالذي خلق" هو الموجد، و"الأكرم" هو المعطي. فهو خلق كل شيء، ثم أعطاه مقومات وجوده دون انتظار مقابل، إنه العطاء الذي لا حدود له. ولاحظ لفظ (الَّذِي خَلَقَ) حيث حذف مفعوله؛ لأن الغرض إثبات هذه الصفة للحق دون تعلقها بخلق معين، ولفظ "الأكرم" حيث جاء بصيغة التفضيل مطلقة، فلم يقل مثلاً: الكريم، ولم يعلقها بشيء، فلم يقل مثلاً: الأكرم من خلقه؛ لأنه لا أحد يكرم ككرم الله ﷻ، ولا أحد يعطي كعطائه، بل لا يقاس أى عطاء بعطاء الله ﷻ وكرمه.

وكمثال عظيم للخلق: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢})، هذا المخلوق العظيم، أين كان قبل أن يأتي؟ ثم ماذا كان في بداية أمره؟ وعلى أي حال من الضعف كان؟ ثم إلى أي حال من القوة والرقي وصل؟ ما مراحل خلقه وأطواره؟ إن القراءة في هذا الدليل يقوم بها علماء الكون الذين يقرأون آيات الله ﷻ في الآفاق، ثم يهتدون إلى معرفة ربهم.

وكمثال عظيم للعطاء (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥})، لقد أعطى الخالق الإنسان هذه القدرة العظيمة، إنها القدرة على العلم والتعلم بوسائل السمع والبصر والعقل، ثم أعطاه القدرة على نقل ما وصل إليه من معارف إلى غيره من البشر سواء أكانوا في زمانه أم بعد زمانه بوسيلة الكتابة (القلم)، وهذه الوسيلة تتطور بتطور علم الإنسان، فقد تكون قلماً أو (شريط كاسيت) أو (شريط فيديو) أو أسطوانة أو (إنترنت) أو.. الخ. فكلها تحفظ علم الإنسان وتنقله إلى سواه. وما وصل إليه الإنسان وما سيصل إليه من حضارة ورقية إنما هو نتاج ما وهبه الله ﷻ من علم وقدرة على التعلم. وأجيال البشرية المتعاقبة،

ومجتمعاتها المختلفة كلها تحكي قصة هذا العطاء الإلهي. هذا العطاء يقوم بقراءته علماء الاجتماع والنفس بالمفهوم العام، لا بالمفهوم الأكاديمي الضيق.

والله ﷻ يأمرنا بقراءة هذين الدليلين، ولهذا تكرر الأمر (اقرأ) مرتين، مرة مع الدليل الأول دليل الإيجاد (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢}) ومرة مع الدليل الثاني دليل الإعطاء (اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥}).

ثالثاً: كيف تسير القراءة في مسارها الصحيح

(اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ)، الهدف من القراءة أن تؤدي إلى المعرفة الشاملة، وحتى تقوم بهذا الدور فينبغي أن تكون باسم الرب - رب الخلاق كلها، عاقلها وغير عاقلها، ورب العقلاء جميعاً أولهم وآخرهم، ورب الناس كلهم أسودهم وأبيضهم. وبهذا تتسم القراءة بالشمول والسعة الأفقية. وكيف تكون القراءة باسم الرب؟
- بالقراءة المباشرة للدليل.

عرفنا أن مستويات القراءة العليا ثلاثة مستويات: الأول: قراءة النشأة والحياة والمصير "آيات الكتاب" - وهذا طريقه ما يوحيه الله ﷻ إلى رسله. والثاني: قراءة سنن الكون "آيات الآفاق"، والثالث: قراءة سنن الاجتماع "آيات الأنفس".

وهذه الأدلة الثلاثة: **كتاب الله المسطور** المتمثل في القرآن الكريم، و**كتابه المنظور** المتمثل في مخلوقاته سبحانه وتعالى، و**كتابه المنشور** المتمثل في المجتمع البشري وقوانينه، وسميته منشورا؛ لأن قوانينه منشورة في جميع المجتمعات، ويمكن لأي مجتمع أن يقرأها - هذه الأدلة الثلاثة لا توصل إلى المعرفة الصحيحة إلا إذا خلت من الوسائط. بمعنى أن يتعامل الإنسان مباشرة مع الدليل، مستخدماً ما وهبه الله ﷻ من وسائل العلم والتعلم، ولا يبيع هذه الوسائط (من سمع وبصر وعقل) لغيره، ولا يعطى زمامها لأحد فيوجهها كما يريد.

إن اتخاذ الوسائط في قراءة الأدلة - عمل يقتل الإرادة ويغتال العقل، ويعطل السمع والبصر. وهذا ما حاربه الإسلام بقوة. ولقد ركز القرآن الكريم في مواطن كثيرة على أهمية التعامل المباشر مع الدليل، وعاب على كل من اتخذ وسيطاً هذا الأمر، وسفهه.

❖ من الوسائط الاجتماعية

وقد اختلفت الوسائط المتخذة، فمن الوسائط الاجتماعية: الآباء وما يورثونه من أعراف وعادات وتقاليد اجتماعية لأولادهم. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٢٣].

ومنها: ما ينشأ في المجتمع من أمور يتعارفون عليها ويتخذونها ديناً، وتصبح تقاليد قومية، كما قال الله ﷻ عن بلقيس ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتِ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل ٤٣]. ولهذا مزيد بيان في النمل.

ومنها: الزعماء والسادة الذين يحتكرون عقول الأتباع وفق أهوائهم. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَشْمٌ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ ٣١].

ومنها: أرباب المذاهب والنظريات الذين يجعلون لكلامهم من القداسة ما لوحي الله ﷻ. ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ٧٨].

ومنها: ما يقوم به الأتباع (أو الناس) فيجعلون لقول شخص أو لمذهب معين قداسة إلهية، ولا يفهمون دين الله ﷻ الشامل الواسع المطلق إلا في حدود هذا المذهب الضيق المحدود فيسيئون إلى الدين باسم الدين، ويحجرون على عقول الناس باسم الدين من خلال هذه الأسماء ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُهَا أَشْمًا وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم ٢٣].

وهؤلاء لا يعودون إلى المصدر الإلهي مباشرة لمعرفة الحلال والحرام، بل يجعلون مصادرهم تلك الوسائط يستمدون منها منهج حياتهم حلالها وحرامها ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة ٣١]، وفسرها رسول الله ﷺ لعدى . ﷺ عندما قال: ما عبدوهم، فقال رسول الله ﷻ: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه، فتلك عبادتهم"^(١).

وهذا الوسيط لا يزال بأصحابه حتى يصبح الإله آلهة، والرب أرباباً، والدين أدياناً، وذلك حين يجعلون لكلام البشر وأفهامهم ما لكلام الله ﷻ من قدسية، وهذا هو الشرك، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

"إن انتقال القدسية من قيم الدين إلى مفهوم البشر المتفاوتة هو تفريق لأمر الدين، وتمزيق للأمة وقضاء على مصادر وحدتها الجامعة. ولعل من بعض آثار ذلك السلبيّة ما ذهبت إليه جماهير الأمة من المقلدة وبعض حملة الفقه - وليس الفقهاء - عندما يطلب

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٠)، من حديث عدي بن حاتم، وصححه الألباني.

إليهم الالتزام بأدلة الكتاب والسنة واعتمادها مصدراً للتدين، وليس فهوم واجتهادات البشر التي تخطئ وتصيب - من أن مصدر هذه الفهوم والمذاهب هو الكتاب والسنة، وأن الالتزام بها والدفاع عنها والاستسلام لها هو التزام بالكتاب والسنة، وبذلك يصبح للمسلمين أكثر من كتاب ومن سنة، حيث تتعدد صور الاجتهاد والتدين بتعدد المذاهب وقدرات البشر^(١).

❖ من الوسائط المعنوية

وكما جاء الإسلام فحارب هذه الوسائط الاجتماعية التي تحول دون قراءة وحى الله ﷻ قراءة شاملة، فذلك حارب كافة الوسائط المعنوية التي تحول دون قراءة السمع والبصر والعقل لآيات الآفاق والأنفس، ومن هذه الوسائط:

بلادة الإلفة: والمراد بها أن الإنسان إذا أَلِفَ شيئاً فإن حواسه تتبلد تجاهه، ولا يرى فيه بعد ذلك آيات الروعة والجمال، وهذا تخدير لوسائل العلم (السمع والبصر والعقل). فمثلاً: هذه الآية العظيمة، إيلاج الليل في النهار، ثم اختفاء النهار وإيلاجه في الليل، لو رآها الإنسان مرة واحدة لاهتزت كل خلية في جسمه، ولسجدت كل شعرة في جسده، ولكن لما أَلِفَ هذا، فإن حواسه وعقله لم تعد تتفاعل مع الآية، وهذه الآية أعظم بكثير من آية إيقاف البحر وجعله يبساً لموسى ﷺ، أو من آية الناقة أو... وطريق التخلص من هذا هو كثرة التأمل والنظر {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} [الملك: ٣-٤]. والقرآن الكريم دائماً ما يقرع النفوس ويهز الوجدان كي ينطلق متفاعلاً متجاوباً مع هذه الآيات العظام؛ لأن بلادة الألفة تمنع من رؤية الآيات.

ومنها: التسليم بالمسائل دون إعمال فكر، ونظر. ولم يحارب القرآن شيئاً مثل ما حارب هذه الوساطة، لأنها السلاح الفتاك الذي يدمر العقل، ولأنها الوسيلة العظمى التي يستعبد بها البشر بعضهم بعضاً، ولأنها المدخل الأكبر للشيطان إلى العتب بفكر الإنسان، نعم. لا أخطر من التسليم المطلق لما يقول البشر أو يعملونه. ولقد أطلق القرآن الكريم صيحته العظيمة لفضح هذه الوساطة {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل ٦٤]. بل إن القرآن نفسه لم يُرد للإنسان أن يؤمن بالله ﷻ إيمان الأعمى، وإلا لقال له: أوؤمن أيها الإنسان. دون أن يقدم البراهين. لا. إن القرآن هو أكبر برهان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء ١٧٤].

ولقد طلب القرآن حتى من المشركين الذين يدعون مع الله ﷻ آلهة أخرى - طلب منهم أن يقدموا براهينهم على ما يفعلون، فمسألة "ألله مع الله" قبل الإسلام نقاشها معهم في ضوء البرهان، قال تعالى {إِلَهِ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل ٦٤]، وأم

(١) عمر عبيد حسنة، في مقدمة كتاب الأمة: التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، ج ١، ص ١٤، عدد ٤٧.

اتَّخَذُوا مِنْ ذُوْنِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴿٢٤﴾ [الأنبياء ٢٤]. أما إذا ركب الإنسان هواه وانطلق بدون برهان فله حساب آخر {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون ١١٧].

فالقاعدة العامة – في هذا . أن كل ما يمنع الإنسان من التعامل المباشر مع الدليل هو وساطة، وكل وساطة مرفوضة في ديننا، أيا كانت هذه الوساطة.

إن القراءة المباشرة للدليل تنتج إنساناً ناضجاً، يتجاوب مع الدليل ويتفاعل معه ويصل إلى المعرفة الشاملة – وأي شئ يحول دون ذلك فهو وساطة مقبلة يستحق الإنسان معها أن ينزل من درجة الإنسان إلى درجة الحيوان {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف ١٧٩]، {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسْحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك ١٠-١١].

فاتخاذ الوساطة ذنب عظيم وغفلة كبرى، وإن أي إنسان يحترم نفسه لا يمكن أن يرضى ببيع عقله لسواه من البشر، وقد خلق الله ﷻ له عقلاً، ووهبه سمعاً وبصراً. إذن فسبيل القراءة الشاملة باسم الرب العظيم – هو قراءة الدليل قراءة مباشرة ورفض كافة الوسائط، ونبذ جميع الحوائل الحائلة دون الوصول إلى النتيجة الطبيعية للدليل. وهذا هو الضمان الوحيد لأن تسير القراءة في مسارها الصحيح.

رابعاً: خطورة الانحراف عن هذا المسار

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿٦﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَتَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿٩﴾). جاء لفظ (كلا) في المقطع الثاني من السورة مكرراً ثلاث مرات؛ لبيان الخطورة الكبيرة الناتجة من انحراف مسار القراءة، وليدل على رفض هذا الانحراف رفضاً تاماً، ونبذه نبذاً كاملاً، ولفظ (كلا) لفظ شديد الجرس، شديد الوقع يلقي بظلاله الراضية على هذا الانحراف. ثم تكرر لفظ (أرأيت) الاستفهامية التي تحمل معنى الإنكار والتعجب ثلاث مرات أيضاً، ليدل على الإنكار الشديد على من ينحرف في قراءته، والتعجب ممن يقع في هذا الانحراف جراء الوسائط المختلفة – تعجباً ممن يحتقر عقله ويزدري سمعه وبيصره!!

إن النتيجة الطبيعية للانحراف عن مسار القراءة الصحيح هي الطغيان.

تعريف الطغيان:

والطغيان في اللغة، هو مجاوزة الحد، أو القدر المعلوم، ومنه قولهم: طغى الماء، أي: ارتفع وعلا حتى جاوز الحد في الكثرة، وفي القرآن الكريم: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة ١١]. وقولهم: طغى البحر إذا هاجت أمواجه، وطغى السيل إذا جاء بماء كثير. ومن هنا استخدم هذا اللفظ لكل ما تجاوز حده، وخرج عن المعروف، فقول: الطاغية، وهو: الذى لا يبالي ما أتى، يأكل الناس ويقهرهم لا يثنيه تحرج. والعرب تطلق على كل جبار عنيد: طاغية، واشتهر ملك الروم قديما بهذا اللقب لكثرة طغيانه وفساده. والطاغوت: وهو صفة مشبهة تدل على المبالغة في الوصف بالطغيان، ولهذا يطلقه العرب على كل رأس في الضلال. والطغيان: إفراط الاعتداء في حدود الأشياء ومقاديرها.

والخلاصة أن كل تجاوز عن الحد والقدر المعلوم . هو طغيان، فالتجاوز في استخدام المال، أو كسبه، أو إنفاقه: طغيان اقتصادي، والتجاوز في استخدام السلطة: طغيان سياسي... وهكذا.

والطغيان مجاوزة الحد المقبول سواء بزيادة أم بنقصان، فكل انحراف عن حد الاعتدال هو طغيان، وكما يكون الطغيان من القوة فقد يكون من الضعف، وعدم القراءة يؤدي بالإنسان إلى الطغيان. فالأمم التي تقرأ آيات الآفاق والأنفس، وتستثمر نتائج القراءة في بناء حضارتها، ولكنها لا تقرأ آيات الكتاب - هي أمم طاغية كأمم الغرب. والأمم التي لا تتجاوز في قراءتها قراءة أسفار الإنسان، فتعيش رهن التخلف والجمود والضعف - هي أمم طاغية أيضاً، كشعوب العالم الإسلامي. وهذا الطغيان يختلف نوعه في الأمم القوية عنه في الأمم الضعيفة.

والإنسان قد يتجاوز الحد في تعامله مع خالقه، وهذا هو الضلال كما قال تعالى {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة ١٥].

وقد يتجاوز الحد في تعامله مع أخيه الإنسان، فإذا كان التجاوز من الفئة الحاكمة تجاه المحكومين فهو الطغيان السياسي، ويراد به: مجاوزة الحد في الاستكبار والعتو والتجبر والظلم والفساد في الأرض وفي استخدام القوة وعدم مراعاة أسس العدل والحق، كما في قوله تعالى: {ادْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه ٢٤]. أي طغى على الخلق بتكبره وتجبره.

وإذا كان التجاوز من قبل المحكومين . أيضا يسمى طغيان، وهو طغيان الضعف، حين يتخلى عن حقه؛ فالطغيان مجاوزة الحد المقبول سواء بزيادة أم بنقصان، فكل انحراف عن حد الاعتدال هو طغيان، وكما يكون الطغيان من القوة فقد يكون من الضعف، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ {٧} قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ {٨} قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ {٩} وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغُتًا {١٠}) [الصافات: ٢٧-٣٠]. فسمي المستضعفين طاغين، والخطاب هنا من الكبراء

للضعفاء.

وقد يتجاوز الإنسان الحد في تعامله مع الطبيعة وما فيها من أرزاق، ويسمى طغيان، كما في قوله {كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي} [طه ٨١]. قال أبو السعود: "ولا تطغوا فيه أي فيما رزقناكم" (١).

﴿﴾ عدم القراءة الشاملة طغيان

إن عدم القراءة الشاملة طغيان، وهذا الطغيان يؤدي إلى طغيان وينتج طغياناً لدى الإنسان، فتصير حياته مصبوغة بلون الطغيان، مشبعة بطعمه الآسن، وتزكم الأتوف برائحته النتنة، وعندئذ ينطلق تفكيره على أسس الطغيان، ويقيم علاقاته مع الناس على مبادئ الطغيان، وينظر إلى الكون وإلى الحياة بنظرة الطغيان. ومن مظاهر هذا الطغيان . كما في هذه السورة:

١- الطغيان الاقتصادي (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٣﴾)

إن الأرض كلها وما في بطنها من ثروات - عطاء الله ﷻ للإنسان، فهو الذي ملأ جوفها ثروات، فإذا ما سعى الإنسان فيها (نتيجة قراءته لآياتها)، واستخرج ثرواتها، وسخرها في بناء حضارته - كان ذلك أدعى له أن يعرف من وهبه هذه الثروات، وعظمته، ويعرف بالمقابل ضعفه وجهله ونعمة ربه عليه، فيشكره، ثم يسخر هذه الثروات والأموال في عمارة الأرض وبناء الإنسان ونشر الخير والسلام، لا أن يسخرها في حرق الزروع والثمار، وفي شراء الضمائر والنفوس، وفي فرض السيطرة والهيمنة.

إن الإنسان ليطغى طغيانين:

الأول: حين يتبجح بنفسه وعقله، ويقول {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص ٧٨]، وإنما بلغت هذا المبلغ بما أُوتيتَه من عقول وملكات وقوى جبارة، وينسى في وطأة هذه النشوة ربّه الذي وهبه الثروات والأموال، وهبه قبل ذلك العقل والملكات، وهبه فرص الحياة والمعيشة على هذه الأرض.

الثاني: حين يسخر هذه الثروات في نشر الفساد، ومحاربة الحق وأهله، والوقوف في وجه الفضيلة ودعاتها، وهنا ينتج طغيان آخر وهو الطغيان السياسي.

(١) تفسير أبي السعود، ٦٥٤/٣.

ويطغى الإنسان بعد ذلك حين يعميه المال، فلا يرى الدنيا إلا ذهباً وثروات، فيسعى بكل ما أوتى من قوة لاستلاب الذهب الأبيض والأصفر والأسود، وفي حمأة الجشع يبيع كل القيم، ويدوس كل المبادئ، وتلتصق به كل ذميمة من الخصال، كما أوضحت سورة القلم— وهنا لا يبالي ما سيحصل بغيره طالما حصل هو على المال. وما حديث سحق الشعوب واحتلالها وإبادة أهلها واستباحة أموالها، وانتهاك أعراضها، وإذلال رجالها، وتخريب بنائها— عنكم بخاف.

٢- الطغيان السياسي

إن الطغيان الاقتصادي والسياسي توأمان، فكلاهما يقوم على الآخر، وكلاهما يفضي إلى الآخر— وهذا ما يفقهه جميع العقلاء. ولكن للطغيان السياسي بعد آخر، أوضحه د. ماجد الكيلاني في كتابه فلسفة التربية الإسلامية فقال عنه: "الاعتداء على عقول الآخرين وإرادتهم بغية استضعافهم واستعبادهم، وتعطيل أدوات المعرفة فيهم عن الانتفاع بثمار المعرفة، وتجسيد غاياتها الرئيسية، وهي: معرفة الله ﷻ وشكره والسجود له دون سواه، والتمتع بثمار هذه المعرفة في التحرر من هيمنة الأشخاص والأشياء"^(١).

نعم. إن المريض يريد أن يقع الناس كلهم فريسة هذا المرض، وهؤلاء الذين افترسهم الطغيان لا يريدون أن يروا في الأرض من يستعلي على الطغيان وأمراضه الفتاكة، وشعارهم {أَحْرَجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ}[النمل: ٥٦]. ولهذا فإن هؤلاء يسعون في محاربة الصلاح والخير، ويرفضون أن تلعو في الأرض غير راية الطغيان. يريدون أن يستعبد البشر بعضهم بعضاً، فإذا ما جاء من يحرر البشر من هذا الرق، ليوجه طاقاتهم في البناء المثمر، فإنهم يتآمرون ويتحالفون (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ {١} عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ {٢}).

هم لا يريدون أن تتحرر الجباه من عبودية البشر، يريدون أن يستعبدوا الناس، فلهذا ينهون ويؤذون ويحاربون كل من يعبد الله ﷻ ويسجد له، لا يريدون أن يسعى أولياء الله ﷻ لهداية البشرية، أو أن يرشدوا إلى تقوى ربها لكي تحيا حياة كريمة مطمئنة تسودها مبادئ الحق وقيم العدل، وتستظل بظلال الإخاء، وتنعم بروح المساواة، لا يريدون ذلك، فهم على حرب الصالحين قائمون.

٣- طغيان الفكر الاعتقادي

الحقيقة أنه لا توجد عقيدة عند إنسان منعزلة عن واقع حياته، بل الذي يوجد هو عقيدة ومبادئ وأفكار وقيم توجه سلوك الإنسان وتحكم حياته، فيكون سلوكه في هذه الحياة

^(١) ص ٢٣٧.

هو انعكاس لما يحمل من عقيدة. ومتى وجد انفصام بين العقيدة والسلوك فإن العقيدة مغشوشة، والإنسان يخدع نفسه حين يزعم أنه معتقد بهذه العقيدة، أيها الإنسان لا تقل لى بأنك مسلم ولكن افعل فعل المسلم، إن سلوك الإنسان هو دليل عقيدته، ومقياس إيمانه. فإذا زعم إنسان بأنه مسلم ثم انطلق في الحياة يعمل بعمل غير المسلم، فإنه يخادع نفسه في دعواه بأنه مسلم، إن بين جنبيه عقيدة أخرى فليبحث عنها، وليفتش في ركام فكره لينظر أى عقيدة يحمل.

إن الإنسان الذى يقدر الله ﷻ في قلبه سيقدره في حياته، وسيجعله الهدف الأكبر في حياته، وسيسعى في الوصول إليه بكل وسيلة. والإنسان الذى يقدر المال في قلبه سيقدره في حياته، وسيجعله الهدف الأكبر في معاشه، وسيسعى في الوصول إليه بكل وسيلة، وكذلك الذى يقدر الجاه في قلبه، وكذلك الذى يقدر أحكام المجتمع في قلبه، وكذلك الذى يقدر زعيماً أو صنماً أو... الخ. لا نعرف إنساناً يقدر الله ﷻ في قلبه ثم لا يجعل له في حياته نصيباً، ولا نعرف إنساناً يقدر ديناً في قلبه ثم لا يهتم به في حياته. وهذه دعوة شاملة ليراجع كل منا عقيدته.

ومن هنا فإن الإنسان الذى يطغى في حياته الاقتصادية أو سياسته، أو في حياته الاجتماعية - إنما يصنع ذلك؛ لأن عقيدته قد أصابها الطغيان، فانعكس هذا الطغيان على الواقع. يكذب ويرتشى ويأكل الحقوق ويظلم ويخون ويغدر ثم يصلى ويزعم أنه يؤمن بالله ﷻ. يببى الحرث والنسل، ويعتدي على الأعراض، ويحتل الشعوب ثم يمك بيده الإنجيل ويزعم أنه يؤمن بالله ﷻ. يعيش فى خنوع وضعة وضعف وذلل، ويرضى بالظلم والضيم والقهر ثم يصلى ويزعم أنه مسلم.

لهؤلاء المكذبين جميعاً أتوا عليهم (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) {١٣} أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) {١٤}، لقد غاب الله ﷻ عن قلوبهم فلم يروه في حياتهم، ولم يعلموا بأنه يراهم، وزعموا أنهم يعلمون، فتولوا عنه وأدبروا.

خامساً: جزاء الطغيان

(كَلَّا لَمِنَ لَّمْ يَنْتَه لَسْفَمًا بِالنَّاصِيَةِ) {٥} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، {٦} فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) {١٧}

(١) كشفت الأبحاث العلمية مؤخرًا أن المنطقة الجبهية الأمامية (الناصية) هي المسؤولة عن إدارة وظائف معينة في الدماغ تقع في جهة الجبهة من الجمجمة، فهذه المنطقة مسؤولة عن التخطيط، وعن الدوافع الصالحة والخاطئة، وعن قول

سَدَّعُ الرَّبَّانِيَّةِ {٨}. "الإدبار عن الله ﷻ أنواع: إدبار أفراد، وإدبار أمم، وإدبار حضارات. والإصرار على هذا الطغيان والإدبار وعدم الانتهاء عنه جزاؤه سفع الناصية. والسفع هو القبض على الشيء وجذبه بشدة، ثم ضربه ولطمه. وناصية الفرد هي جبهته التي تشمخ عند الطغيان، وناصية الأمة هي شرفها القومي التي تتعالى به على بقية الأمم، وناصية الحضارة هي قمة إنجازاتها التي تفاخر بها وتستغلها لفرض طغيانها على الآخرين. فهذه النواصي كلها حين لا تسجد لله ﷻ ولا تشكره على ما يمدّها من معارف وتطبيقات، وتحرف بالمعرفة عن غاياتها الإلهية، فإنها تتصف بصفتين اثنتين: "كاذبة" أي: زائفة فكراً وثقافة، و"خاطئة" أي: منحرفة تطبيقاً وممارسة، إن المعرفة التي تفرز مثل هذين المرضين: مرض الزيف (أي سوء الهدف)، ومرض الخطيئة (أي سوء الوسيلة والتطبيق) – تصطدم بسنن الله ﷻ في الحياة وتنتهي بأهلها إلى الدمار والشقاء"^(١).

والسفع بالناصية ليس بالأمر الهين لأمرين:

الأول: أن السفع بالنواصي وهو أشد الأخذ – عقاب شديد، ومواجهة شديدة وستكون الكبوة فيها أليمة، ذلك أن أعظم عقوبة تفعلها مع إنسان هو أن تمرغ كرامته، ولا أشد من السفع بالناصية في تمرغ الكرامة وسحقها وإذلالها. والذي يطغى ويتولى عن ربه ويشمخ بناصره كبراً واستعلاء على الله ﷻ – يستحق هذا الجزاء المهين.

الثاني: السفع بالناصية شديد، ولكنه يكون أشد حين يأتي من القوى الشديد الجبار المتكبر. ومهما كان مع هذا الإنسان من أعوان وتحالفات – فإنها لا شيء أمام زبانية الجبار. إن هؤلاء الذين يستغنون بجموعهم وسلطانهم وأموالهم لهم مواجهتان، أما الأولى ففي الدنيا حين يتولى مواجهتهم الجبار (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ {١٧} سَدَّعُ الرَّبَّانِيَّةِ {٨}). وأما الثانية ففي الآخرة حين تتبخر أحلامهم، وتنتثر مخططاتهم، فما تغنى عنهم تلك الأموال أو الجموع شيئاً (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَابِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) [الأعراف: ٤٨] فاجمع جموعك أيها الطاغى، وادع نواديك وحلفاءك – فإنها كلها إلى شلل وانحطام.

الصدق والكذب. ولم يكتشف العلماء وظيفة هذه المنطقة إلا في الستين سنة الأخيرة، في حين أشار القرآن قبل أربعة عشر قرناً بكل وضوح إلى أن الناصية هي المسئولة عن مثل هذه التصرفات، ولهذا وصفت بأنها كاذبة خاطئة. [ينظر: المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ص ٥١].

^(١) فلسفة التربية الإسلامية، د. ماجد الكيلاني، ٢٣٧-٢٣٨.

العلاقة بين القراءة والطغيان

حين يوجد المجتمع الإنساني القارئ . بمعنى القراءة الشامل الكامل . يتضاءل الاستبداد، وينتقزم رجاله، ويصيبهم الضمور والانخناس؛ فهم كالخفافيش لا يعيشون إلا في ظلمات من جهالة الناس، ولا ينتعشون إلا في غفلة من معرفة الآخرين. فالخلاصة أن هناك علاقة عكسية بين القراءة والطغيان، هذه العلاقة يبينها الجدول التالي:

الطغيان	القراءة
والطغيان هو الأساس الأول للاستعباد والإفساد	القراءة هي الأساس الأول للتغيير والإصلاح
والطغيان يحجب الناس من الاستضاءة بأنوار المعرفة	القراءة تعطي الناس الأنوار التي يستضيئون بها في مواجهة الطغيان
والطغيان يرفع المقربين والمستبدين والجهلة، ولا يوجد عنده معيار الكفاءة في قيادة الناس	القراءة ترفع ذوي الكفاءات بكفاءاتهم، وتجعلهم القادرين على قيادة المجتمع
والطغيان يمنح الظالم فرصة طويلة للاستبداد، ولا يجد من يحاسبه أو يسأله	القراءة تمنع الشعوب القارئة من الرضا بالظلم، والإذعان للظالم. وتدفعها إلى محاسبته ومساءلته
والطغيان مفتاح الانحدار الحضاري، والتخلف والجهل، والعجز عن اللحاق بركب الحضارة	القراءة مفتاح الرقي، وجسر التواصل الحضاري

سادساً: ما واجب المؤمن بربه تجاه طغيان العصاة؟

{كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} (١١). إن المؤمن عليه واجبان، واجب ترك (لا تُطَعُّهُ)، وواجب فعل (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ).

أما واجب الترك، فهو مخالفة الطغاة وعدم الانصياع لهم، ونبذ مناهجهم، ورفض قراءاتهم المبتورة، وكل ما قام عليها من انحراف، إنها صرخة إلهية للمؤمنين "لا تطعه"؛ ذلك أن المنحرفين قد كذبوا بربهم وتولوا عنه، ولم يقيموا له وزناً، وفسفوا حياتهم وفق قيم خاطئة، وتصورات منحرفة، و خلعوا عبادة القيم والأخلاق واستبدلوا بها عبادة المنفعة الذاتية والعظمة الشخصية، وأفسدوا فى الأرض وعاثوا فيها واستبدلوا بخيراتها، واستسلموا لأهواء شخصية، وقوانين بشرية تحل لهم وتحرم، ورموا دين الله ﷺ عن قوس واحدة، ونهضوا لمحاربتة، واجتثات أصله.

إن واجب الترك يعنى المخالفة التامة والمفصلة الكاملة لكل مناهج الطاغين الذين أصيبوا بداء الطغيان - ولكل مبادئهم المنحرفة، ولكل سلوكياتهم المعوجة. وهذا الواجب سيهذب روح المؤمن، ويصفى فؤاده، ويطهر حياته حتى تصفو للخالق العظيم، وعند ذلك يكون مؤهلاً للواجب الثاني.

واجب الفعل: السجود والاقتراب

السجود لله ﷻ يعنى الطاعة المطلقة له، والاقتراب منه يعنى المعرفة الحقيقية للرب العظيم - وطريق السجود والاقتراب هو القراءة الشاملة لآيات الله ﷻ فى كتابه وفى الآفاق والأنفس، ونتاج هذه القراءة تفاعل إيجابى مع الحياة، ورؤية عميقة للواقع، واقع الخلق، ثم انتشار فى الأرض لزرعها وعمارتها بالصلاح، وارتباط مقدس وراء ذلك كله بالخالق العظيم، ويقين بوجوده وحضوره، ثم الرجوع إليه ومحاسبة الإنسان على سعيه. فالقراءة الشاملة التي باسم الرب العظيم . إذن . هي المدخل الأساس للوقوف في وجه الطغيان، وهي المدخل الحقيقي للإصلاح والتغيير، وهي اللبنة الأولى في طريق النهوض الحضاري. وبهذه القيم يحيا الإنسان إنساناً لا حيواناً، إنساناً يعيش سعيداً، ويخلق فى الآفاق العليا بمثله ومبادئه.

تفاعل الإنسان مع المعرفة (سورة القلم)

خلق الله ﷻ الإنسان وأعطاه أشياء لا حصر لها ولا عد، في نفسه أولاً، ثم في مجتمعه، ثم في حياته. فمما أعطاه في نفسه وسائل المعرفة (السمع والبصر والعقل، والكلام، والخط)، ومما أعطاه في مجتمعه وسائل التفاعل الاجتماعي (التزاوج والتناسل والعلاقات والمعاملات و...)، ومما أعطاه في حياته وسائل العمارة - عمارة الأرض. ولا يمكن حصر هذه المعطيات والنعم الإلهية على الإنسان، ولكننا نقف على محور القضية. إن هذه المعطيات سيتفاعل معها الإنسان، فيؤدي به تفاعله إلى نتائج، فإن كان تفاعله معها صحيحاً قاد ذلك إلى نتائج صحيحة، وإن كان سيئاً قاد ذلك إلى نتائج سيئة. فالقاعدة إذن هي: (معطيات + تفاعل الإنساني = نتائج).

وهذه قاعدة مطردة:

❖ معطيات + تفاعل إنساني صائب = نتائج صحيحة.

❖ معطيات + تفاعل إنساني خاطئ = نتائج خاطئة.

ومن هنا يتضح دور العقيدة والقيم والمبادئ في حياة الإنسان، فهي التي تحدد تعامله، وهي التي توجه سلوكه، ومن ثم فهي أساس نتائجه.

وسلوك الإنسان إذا قام على مبادئ الحق وقيمه وتوجيهاته، فإن القرآن يسميه

(سجوداً)، **إن السجود بمفهومه العام يعني: خضوع الإنسان لربه، ونبذ من عداه،**

والانكباب بين يديه وحده، فمنه يأخذ منهجه ويستمد قيّمه، ثم ينطلق في محراب

الحياة ساجداً خاشعاً لله ﷻ لا يرفع وجهه إلى غير الله ﷻ، ولا ينصرف قلبه عن الله

ﷻ، وبذلك يتفكّ مع نواميس الكون، ومع الفطرة البشرية، فكل ذرات الكون

ساجدة لله ﷻ {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلالُهُ عَنِ اليمينِ وَالشَّمَائِلِ سُجّداً

لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٤٨-٤٩].

وهذه السورة تؤكد هذا المفهوم حيث يقول تعالى (يَوْمَ يُكْفَتُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى

السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ {٤٢})، فهؤلاء قد رفضوا طاعة الله ﷻ وعبادته وانتهج منهجه في

حياتهم، وبمعنى آخر: رفضوا السجود لله ﷻ، رفضت قلوبهم وعقولهم أن تسجد لله ﷻ في

الدنيا، فلن تطاوعهم أجسامهم بالسجود في اليوم الآخر. ولا يكون الإنسان من الساجدين

حتى يسجد قلبه وعقله ووجهه بين يدي ربه، ولا يغني أن يسجد الوجه لله ﷻ، والعقل يسجد

لغيره، والقلب يسجد للدنيا، ويدعى أنه من الساجدين المسلمين. فالسجود هو المقترضى

الطبيعي للمعرفة الصحيحة، والنكوص عن السجود يعني أن المعرفة مختلة الأصول، زائفة الأركان.

وسورة القلم جاءت لتكشف للإنسان معالم هذه القاعدة حتى يكون على بينة من أمره في الحياة. ويتبين لنا أهمية الكشف عن هذه القاعدة بعد أن تبين لنا أصول المعرفة، فالمعرفة الإنسانية تنتج حركة، وتولد تفاعلاً مع معطيات الحياة، وهذا التفاعل خطير جداً؛ لأنه يحدد صورة النتائج القائمة في الحياة. فكان لا بد من وقفة مع هذا التفاعل وترشيد مساره، وبيان خطورة انحرافه كما بينت سورة (اقرأ) أصول المعرفة، وأدلتها، وموجهات مسارها، وخطورة الانحراف عنه. وقد تحدثت السورة عن: دور القلم في تسطير المعرفة، ثم قوانين التعامل مع النعم، ثم نماذج أخطأت في التعامل مع النعم (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)، ثم قانون العذاب (كَذَلِكَ الْعَذَابُ)، وأخيراً حرب الاستدراج لهؤلاء الذين يسيئون التعامل مع نعم الله ﷻ أو آياته.

القلم وتسطير المعرفة

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ})، بدأت السورة بالقسم بالقلم وما تسطره البشرية من معارف، وما تخزنه من علوم ثم تنقله من مكان إلى مكان ومن جيل إلى جيل. والقسم بما يسطره القلم له دلالاته، حيث إن المعرفة الإنسانية ما لم تتصف بصفة الحركة والانتقال، وتتسم بالديمومة والاستمرار. فإنها تبور، ووسيلة حركة المعرفة هو القلم بمفهومه العام - وهو ما يسطر المعارف سواء أكان قلماً من الرصاص أم من الإلكترون. والكلمة عموماً هي وسيلة الإنسان لنقل فكره إلى من سواه، سواء أكانت الكلمة مكتوبة أم منطوقة، فدورها خطير جداً في توجيه المسار الفكري، وفي التغيير الجذري لدى الناس.

والسؤال الذي يوضع نفسه: ما علاقة القلم والكلمة بالتفاعل مع الحياة؟ والجواب أن التفاعل مع الحياة معرفة ذات ثلاثة أبعاد، فهو ينشأ عن معرفة وهي الأصول الأولى، ثم إن التفاعل في ذاته معرفة وتخزن لدى الإنسان تجارب هائلة، ثم يُنتج هذا التفاعل معارف وتطبيقات يفيد منها، وهذه الأبعاد المعرفية الثلاثة هي المعنى الحقيقي للإنسان، فإذا أردت قراءة صحيحة لأي جيل من أجيال البشرية، فاقرأه في ضوء هذه الأبعاد:

أولاً: ما القيم والمبادئ والموجهات والعقائد التي ينطلقون في ضوءها، ويتحركون بتوجيهها.

ثانياً: كيف تفاعلوا مع معطيات الله ﷻ في الحياة؟

ثالثاً: ما الإفرازات القيّمية والتطبيقات العملية التي أنتجها هذا التفاعل؟

وأنت تدرك أنه لا يمكن قراءة هذه المعارف إلا من خلال ما سطرته أيديهم وخلفوه
لغيرهم، وبعد ذلك نصل إلى الغاية المنشودة، وهي الاستفادة من تلك المعارف عن طريق
مرحلتين:

المرحلة الأولى: القراءة التقييمية، فننزل معارفهم في ضوء القيم والمثل العليا، وفي
ضوء التجارب التاريخية حتى نصل إلى الصحيح وإلى الخطأ ونميز كلا منهما.

المرحلة الثانية: التطبيق الواعي والبناء على صحيح المعارف، ورفض خطئها، ونبذ
سقيمتها.

وهكذا يتفاعل الإنسان اللاحق مع تفاعل الإنسان السابق، ويكون اللاحق امتداداً
للسابق، فلا فجوات ولا قطيعة، وإنما هو التواصل والامتداد منذ أن خلق الله ﷻ آدم ﷺ
حتى تقوم الساعة. ومن المعلوم أن القرآن الكريم قد خلف لنا تجارب القرون الأولى، ونقل لنا
كثيراً من العبر والحكم في طيات تلك التجارب، كما أن الأرض حفظت لنا كثيراً من آثارهم،
والقرآن الكريم طلب من الإنسان مراراً وتكراراً أن يسير في هذه الأرض فينظر في آثار
السابقين ويصل إلى العبرة. والبشرية اليوم قد قطعت أشواطاً في قراءة معارف تلك القرون
ومعارف الأجيال الغابرة، ولكن هذه المعرفة مازالت بكرة فلم تلح بعد بالتطبيق، والاستفادة من
الصحيح والخطأ.

مقدمة عامة في النعم [من آية: ٢ إلى: ٩]

تناولت المقدمة ثلاثة محاور، موقف رسول الله ﷺ من النعم، والضلال والاهتداء،
ووجوب مخالفة من فسد عقله.

المحور الأول: موقف رسول الله ﷺ من النعم

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ {٢} وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ {٣} وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقٍ
عَظِيمٍ {٤})، رسول الله ﷺ بوصفه إنساناً مثالياً يمدحه الله ﷻ، حيث وقف من نعمة ربه
الموقف الصحيح، وتعامل معها التعامل السوي، والآيات تثبت له أمراً وتتفي عنه آخر،
وتبشره بأمر. أما ما تتفيه عنه فهو كفر النعمة، واستخدام القرآن لفظ (الجنون) حيث نفى الله
ﷻ عن رسوله ﷺ الجنون، والجنون: زوال العقل أو فساد فيه، والمجنون من أصيب عقله
بذلك. والمجنون لا يستطيع أن يتعامل تعاملًا صحيحاً مع نعم الله ﷻ لوجود الانقطاع بين
الوسيلة (العقل) والنعمة إما بزوال أو فساد. ومن المعلوم أن الله ﷻ قد نفى عن الكفار صحة
العقل {صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فُهُمٌ لَا يَمْعَلُونَ} [البقرة: ١٧١]، وهم أنفسهم سيقولون: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠]. إذن فالجنون هو التعامل الخاطئ مع نعم الله ﷻ.

وأما ما تثبته الآيات للرسول ﷺ فهو الخلق العظيم. والجنون في الآيات مقابل

الخلق العظيم، حيث ثبت الثاني للرسول وانتقى الأول، وإذ عرفنا بأن الجنون هو التعامل الخاطئ مع نعم الله ﷻ، فإن الخلق هو التعامل الصحيح مع نعمه، وهو مراتب وأعلى هذه المراتب ما وصل إليه رسول الله ﷺ، ولهذا وُصف بأنه على خلق عظيم، وأمر الله ﷻ المؤمن بالانتساء به: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب ٢١].

وأخيراً فالبشارة العظيمة جاءت بالأجر غير الممنون. والأجر غير الممنون، كما يقول المفسرون هو غير المقطوع. والرسول ﷺ حصل على هذا الأجر جراء ما سبق ذكره، وهو ابتعاده عن الجنون واتصافه بالخلق العظيم. ومن كان كذلك فإن له من الأجر عند الله ﷻ ما لا ينقطع، أجر كبير في الدنيا بالتوفيق والبركة والطمأنينة والسعادة والنجاح والإنجاز والإنتاج والنصر والتمكين والمحبة والاحترام والتقدير... وفي الآخرة لهم جنان النعيم. إنه أجر مستمر لا ينقطع، يستوى في هذا الأجر أن يأخذ بما يستوجبه إنساناً أو أمة.

المحور الثاني: الضلال والاهتداء

{فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ} {بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ} {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، بُعد آخر من أبعاد التعامل مع نعم الله ﷻ ومعطيات الحياة، ذلكم هو الضلال عن السبيل الصحيح والوقوع في فتنة الخطأ، ويقابله الاهتداء إلى السبيل الصحيح والسلامة من الفتنة. نعم. يدعى كل الناس أنهم على الحق، ويزعم كلُّ أنه على الجادة وأن غيره على الخطأ، ولا ضير فليدع كلُّ ما شاء، ولكن المعايير لا تقوم على الدعاوى وإنما تقوم على البيّنات.

ولقد جاء القرآن ودعا إلى الإنصاف في هذه المسألة، وكان يناقش الكفار ويطلب منهم البراهين، فيدع لهم فرصة في إبداء الرأي {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل ٦٤]، وبهذا المنطق دعا القرآن أمة الإسلام أن تواجه الكفار {وَأَيُّكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: ٢٤-٢٦]، وفي آخر الملك {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الملك ٢٩]، {قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ} [طه ١٣٥] إلى غير ذلك من الآيات. وفي سورة القلم نجد هذا واضحاً {فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ} {بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ}، أي سيتبين للجميع من هو صاحب الفتنة، الذي ضل عن السبيل، ومن هو صاحب العصمة الذي اهتدى إلى درب السوي، "قال ابن عباس: بأيكم المفتون، أي المجنون"^(١).

(١) تفسير ابن كثير ١/٨/١٥١، المكتبة التوفيقية.

فالمحور الأول جاء ليثبت أن الاهتداء بهدى الله ﷺ في التعامل مع معطيات الحياة هو الخلق العظيم، وأن النكوص عنه هو جنون، والأجر كل الأجر لمن اهتدى، ثم جاء المحور الثاني ليدعو الناس إلى التبصر والتعقل حتى يعلم أى المنهجين - منهج الله ﷺ أم منهج الشيطان - هاد إلى الحق، وفيه وعد من الله ﷺ ببيان ذلك فهو أعلم بالضال وبالمهتدي.

المحور الثالث: وجوب مخالفة من فسد عقله

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَذُوا لَوْتٍ مُّذَاهِبٍ ﴿٩﴾)، وهنا تفتح الآيات بعداً عميقاً، وهو وجوب مخالفة من فسد عقله فضل عن سبيل الحق، فوقع في إثم التكذيب والجدود والعداء، وتأمل حرف الفاء في قوله (فَلَا تُطِعِ)، أي: فطالما عرفت ذلك عن المهتدي وعن الضال إذن لا تطع هؤلاء الضالين المكذبين، وتتبى الآية عن دخائل نفوسهم الهشة القائمة على الزور (وَذُوا لَوْتٍ مُّذَاهِبٍ ﴿٩﴾)، (قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخسون، وقال مجاهد: لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق) ^(١).

إذن فهم يتمنون أن يلين لهم المسلمون ويصانعوهم ويجوزوا لهم أعمالهم، ويتغاضوا عن جرائمهم، ويتركوهم في لهوهم سادرين وفي باطلهم منهمكين. والقول الفصل في المسألة هو كلام الله ﷻ، وهو يقول (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾)، والمكذبون كل من ضل عن السبيل، وأخطأ في التعامل مع نعم الله ﷻ - فيجب على المسلمين مخالفتهم وعدم طاعتهم وعدم مدهنتهم.

ومن خلال الآيات نعرف أنه يطلق على من يتعامل خطأ مع معطيات الحياة ألفاظ: مجنون، مفتون، ضال، مكذب، ويطلق على من يتعامل تعاملأ صحيحاً معها - ألفاظ: على خلق عظيم، مهتدي.

(أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينٍ) [من آية: ١٠ إلى: ٣٢]

المال إشارة إلى كافة وسائل الغنى وأسباب الرخاء، والولد إشارة إلى كافة وسائل القوة والشرف والرفعة؛ حيث إن المرء يزداد ببنية قوة ورفعة وفخرا. وهذا الحكم ينطبق على الدولة كما ينطبق على الشخص، فالدولة تزدهر وتتعتش بثروتها وأموالها، كما تقوى وتتمكن بجنودها وأعدادها.

والمراد أن هاتين نعمتين - من معطيات الله ﷻ في حياة الإنسان، والإنسان بتعامله معهما يحصد النتائج، فمن يتفاعل إيجابياً مع هذه النعم فإنه يزداد معرفة بربه، ومن

^(١) المرجع نفسه.

يتفاعل سلبياً معها وإنما يزداد بعداً عن ربه. والآيات هنا تعرض نموذجين لذوى التعامل الخاطئ، وتبرز إفرزات هذا التعامل ونتائجه.

النموذج الأول: صاحب الخرطوم (العنل الزنيم)

{هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنِيمٍ} {مَتَاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدٌ أَتِيمٍ} {عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ} {أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} {إِذَا تَمَتَّلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} {سَنَسِيهُ عَلَى الخُرطومِ}.

صاحب الخرطوم كناية عن صفة الغرور والتعالى، فالإنسان إذا اغتر وتعالى شمش بأنفه، ورفع عاليًا، والعرب تمدح الشريف بأنه أشم الأنف، كناية عن العزة والأنفة، قال كعب بن زهير يمدح رسول الله ﷺ وقومه:

شَمُّ العَرَانِينَ أَبطالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسِجِ داوُدَ فِي الهَيْجَا سَرَابِيلُ

أى رافعوا الأنوف، ولا يزال يطول الأنف حتى يصبح خرطوم فيل، وعندئذ يكون المرء فى عالم مترامٍ من غروره وكبره، ولا ينفعه عندئذ إلا وسمٌ وكى لهذا الخرطوم حتى يعتدل، والوسم يكون بنزع ما استكبر به، وخفض ما استعلى به، فيعود ذليلاً خانعاً، وتقول العرب له: قد جُدِعَ أنفه.

وصاحب الخرطوم يطول خرطومه باستكباره وتعالیه؛ نتيجة لخطأ فهمه، ومن ثم تعامله الخاطئ مع نعم الله ﷻ، ومنها المال والولد. فإذا رزقه الله ﷻ بالمال والولد - ظن أن ذلك لمكانته عند ربه {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [الفجر ١٥]. فذهب يتعالى على الخلق، ويرى أن الأرض لم تخلق إلا له، ولا تتسع لأحد سواه، يرى الناس كلهم فتراشاً وهو الصقر الكاسر، أو ذباباً وهو النسر الطائر، ومن ثم ينحط إلى أركان سحيقة فى التعامل مع الناس وفى التعامل مع آيات الله ﷻ.

ففى تعامله مع الناس، نجد أن قوله ذميم وفعله ذميم، فلسانه حلاف هماز نام - وهذه الأخلاق الذميمة دالة على حقارته ومهانته وضعته وشعوره اللارادى بالنقص. وأما أفعاله فهو أولاً يمنع الخير عن الناس لا وجود لهم بأي خير، وحتى لو سمحت يده بخير فإنه لا يضعه إلا حيث يرى أنه سيعود إليه أضعافاً مضاعفة بطرق من الختل والخداع، وشعاره "الغاية تبرر الوسيلة".

وهو لا يكتفى بمنع الخير، بل يعتدى على الناس وعلى حقوقهم وأموالهم وأعراضهم، يرى أنه الأقوى ولا أحد يستطيع رده فى الأرض، فيعتدى على أمم وأقوام مستيحيًا أعراضهم ودماءهم وديارهم، يدوس كل القيم والمبادئ تحت قدميه، والغا فى الإثم لما يعمل به بالناس. والآيات تكشف عن نفسية هؤلاء، أنهم أغلظ الناس قلوباً، وأحطها أخلاقاً، قال تعالى {عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ}، (عتل) إشارة إلى غلظ القلوب وجفاء الطباع ووحشية

النفوس وانتزاع الإنسانية، و(زنيم) إشارة إلى دناءة الأخلاق وانحطاطها. وتأمل لفظ (بعد ذلك)، أي بعد ما تقدم من أخلاقهم نجد تأصل هاتين الظاهرتين فيهم (عتل زنيم).

وفى تعامله مع آيات الله ﷻ نجده جاحداً مكذباً مستهزئاً بها ساخراً منها، مسخراً أمواله لمحاربتها ومحاربة أهلها، يدعى بأن هذا كلام البلهاء، وأنه قد مضى زمن التوحيد والدين، وأن الدين إنما هو نتاج أساطير الأولين، وما شعروا به من خوف وضعف أمام ظواهر الكون الغريبة، فاتخذ الناس لهم آلهة تعبد، ثم تطور الأمر إلى إله واحد... إلى آخر ترهات المبطلين الأفاكين الذين أعماهم المال والعدد عن رؤية الحق، فعموا حتى طالت خراطيمهم، وليس لها من دواء إلا اللوسم.

وفى هذه الآية وعد من الله ﷻ بأنه سيسم خراطوم العتل الزنيم بإذلاله وإهانته فى الآخرة، وكذلك فى الدنيا وفق سننه وقوانينه. وكم من أمة طال خراطومها واستطال حتى ظنت أنه لن يوسم فإذا بنيران الله ﷻ تسمه وتجدهه. وحتى يوسم كل خراطوم طويل فلا بد من أن يعمل المسلمون ويدأبوا ويستعينوا بربهم فيسبهم بهم خراطيم الطغاة والبعاة.

النموذج الثاني: أصحاب الجنة

(إِنَّا بَلَوْتَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٣٠﴾) إلى قوله تعالى (عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّمَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣١﴾).

خلق الله ﷻ الإنسان وخلق له جميع مقومات الإنسانية من حياة ووسائل المعرفة وسبل الحياة، ثم خلق له ما فى السماوات وما فى الأرض، {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّمَّا} [الجاثية ١٣]. وأمره أن يعمل فيما خلق له وفق ما يريد من خلق، وابتلاء الله ﷻ بهذا الأمر لينظر أيتعامل التعامل السوى فيهددي، أم التعامل الغوي فيشقى، وهذا هو مفهوم الابتلاء.

ويضرب الله ﷻ لذلك هذا المثل، قوم خلقهم الله ﷻ وأعطاهم الجنة (البستان العظيم)، وأمرهم أن يعملوا فيها كما يريد خالقهم، غير أنهم أساءوا عملاً فيما أعطاهم ربهم، حيث عزموا على أن يمنعوا الفقراء حقوقهم فى هذا المال، وبخلوا على الله ﷻ بما أعطاهم الله ﷻ، وخططوا ودبروا فى ليلهم أن يغدوا إليها مصبحين (فانطلقوا وهم يتخافتون ﴿٣١﴾ أن لا يتخللنها اليوم عليكم مسكين ﴿٣٢﴾)، ولكن عاقبهم الله ﷻ فنزع منهم ما أعطاهم (فطاف عليهما طائفت من ربك وهم نائمون ﴿٣٣﴾ فأصبحت كالصريم ﴿٣٤﴾).

نعم . هم خططوا ودبروا، ولكن عندما وصلوا إلى جنتهم ورأواها قد احترقت ظنوا أنهم أخطأوا الطريق فما الذى أحرقتها وقد تركوها خضراء مهتزة، (فلما رأوها قالوا إِنَّا

لضَالُونَ {٦}، غير أنهم رجعوا إلى أنفسهم، وبدأوا في التفكير الصحيح، وأدركوا فداحة جرمهم، وشعروا بأنهم قد فقدوا هذه النعمة (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ {٧})، وقد كان فيهم رجل رشيد نيههم إلى خطأ صنيعهم، وأنه سيؤدى بهم إلى الحرمان، ولكنهم لم يستمعوا إليه (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ {٨})، وعندما ذكرهم رجعوا فاستغفروا ربهم ولكن بعد فوات الأوان وزلة القدم، واعترفوا بظلمهم وطغيانهم (قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ {٩}) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ {١٠} قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ {١١}). وتأمل قوله "يَتَلَوْمُونَ" كيف نجد هؤلاء وهم فى جنتهم المحروقة لا يكادون يصدقون وبعضهم يلوم بعضا، وكل يتهم الآخر، ولكن هيهات.

والجنة هنا . كما يقول د. ماجد الكيلاني^(١)، **هي رمز للممتلكات ومصادر الثروة**

الوافرة التى هى إحدى مظاهر الابتلاء بـ(الخير)، وهو رمز يختلف نوعه باختلاف الأزمنة والأمكنة، فهو فى الطور الزراعى مزارع "بساتين"، وهو فى الطور الصناعى معادن ومصانع وشركات وبنيان، كذلك يختلف حجمه من مكان إلى مكان، فقد يكون بستاناً أو مزرعة خصبة أو بلداً مزدهراً يتطلع المعوزون للاستفادة من فرص الحياة فيه، أو قارة تموج بالخصب والازدهار وتتطلع البلدان لمعونتها ومساعدتها، فإذا أغلق أهل البستان أو المزرعة أبوابهم، وتداعى أهل البلاد والقارات المزدهرة إلى الاستئثار بما ابتلوا به من (الخيرات) وأغلقوا حدودهم أمام المحتاجين من العمال والفقراء فى البلدان الأخرى - هنا يطوف عليهم (طائف الرب) فى شكل كوارث طبيعية أو اضطرابات اجتماعية، أو فتنة طبقية، أو حرب مدمرة، أو تضخم فى الاقتصاد، أو كساد فى الأسواق، أو خراب فى الإنتاج، أو غزو، ويكون نتيجة ذلك كله رحيل الازدهار والثروة إلى أسر أخرى أو بلدان أخر، أو قارة أخرى، لتبدأ دورة أخرى فى الابتلاء.

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ) [من آية: ٣٣ إلى: ٤٣]

عذب الله ﷻ هؤلاء بالحرمان من النعمة التى أوتوها لما أساءوا العمل فيها، وكذلك يعذب الله ﷻ كل من أساء العمل فى نعمته بحرمانه منها. والكفار لما أساءوا إلى عقولهم فلم ينفكروا بها حرموا منها "فهم لا يعقلون". والقوم الذين آتاهم الله ﷻ نعماً عظيمة، حيث مكن لهم فى الأرض عندما أحسنوا العمل فى نعم الله ﷻ، ولكن لما أساءوا عذبهم الله ﷻ فحرمهم من تلك النعم، ذلوا وهانوا واستبد بهم أحقر الناس. والرجل الذى يعطيه ربه مالاً فيسئ العمل فيه بألا يعطى حق الله ﷻ أو يسخره فى حرب الله ﷻ فإنه يحرم من ماله ويحرم من طعم السعادة فى ماله... وهكذا.

(١) د. ماجد الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٨٠.

{٣} (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وكذلك من وهبه الله ﷺ نعمة الحياة في الدنيا فأساء استخدام حياته، ولم يؤمن بربه فيها، ولم يجعلها مزرعة لآخرته، فإنه سيعذب في الآخرة بحرمانه من الحياة {لَئِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ} [طه ٧٤]، ويحرم من وسائل المعرفة التي آتاه الله ﷺ ليتوصل بها إليه {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه ١٢٤]. فهو عذاب أكبر من أي عذاب؛ لأنه عذاب سرمدى وحرمان أبدي من كل راحة ونعيم، بينما نجد أن من أحسن عملاً فيما آتاه الله ﷺ فإن له الراحة والنعيم {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ} {٣}.

وإذا قرأنا الآيات ثانياً فسوف نجد هذه الألفاظ "إنا لظالمون، إنا كنا ظالمين، إنا كنا طاغين" ضلال وظلم وطمغيان، ضلال عن سبيل الحق، وظلم يفسد المجتمع، وطمغيان يفسد النفس، ويعمى القلب. وكلها ألفاظ تطلق على من يخطئ في التعامل مع معطيات الحياة، وتلحق بقاموس: المفتون والمجنون. ويجب أن نوضح أمراً مهماً، ذلك أن الطغيان في التعامل مع شئ واحد هو طغيان، كما أن الطغيان في التعامل مع أشياء كثيرة هو طغيان أيضاً.

فالطمغيان إذا دخل القلب أفسده، فننقلب عنده المعايير، وتتبدل لديه

الموازين، وتعمى بصيرته عن رؤية الحق، وبذلك لا يعود صالحاً للبقاء، بل يتحتم عليه الزوال والاممءاء. وبالتالي سيصاب في الدنيا بالنكد والضيق والظنك والخذلان والتيسير للعسرى، وفي الآخرة لا تتكفل به سوى جنهم، ففيها شقاؤه، وفي لفحها دواؤه. وطمغيان أصحاب الجنة قد لا يكون -عند النظرة الأولى- أكثر من منع زكاة، لكن الطامة أن هذا داء تسلل، فإن لم يسع صاحبه للدواء فإنه الهلاك في الدنيا، وإن ظن أنه قد استمتع في الدنيا فهو البوار في الآخرة.

❖ أي الفريقين خير مقاما؟

من خلال ما سبق نرى سنن الله ﷻ وقوانينه، فلا يستوى من أحسن العمل واهتدى، ومن أساء وضل وطمغى، لا يستويان في العمل ولا يمكن أن يستويا في الجزاء، هذا حكم الله ﷻ، ومن ادعى حكماً غيره فعليه البرهان، {أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} {٣} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} {٣}.

وهؤلاء الذين يدعون غير ذلك ممن طغوا واستكبروا في الدنيا، ثم يظنون أن لهم كل كرامة وأنهم أهدى وأرقى من غيرهم كما كانوا يتشددون {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} {مريم ٧٣} - هؤلاء الذين يسيئون العمل في الدنيا، ويعرضون عن سنن ربهم، هل لهم

دليل على أن نتيجة عملهم صحيحة، أو أن مآلهم إلى خير وكرامة، وأنهم إذا رجعوا إلى ربهم تخيروا ما شاءوا من نعم؟! ألهم دليل في كتاب من الكتب (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ} {٣٧} إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} {٣٨}؟! أم لهم عهد من الله ﷺ بما شاءوا (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّعْنَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} {٣٩}؟! (سَأَلَهُمْ أَيُّهُمْ يَدْلِكُ زَعِيمٌ} {٤٠}). أم لهم مرجعية غير الله ﷺ يستمدون منها أحكامهم (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءَ فَلَْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} {٤١}).

ولكن كل ما سوى الله ﷺ فهو باطل، وكل عمل بغير هدى فهو ضلال، وسيتبين ذلك الضلال لصاحبه يوم القيامة، ويكون نتيجة التفاعل الخاطيء مع المعطيات في الدنيا - حسرة يوم (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} {٤٢} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} {٤٣}).

إنه كما تحجر قلب الطاغية الضال المنحرف عن الحق - في الدنيا - فسيتحجر ظهره يوم القيامة، فيعجز عن السجود، ويخشع بصره ذليلاً، ويُطرح في جهنم.

حرب الاستدراج [من آية: ٤٣ إلى آخرها]

خلق الله ﷻ الإنسان وكل ما حوله، فهو من معطيات الله ﷻ. وأعظم شئ أعطاه الله ﷻ هو كتاب الهداية، الحديث العظيم، القرآن الكريم، وأمر الإنسان أن يتوجه إلى هذا الكتاب فيقرأه ويتدبره، ويصوغ حياه في ضوئه، ويقيم مجتمعه على شرعته، فيلتحم الإنسان بالقرآن فيسعد في الدنيا، ويكرم في الآخرة.

إذن فتفاعل الإنسان مع القرآن يعود عليه هو بالنفع، وطرق التفاعل مع القرآن تتلخص أولاً في الإيمان به {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة: ١٣٦]، ثم قراءته وتلاوته وتدبره والاستماع إليه {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} [المزمل: ٢٠]، {فَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤] {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ} [النمل: ٩١-٩٢]، {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤]. ثم العمل به والقيام بما فيه، والسجود لله ﷻ في محراب الحياة وفق هدى القرآن {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠]، {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ} [الانشقاق: ٢١]. ووراء ذلك يجب الأخذ به كله، لا الأخذ ببعضه ثم يكفر ببعضه الآخر، أو يكفر به كله فلا يقيم حرفاً منه، {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} [الحجر: ٩٠-٩١].

فإذا انحرف الإنسان عن هذا التفاعل الإيجابي مع كتاب الله ﷺ وكذب به، سواء أكان تكذيباً بالاعتقاد أم بالقول أم بالعمل، فإنه يضر نفسه ويشقيها ويرديها، والحق سبحانه وتعالى يتوعد هذا بحرب شديدة بينه وبين الله ﷻ، ومن ذا سيواجه ربه (فَدَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ يَهَذَا الْحَدِيثِ)، إنه تهديد يقشعر لهوله البدن، وتخشع له الجبال، وتهتز الأرض، تهديد لهذا الإنسان إذا ما انحرف عن هداية القرآن وانصرف عن إرشاده، وأبى أن يلتحم معه، وما وراء هذا التهديد؟! إنها الحرب التي يستخدم فيها كل ما لديه من أسلحة، وماذا عسى أن يكون مع الإنسان؟! أما الله ﷻ سبحانه وتعالى فإنه سيمهل لهذا الإنسان ويمد له في غوايته ويستدرجه من حيث لا يعلم، حتى إذا أخذه أخذَه عزيز مقتدر (سَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) {١} وأملئ لهم إن كيدى متبرئ {٢}، وكفى بقوله (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) رادعاً وزاجراً لهذا الإنسان وهو يواجه ذا الكيد المتين. قال ابن كثير: "وهذا تهديد شديد، أي دعنى وإياه، أنا أعلم به منه كيف أستدرجه وأمهده فى غيه وأنظره ثم أخذه أخذَ عزيز مقتدر" (١).

إن الله ﷻ يتوعد هؤلاء الذين يحيدون عن القرآن ويكذبون به، يتوعدهم بأعظم حرب، يدخلها الإنسان، إنها حرب يكون أحد طرفيها مخلوقاً حقيراً ضعيفاً، ويواجه خالقاً عظيماً عزيزاً قوياً مكيناً. ويبين الله ﷻ طبيعة هذه الحرب (استدراج وإملاء).

الاستدراج، يقال: استدرجه أى: جعله يدرج على الأرض، ودرج فلان يدرج إذا مشى مشية الصاعد فى الدرج. فعليه تقول: استدرجت فلاناً إذا خدعته، وجعلته يرقى فى الدرج حتى يصل إلى مستوى عال فيسقط من فوقه سقطة شنيعة يكون لها دوي هائل، ويصل صداها إلى أبعد الأنحاء، بخلاف ما لو سقط من أسفل الدرج، فإن السقطة تكون ضعيفة، وأثرها لا يكون قوياً.

والإملاء، يقال: أملئ لدابته، وأملاها، أى: وسع لها فى قيدها وأرخى، حتى تستطيع الحركة ببسر وسهولة، وأملئ له فى عيشه، طوله له. فالإملاء إذن هنا: أن يرخى الله ﷻ للعبد فى زمانه فيطول عمره، وأن يوسع له فى إمكاناته حتى يستطيع فعل ما يريد ببسر وسهولة. والعبد ليس منقوضاً، إنما هو مربوط، لكنه قد أرخى له، كما يرخى للدابة حبلها فترعى وتسرح وترتع، حتى إذا شاء رهاها سحبها إليه وأحكم القيد. وكذلك العبد يمهل الله ﷻ له حتى إذا أخذه لم يفلته.

إذن فالاستدراج والإملاء هما أعظم الحروب التى يسلطها الله ﷻ على عبده، فليطغ هذا الإنسان سواء أفرداً كان أم حزباً أم دولة أم أمماً - ليطغ، وليحارب كتاب الله ﷻ، وليصد عنه، وليقف فى وجوه حملته، وليشهر الحرب عليهم، فإن الله ﷻ سيستدرجه ويزيده

(١) تفسير ابن كثير، ١٥٨/٨.

قوة ومَكِنَة وعلوا، ويملى له فى الزمن وفى الوسع - حتى يسقطه أعظم سقطة، ويوقع به أشنع وقبحة، لا يُجبر بعدها له عظم، ولا يضم له لحم.

وكما بين الله ﷺ طبيعة الحرب: استدراج وإملاء، كذلك بين صفة يتصف بها الخالق العظيم، وهو أنه ذو الكيد المتين. والمتين القوى الذى لا يمكن نقضه وإبرامه، يقال: حبل متين ورأى متين إذا كان صلباً شديداً قوياً. والكيد هو المكر، الكيد من العبد: هو الحيلة السيئة للإيقاع بالغير، أما الكيد من الله ﷺ فهو استدراج العبد وإملاؤه فى غيه حتى يقع وقعة شنيعة فى الهلكة، فكأن هذا الاستدراج والإملاء بمثابة الحيلة، والله ﷻ ليس بحاجة إلى حيلة ليوقع بالعبد، فلو شاء لأخذه {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} [محمد 4]، ولكن كما قال {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ رُؤُوسًا} [الطارق: 15-17]، أى: إنهم يفسدون ويحاربوننى، ويحاربون أوليائى، ويحتالون للإيقاع بهم، وأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يلقوا مغبة أعمالهم.

ويبقى هنا - لي - تأملان:

الأول: جاء بالنون (نون الجمع) فى فعل الاستدراج (سنستدرجهم)، وجاء بالفعل مفرداً فى الإملاء (وأملى) فخالف بين الفعلين، وذلك أن الإملاء بيد الله ﷻ وحده، فهو الذى يطيل أعمارهم، سواء أعمار الأفراد أم الأمم - وهو الذى يوسع لهم فى أرزاقهم وقواتهم. أما الاستدراج فإنه يكون بسبب من الله ﷻ مباشر، حيث يمد لهم، ويرخى، ويهيئ لهم أسباب التمكين والعلو والظفر، ويكون بسبب من الله ﷻ غير مباشر، وهذا واضح، فإن أهل الباطل لا يستعلون إلا إذا ضعف أهل الحق، ولا يتمكنون إلا إذا فتر أهل الحق، ولولا ضعف أهل الحق وقتورهم وخورهم لما استعلى أهل الباطل، فكأن ضعف أهل الحق سبب من أسباب علو أهل الباطل، وبعبارة أخرى: كأن ضعف أهل الحق سبب فى استدراج أهل الباطل الذين علوا وتمكنوا.

الثانى: (سَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)، إن استدراج المرء من حيث لا يعلم أخطر ما فى الحرب. إن الأمم المتحاربة تسعى بكل وسيلة حتى تعرف كل أمة خطة من تحاربها، وتعرف طبيعة قوتها، ولهذا انتشرت المخابرات على نطاق واسع وبأساليب تقنية عالية. فالذى يدخل المعركة، وقد عرف عدوه وطبيعة قوته، وحجم أسلحته، وخطته القتالية، يستطيع أن يكسب المعركة، ويهزم عدوه؛ إذ يُفَوَّتْ على عدوه عنصر المفاجأة، بعكس من لا يعلم، والنصر غالباً ما يحسم بالمعرفة والفتنة والمهارة لا بالقوة، بل إن القوة الآن انتقلت من المادة إلى الفكر، فالآن يتجه الناس إلى تسليم أزمتههم إلى القوة المفكرة بدلا من القوة العسكرية، أو الاقتصادية. والله ﷻ بين أنه سيستدرج هؤلاء من حيث لا يعلمون، وبالتالي فكأنهم يصعدون فى درج السلم عميانا، لا يدرون أى درجة فيه ستكون الأخيرة، ولا يدرون

أي خطوة ستكون فيها سقطتهم.

وبعد، فهذه البشرية اليوم تواجه ربها بالتكذيب وتكذيب هذا الحديث، وإن اختلف التكذيب بين قوم كفروا به جملة وتفصيلاً، وأعلنوا الحرب صراحة ضده وضد حملته. وبين قوم كذبوا بالعمل به، أو ادعوا أنه دستور للعبادة بمعناها الشعائري - فقط- وأخرجوه من دائرة الحياة كاملة، واتخذوا شرائع بشرية بقوانين وضعية. وبين قوم ادعوا أنهم سدنته، وحماته ولكن أبوا أن يسعوا في إقامته، وأن يجاهدوا في سبيل إعلائه، وكان حظهم من الإيمان به تلاوته وقراءته، ولكنهم انسحبوا به من الحياة وجبنوا عن الوقوف به والمجاهدة الكاملة، {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان ٥٢]. هاهي البشرية كذبت بالحديث لتعلن الحرب مع الله ﷻ، حرباً خطيرة - استدراجاً وإملاء.

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا)

ولو بحثنا عن مبرر لتكذيب الإنسان بالقرآن، وتفاعله السلبي إزاءه لما وجدنا. ويتهم القرآن بهؤلاء، متسائلاً ما الذي يمنعهم؟ جاء رسول الله ﷺ بكتاب الله ﷻ ولم يسأل الناس أجوراً، ولم يفرض عليهم مغارم حتى تنقلهم؟ ما الذي يمنعهم؟ أعندهم علم الغيب فيتخيروا ما شاءوا، ويرفضوا ما شاءوا (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ {٤٦} أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ {٤٧}).

والسؤال الذي يفرض نفسه: إذا كان الإنسان مأموراً بالتلاحم مع القرآن، ولكنه كذب به فماذا يقتضى الإيمان به من قبل أصحابه؟ وبمعنى آخر: ماذا يجب على من آمن به تجاه من كفر به؟

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

إن أكبر واجب وأعظم مقتضى هو الصبر، ذلك أن أولئك المكذبين يعيشون في غيٍّ مديد، وجهل شديد، فينبغي على من اهتدى بهدى القرآن أن يتعامل معهم بحكمة، وأن يصبر على لأوائهم وعلى جهالتهم، ولا ينبغي عليه أن يسيء التعامل معهم وإن أساؤا {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل ١٢٥].

وهنا . في سورة القلم . يأمر الله ﷻ بالصبر (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)، ثم ينهي عن نقيض ذلك، وهو ما وقع فيه يونس عليه السلام، حين لم يستجب له قومه فذهب مغاضباً، ولم يصبر عليهم، ثم حصل له ما هو معروف، حيث التقمه الحوت وهو ملجم {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلِئَلْ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٣-١٤٤]. ولكن الله ﷻ أنجاه وهدى قومه جميعاً. فعلى أهل الله ﷻ أن يتحلوا بالصبر، وطول النفس مع أعدائهم، وألا يتركوا لهم الميدان ويولوا، فمن فعل استحق نيبذ الله ﷻ.

في حين يأمر الله ﷻ المؤمنين به ويكتابه أن يصبروا تجاه الكافرين وأذاهم، وألا يسيئوا التعامل معهم، ينفذ إلى أعماق نفوس الكافرين ليبين موقفهم تجاه المؤمنين - فإذا هي غلٌ وحسد، وإذا قلوبهم مشحونة بالبغضاء والمكر، حتى إن عيونهم لتكاد تسقطك وتقتلك من شدة ما في القلب من عداوة، "ولم يرد الله ﷻ في هذا الموضع أنه يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن ما يستحسنه ويعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يزلقك أى يسقطك، كما قال الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظراً يزيل مواطئ الأقدام^(١)

(وإن يكاد الذين كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)، وكما تنفذ العداوة من عيونهم، تنفذ كذلك من ألسنتهم بالسب والشتم والسخرية والفخر واللمز (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ {٥})، وتأمل في قوله (لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)، فهم لا يطيقون أن يسمعو القرآن فضلاً عن أن يؤمنوا به ويعملوا بما فيه، بل يمتثلون غيظاً وحنقاً لو سمعوا الذكر، كما قال تعالى {يَكَاذِبُونَ يَسْتُوبُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [الحج ٧٢]. ولكن رغم كل ذلك، فليغضب من غضب وليرض من رضي، فإن القرآن لجميع العالمين (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {٥}).

(١) القرطبي في الجمع بين المشكل والغريب، ابن قتيبة، ١٧٨/٢، دار المعرفة، بيروت.

السجود للوكيل الحق (سورة المزمل)

تناولنا مفهوم السجود في سورة القلم، وذكرنا أنه المقتضى الطبيعي للمعرفة، وأنه يعنى التعامل الصحيح مع معطيات الحياة، ثم الانطلاق في محرابها سجوداً وخشوعاً وتبتلاً للوكيل الحق. وهذه السورة تقف مع هذه القضية، وتؤكد أن السجود للوكيل الحق يحفظ الإنسان، ويقيه المساوئ والمتاعب في الدنيا والآخرة، وأن هؤلاء الساجدين لله ﷻ هم الذين يحظون بحمايته وتأييده ونصره.

وجاءت السورة في ثلاثة محاور، المحور الأول: دعوة للسجود، والمحور الثاني: عاقبة النكوص عن السجود، المحور الثالث: مظاهر السجود.

المحور الأول: دعوة للسجود [من آية: ١ إلى: ١٠]

من خلال سبعة أوامر مختلفة يدعو الحق سبحانه وليه محمداً ﷺ إلى السجود، وينتظم في هذه الأوامر كل من سار على درب رسول الله ﷺ، واتبع خطاه. ويمكن تقسيم هذه الأوامر إلى مجموعتين المجموعة الأولى: ما يتعلق بالنفس، والمجموعة الثانية: ما يتعلق بالمجتمع.

أما ما يتعلق بالنفس فهي الأوامر الخمسة الأولى (قُمِ اللَّيْلَ)، (وَرَكَّلِ الْقُرْآنَ)، (وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ)، (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)، (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا). وكلها تجتمع لتملأ القلب بطاقة هائلة، وتزود النفس بشحنات قوية، وتضخ في الوجدان قوى عظيمة، لتجعل من الإنسان رجلاً يقوم بالحق وبالعدل، لا يكل ولا يني مهما واجه من صعاب، ومهما تحمل من المشاق. غير أن الإنسان من دون هذه الطاقة لا يستطيع أن يصنع شيئاً، لا يقوى على حمل نفسه فضلاً عن حمل غيره، إنه من دون هذه الطاقة يذوى وتنطفئ جذوته وإن بدا أنها متوهجة فإنها إلى تلاش وخبو، وبدونها يكل حده وينبو سيفه وإن بدا أن سيفه حاد فإنه إلى انثلام ونبو.

١ - (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) {بَصَمَهُ أَوْ اقْصَصَ مِنْهُ قَلِيلًا} {أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ}

إنه المخلوق الهادئ الوديع، إنه الليل الساجي الساكن، تغور فيه النجوم، وتسكن فيه العيون، وليس ثم إلا الأصوات الندية التي تشق هذا السكون، في خشوع وتضرع مخترقة حجب السموات، لتصل إلى ربها. تتطلق أصوات المؤمنين المتضرعين الساجدين تاركة

وراءها طاقات هائلة يستمدّها العبد من مناجاة الله ﷻ. لهذا كان التأكيد على قيام الليل، بل أمر رسول الله ﷺ بهذا أمراً - كما نرى في الآية، وكما يقول المفسرون - والأمر بقيام الليل إلا قليلاً، يشمل معظم الليل، فعلى قدر ما تبت من أصوات المناجاة على قدر ما تنزود من الطاقة الإلهية، فمثل الصوت كمثل الصاروخ النفاث الذي تطلقه ويخلف وراءه هزة عظيمة. يقول سيد قطب عند قوله (قم الليل): "إنها لكلمة عظيمة رهيبية تنتزع من دماء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياء سواء. إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير فماله والنوم؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟ ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره، فقال لخديجة - وهي تدعوه أن يطمئن وبنام: (مضى عهد النوم يا خديجة)"^(١).

٢- (وَرَبَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) {١} إِنَّا سَأَلْنَاكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا {٢} إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً {٣} إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا {٤}

أمر أولاً بقيام الليل ثم أمر ثانياً بترتيل القرآن، وهو خير صوت ينبعث من ساكني الأرض ليصل إلى رب السماء، وخاصة في جوف الليل. وترتيل القرآن كما جاء في القرآن يكون في أي وقت وإن كان التأكيد . في تلاوته . على أناء الليل وأطراف النهار؛ لأن هذه الأوقات يكون الإنسان فيها مستجمعاً قواه، ومؤهلاً للقاء مولاه، إما في جوف ليل سابح، وإما في صبح يتنفس، وإما في غروب شمس تودع.

وارتبط أمر الترتيل هنا بقيام الليل، فإنهما إذا اجتمعا كان لهما من الأثر في نفس الإنسان ما يؤهله لحمل القول الثقيل. ولهذا جاء التعليل (إِنَّا سَأَلْنَاكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) {٢}، فلا تقوى أن تحمل القول الثقيل ما لم تستمد من صاحب القول طاقته وقوته، فتخلو به، تتاجيه وترتل كتابه، وتتضرع إليه، حتى تستطيع حمل أمانة أبت السماوات والأرض والجمال أن يحملنها وأشققن منها وحملها الإنسان. فما غناؤك بدون قوة الله ﷻ وعطائه.

والقول الثقيل "هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف، والقرآن في مبناه ليس ثقیلاً فهو ميسر للذكر، ولكنه ثقيل في ميزان الحق، ثقيل في أثره في القلب {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ حَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر ٢١]، فأنزله الله ﷻ على قلب أثبت من الجبل يتلقاه. وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة، واستيعابه، لثقيل - يحتاج إلى

(١) في ظلال القرآن، ٦/٣٧٤٤.

استعداد طويل. وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة لتقيل، يحتاج إلى استعداد طويل... وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة لتقيل، يحتاج إلى استعداد طويل... وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات لتقيل... وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع من عيش الحياة اليومية وسفاسفها، والاتصال بالله ﷺ، وتلقى فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملاء الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشرى ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي - إن هذا كله هو المراد لاحتمال القول التقيل^(١).

وناشئة الليل "هي آناؤه وساعاته، مأخوذة من: نشأت تنشأ نشأ، أى ابتدأت وأقبلت شيئاً بعد شيء... فكانه قال: إن ساعات الليل الناشئة، وأشدُّ وطْءاً" أى أثقل على المصلى من ساعات النهار... فأعلم الله ﷺ نبيه ﷺ أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطْء وتقله... وأراد أن القراءة بالليل يتواطأ فيها قلب المصلى ولسانه وسمعه على التقهيم والأداء والاستماع بأكثر مما يتواطأ عليه بالنهار، "وأقوْمُ قِيلاً" أى أخلص للقول وأسمع له؛ لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتتقطع فيه الحركات، فيخلص القول، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل"^(٢).

وبهذا الإيضاح ندرك ارتباط الأمر بالقيام والترتيل في الليل مع تحمل القول التقيل والعبء الشديد، فقيام الليل وترتيل القرآن هما الزاد لحمل الأمانة الكبرى التى أعرضت عنها السماء والأرض، وهما الزاد لحمل القول التقيل. وكان رسول الله ﷺ يقوم الليل^(٣)، فيصلي ما كتب الله ﷻ له من ركعات، يرتل فيها

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٣٧٤٥/٦، دار الشروق، ط: ١٦، ١٩٩٠/١٤١٠.

(٢) ابن قتيبة: القرطين في الجمع بين المشكل والغريب، ١٨٩/٢.

(٣) الآية أمرت الرسول ﷺ بقيام الليل إلا قليلاً منه يقضيه في النوم، حتى يستعين به على القيام. والمدة التى أمر بقيامها هي نصف الليل، فالآية تقول "قم نصف الليل، أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث أو زد عليه إلى الثلثين - جعل له سعة في مدة قيامه بالليل" [ابن قتيبة: القرطين في الجمع بين المشكل والغريب، ص ١٨٨/٢].

والسنة قد جاءت ببيان صلاة رسول الله ﷺ، كما قالت عائشة ؓ "ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره عن إحدى عشرة ركعة" [رواه البخاري (١٠٧٩)، ومسلم (١٢١٩)]. ولكنه كان في هذه الإحدى عشرة يقضى بين ثلث إلى ثلثي الليل تقريباً، كما قال الله ﷻ (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ)، وفي حديث ابن مسعود ؓ قال: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد، فقال سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه" [رواه مسلم (٧٧٢)].

وليسمح لي القارئ أن أضع أمام عينيه برنامج رسول الله ﷺ في قيام الليل كما ورد في حديث ابن عباس [رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣)]:

كتاب الله ﷻ، يقوم به حتى تنفطر قدماه، وبعد ذلك ينطلق فى النهار ومشاعله، ويصارح الحياة ويكافح، ويزرع نهاره بالأعمال. وهكذا يكون المسلم، فعلى قدر طاقته التى نهلها فى الليل يكون توفيقه فى النهار، فيبقى ساجداً لله ﷻ بما يعمله من أعمال فى نهاره. لا انفصام بين ليله ونهاره، ولا بين مسجده وداره، ولا بين صلاته وانشغالاته، فكلها سجد بين يدي الوكيل الحق.

٣-٥ (وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَكَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (}}

ها هنا ثلاثة أوامر: ذكر الله ﷻ، والتبتل إليه، واتخاذها وكيلاً.

ما المراد بالذكر؟ هل هو ما يفعله كثير منا اليوم، يُجري أحدهم ذكر الله ﷻ على لسانه فلا يتجاوزُه. لنتمهل قليلاً قبل أن نجيب؛ حتى نرى من خلال الآيات منزلة الذكر، قال تعالى {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة ١٥٢]، {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد ٢٨]. هاتان الآيتان تبيينان عظمة ذكر الله ﷻ، وأنا إذا ذكرناه فإنه يذكرنا، وتطمئن بذكره قلوبنا. وقال {وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف ٢٠٥]، فجعل الذكر هو العبادة، واللهو عن الذكر هو الغفلة، وقال {فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النجم ٢٩]، {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه ١٢٤]. فرتب هذا الجزاء الأليم والعقاب العظيم على من غفل عن ذكر ربه، بل أمر رسوله ﷺ بالإعراض عنه.

- ١- كان ينام مبكراً، وقد ورد عنه النهي عن السمر بعد العشاء [رواه البخارى (٥٩٩)].
- ٢- ثم يقوم بعد مضي ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه، ولعله غالباً ما كان يقوم بعد مضي الثلث الأول كما فى حديث ابن عباس حيث إن رسول الله ﷺ قام ولما ينم الفتى.
- ٣- ثم يذكر الله ﷻ بأذكار الاستيقاظ ثم يمكث للتفكر فى السموات والأرض، حتى يمتلئ قلبه بجلال الله ﷻ.
- ٤- يقوم فيتوضأ.
- ٥- يصلى إحدى عشرة ركعة، لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ويبتدئ بركعتين خفيفتين. ويختتمها بصلاة الوتر، وفيها يتضرع لربه ويدعوه.
- ٦- كان يتخلل صلاته بمناجاة، ثم يختم بعد الوتر بمناجاة، ويستغفر الله ﷻ حتى يطلع الفجر {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات ١٨].
- ٧- كما أنه كان يوقظ أهله إذا قارب طلوع الفجر، وهو القائل ﷺ: "رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء" [رواه أبو داود (١٣٠٨)، والنسائى (١٦١٠) وقال الألبانى: حسن صحيح].
- ٨- وأخيراً إذا أذن الفجر صلى ركعتين ثم خرج.

نخلص من هذا إلى أن الذكر هو امتلاء القلب بعظمة الله ﷻ، ثم ظهور هذا الامتلاء على اللسان والجوارح، فلا ينطق اللسان إلا حقاً وصدقاً وعدلاً، ولا تعمل الأبدان إلا نافعاً وخيراً. وينطلق الإنسان ممتلئاً بهذه العظمة فيفيض على الحياة وعلى الناس جميعاً، وعلى الوجود كله مما امتلأ به، فيكون إنساناً صالحاً، يبني حضارة راشدة، ويكون بحق خليفة الله ﷻ الذي امتلأ بحبه وخصم لجلاله وعظمته. وهذه المنزلة هي أسمى المنازل في الإسلام، بل إن رسول الله ﷺ جعلها أعظم من الجهاد كما في الحديث الذي أخرجه الترمذى بسند صحيح عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم؟ قالوا: بلى قال: "ذكر الله تعالى" (١).

■ مفهوم خاطئ للذكر

ولكن للأسف فقد طفق بعض جهلاء أمتي يحسبون أنهم سيدخلون الجنة ويكونون أفضل الناس، متى ما انعزلوا عن الحياة، وأخذوا مسابحهم، وهمهموا بكلمات، وحسبوا أن الدين ما هم عليه. ألا افتروا على دين الله وعلى الله ﷻ! فما أعظمها من فرية؟! ثم ذهبوا بعد ذلك يدعون لأنفسهم ولاية الله ﷻ، ويوهمون الناس أن الانعزال عن الحياة والدروشة هما طريق الولاية الإلهية، وأن هذا هو التبتل والانقطاع، فأوقعوا بذلك شرخاً عظيماً في جسم هذا الدين، فلم يعد الناس يرون في الدين إلا طقوساً وأشكالاً منفصمة عن خصم الحياة وواقع الناس.

وعندئذ انعزل الدين عن الحياة، ونشأ عند الناس مفهوم الدين والدنيا، ورجال الدين ورجال الدنيا، والعلوم الدينية والعلوم الدنيوية، ... الخ. وكلها افتراءات على دين الله، وعلى الله ﷻ الذي خلق الدنيا وأنزل الدين، خلق الدنيا وجعلها معاشاً للناس وأمرهم بعمارته، وأنزل الدين وجعله هداية للناس وأمرهم بإقامته، فكلاهما نبعاً من مصدر واحد. وإن دراسة الطب والهندسة كدراسة القرآن وعلوم الشريعة، وإن احتراف الإدارة والتجارة كاحتراف الدعوة والإمامة. متى كان للناس أن يجعلوا من هذه العلوم علوماً دينية وعلوماً دنيوية؟! ثم يجعلونها مراتب ويجعلون في ذيل القائمة الاشتغال بالطب والهندسة والرياضيات والكيمياء، بل ويعدون الاشتغال بهذه العلوم خارجاً عن دائرة العلم الديني، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن كره لطالب العلم أن يشتغل بها.

الحقيقة أن فصول المسألة متشابكة وطويلة، ولكنها تكشف لنا عن الجذور الأساسية

(١) رواه الترمذى (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩٠)، وقال الألبانى: صحيح.

للحال التي وصلنا إليها من فكر سقيم، وتصور عقيم، وثقافة منحطة، ومفاهيم مرتدة ليس لها بدين الله ﷺ أى صلة.

وبعد، فما عليه جمهور الأمة اليوم يحتاج إلى مراجعة، ذلك أن هذا الجمهور انصرف عن إقامة دين الله ﷺ، وحسب أنه قد برأ ذمته إذا ما صلى وصام، "والواقع أن هذا القدر المتاح من الفكر الإسلامي اليوم - قصاراه أن يجعل المسلم مسلماً برئ الذمة من الناحية الشخصية، وبلغة الفقهاء، إنه يحقق الحد الممكن من المعذرية والمنجزية للمكلف الشرعي، لكن ما به يكون الإسلام حضارة ونهضة وتقدماً وتطوراً - فهذا شأن آخر له منطوق مختلف.. إذا كان الفرد برئ الذمة من الناحية التكليفية، فإن الأمة ذمته مشغولة بتكليف آخر، أى بتحقيق نهضتها"^(١).

■ التبتل والوكالة

إن حقيقة الذكر تمتد لتشمل حياة الإنسان كلها فتصلها بخالقه، وعندما يكون سلوك الإنسان في حياته مرتبطاً بالذي خلقه وخلق الحياة، لا يرى شيئاً غير الله ﷻ في الوجود، لا يقدس إلا ما قدسه الله ﷻ، ولا يحتقر إلا ما حقره الله ﷻ، ولا يخشى أحداً غير الله ﷻ، وباختصار لا يلحظ في أعماله وتصرفاته إلا الله ﷻ - فعند ذلك يكون متبتلاً إلى الله ﷻ أى منقطعاً إلى ربه، قد قطع حبال الخلق ووصل حبل الخالق.

وبوصول الإنسان إلى هذه الدرجة يكون متبتلاً، ولا يزال يخلص حياته لربه، ويستخلصه ربه حتى يتخذ الله ﷻ وكيلاً له في كل شئونه، فيكون الإنسان خليفة لربه، ويكون الله ﷻ وكيلاً لخليفته، وهذه هي رتبة الولاية، وبهذا يكون العبد ولياً لله ﷻ. والله ﷻ عندما يتخذ الإنسان وكيلاً سيتولى حمايته والدفاع عنه، وحرب أعدائه، وسيتولى إبعاده وحفظه. قال تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوِّفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢-٦٤]، {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]، {إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف: ١٩٦]، {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: ١٥٠].

هذا هو مفهوم الولاية والوكالة والتبتل والذكر - وهو مستنبط من كتاب الله ﷻ وليس هُجراً من القول أو دعوى بلا دليل. وهذه الأمور كلها عبارة عن سواقي تصب في دائرة أعظم تسمى: السجود لله ﷻ في محراب الحياة.

٦-٧ (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) {١}

(١) العولمة وما بعدها، إدريس هاني، ص ٧٥، مقال في مجلة الكلمة العدد ٤٣، السنة الحادية عشرة.

المرء ليس وحده في هذا العالم، بل هناك غيره كثير من الأفراد والأمم، ثم إنه مدنى بطبعه، فلا يمكن أن يعيش بمنأى عن المجتمع، بل لابد له من حركة وتفاعل مع هذا المجتمع. ثم إن المرء صاحب الرسالة السامية سيتعرض لأذى الآخرين واضطهادهم؛ لأن مشارب الناس مختلفة، وأغراضهم شتى، وكل يريد أن يقيم الحياة حسب هواه ووفقاً لرغباته. وصاحب الرسالة في مواجهة هذه الأصناف يحتاج إلى شيئين: صبر وهجر.

▪ "الصبر" و"الهجر"

"والصبر هو الوصية من الله ﷻ لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة، ولعباده المؤمنين برسله. وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده. والصبر جنته وسلاحه. والصبر ملجؤه وملأذه. فهي جهاد - جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتنا وضعفها وشروورها وعجلتها وقنوطها، وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدابيرهم وكيدهم وأذاهم، ومع النفوس عامة، وهي تنقصى من تكاليف هذه الدعوة وتتقلت، وتتخفى في أزياء كثيرة - وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها"^(١).

والصبر هو القوة التي يتدرج بها حملة الرسالة في مواجهة رواسب الباطل، ومقارعة زخم الشر. وإن معاركة الحياة والتفاعل معها يحتاج إلى صبر وتحمل.

ولا بد لصاحب الصبر من هجر. يصبر على أذى الناس، ولكنه يهجر ما هم عليه من واقع مريض، وحال سقيم، يهجر ما هم فيه من انتكاس قلبي وخواء روحى. إنه الهجر الجميل الذى يهجر فيه أولئك القوم دون أن يتركهم، بل يختلط معهم ولا يكل من دعوتهم، ويصبر على ما يبدو منهم حتى يحكم الله ﷻ بينهم.

المحور الثانى: عاقبة النكوص عن السجود [من آية: ١٠ إلى: ١٩]

عرفنا فى السورة السابقة - سورة الفلم - أن النكوص عن السجود عاقبته وخيمة، وأن من استتكف عن السجود فى الدنيا، فلن يقدر عليه فى الآخرة، فيقذفه الله ﷻ فى نار جهنم. وتحدثت الآيات هنا عن عاقبة النكوص عن السجود - بصورة أكثر تفصيلاً. ذلك أن النكوص عن السجود له عاقبة وخيمة فى الدنيا وفى الآخرة.

أما عاقبته فى الآخرة فأشارت إليها الآيات (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٣) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣} يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤)، وهو وعيد شديد، وموقف رهيب أن يتكفل الله ﷻ بمعاقبة هؤلاء، ويقول لوليه: دعنى وهؤلاء الذين أعمتهم الرفاهية فى الدنيا، ولا عليك منهم فمهلهم قليلاً، لأتولى شأنهم. فإن عندى من أصناف العذاب ما يذلهم ويسم خراطيمهم - من الأنكال والجحيم والطعام المر والعذاب الأليم. وإذا سألت: متى هو؟ فإنه قريب (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ)، وتصبح الجبال قاعاً

(١) فى ظلال القرآن، ٦/٣٧٤٧.

صنفنا كالكتيب المهيل.

وأما عاقبته فى الدنيا، فيكفى أن تتظروا - أيها الناكسون - بأبصاركم فى التاريخ، لتروا القدرة الإلهية، ويطشه بأولئك المستكبرين العصاة الذين عصوا رسولهم إذ جاءهم - كما عصيتم أنتم - فماذا كانت النتيجة؟ لقد أخذ الله ﷻ ذلك الطاغية (فرعون) أخذاً وبيلاً، (فَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا {١١})، وفى السور الأخرى إيضاح لهذا الأخذ الوييل، وإنما الغرض هنا إثبات العاقبة. فضرب هذا كمثل، خاصة وأنه أشهر طغاة التاريخ الماضى.

ويعد بيان العاقبة الدنيوية يلتفت إليهم ليذكركم من جديد بأن اليوم الآخر يوم شديد، وأن كلام الله ﷻ حق، وأن وعده مفعول - فإذا نكصتم عن السجود فكيف تتقون ذلك اليوم؟! وكيف تتجون منه؟! إن الأمر بحاجة إلى أن تفكروا ملياً، وتتدبروا عاقبة أمركم، وليس علينا إلا التذكير (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا {١١}).

المحور الثالث: مظاهر السجود [الآية الأخيرة]

هذا الدين - الدين الوسطي - جاء ليرتقى بالإنسان فى مدارج الكمال، ويجعل منه إنساناً. وهو فى بنائه للإنسان يطمح إلى المثالية، ولكنه لا يغفل واقعية الإنسان وواقعية مجتمعه، ولهذا كانت الشريعة الإسلامية واسعة تسع الناس جميعاً على اختلاف درجاتهم واستعداداتهم وقدراتهم. والآية التى بين يدينا تجسد هذا المبدأ أوضح تجسيد (عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُحْصُوهُ)، (عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضِي)، (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ).

إنه الخالق العظيم الذى خلق الخلق وأنزل الدين عن علم بمن خلق {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [الملك ١٤] ولهذا نزل الدين مفصلاً على حاجات الإنسان واستعداده. والإنسان لا يطالبه الدين إلا بالحد الأدنى من مظاهر السجود، ثم إن الباب مفتوح للمتافسين. ولكن ما هو الحد الأدنى؟ يقول الفقهاء: الحد الأدنى هو الإتيان بما أوجبه الله ﷻ من واجبات والكف عما زجر الله ﷻ من محرمات. ولقد أوجب الله ﷻ على الإنسان أن يعرفه ويؤمن به ويتوجه إليه وحده فى جميع أعماله، وأن يخلص له فى كل تصرفاته، وأن يربط حياته بأخرته، وأن يقيم المبادئ الإلهية من عدل وإنصاف وحرية فى نفسه أولاً- ثم فى مجتمعه ثانياً، وأن يحارب كافة أشكال الظلم والاضطهاد والاستعباد، وفى هذا السياق فرض عليه أعمالاً معينة يقوم بها حتى تكون عوناً له على الأعمال الأخرى.

إن الله ﷻ يريد من المسلم أن يكون إنساناً سوياً متوازناً نموذجاً حياً لدين الله ﷻ، ولهذا فقد فرض عليه من الفرائض ما يتميز به عن سواه، ثم أوكل إليه مهمة النهوض بالدين فى الحياة، ومهمة عمارة الأرض بمقتضى شريعة السماء. ولأن الله ﷻ يعلم ضعف الإنسان {وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} [النساء ٢٨] فقد كلفه بما يستطيع {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة ٢٨٦]. وفى الآية جاء الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن فى صلاة الليل - وقد

كانوا يقومون ثلثي الليل ونصفه وثلثه، وجاء الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وجاء الأمر بالاستغفار والصدقة.

ولنا في هذه الآية ثلاث وقفات: الوقفة الأولى: والله يقدر الليل والنهار

إن الله ﷻ يأمر بما يُستطاع، ولا يكلف الإنسان فوق طاقته، فأنه خلق الحياة، وخلق كل ما فيها ومن فيها، وجعل الإنسان سيد الكون، وأمره بأن يعمر الأرض بالصلاح وألا يفسد فيها. وعلى الإنسان أن يأتي من ذلك بما يستطيع، فأنه هو الذي يقدر كل شىء.

ونحن نعرف أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ بقيام الليل إلا أقله، وأمر الصحابة معه فى بادئ الأمر ثم خفف عنهم، فقال (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)، فهو الذي يقدر نصف الليل وثلثه وثلثيه، ولكن على المأمور أن يأتي بما تيسر، (فَأَقْرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ). وقد اتصف الإسلام بهذه الصفة، باليسر، فهو دين التيسير "إن هذا الدين يسر"^(١)، والقرآن يسر {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر ١٧] وأمر الرسول ﷺ أصحابه بالتيسير "يسروا ولا تعسروا"^(٢)، ورفع الله ﷻ الحرج عن الأمة {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج ٧٨]، {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة ١٨٥]. ومنبع هذا اليسر كما تشير إليه آية المزمّل أمور، منها:

- ١- مجيء الشرع من عند الله ﷻ الذي يعلم خلقه، ولم يكلفهم بما يعنتهم ويشق عليهم {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ} [البقرة ٢٢٠]، واليه الإشارة بقوله (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) فهو الذي أمر، وهو الذي قدر الزمن، ومن هنا نشأ التيسير.
- ٢- مراعاة الدين لحالة الضعف الإنساني، فالإنسان قد ينسى وقد يجهل، والإنسان يمرض ويتعب، والإنسان طاقة عظيمة من المشاعر والأحاسيس، فتارة تفتن نفسه وتارة تقوي، فلو نزلت عليه تكاليف شاقّة لأياها، وتتملّم منها. فجاء الدين يسراً يناسبه (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ)، (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَى).
- ٣- التوازن العظيم فى الدين، فالدين جاء ليبنى إنساناً كاملاً، ولم يأت ليكون مجرد طقوس وشعائر تلفظ أنفاسها فى المحاريب. كلا، بل هو دين جاء شاملاً حياة الإنسان كلها، وفى الوقت نفسه فقد قام على توازن دقيق، وأمر بإتيان كل ذى حق حقه. الإسلام لا يريد من أتباعه أن يعتكفوا فى المساجد ثم لا يسعون فى الأرض ولا يطلبون الرزق. لا يريد منهم أن يلزموا قراءة القرآن ليل نهار ثم لا يقومون بإقامة الدين وإقامة الحق والعدل، وجهاد من أبى ورفض إقامة هذه المبادئ، الإسلام يريد من أتباعه أن يصلوا

(١) رواه البخارى (٥٠٣٤).

(٢) رواه البخارى (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

ويقوموا ويصوموا ويسعوا في الأرض ليكتسبوا أرزاقاً، ويفتحوا في ميادين العلم والاختراع آفاقاً، وأن يقيموا الدين في المجتمع، وأن يقيموا العدل، ومن هنا جاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الجهاد. (وَأَخْرُوجُ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا).

الوقفه الثانية: (وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا)

ياالله لروعة هذا الدين وسموه! إنه دين لا يمكن أن يضيع فيه شيء، لا يمكن أن يضيع فيه متقال ذرة مما يعمله الإنسان. إن الإنسان - هذا المخلوق العظيم - الذي خلقه الله ﷻ بيديه، كرمه أحسن تكريم.

كرمه إذ خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بالسجود له.
كرمه إذ خلقه في أحسن تقويم فسواه فعله، فركبه في أحسن صورة {مَا غَزَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: ٨٦].
كرمه إذ سخر له ما في الأرض وما في السماء، وجعله سيداً، وعلمه كيف يسود {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠].

كرمه إذ لم يتركه سدى، بل أنزل إليه دينه، وأرسل إليه رسله.
كرمه إذ جعله مسئولاً عن أعماله، مختاراً مريداً لما يقوم به ويفعله.
كرمه إذ وهبه وسائل المعرفة، ووعدته بالثواب إن أطاع، وبالعقاب إن عصى.
كرمه إذ جعل حياته كنزاً عظيماً، وأعماله ثروة عظيمة، وبالتالي فلا يمكن إضاعة أى شيء مما يقوم به. بل كله محفوظ {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧-٨].

وكرمه حين أعد له جنة يدخلها إن أطاع {وَوَدَّخَلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء: ٣١]، {وَأُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} [الصافات: ٤١-٤٢]، كما كرمه إذ أعد له ناراً يلجها إن هو عصى (*).

الوقفه الثالثة: (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أصل الغفر في اللغة: التغطية، ومغفرة الذنوب تغطيتها وسترتها وعدم فضح صاحبها في الدنيا بهتكه وفي الآخرة بنار جهنم، واستغفار الله ﷻ طلب الستر منه، وتغطية

(* انظر سورة الفاتحة عند الحديث عن أساس العدل الإلهي؛ لبيان وجه التكريم.

ما قصر فيه الإنسان من أعمال. ذلك أن الإنسان في حركته مع الحياة يعمل كثيراً متأثراً ومؤثراً، وينتج كثيراً من التصرفات. ولا أحد يقول بأنه مبرأ من العيوب ومنزه عن النقص، بل إن أعمالنا يشوبها الكثير من ذلك، فما إن ينتهي الإنسان من أى عمل حتى يتوجه إلى ربه يسأله أن يستر عيب عمله وأن ينشر حسنه. وبهذا نعرف السر في مجيء الاستغفار بعد الأعمال، فبعد الصلاة أمرنا بالاستغفار، ورسول الله ﷺ أمر به حين شارف باب الموت، وبعد أن بلغ الرسالة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) {١} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا {٢} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا {٣} [سورة النصر]. فالذي يجب على الإنسان أن يستغفر الله ﷻ بعد كل عمل.

ولكن الاستغفار ليس مجرد حركة باللسان، كلا، وإلا فما أسهل الحرب، إن الاستغفار يعنى أن يندم الإنسان على ما فى عمله من خطأ، ويسأل ربه أن يستر خطاه، ولكن أنى يعرف الخطأ إذا لم يرجع إلى عمله فيقرأه ويكرر قراءته حتى يعرف أخطاءه؟! إن الدعوة إلى الاستغفار تقوم أولاً على أساس نقد الذات، وذلك يعنى المراجعة الشاملة الدقيقة للعمل، وتقويمه فى ضوء معايير الحق والخير، فما وجد فيه من حسن حمد الله ﷻ، وما وجد من سوء أناب إلى الله ﷻ واستغفره، وأظهر حاجته إلى ربه فى أن يساعده ويعينه.

وبعد المرحلة الأولى تأتى المرحلة الثانية من الاستغفار وهى تلافى تلك الأخطاء وتجاوزها فى الأعمال الحاضرة والمستقبلية؛ لأن الاستغفار إذا لم يؤد إلى نتيجة صحيحة فليس باستغفار. وهكذا تستمر دورة الاستغفار فى جميع أعمالنا، فيجب أن تجعله من الشعائر الثابتة، والعادات المستمرة، فما إن تنتهى من عمل حتى تنتظر فيه: ما إيجابياته وما سلبياته؟ وتدون تلك الإيجابيات والسلبيات فى مذكرات، حتى تكرر الإيجابى وتتفادى حدوث السلبي، وبهذه الطريقة سنقترب أعمالنا من الكمال أكثر فأكثر.

الإنسان بين العطاء والمنع (سورة المدثر)

عرفنا في السورة الماضية أن على الإنسان أن يسجد في محراب الحياة للوكيل الحق، والإنسان بسجوده هذا يتزود بطاقات هائلة يستطيع بعدها أن ينطلق في الحياة ليكون مصدر عطاء لا ينضب. ويمكن أن أقرب هذا الكلام بمثل، فجهاز المحمول (الموبايل) - مثلاً - تشحنه بالطاقة الكهربائية حتى إذا ما امتلأ استطعت استخدامه والاتصال به؛ لأنه قد صار مشحوناً. إذن فما ورد في سورة المزمل بمثابة الشحن، ثم جاءت سورة المدثر، لتحدث عن عطاء الإنسان في هذا الوجود عبر الحركة الإيجابية التي يقوم بها، ثم تحدثت حديثاً مفصلاً عن ذلك الإنسان الذي لا يعطى إنما يمنع ويشح، وتوعده السورة بوعيد شديد، ثم بينت أسباب هذا الشح.

والمراد بالشح هنا - معناه العام، وهو شح الإنسان عن عطاء قلبه وعقله وجوارحه، لا يعطى خيراً، ولا يوجد بمعروف، ولا يعمر الأرض بالصلاح، إنه يتمتع بنفس شحيحة كنود. بينما نجد الإنسان الآخر - المثل الطيب - يبادر بالعطاء، فيتمتع بنفس معطية، يعطى في حياته كل طاقاته، ينطلق بها عامراً أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. متفاعلاً مع الحياة تفاعلاً إيجابياً. وحديث السورة جاء في ثلاثة محاور، الأول: ماذا يعطي الإنسان في حياته؟ والثاني: قانون العطاء، والثالث: عطاء الإنسان السلبي، وبيان أسبابه.

ماذا يعطي الإنسان؟

(يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمُنْ بِسَكَتِكُمْ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾)

يا الله ما أعظمها من آيات! وما أروعها من وصايا! إنها تحكى قصة العطاء العظيم، عطاء الإنسان في هذا الوجود، تأمره بترك التدثر - والتدثر التغطية، فالإنسان مأمور أن ينهض في الحياة، وألا يجعل أياً من العوائق دثاراً يتدثر به، فيمنعه من تفجير طاقاته. إن عوائق الحياة سواء نفسية كانت أم اجتماعية - هي دثار شنيع يتدثر به الإنسان. وعلى الإنسان أن يتمرد على هذه الدُّثر، ويمزق نسيجها، ليقدّر على العطاء - وأنا أعلم أن الآية نزلت تخاطب رسول الله ﷺ، والقصة معروفة، لكن نداء بهذه الصفة يشعر بالسبب الذي نستطيع لأجله تعميم الحكم، فالآية تقول: كيف تتدثر أيها الإنسان وأمامك واجبات ضخام، تحتاج منك إلى طاقات عظام. فأنت بين عطاءات مختلفة عليك أن تؤديها. ثم لا تستكثر ما يعطى، واصبر على معاناة العطاء.

عطاء للمجتمع: القيام فيه بالإنذار

الإنذار بالشىء هو الإعلام به، والتخويف منه. والإنذار هو الوظيفة الاجتماعية للإنسان ذى العطاء الإيجابي - الإنسان الذي يتفاعل مع مجتمعه، فيقف فيهم منذراً مبيناً، قال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَهَّمُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة 122]. وهو أمر الله ﷺ لأول الرسل نوح ﴿أَنْ أُنذِرَ قَوْمَكَ﴾ [نوح 1]، والوظيفة التي قام بها خاتم الرسل ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت 50]، كما أن النذارة سنة من سنن الله ﷺ الاجتماعية ﴿وإن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر 24]. ولكن ينبغي أن نسأل في هذا المقام أربعة أسئلة: ما مفهوم الإنذار؟ وبم يكون؟ ومم يكون؟ وما موقف الناس منه؟

الإنذار هو الوظيفة الاجتماعية للمسلم في المجتمع، وهو القيام في المجتمع لإعلامهم بربهم الذي خلقهم وما يريد مناهم، وإعلامهم بسننه وقوانينه، ووجوب السير دون صدام لها، وما يقتضيه ذلك من تفاعل إيجابي مع سنن الله ﷺ الكونية والاجتماعية والنفسية والشريعة. وإلى هذا أشارت الآية ﴿أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل 2].

والمنذر يمثل ناقوس الخطر، فهو بمثابة المؤشر الذي يقرأ الواقع ويقوم بتحليله بعد تلك القراءة، ثم يقدم للناس رؤيته المستقبلية في ضوء ما لديه من مؤشرات، حيث يرقب واقع الناس، ويفزع لأي انحراف يلحظه، فيأخذ بأيدي الناس إلى الصواب، ولكن إذا تمادى الناس فإنه ينقلب محذراً لهم من سوء الكوارث والعواقب الوخيمة التي قد تحل بهم جراء انحرافاتهم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أُنذِرْهُمْ بِطُغْيَانِهِمْ بِأَلْحُسِيِّ﴾ [القمر 36]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت 13]، وكما ينذرهم وقوع الخطر في الدنيا، فإنه ينذرهم وقوعه في الآخرة ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل 14].

وبهذا نفهم السر في اقتضاء سنن الله ﷺ ألا تخلو أمة من نذير، فوجود **النذير مؤشر على بقاء الخير في الأمة، وانعدامه مؤشر على انحلال الأمة، وبالتالي عدم صلاحيتها للبقاء**. ولهذا كما ورد في الحديث فإن الساعة تقوم وليس في الأرض من يقول: الله الله⁽¹⁾، فالبشرية حينذاك تنتهي فيها مقومات البقاء، فتقرض، فتقوم عليهم الساعة.

وعدة الإنسان في الإنذار هي آيات الله ﷺ، يقوم بقراءتها ثم تبينها وإنذار الناس في ضوئها، أيا كانت تلك الآيات سواء آياته في الكتاب أم آياته في الخلق، وإلى الأول تشير الآية ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء 45]، وإلى كلتيهما تشير الآية ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت 50]، فالآيات لفظ عام، كما سنبين المراد به في القصص - إن شاء الله.

(1) رواه مسلم (148).

وأخيراً، فما كل الناس ستنتفعهم النذر {وَمَا تُعْنَى الْآيَاتُ وَاللُّذُرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس ١٠١]، وهؤلاء سيعترفون بحماقتهم بعد فوات الأوان {كَلَّمَا لَقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [الملك ٨]. وبخلاف ذلك فإن العقلاء فقط - هم من ينتفعون بالإنذار، وهم الذين يقرؤون آيات الله ﷻ، فينتفعون بها، وينفعون {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ} [يس ١١]. فحتى ينتفع الإنسان فعليه أولاً أن يتبع، ثم يوقن بما ينذر به.

عطاء لله: تكبير الرب

أول آيات أنزلت من سورة العلق، قد أبانت للإنسان من هو ربه، فربه هو الذى أوجده وأعطاه مقومات الوجود، ثم بينت سورة القلم بعض ما أعطى الله ﷻ للإنسان من نعم وما عليه أن يفعل تجاهها، ثم بينت سورة المزمل، أن على الإنسان شكر ربه بأن يسجد فى محراب الحياة للوكيل الحق. وهنا تأتى سورة المدثر لتلخص ما يجب على الإنسان أن يعطى ربه تجاه العطاءات الإلهية - عليه أن يكبر ربه (وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ} {٣}).

والتكبير فى اللغة: غاية التعظيم، ومادة (ك ب ر) تدور حول العلو وبلوغ غاية الشئ فى التعظيم، ومن أسماء الله ﷻ: الكبير والمتكبر وهو العظيم ذو الكبرياء، المتعالى عن صفات الخلق. وتكبير الرب تعظيمه بما يستحقه، ورؤية كل ما سواه صغيراً، لأنه هو وحده الكبير. وعقيدة التكبير عقيدة سعى الإسلام إلى غرسها فى النفوس منذ أول وهلة؛ لأن عليها مدار الدين؛ ذلك أن كل عبادة تقع فى الأرض تنشأ عن التكبير، فالذى يُكبر (يعظم) صنماً سعيده، والذى يعظم شمساً يعبدها، والذى يعظم هواه يعبده ويؤلهه، والذى يعظم زعيماً أو رئيساً أو... الخ. يعبده، والذى يعظم مذهباً أو فكرة يعبدها، والذى يعظم مادة يؤلهها... الخ. والذى يعظم خالقه سعيده ويؤلهه.

وكل غني سواك فقير	وأنت على كل شئ قدير
وكل قوي سواك ضعيف	وكل كبير سواك صغير
وكل عزيز سواك ذليل	وكل عظيم سواك حقير

ولكن يبقى السؤال: من الذى يستحق التعظيم والتكبير من بين سائر المعبودات؟(*)

لاشك أن المعبودات الزائفة تستمد عظمتها من عبّادها فهم الذين يجعلونها كبيرة

(*) هذا السؤال ستجيب عنه بالتفصيل سورة (الكافرون)، والسور التي نزلت بعدها.

كما قال تعالى ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف ٥٤]، وقال ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء ٦٨] - ويكفي هذا دليلاً على زيف تلك الآلهة وحقارتها وصغرهما.

أما المعبود الحق فهو صاحب العظمة المطلقة، والتعالى الكبير، هو الكبير المتعال، وهو الذى يفيض على عباده من عظمته ويجعل لهم قيمة حقيقية، ويمدهم بقوة حقيقية عندما يتصلون به. ولهذا فإن عابد الله ﷻ لا يخشى أحداً سواه، ويضحى فى سبيله بكل شئ؛ إذ هو يرى كل شئ على حقيقته، فالصغير يراه صغيراً والكبير يراه كبيراً، إنه لا يصاب بمرض القلب ذي المرايا المقعرة الذى يكبر الأشياء الصغيرة، ويعطيها فوق حجمها، ولا القلب ذي المرايا المحدبة الذى يصغر الأشياء العظيمة، إنه صاحب القلب السليم الذى يكبر الرب الكبير. ثم يستمد من تكبير ربه مقومات وجوده فى الحياة - أما ذوو الأسقام فإنهم ينحرفون ويعطون هذا العطاء لغير الله ﷻ، فيضلون ويشقون، والمريض لا يستطيع تقدير الأشياء على حقيقتها إنه يطعم الحلو فيقول: مر، ويطعم العذب فيقول: أجاج. ومن يك ذا فم مر مريض يجد مُرّاً به الماء الزلالاً

عطاء للنفس: (وَيْثَابِكَ نَطَهَّرُ {؛})

الطهر: النقاء من كل ما يشين، يقال: فلان طاهر الثوب أو العرض أو الذيل، أى: نقي برئ من الدنس، وكل ما نقي من النجاسة والدنس والأذى فهو طهارة. والثياب: كل ما يلبس، وإذا اقترن لفظا الثياب والطهارة تعددت دلالتهما فى العربية، فيقال: فلان طاهر الثوب: أى برئ من العيب، وقد يراد الطهارة الحسية، ولكن غالباً ما يراد به الطهارة المعنوية، كقول النابغة: ثياب بنى عوف طهارى نقية.

وخير ما يعطى الإنسان لذاته هو التطهير، تطهير جميع جوانبها: الجسدية والروحية والعقلية والنفسية. وتطهير الثياب يرمز إلى تطهير الجانب الظاهرى المتمثل فى الجسد وما يلبس، وإلى الجانب المعنوى المتمثل فى تطهير الروح والعقل والنفس من كل أذى، وعملية التطهير عملية شاقة، ولكنها أعظم عمل يقوم به الإنسان، لأن الذى يطهر نفسه يكون قادراً على تطهير غيره، وعلى نشر الطهر وإقامته فى الحياة، ولكن من دون هذه العملية يظل الإنسان عاجزاً، قابلاً قانعاً بالأقل والأذل. **إن تطهير الذات يعنى ارتكاز الإنسان على قواعد صحيحة فى التفاعل مع معطيات الوجود.**

يظهر جسده، وينقيه من عوامل الضعف والوهن، فيكون جسداً صحيحاً قوياً قادراً على تحمل الأعباء، ولا يلبس عليه إلا نقيّ الملابس، وظاهر الثياب، فالظاهر لا يلبس إلا

طاهراً.

ويطهر روحه، فلا يدعها تقع تحت أى تأثير يندسها ويركسها، وأعظم ما يندسها أن تعطى التكبير والتعظيم لمن لا يستحقه من دنيا أو هوى، ولكن تكبير الرب هو الذى يطهرها.

ويطهر عقله أن يقع تحت تأثير الهوى أو التعطيل، ومن ثم فهو عقل علمى يستند إلى أسس العلم، نقدي يرفض الزائف، برهانى لا يقبل قضية بلا دليل.

ويطهر نفسه، فلا يندسها أو يركسها بمثبطات الحياة والاستسلام للعوائق التى تصرف النفس عن الوصول إلى أعلى المراتب، ولهذا فهو دائم السعى فى تطويرها، وإمدادها بالأخلاق الحسنة، وتزويدها بما يؤهلها للقيام بمسئولياتها.

من هنا فإن من واجبات الإنسان الأولى فى الحياة هى القيام بعملية التطهير الشاملة لنفسه وعقله وروحه وجسده - وإلا فقد المبرر لأساسى لوجوده، فمن لم يطهر نفسه ولم يرض بتطهيرها، فإن الأولى حينئذ أن تُطهر الأرض منه.

عطاء للحياة: هجر الرجز (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ!)

الرجز هو عبادة الأوثان، والعبادة تعنى التعظيم والخضوع والاستسلام، والأوثان هي كل ما عبد من دون الله ﷻ حجراً كان أم بشراً، مذهبا أم فكرة، وطناً أم قومية... والهجر هو الترك الذى يصحبه إعراض وإقصاء، لا مجرد الترك، وعليه فالهجر ينشأ من كراهة؛ إذ لا أترك الشيء معرضاً عنه إلا بسبب كراهتي له. فهجر الرجز يعنى ترك الأوثان والإعراض عنها وإقصاؤها ونبذها، حتى لا يبقى لها سبيل إلى القلب. وهذا الهجر يقتضى المواجهة، ومن هنا تنشأ المواجهة بين هاجري الرجز وعابديه فى الحياة.

وهجر الرجز عملية ذات بعدين: بُعد داخلي، حيث يتوجه الإنسان إلى نفسه لاستئصال جذور الرجز ونبذها، وبُعد خارجي، حيث يتوجه الإنسان إلى حياة الناس لاستئصال جذور الرجز وسحقها. ومن ثم يجتمع المؤمنون المتعاونون على هجر الرجز، يجتمعون على إزالة هذا الداء من حياة الناس، بكافة الوسائل. وهذا أمر يحتاج إلى جهود جبارة، جهود جماعية واعية، وتضافر القوى الخيرة فى هذه الأرض لتحقيق هذا الهدف.

هذا العطاء هو المظهر الاجتماعي للعبادة فى الإسلام، وهو الهدف النهائي

للدين فى الأرض؛ فالدين جاء لاستئصال شأفة الرجز أياً كان اسمه أو شكله، ثم إقامة مبادئ الحق والعدل فى حياة الناس. والأول يسمى نهياً عن المنكر، والثاني يسمى أمراً

بالمعروف. وهذه هي وظيفة الأمة التي تحمل الإسلام {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران ١١٠].

وبعد، فهذه العطاءات لا خيار للإنسان فيها؛ فالله ﷻ يأمره بالقيام بها، فعلى أهل التقى والصلاح أن يكفوا عن انعزالهم، ويأخذوا أنفسهم بالجد في إصلاح الناس وهدايتهم، لقد مضى عهد النوم، وولى زمن التدثر والانطواء؛ فليقم أهل الحق إلى المكان الذي يتمكنون فيه أن يندروا الناس كافة. غير أن هذا السعي ليس باسم شخص أو حزب أو فئة... إنما هو باسم الله ﷻ الذي ينبغي أن يصدق باسمه في كل مكان. وباسمه يستعلون على ضعة الحياة وخستها، ويتجردون له بتطهير أبدانهم. الأبدان المتوضئة، وثيابهم. الثياب الطاهرة، وقلوبهم. القلوب المطمئنة التي تهجر متع الحياة كما تهجر أوثانها وأصنامها وطواغيتها، وتتجه إلى ربه داعية إليه، وتحمل في سبيله كل أذى. صابرة راضية، لا تسخط على الناس بل تدعوهم حتى يستجيبوا، ولا تمن على أحد؛ فالدعوة للناس جميعا. فهذا واجب الفئة المؤمنة، وهذه منهجيتها في سياسة الناس.

﴿ الصبر والتواضع ﴾

هذه العطاءات العظيمة التي تجعل للإنسان كيانا حقيقيا، وتعطيه امتدادا جذريا يتصل من خلاله بأول الخلق كما يتصل بأخرهم. تستلزم من الإنسان شيئين: الأول: ألا يستكثر ما يعطي؛ فالاستكثار سيبتبعه من، والمن يحبط الأعمال، ويذهب بركتها. وما الذي يستكثره الإنسان والله ﷻ هو الذي يسر له سبل العطاء وأمكنه منها ووجهه إليها؟! (ولا تَمَنَّ سَتَكْتُرُ {١}).

الثاني: الصبر؛ لأنها عطاءات شاقة تحتاج إلى كفاح، ومجاهدة، ومكابدة، ومواجهة، ومواجهة مع النفس ورغباتها، ومع الشيطان وحبائله، ومع الهوى ونزواته، ومع المجتمع وعاداته، ومع شياطين الإنس وأصنامهم وأوثانهم. فهي عطاءات تحتاج من الإنسان إلى أن يكون من الغرياء الذين قال رسول الله ﷺ عنهم: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرياء. قيل من هم يا رسول الله ﷺ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس"^(١). هذه الوظيفة لا يقوم بها إلا أولو الهمم وأرباب العزائم. ومن دون الصبر الذي يرى فيه الصابر وعد ربه ورضاه. فلن يقدر الإنسان على عمل شيء. (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ {٧}).

ومن تحمل هذه المشاق يسر الله ﷻ عليه أهوال القيامة، وأما من أبى أن يعطي وبخل وكفر، فليتمتع في الدنيا، وسيرى يوم القامة أي عسر سيقع فيه (فَإِذَا بُرِّئَ فِي التَّائِقِرِ {٨})

(١) رواه أحمد (١٦٧٣٦)، وصححه الألباني.

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ {١} عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ {٢}، وقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنَسِّرُهُ لِّلْيسْرَى {٧} وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى {٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى {٩} فَسَنَسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى {١٠}) [الليل: ٥. ١٠]، وفي الحديث القدسي (وعزتي لا أجمع على عبيد خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنتهم يوم القيامة، وإذا أمنتني في الدنيا أخفتهم في الآخرة) (١).

قانون العطاء (عطاء الإنسان يقابله زيادة النعم)

كلما أعطى الإنسان ازدادت نعم الله ﷻ عليه، {لِإِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم ٧]، والشكر هو حسن التعامل مع النعم، وكلما بخل الإنسان جنى على نفسه، وعرضها لسخط الله ﷻ. إن الإنسان لا يمنّ بعطائه على ربه، بل إن هذا العطاء هو أقل ما يقوم به الإنسان تجاه نعم الله ﷻ العظيمة التي لا تعد ولا تحصى؛ فالإنسان جاء إلى الدنيا وحيداً لا عدد له، فقيراً لا مال له، ضعيفاً لا قوة له، هملاً لا مكانة له، عاجزاً لا قدرة له. فمنّ الله ﷻ عليه بالعدد من القبيلة والولد، ومنّ عليه بالأموال الوفيرة، وقوّاه بعد ضعف، فأصبح ذا عضلات مفتولة، وأسلحة فتاكة، ومهد الله ﷻ له في الأرض وآتاه القدرة على تسخيرها. أفليس أشد البخل أن تُعطى كل هذا ثم تمنع من أعطاك شيئاً يسيراً؟! ومع ذلك فهو يزيدك في كل ثانية ما تعجز عن شكره، يعطيك الأنفاس والحياة، ويفتح لعقلك آفاقاً فاسحاً، ويرفع عنك بلاء عظيماً.

وأعظم النعم الإلهية نعمة الهداية، التي جعلت للإنسان كينونة عليا، وميزة كبرى على سائر المخلوقات، حيث نصب له دلائل الهداية في سائر المخلوقات، وأعطاه من الوسائل ما يوصله إلى معرفة هذه الدلائل، فيستدل بها على الخالق، ثم لم يكله مع ذلك إلى نفسه، بل أرسل إليه رسلا، وأنزل كتباً يهتدي بها إلى عمارة الأرض بالصلاح، وإلى فلاحه في الدنيا والآخرة.

كل هذا يقتضي من الإنسان أن يشكر ربه فيؤمن به، ويقوم في الأرض بوظيفته. أما أن يعاند آيات الله ﷻ ويكفر بما جاء من عند الله ﷻ. فهذا هو الظلم الذي يستحق عليه الذل والصغار والعسر والضنك والتعاسة؛ فلا يذوق طعم السعادة، ولا يصل إلى أبوابها. حياته في جحيم وشقاء، إنه يسلب معنى الحياة في الدنيا، ويسلب معناها في الآخرة، أما في الدنيا {فإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً} [طه ١٢٤]، وأما في الآخرة فإنه {يصلى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٤٠)، وصححه الألباني.

فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ} [الأعلى: ١٢- ١٣]. وهذا هو الصعود^(١) الذي سيرهقه الله ﷻ إياه في الحياتين (ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} {١١} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا} {١٢} وَبَيْنَ سَهْوَدًا} {١٣} وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا} {١٤} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} {١٥} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا} {١٦} سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا} {١٧}).

العطاء السلبي

هناك صنف من الناس يبخل أن وجود بعطاء إيجابي في هذه الحياة، وإن جاد بعطاء فإنما وجود بعطاء سلبي، يعكس تعاملًا خاطئًا مع نعم الله ﷻ، وهذه الآيات تصور الإنسان ذا العطاء السلبي تصويراً بديعاً، وتنفّر منه تنفيراً: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} {٨} قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ} {٩} ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ} {١٠} ثُمَّ نَظَرَ} {١١} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} {١٢} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} {١٣} فَقَالَ إِنِ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ} {١٤} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} {١٥}).

ولنتأمل عناصر العطاء في هذه الآية فسوف نجد أنها دارت حول: التفكير والتقدير والنظر، والعبوس والبسور، والإدبار والاستكبار، والقول بأن القرآن سحر، هذه العناصر يمكن أن تجمع في عدة محاور، العطاء العقلي: التفكير والتقدير، والعطاء التعبيري، وهو إما غير لغوي: النظر والعبوس والبسور. وإما لغوي: القول بأن القرآن سحر. أما الإدبار فهو إشارة إلى سلبية العطاء التعبيري، وأما الاستكبار فإشارة إلى سلبية العطاء العقلي.

﴿﴾ التفكير فالتقدير ثم التعبير

والتفكير هو أعلى أعمال العقل، فهو بوابة المعرفة الحقيقية، وبوساطته ينتج الإنسان ويبعد ويبني، وعن طريقه تتحقق للإنسان إنسانيته، ويتميز عن سائر المخلوقات. أما التقدير فهو النتيجة الإبداعية للتفكير، يقال: قدر فلان: أي: تمهل وفكر في تسوية أمر وتهيئته، قال تعالى: {وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ} [سبأ: ١١].

ولهذا فإن التفكير هو البدء والتقدير هو الختام، والتفكير محمود، أما التقدير فإن كان صحيحاً فهو محمود، وإن كان خاطئاً فهو مذموم، والإنسان لا يلام على تفكيره إنما يلام على تقديره. ولهذا لعن الله ﷻ هذا الكافر مرتين مؤكداً على سوء تقديره (قَتَلَ كَيْفَ

(١) الصعود، هو المشقة، قال مجاهد: {سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا}، أي: مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه. وقال سيد قطب في الظلال: "هو تعبير مصور لحركة المشقة. فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشدّه إرهاقاً. فإذا كان دفعاً من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقاً. وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود، يندب في طريق وعر شاق مبتوت، ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق، كأنما يصعد في السماء، أو يصعد في وعر صلد لا رية فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق"

قَدَّرَ}»} ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ{«}. والنتيجة التي أوصلها إليه تفكيره هي الاستكبار والنفار عن الحق، والتكذيب به، وهذا بسبب سوء تقديره للحقائق لا بسبب تفكيره فيها. فالتفكير مطلوب في كل شيء، ويبقى بعد ذلك التقدير أهو تقدير حسن قام على التسلسل البرهاني الصادق فيؤدى إلى اليقين والإيمان، أم تقدير سيئ قام على البرهنة المزيفة، وقسر الحقائق، فيؤدى إلى الاستكبار والإعراض.

وأما العطاء التعبيري فهو الصورة الظاهرة للتفكير، فالإنسان عندما يكون لديه معنى من المعاني، فإنه يتعامل معه بمرحلتين متتابعتين. الأولى: المرحلة الباطنة، المتمثلة في التفكير والتقدير. والثانية: المرحلة الظاهرة، المتمثلة في التعبير. والذي يعبر عنه الإنسان، إنما ينبعث من داخله، ولهذا جعل التعبير الظاهري أمانة حقيقية على ما بداخل الشخص، سواء كان لغوياً، كقوله:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
أم غير لغوى، كقوله:
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عيناى فى لغة الهوى عيناها
وقوله:
وفى وجوههم تبدو ضمائرهم
تنبئك عن سرهم جهراً وإعلاناً

وهذا الكافر صاحب العطاء السلبي، كان عطاؤه متميزاً، فاستوعب قدرات التعبير الممكنة لديه بعينه وبوجهه، وبحركة جسمه. وتمثل العطاء السلبي لهذا التعبير فى الإدبار، وهى حركة الجسم المضادة للإقبال، فالإقبال يدل على قبول، والإدبار يدل على رفض، ولو كلمت شخصاً فأدبر عنك لعلمت بهذه الحركة إعراضه عنك.

وهكذا تتابع الحدث وتلاحقت سلسلته منذ أن بدأ بالتفكير ومروراً بالتقدير ثم الاستكبار فى مرحلته الباطنة، ثم ظهوره فى الخارج بمختلف التعبيرات غير اللغوية أولاً، ثم تلخيص كل ذلك فى التعبير اللغوى، فقال: (إِنَّ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}»} {إِنَّ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ}«).

فهو رمى القرآن ومُنزله ومن نزل عليه، بهذه العبارة التى تلففتها السنة الكافرين حتى اليوم (إِنَّ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}»} {إِنَّ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ}«) يدعي أن الله ﷻ لم ينزله، والرسول يفتري، والقرآن مُفْتَرى - إنما الرسول ساحر، وما جاء به هو السحر. كلام سخيف، ولكنه خطير، أما سخافته؛ فالأنه يتعارض مع كل الأدلة المنصوية فى الوجود على أنه حق نزل من عند الله ﷻ على رسوله الكريم ﷺ. وأما خطورته؛ فالأنه جاء بعد تفكير ثم تقدير

خاطئ، فأخذ مقام النظرية التي يقيّمها أصحابها على دلائل وبراهين، وبغض النظر عن صحة ذلك، فإن القرآن بين أنه لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد التقدير، ولهذا لعن مرتين على هذا التقدير.

وجراء هذا الظلم الفاحش في التقدير والاستنتاج كان وعيد الله ﷻ له بد(سَقْرُ) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقْرُ ﴿٧﴾ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴿٨﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٩﴾.

إن التفكير أمر مطلوب من الإنسان في كل شيء، ولهذا كان القرآن الكريم يدعو المشركين إلى التفكير، ويطالبهم بالحجة على ما يقولون، وبالرغم من أنهم كانوا ينكرون الله ﷻ، فقد طالبهم القرآن بأن يبرهنوا على صحة ما يعتقدون، (قل هاتوا برهانكم)، وأورد هذا القانون بعد الآيات التي يقول فيها {إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل ٦٤].

ذلك أن ديننا قائم على احترام العقل، والانسجام مع قوانين الفطرة، فالذي

أنشأه هو الذي أطرد تلك القوانين في الآفاق وفي الأنفس. وفي سورة النمل سنرى أن هناك دائرة ضيقة حرم على عقل الإنسان ولوجها؛ لأنه لم يملك الوسائل التي تؤهله لخوضها، وهي دائرة الغيبيات المطلقة، إنما يستقى معلوماته عنها ممن هي عنده شهادة {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التغابن ١٨].

إذن فالتفكير غير مذموم، ولكن الاستنتاجات التي تبنى على التفكير هي محل المساءلة، وهي محل اللوم إن فرط الإنسان في قوانين التفكير المنطقية. لك أن تفكر ولكن بصورة صحيحة حتى تصل إلى نتيجة صحيحة، أما أن يتحكم هوى أو تقليد أو عادة.. الخ. في سير عملية التفكير فهذا مرفوض كل الرفض، وديننا رفض هذا.

والخلاصة أن أي عطاء إنساني - أيًا كان نوعه، وأيًا كان مظهره - له ثلاث مراحل: مرحلة التفكير، ثم مرحلة التقدير، ثم مرحلة التعبير.

فالقرآن جاء يدعو إلى الأولى، ويفرضها على الناس؛ لأنها طريق الإنسان ليعرف نفسه وخالفه، ويقوم حياته وفق الأسس الصحيحة. ولم يجد دينَ التفكير مثل ما مجده الإسلام. أما الثانية فهي الطرق المتحكمة في التفكير، وهي ما تسمى بـ(التقدير) فالتقدير له كفتان: كيفية حسنة وكيفية سيئة، ومن هنا يوصف التقدير بأنه حسن إن كانت تلك الطرق حسنة، ويوصف التقدير بأنه سيئ إن كانت تلك الطرق سيئة.

وحسن التقدير يكمن في النظر المجرد إلى الدليل، نظراً مجرداً عن أي تأثير خارجي، إنما هو البرهان، والسير مع مقتضاه حتى النهاية. وهذا ما دعا إليه القرآن. والناس تختلف في هذا السير، فقد يسير المفكر وفق هذه الأسس حتى يصل إلى نتيجة صحيحة مطابقة، وقد يسير وفق هذه الأسس، ولكنه قد يخطئ في الوصول إلى النتيجة المطلوبة وهذا غير ملوم أيضاً، فحسبه أنه اجتهد، وهذا ما جاء به ديننا العظيم (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)^(١)، إذن فله أجر جراء تفكيره، وجراء تتبعه لأسس التفكير الحسنة.

أما سوء التقدير، فهو عدم الاعتداد بالدليل، ولعدم الاعتداد صور شتى، فقد لا يعتد بالدليل أصلاً في الوصول إلى الحكم، وقد يعتد به، ولكن لا يجعله فيصلاً، إنما يعتد بمؤثرات أخرى، وهذه المؤثرات كثيرة منها الهوى والتقليد ومراعاة رضا الناس، والتعصب، والإعجاب بالرأي، وغير ذلك. وسوء التقدير هو الذي ترتب عليه وعيد الله ﷻ في الدنيا والآخرة - وعيد شديد، يمكن تتبعه في القرآن. (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرًا) { }، وتأمل حين قال القرآن: فقتل كيف قدر، ولم يقل: فقتل إذ قدر؛ لأن التقدير في ذاته غير مرفوض، إنما ينظر إلى كلفه، فإن كانت كيفية صحيحة فإنها ستسلم إلى نتائج حسنة، ومن ثم لا يمكن لعن من اتبع هذه الكيفية في التقدير، أما الكيفية الشنيعة الأخرى، فهي المذمومة الملعون فاعلها.

أما المرحلة الثالثة فهي التعبير، والمراد به النتيجة، أو الاستنتاج، فإن قامت النتيجة على تقدير حسن ولو كان خاطئاً فهي نتيجة حسنة، وإن قامت النتيجة على تقدير سيئ كانت النتيجة سيئة، وصاحبها مذموم.

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

حرية التفكير

وهنا تثار نقطة مهمة، وهي قضية: حرية التفكير، حيث طال التشدد بها، وأكثر الوالغون الحديث فيها، وأصبحت ستاراً يمارس خلفه أبشع أنواع اغتيال التفكير وسحقه ودماره. إنه ستار يقوم على مغالطة الحقائق، والعبث بالمفاهيم. هذه الفئات لا تستحي أن ترفع هذا الستار كلما أحست بأن زيفها مفضوح، وأن باطلها عراء.

وأقول هنا: نعم لحرية التفكير، لا لحرية التقدير. نعم لحرية التفكير مطلقاً، ونعم للتقدير الحسن الذى يقوم على أسس سليمة من التفكير، أما التقدير السيئ الذى يقوم على مؤثرات ذميمة من هوى وتعصب وانخداع وانبهار وتقليد وجمود فلا لهذا التقدير. فحرية التفكير مكفولة، والنتائج الحسنة -سواء أصائب أم خاطئة- مقبولة، ولكن هذا لا يمنع من بيان الحق، وتمحيص هذه النتائج، ونشر الصحيح الصواب، وطى الخطأ.

فالتقدير الذى يتبع التفكير -هو عطاء إنسانى، فإن كان تقديراً حسناً فهو عطاء إيجابى، وإن كان تقديراً سيئاً فهو عطاء سلبي يستحق صاحبه الذم واللعن، ويتوعد الله ﷻ صاحبه بجهنم.

إذن فالعطاء الإنسانى يكمن فى التقدير، ويظهر فى التعبير، أما التفكير فهو حامل بذرة العطاء، والتقدير هو الذى يتكفل برعاية هذه البذرة وتنميتها، حتى تظهر للناس، فإن كان التقدير حسناً كان التعبير شجرة تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها، وإن كان التقدير سيئاً كان التعبير شوكة يؤذى من يلمسه.

ولأن العطاء السلبي أظع سمة تسم الإنسان، وأشنع شئ يقترن به فى هذه الحياة، ولأنه دلالة على انحطاط نفس الإنسان، وبلوغه مبلغاً عظيماً فى الانتكاسة - لكل ذلك فقد أوعد الله ﷻ هذا الإنسان بجهنم، ثم استطرد فى وصفها، ووصف فظاعتها ليبين أن هذا الإنسان صاحب العطاء يستحق هذا الهول، وهذا العذاب الشديد، قال تعالى (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ {٣}) إلى قوله (وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ {٣}).

(نَذِيرًا لِلْبَشْرِ)

والآية واضحة فى أن جهنم جعلها الله ﷻ ذكراً للبشر كي يتعظوا، ويقسم الله ﷻ (كَلَّا وَالْقَمَرِ {٣} وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ {٣} وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ {٣})، على أن جهنم آية كبيرة (إِنَّهَا

لَا حُدَى الْكُبْرَ {٢٥}، وقد جعلها (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ {٣})، فهي تذكركم وتذريهم. والبشر بعد ذلك يختارون فمن شاء أن يعطى عطاء إيجابياً يتقدم به في دنياه وآخرته فعل، ومن شاء أن يعطى عطاء سلبياً يتأخر به فعل، وكل إنسان مرتين بعمله وبكسبه، فالذى يعطى عطاء إيجابياً سيفلح، والذى يعطى عطاء سلبياً سيخسر (لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ {٣}) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ {٢٨}).

إن أصحاب الجنة الذين قدموا لأنفسهم عطاء إيجابياً في هذه الحياة، أصحاب الجنة في مأمن من العذاب، بل هم هناك في الجنة يمرحون ويتحدثون، ثم يتساءلون عن أولئك المجرمين أصحاب العطاء السلبي، الذين أخروا أنفسهم، يتساءلون، ويمكنهم الله ﷻ من مخاطبتهم ليسألوهم عن سبب دخولهم سقر (دار الكفار). وهنا تأتي الإجابة متوقعة، فهم يعترفون بأن الذى أدخلهم سقر هو الشح بالعطاء حيث رفضوا أن يكونوا من أصحاب العطاء الإيجابي في الدنيا، وكان عطاؤهم سلبياً.

والى منع العطاء الإيجابي أشاروا بقولهم (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ {٤٣}) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ {٤٤} ن لم يعطوا لربهم ولا لمحتممهم وإلى العطاء السلبي أشاروا بقولهم وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ {٥٥} وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ {٥٦} حَتَّىٰ أَنَا الْيَقِينِ {٥٧}).

والخوض اقتحام الشيء، يقال: خاض الغمرات: اقتحمها، وخاض بفرسه الماء: اقتحمه، وغالباً ما يستخدم الخوض في الحديث، يقال: خاض القوم في الحديث أى اقتحموا كل جوانبه، وشعبوا القول فيه، وكثيراً ما يقترن بالإثم، يقال: خاضوا في الحديث: أى اقتحموا حرماته، وتكلموا بما لا ينبغي، قال تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام ٦٨]، فالخوض أمانة على العطاء السلبي المتمثل فيما ينتجه لسان الإنسان وقلمه من أحاديث وأفكار، فكل باطل من القول يعطيه الإنسان فهو خوض باطل {فَنَذَرُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} [الزخرف ٨٣].

أما التكذيب فهو يشمل القول والفعل والاعتقاد، فالإنسان قد يكذب بلسانه، وقد يكذب بقلبه، وإن لم ينطق بذلك، وقد يكذب بفعله - وإن لم ينطق أيضاً، كمن أخبرته أن هناك رجلاً جاء ليقنته، ولكنه لم يقم ليأخذ حيطته وحذره، فهو مكذب بما يعمل.

والتكذيب باليوم الآخر، هو مطلق التكذيب سواء بالقلب أم باللسان، أم بالجوارح - وهو قمة العطاء السلبي قال تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكْذِبُ بِالذِّينِ {١} فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ {٢})

وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ [الماعون: ١-٣]، فعرف المكذب هنا بمن يعمل السوء من الأعمال، لأنه لو آمن باليوم الآخر لأحسن العمل، وقد قال تعالى في المكذب والخائض (فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾) [الطور ١١-١٢].

أسباب الشح والعطاء السلبي

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾)

سيعترف صاحب العطاء السلبي حين يدخل جهنم أن سبب هذا الجزاء هو الشح بالعطاء الإيجابي، وإنتاج العطاء السلبي. ولكن هذا الاعتراف سيكون بعد فوات الأوان، ولهذا لا ينفعهم اعتراف {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك ١٠]، ولا تنفعهم شفاعة أحد (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾). أفليس من الأحسن لهم أن يعترفوا الآن، وينظروا فيما ينفعهم، قبل أن يحيق بهم العذاب، ما الذي يجعلهم يفرون ويعرضون عن التذكرة؟ (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾)، وما الذي يجعلهم يفرون؟ هل يريد كل واحد منهم أن يوحي الله ﷻ إليه، وأن ينزل عليه كتاباً (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَشَّرَةً ﴿٥٥﴾) - إذن لا اضطربت الحياة، وساءت الأمور، واختلطت التقديرات {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام ١٢٤].

أما السبب الحقيقي للشح، والعطاء السلبي فإنما هو عدم الإيمان باليوم الآخر، فالذي لا يؤمن بالآخرة لن يبادر إلى العطاء الإيجابي، فلا يعمل الصالحات، ولا يؤمن بريه، ولا يزكى نفسه، ولا يحسن إلى مجتمعه، إن حياته خالية من الرصيد الإيجابي، إنها شح وكنود (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) [العاديات ٦] - كما أنه لن يكف عن أي عطاء سلبي، فسجل حياته ملئاً بالإثم والمنكرات، والمعاصي والسيئات، (كَلَّا بَلْ يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٠﴾).

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الاستقامة في الحياة، ولعلنا نفهم الآن بعض السر في حديث السورة - سورة المدثر - المستفيض عن اليوم الآخر، حتى إنه أخذ ثلث السورة تقريباً، ونفهم بعض السر في حديث القرآن المستمر عن اليوم الآخر، إن الإيمان باليوم الآخر يكشف للقلب مشاهد الحق واليقين، فينطلق في هذه الحياة وأمام ناظره مشاهد الحق، ويعلم أنه إذا استقام في الدنيا فإنه سيكرم في اليوم الآخر، وإذا أساء العمل في الدنيا فإنه سيهان في اليوم الآخر - ينطلق وقد أيقن كل اليقين بوعد ربه ووعيده فيعمر الأرض بالصلاح والهدى.

إن الإنسان لا يقع في غفلة أو عصيان أو إساءة إلا حين يغفل عن اليوم الآخر، ولو لم يغفل لحسب لليوم الآخر حسابه، حتى المسلم عندما يعصي فإن قلبه وقت المعصية قد غفل عن اليوم الآخر "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن..."^(١).

ولكن القرآن جاء تذكرة لهؤلاء ولغيرهم، يذكرهم بما عليهم، وبما ينتظرهم، فمن شاء منهم أن يزكى نفسه، ويسلك طريق الفلاح فعل، ومن لم يشأ فعل. ولكن ليعلم الإنسان أنه بتوفيق الله ﷻ له يفلح، وبخذلان الله ﷻ له يشقى، والله ﷻ لا يوفق إلا من استحق التوفيق بسعيه وبذله، ولا يخذل إلا من استحق الخذلان بسبب إعراضه ونفوره. وآيات الله ﷻ موضوعة لجميع الناس، ووسائل المعرفة مخلوقة في جميع البشر (كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ مِّنْ شَاءِ تَذَكُّرُهُ {هـ} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ {هـ}).

^(١) رواه البخارى (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

قدسية المعرفة وعالمية العطاء (سورة الفاتحة)

هذه السورة هي أم الكتاب، وهي أعظم سور القرآن الكريم، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {٢}) أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم^(١)، وفي صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال لأبى سعيد بن المعلى: "لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن، قال ﷺ "نعم"، (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {٢}) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته"^(٢)، وفى الترمذى وأحمد أن رسول الله ﷺ قال عن الفاتحة: "والذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته"^(٣). أردت بهذا التمهيد أن أطلعك على مكانة هذه السورة، وفضلها على سائر السور، فلم أخذت هذه المكانة، حتى لا تصح ركعة إلا بقراءتها، وهى لا تتجاوز السبع الآيات؟ وكلماتها تسع وعشرون كلمة؟

هناك أقوال شتى فى ذلك، ومنها ما نقله ابن كثير فى سبب تسميتها أم الكتاب "وقيل إنها سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته"^(٤)، وهو كلام دقيق، ذلك أن حياة الإنسان كما عرفنا سابقاً تستند إلى دعامتين، الدعامة الأولى: المعرفة، والدعامة الثانية: العطاء، فبقدر معرفة الإنسان يكون عطاؤه، وعلى نوعية المعرفة تكون نوعية العطاء. فالمعرفة الشاملة القدسية تولد عطاء إيجابياً عالمياً، والمعرفة الناقصة الأرضية تولد عطاء سلبياً ضيقاً.

ومن هنا فالقرآن الكريم جاء يقيم هاتين الدعامتين، الأولى: المعرفة، وأراد القرآن أن تكون معرفة الإنسان شاملة تنتظم النشأة والحياة والمصير، كما تنتظم الإنسان والكون، وقبل ذلك كله تؤسس معرفته بالخالق، كما أراد لها أن تكون معرفة قدسية تستمد قداستها من قداسة الخالق القدوس، وترتكز فى عظمتها على عظمة اللطيف الخبير، وينبثق كمالها من كمال المشرع العظيم.

(١) رواه البخارى (٤٧٠٤)، وهذا لفظ الترمذى (٣١٢٤).

(٢) رواه البخارى (٤٤٧٤).

(٣) رواه أحمد (٨٣٢٨)، والترمذى (٣١٢٥)، وصححه الألبانى

(٤) تفسير ابن كثير (١٢/١).

والدعامة الثانية: العطاء، وهو له جانبان: جانب إيجابي، وجانب سلبي، أما الجانب الإيجابي من العطاء فقد دعا إليه القرآن، وحث الإنسان عليه، وأبرز منافعه في الدنيا والآخرة - وأما الجانب السلبي من العطاء فقد نفر منه، وحاربه، وأبرز مساوئه في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة. وقد رأينا في السور السابقة بعض هذه الجوانب. فمعاني القرآن كلها دائرة حول هاتين الدعامتين، فجاءت سورة الفاتحة تتضمن أبرز خطوط المعرفة المختلفة، وتعرضها في إطارها القدسي، كما دعت إلى عالمية العطاء الإيجابي المتمثل في عبودية المهتدين الذين هم على الصراط المستقيم، وحذرت من العطاء السلبي المتمثل في سلوك المغضوب عليهم والضالين. هذا وسوف نعرض لهذه القضية من خلال ثلاثة محاور: قدسية المعرفة، وعالمية العطاء، وتزواج المعرفة المقدسة والعطاء العالمي.

المحور الأول: قدسية المعرفة

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} {، نتناول هذه الآية من زاويتين، الأولى: المعرفة التي تقدمها، والثانية: قدسية هذه المعرفة.

الزاوية الأولى: المعرفة التي تقدمها

تقدم هذه الآيات أكبر قاعدة تقوم عليها الحياة، وترتكز عليها سائر العلاقات، إنها قاعدة معرفة الخالق. وفي بيان أهمية هذه القاعدة يقول سيد قطب -رحمه الله - "ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون، وفي أمر نفسه وفي منهج حياته، قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته، وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه، وهذا الركام الثقيل"⁽¹⁾. هذا التصور يقوم على أربع أسس وهي: (الألوهية، الربوبية، الرحمة، العدل)، وكل أساس من هذه الأسس يربط الإنسان بتصور حول علاقة من العلاقات الخمس، وهي: علاقة الإنسان مع خالقه، ومع الكون، ومع الإنسان، ومع الحياة، ومع اليوم الآخر. فأساس الألوهية يوجه علاقة الإنسان بالحياة. وأساس الربوبية يوجه علاقة الإنسان بالمخلوقات: الكون والإنسان. وأساس الرحمة يوضح للإنسان علاقة الخالق به. وأساس العدل يوجه علاقة الإنسان باليوم الآخر.

(1) في ظلال القرآن، ٢٣/١.

وأما علاقة الإنسان بخالقه فيوضحه أساس آخر وهو العبودية، وسيأتى فى المحور الثانى.

أساس الألوهية

الألوهية هى الأساس الأول من أسس هذا الدين، وهو الركن الأول من أركان الإسلام، {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد ١٩]، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص ١]، وفى الحديث الشريف: "بنى الإسلام على خمس: أن تشهد ألا إله إلا الله"^(١). فالألوهية تعنى أنه لا إله فى هذا الكون إلا الله ﷻ، والإله هو المستحق للتأليه والعبادة، فلا أحد يستحق العبادة إلا الله ﷻ.

وعندما تتقرر هذه العقيدة فى وجدان الإنسان، فإنها تترجم إلى سلوك يصبغ حياته، فيتوجه فى حياته إلى المعبود الحق - يستمد منه قيمه ومنهجه وأسس علاقاته، فمن ثم لا يكون فى حياته إلا تشريع واحد ينبثق من إله واحد. ينطلق فى هذه الحياة لا يخضع إلا للإله الواحد، ويرفض أن يذعن لغير الله ﷻ، فلا يتوجه بتقديس أو عبادة أو خضوع أو استسلام لغير الله ﷻ، يرفض كل ما عدا الله ﷻ، سواء أشرأ كان أم حجراً، أم مذهباً أم فكرة.

فأنت أيها الإنسان عندما تؤله إلهاً واحداً، فلن يكون فى حياتك أى شائبة تغض من كرامتك، والحياة تكون فرصة لجميع البشر يعمرونها، دون أن يستأثر أحد على أحد بما ليس له. وتكون الفرص فيها متكافئة للجميع، لا فضل لأحد على أحد، ولن يكون هناك تجبر أو غطرسة لأبيض على أسود، أو لأصفر على أحمر.

إن إقامة الحياة على أساس الألوهية الواحدة هو الضمان الوحيد لترسيخ مبدأ

المساواة بين البشر جميعاً، وهو المنفذ الوحيد لإقامة مبادئ الحق العليا المتمثلة فى الحرية والعدل التى ضحى من أجلها رسل الله . عليهم السلام . بكل غال ونفيس. وبعد ذلك يبقى الإنسان مكلفاً بإقامة هذه الأسس فى الحياة وفق ما يهبه الله ﷻ من قدرات، ووفق ما ينصبه الله ﷻ للناس من نعم معطاة، ونعم مسلوبة، ووفق سنة التدافع بين الحق والباطل، والخير والشر. ومن هنا ينشأ مفهوم الابتلاء {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك ٢]، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [المائدة ٤٨].

^(١) رواه البخارى (٨)، ومسلم (١٦). وله بقية.

أساس الربوبية

أما الربوبية، فتعنى قيام الله ﷻ على خلقه {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد ٣٣]، وما يقتضيه هذا القيام من تدبير ورعاية وتصريف وتوجيه دون انقطاع أو فتور. وربوبية الله ﷻ هي للعالمين جميعاً، (رَبُّ الْعَالَمِينَ) {٢}، فما المراد بالعالمين^(١)؟

هناك قولان، فابن عباس فسرها بـ "رب الجن والإنس"^(٢) بينما يرى قتادة أن المراد بـ(رب العالمين) "رب الخلق كلهم"^(٣). والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن:

١- السياقات القرآنية التي يرد فيها ذكر (العالمين) - توحى غالباً بأن المراد باللفظ: العاقلون المكلفون وهم الجن والإنس كقوله، {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} [آل عمران ٩٦]، وقوله {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان ١]، والرسول ﷺ جاء نذيراً للجن والإنس.

٢- المراد بها: الخلق جميعاً، وقد وردت في مواطن أخرى بهذا المعنى، كما قال تعالى {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف ٥٤]، فالحديث عن الخلق مطلقاً وتدبير أمرها، وهذا يناسبه تمجيد لرب الخلق جميعاً. ومثل ذلك آية الفاتحة؛ فالحديث مطلق عن الإله الواحد رب العالمين.

٣- اللفظ يشمل جميع الخلائق، ولدينا نص في هذه المسألة، حيث سأل فرعون موسى ﷺ {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء ٢٣]، فأجاب موسى ﷺ {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الشعراء ٢٤].

(١) نقف لحظة مع لفظ (العالمين) لتتأمل فيها، عالمون ج: عالم، قال في لسان العرب: "ولا واحد لـ(عالم) من لفظه، لأن عالم جمع لأشياء مختلفة، فإن جعل عالم اسماً لواحد منها صار جمعاً لأشياء متفقة، والجمع عالمون، ولا يجمع شئ على فاعل بالواو والنون (أى جمع تذكير سالم) إلا هذا" [لسان العرب، لابن منظور، مادة: ع ل م، دار صادر- بيروت]. إذن فمقتضى اللفظ (عالم) أن يجمع على عوالم، مثل خاتم وخواتم، وطابع وطوابع، ولا يجمع على (عالمين)؛ لأن جمع المذكور سالم لا يكون إلا للعاقل علماً أو صفة و(عالم) ليس كذلك، فإنه يضم الكائنات العاقلة كالجن والإنس وغير العاقلة كالكون الصامت.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

فالعالمون: لفظ يشمل جميع الخلق إذن، فيضم الكائنات العاقلة كالجن والإنس وغير العاقلة كالكون الصامت، ولكن ما سر جمعه جمع العقلاء(عالمون)، ولم يجمع على (عالم)؟

فى هذا الجمع إيماء إلى أن على الإنسان أن يقيم علاقاته مع سائر المخلوقات- وفق أسس الصداقة المطلقة، والأنس بها، وعدم الشعور بالخوف تجاهها، وعدم السعي فى قهرها إنما هى مخلوقات صديقة، تتبادل معه مشاعر هامسة وناطقة، تلتقى فى تسبيح الله ﷻ وتعظيمه {وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفهمون تسبيحهم} [الإسراء ٤٤]، وكما فطن إلى ذلك قديماً أحد الواعظين فقال: سل الأرض من شق أنهارك؟ وأنبت أشجارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً.

فالإنسان بينه وبين جميع الكائنات نسب وإخاء، فكلها تنتمى إلى رب واحد، وهذه الكائنات قسمان، القسم الأول: الكائنات العاقلة، والقرآن عرفنا بثلاث منها، وهى: الملائكة والإنس والجن. والقسم الثانى: الكائنات غير العاقلة، وهى هذا الكون العظيم وما فيه من سابحات ونيرات وأفلاك وأحياء لا يحصيها علما إلا الله سبحانه وتعالى.

❖ الإنسان والملائكة

وعليه فعلاقة الإنسان بالملائكة أن يؤمن بها، وأن يؤمن بأن الله ﷻ يدبر أمر الخلائق بها، وأنهم موكلون بحفظ الإنسان، وأنهم يكتبون أعماله، وهى تثبت المؤمنين وتصلى عليهم، وتؤيدهم وتواليهم، وتحمل لهم البشرى من الله ﷻ - فواجب الإنسان تجاهها الإيمان بها- ومولاتها، وإيمانه بها يعود عليه بالنفع فى الدنيا، والشعور بالأمان، والطمأنينة، وعدم الشعور بالاغتراب أبداً^(١).

❖ الإنسان والجن

أما علاقة الإنسان بالجن فإنه يؤمن بوجودهم -لخبر القرآن عنهم- ويؤمن أنهم لا يملكون للإنس نفعاً ولا ضرراً، وأن من التجأ إليهم فإنما يزداد خبالاً، وهى مخلوقات لها

(١) ومن الأدلة على ذلك: قوله تعالى {فالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [النازعات ٥]، و {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} [الأنعام ٦١]، و {وإنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ} [الإنفطار: ١٠-١١]، و {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة ٩٨]، و {لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد ١١]. وينظر تفصيل هذا الموضوع فى كتاب: علم الإيمان للشيخ عبد المجيد الزندانى، الجزء الثانى، القسم الثانى، ص ٣٥٥-٤٣١، جامعة الإيمان، ١٤٢٠-١٤٢١/١/٢٠٠٠م.

عواملها الخاصة، ومنهم الصالح والطالح، والله ﷻ قد خلق عالم الإنس كما خلق الجن لعبادته، فمن أسلم منهم فله الجنة، ومن كذب فله النار. ومن الجن طائفة الشياطين، وهذه الطائفة مهمتها إغواء الإنسان، وصرفه عن الحق، وصدّه عن سبيل الله ﷻ، وتزيين العمل السيئ له، وهذا بسبب العداوة التي يكنها الشيطان لبنى آدم^(١)، ولكن الله ﷻ علمنا كيف نتغلب عليه، وأخبر أنه لا سلطان له على من اعتصم بالله ﷻ^(٢).

❖ الإنسان والإنسان

وأما علاقة الإنسان بالإنسان، فتقوم أولاً على العدل المطلق معه، أو القوامة بالقسط و"العدل هو الحد الأدنى للعلاقات بين الإنسان والإنسان"^(٣)، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ} [المائدة: ٨]، "وشيوخ علاقات العدل ورسوخها في علاقات الإنسان بالإنسان ثمرته النضج الفكري والتقدم الحضارى. وغياب علاقة العدل نتيجته التخلف الفكري والحضارى والعجز والاعتماد على الآخرين"^(٤)، "وحين تسود علاقة العدل يشيع الاستقرار والأمن، وتتجسد علاقة الانتماء لبنى الإنسان، ولا يبقى أثر لعلاقات العصبية العائلية والقبلية والقومية والعرقية والدينية والمذهبية والوطنية"^(٥).

وتقوم ثانياً على الإخاء، فالإنسان يرى جميع البشر إخوة له نسلوا من أب واحد وأم واحدة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: ١]. والإخاء يستلزم أمرين: الأول: التعارف وتبادل المعارف والخبرات، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣].

الثاني: التعاون على إقامة قيم الحق والعدل، وعدم إقامة أي تعاون أو تحالف على إثم أو قطيعة أو عدوان أو نهب أو قهر للضعفاء – فهذا تحالف ذميم قبيح، وفاعله آثم {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتُّدْوَانِ} [المائدة: ٢].

(١) انظر تفصيل هذه العداوة في سورة الأعراف، قصة آدم، وما بعدها.

(٢) ومن الأدلة على ذلك: قوله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]، و {وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا} [الجن: ١١]، و {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، و {فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} {١٤} {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} {١٥} [الجن: ١٥-١٤]، و {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ} [الأعراف: ١٧٩]، و {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} {٧٩} {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} {٨٠} إلى يوم الوقت المعلوم {٨١} {قَالَ فَيُعَذِّبُكَ لِأَعْوَابِهِمْ أَجْمَعِينَ} {٨٢} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ} {٨٣} [ص: ٧٩-٨٣]، و {وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} [النمل: ٢٤]، و {إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يوسف: ٥]، {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}. لِمَا سُلْطَانَهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٩-١٠٠].

(٣) فلسفة التربية الإسلامية، ١٤٣.

(٤) نفسه، ١٤٥-١٤٦.

(٥) نفسه، ١٤٧.

وتقوم ثالثاً على الإحسان، قال تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة ٨٣]، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء ٥٣].

❖ الإنسان والكون

أما القسم الثاني فهو الكائنات غير العاقلة. وهى الكون وما فيه من آفاق وأفلاك، وأرض وما فيها من بحار ومحيطات، وما فيها من جبال، وما فيها من أحياء... وأساس هذه العلاقة هو التسخير، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثَّةً﴾ [الجنات ١٣]. والإنسان ينظر إلى الكون نظر الصداقة لا نظر العداوة الذى يسعى لفهر الطبيعة، إنما هو الصديق الذى يرى فيه مجالاً رحباً للعمل والانطلاق والوصول إلى الخالق العظيم، والانتفاع بما سخره فى حياته - ومن ثم فهو يرى هذه الكائنات كلها، كائنات صداقة، كما قال رسول الله ﷺ عندما بدا له جبل أحد "هذا جبل يحبنا ونحبه"^(١)، وكان ينظر إلى القمر فيقول "رى وربك الله"^(٢).

وطريق الإنسان فى تسخير الكون هو اكتشاف قوانينه التى يخضع بها للإنسان، ومن دون كشف هذه القوانين يظل الكون مستغلقاً على الإنسان، بل إنه قد يعتقد فيه بالألوهية فيعبده، يعبد الشمس أو القمر أو النجوم أو الكواكب أو التماثيل الحجرية أو النور والظلمة أو البقر... الخ.

أساس الرحمة

وأما أساس الرحمة فإنه يبين علاقة الخالق بالإنسان إنها علاقة قائمة على أساس الرحمة، ومقتضى رحمة الله ﷻ لعبيده أن يرعاهم ويصونهم ويوجههم. إن الرحمة تمثل قمة الصلة بين الرب ومربويه، كما ورد فى الحديث الصحيح "جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً..."^(٣). والرحمن لا يعذب عباده إلا من أبى، فلا يمكن أن يقع عذاب الرحمن إلا على من أسحقه الله ﷻ، ولهذا فإن إبراهيم عليه السلام حذر أباه من عذاب الرحمن ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم ٤٥].

إذن فالرب خالق رحيم بعباده، تكفل بالقيام عليهم ورعايتهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم - وهو تصور فريد لعلاقة الرب بعباده، إن الرب الإله فى الإسلام لا يطارده عباده

(١) رواه البخارى (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) رواه الترمذى (٣٤٥١)، وأحمد (١٣٢٤)، وصححه الألبانى

(٣) رواه البخارى (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها كما تصورها أساطير الإغريق. ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في العهد القديم كالذى جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين^(١).

أساس العدل

وأما أساس العدل الإلهي فإنه يوجه علاقة الإنسان باليوم الآخر؛ فإيمان الإنسان بأن الله ﷻ عدل يحقق له **أولاً: الشعور بقيمته ومكانته وكرامته**، وإيضاح هذا الأمر دعوى أضرب هذا المثال، إن مَنْ لديه شئ ثمين فإنه يحافظ عليه بكل وسيلة، ويضنّ أن يضيع منه شئ، بل يقاتل من أجل ألا تضيع منه ذرة واحدة، فمثلاً، من معه ذهب فإنه لا يفرط في شئ منه، وسيضعه في أحرز مكان، ويتفقده دائماً، لأنه شئ غالى عنده. أما لو كان الشئ غير ثمين فإن صاحبه لا يهتم به أبقي أم ضاع.

ثم تأملت في هذا الإنسان فوجدت أن الله ﷻ خلقه وأكرمه {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء ٧٠]، وعظمه، فالإنسان مخلوق عظيم كريم، وبعبارة أخرى، **الإنسان عند الله ﷻ شئ ثمين نفيس، خلق له كل شئ وخلق من أجله كل شئ**، كما قال الشاعر:

يا رب أنت خلقتى وخلقت لى وخلقت منى

فإذا كان الإنسان ثميناً عند ربه كريماً عليه، فإن الله ﷻ سيضنّ أن يضيع من الإنسان شئ، ولهذا يأخذ الله ﷻ بعين الاعتبار كل ما يصدره الإنسان من تصرفات، فكل عمل أو قول يصدره الإنسان فإنه لا يضيع عند الله ﷻ، بل يسجله له ربه، ثم يسأله عن كل ما عمل {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء ٤٧]. فحساب الله ﷻ للإنسان فى اليوم الآخر دلالة على كرامة الإنسان عند ربه.

وجه آخر، وهو أن من كرامة الإنسان على الله ﷻ أن يعطيه ما يختار، فإذا اختار الجنة بأعماله الحسنة أعطاه الله ﷻ الجنة، وإذا اختار النار بأعماله السيئة أدخله الله ﷻ ناره، ولهذا قال عن من دخلوا النار {هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} [الواقعة ٥٦]، فسماه نزلاً حيث أعد لهم ما اختاروا، فكان بمثابة الكرامة التى يقوم بها الضيف لزارئه، ولهذا يقول الله ﷻ {ذُقْ

^(١) فى ظلال القرآن ٢٤/١. والأولمب أعلى جبال اليونان، وارتفاع هذا الجبل وخشونته جعلت اليونانيين الوثنيين يعتقدون أن الاثنى عشر إلهاً وإلهة المزعومين، لهم أماكن على الحواف الكثيرة للقمة العربية لهذا الجبل.

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٩]، ولا يخفى ما وراء ذلك من تهكم واستخفاف بهذه العقول التي اختارت هذا النزول!!

وثانياً: يحقق له الطمأنينة حين يشعر أن عمله لن يذهب هدرًا، وأن الله ﷻ سيجازيه عليها، فيعرف أن الدنيا ليست نهاية القصة، وإنما تنتهي فصول القصة في اليوم الآخر، فينتصر المظلوم من الظالم، ويأخذ كل ذي حق حقه.

ويحقق له الطمأنينة حين يشعر أن الذى خلقه هو حكم عدل، يقيم العدل بين مريبيه، كما أقام الخلق على الحق، ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُحْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية ٢٢]. ويحقق له الطمأنينة حين يعلم المحسن فى عمله أن الله ﷻ سيثيبه، وإن تنكر له الناس، ويوقن أيضاً أن الله ﷻ سىأخذ على أيدى المسيئين ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية ٢١].

فإذا تحقق ذلك فإن الإنسان ينطلق فى الدنيا عاملاً عامراً محسناً متعاوناً مقيماً دين الله ﷻ ساعياً فى سبيل إقامة مبادئ الحق والعدل - وفوق ذلك فإن مصالحه لا تعنيه، ومنافعه لا تطغيه عن مصالح الآخرين، إذ يرى أن اليوم الآخر هو اليوم الذى تتحقق فيه كل مصالحه قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت ٣١].

الزاوية الثانية: قدسية هذه المعرفة

هذه المعرفة التى أشرت إلى خيوطها الأساسية المتعلقة بأسس التصور الإسلامى التى توجه علاقات الإنسان ليست مجرد معارف تتلى وتفسر، بل إنها معارف تشكل كيان المسلم وحيقته، وتختلط بوجدانه، ومن دون هذه المعرفة لا يسمى الإنسان مسلماً. هذه المعرفة هى الحد الفاصل بين إسلام المرء وكفره، إنها النظام الثابت الذى لا يتغير، ومن ثم فإنها معرفة خاصة تقوم عليها حياة الإنسان، ويتحدد فى ضوءها مصيره الأبدى إلى الجنة أم إلى النار - وهذا الوجه الأول من وجوه قداسة هذه المعرفة.

أما الوجه الثانى من أوجه قداستها . فهو أن الذى فصل حدودها، وأوضح معالمها هو الخالق العليم الذى خلق الإنسان، فهو أعلم بمن خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك ١٤]، وهو أعلم بما يصلحه ويسعده، فكانت هذه المعرفة هى السبيل الوحيد لصالح الإنسان وسعادته، وبغيرها سيعيش فى تخبط وعمى، وتيه وحيرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا

وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه ١٢٤].

ولا غرو . بعد ذلك . إذ تضمنت سورة الفاتحة أسس هذه المعرفة، أن تكون أعظم سورة في القرآن، وسميت أم الكتاب، وكانت قراءتها فرضاً على المسلم كل يوم سبع عشرة مرة، حتى تتجدد في ذهنه أسس هذه المعرفة وتترسخ، وتلازمه وتكون حاضرة معه في كل عطاءاته.

المحور الثاني: عالمية العطاء

{إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ}، هذه الآية توجه الإنسان التوجيه الصحيح إلى بناء علاقة مع خالقه، هذه العلاقة تنبثق من أنوار المعرفة الأساسية، وهي المقتضى الطبيعي لتلك المعرفة. هذه العلاقة تتلخص في كلمتين (عبادة واستعانة).

والعبادة "اسم جامع لكل ما يحبه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال والأعمال والأفكار والمشاعر والعواطف في حياة الأفراد والجماعات، وفي جميع الميادين الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية وغير ذلك"^(١). والله ﷻ خلق الثقلين لعبادته {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات ٥٦].

وآية الفاتحة جاءت بأسلوب الحصر والقصر في المهمة، إذن فلا مهمة للجن والإنس في هذه الحياة إلا عبادة الله ﷻ. ومعلوم أن إقامة الدين في الحياة، وإعمار الأرض بالصلاح، وبناء الحضارات هو واجب شرعى على الإنسان، وهذه الأعمال كلها تستغرقها العبادة، فيظل الإنسان طيلة عمره في عبادة الله ﷻ.

ولكن: أي عبادة يريدونها الله؟ إنها العبادة القائمة على المعرفة المقدسة.

أما الاستعانة، فهي ترك كل ما عدا الله ﷻ، فإذا كانت العبادة تعنى التوجه الكلى إلى الله ﷻ، فإن الاستعانة تعنى الترك الشامل لكل ما عدا الله ﷻ. فلا يصبح في قلب الإنسان إلا الله ﷻ يعبده ويرجوه ويخافه ويسعى له ويستعين به. وكل ما عدا الله ﷻ فليس له أثر، فتراه لا يرائى بعمله أحداً؛ إذ ليس له مكان في قلبه، ولا يخشى أو يخاف قوة أخرى فهي قوة ضعيفة هشة، ولا يرجو ملكاً أو زعيماً، فهم مثله بشر لا يملكون له نفعاً ولا ضراً. وباختصار، فعبادة الله ﷻ بمفهومها الشامل هي مقتضى المعرفة المقدسة،

^(١) فلسفة التربية الإسلامية، ٨٥، وفيه كلام قيم عن مفهوم العبادة في الإسلام.

والاستعانة بالله ﷻ هي مقتضى العبادة الصحيحة. فمن كانت استعانتة بغير الله ﷻ فإن عبادته مغشوشة، ومن كانت عبادته مغشوشة فإن معرفته بالله ﷻ وهمية - أو غائبة.

❖ عبودية الفرد والمجتمع

والعبودية هي عطاء الإنسان الشامل الذي يتوجه به إلى الله ﷻ، ويعطى من خلاله عطاء ينتظم جميع أزمان حياته، ويشمل كافة تفاصيلها. ولكن ليس هناك إنسان ينفرد بهذا العطاء، بل إن الذي يقوم به هو جنس الإنسان، ولهذا جاء الفعل بالنون (نعمد، نستعبد)، ولم يكن بالهمزة، أعبد - أستعين؛ للدلالة على أن الجنس الإنساني -جميعاً- عليه أن يقوم بهذه العبادة والاستعانة فيكون ثمَّ بُعدان لهذه العبادة:

البعد الأول: عبادة فردية، يقوم بها كل فرد - وهو عطاء الإنسان الفرد وما يقدمه من أعمال وأقوال وإنتاجات في هذه الحياة.

البعد الثاني: عبادة جماعية، يقوم بها مجموع الأمة، وفيها ينصهر عطاء الفرد ليصبح عالمياً، حيث تجتمع جهود الأفراد جميعاً لتبرز عطاء واسعاً شاملاً، يسمى حضارة. والذي يتأمل سيرة رسول الله ﷺ يجد أنه أولاً قام ببناء لبنات فردية تجيد العبادة الفردية، وتقدر على العطاء الفردي - وهذا العمل استغرقت الفترة المكية كلها. وثانياً قام بتجميع تلك اللبانات لتقديم العبادة الجماعية، وبذلك شرعت الهجرة إلى المدينة المنورة، وبدأ العطاء الحضارى للدولة الإسلامية.

المحور الثالث: تراوج المعرفة والعطاء العالى

{اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} (٧). جاء المحور الثالث يبين أن تشابك هذا العطاء وتلك المعرفة في حياة الإنسان يجعله يضع قدمه على الصراط المستقيم، فيتهدى إلى ربه. فلن يتهدى الفرد إلى الصراط المستقيم، ولن تهتدى الجماعة إليه - ما لم تلتحم المعرفة المقدسة بالعطاء العالمي.

معرفة مقدسة + عطاء عالمي ← هداية إلى الصراط المستقيم.

والممتنع لآيات القرآن الكريم يجد أن الصراط المستقيم يراد به شيان.

١- الصراط المستقيم الذى يُهدى إليه الفرد، نتيجة لعبادته الفردية المبنية على المعرفة المقدسة، كما قال تعالى {مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضَلِّلهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام ٣٩]، {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفاً {الأنعام ١٦١} وأخبر الله ﷺ رسوله ﷺ بذلك {إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {الزخرف ٤٣}، وقال الله ﷻ عن خليله إبراهيم عليه السلام {اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {النحل ١٢١}.

٢- الصراط المستقيم الذي تهدي إليه الأمة، نتيجة لعبادتها العالمية وعطائها الحضاري – القائم على المعرفة المقدسة، وهذا كما في قوله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} {الأنعام ١٥٣}، فالخطاب لمجموع وليس لفرد {وَأَنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {الحج ٥٤}، {وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {مريم ٣٦}، فجاء الأمر بالعبادة للمجموع، ثم إرشادهم إلى الصراط المستقيم.

وآية الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) هي من هذا القبيل للأدلة التالية:

- جاء طلب الهداية إليه بعد تقديم آية العبادة العالمية.
- جاء طلب الهداية إليه للجمع وليس للفرد، فقال "اهدنا" ولم يقل: اهدني.
- إضافته إلى جمع العباد (الذين أنعمت عليهم).
- مقابلته بجمع الذين انحرفوا عنه، وهم المغضوب عليهم والضالون.

من هنا فإن العبادة الفردية الصحيحة تقيم صاحبها على صراط مستقيم وهو المظهر الفردي للعبادة، والعبادة العالمية تقيم أصحابها على صراط مستقيم عالمي وهو المظهر العالمي للعبادة. وآثار الصراط المستقيم الفردي تختلف عن آثار الصراط المستقيم العالمي.

فآثار الصراط المستقيم الفردي – هي تحقيق صلاح الفرد، فتجد الفرد صالحاً

مستقيماً في علاقاته مع الله ﷻ ومع الخلق جميعاً، متبعاً الحق في كل تفاصيل حياته، متحريراً الصدق في كل شئون حياته، وهذه الآثار قد تراها –اليوم– في حياة بعض من الأفراد المسلمين.

وأما آثار الصراط المستقيم العالمي – فهي تحقيق صلاح العالم، وذلك بإقامة مظاهر المعروف من عدل وحرية ومساواة بين الناس جميعاً، والقضاء على مظاهر المنكر المتمثلة في الظلم والاضطهاد والتمييز العنصري. وإذا كانت الآثار الفردية يمكن أن تجتني بسعي الفرد، فإن هذه الآثار لا يمكن أن تتحقق إلا بسعي الأمة وكفاحها. وهذه الآثار قد اختلفت منذ قرون كثيرة، ولم تعد موجودة لاختفاء العبادة العالمية من هذا العالم، وبذلك فالعالم يعيش في أحط مستوى يمكن أن تصل إليه البشرية، إنه يعيش حياة متجردة من الإنسانية، مثل المسلمين في ذلك مثل غيرهم.

❖ سبيل رسول الله ﷺ

ولو تأملت واقع المسلمين فإنك لن تجد في القاموس الاجتماعي هذه المعاني: الحرية – المساواة – العدل – العزة – ... وهذه آثار الصراط المستقيم العالمي. والناظر في قصة إبليس وقوله لله ﷻ ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْدَمَنَّ لَهُمُ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف ١٦] يجده قد حقق نجاحاً كاملاً في صرف البشرية اليوم عن هذا الصراط المستقيم العالمي. ومن هنا يتضح طبيعة العمل الذي ينبغي على العاملين أن يقوموا به في هذا العصر، إنه عمل شاق لا يقوى عليه إلا الرجال حقاً، إنه إحياء العبادة العالمية التي تنتج عطاء حضارياً، وهذا هو سبيل رسول الله ﷺ الذي دعا إليه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف ١٠٨]، وتأمل في قوله (أنا ومن اتبعني) فهو سبيل لا يستطيع أن ينهض به فرد، بل لابد من جماعة، ومن دون هذا النهوض سنظل بعيداً عن الصراط المستقيم. فيا ترى بعد أن عرفت هذا كله – هل أيقنت أن السعي إلى هذا الصراط المستقيم واجب مقدس معلق في ذمة المسلمين جميعاً حتى يقيموه؟

أهمية تلاحم المعرفة والعطاء الإيجابي

إن تلاحمهما هو الهادي إلى الصراط المستقيم، وإذا تخلف أحد العنصرين فإن الناتج هو الانحراف عن الصراط المستقيم. وتخلّف العطاء الإيجابي (العبادة) يؤدي إلى غضب الله ﷻ، وتخلّف المعرفة المقدسة يؤدي إلى الضلال. والمفسرون يقولون بأن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم النصاري "حيث إن اليهود فقدوا العمل،

والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه - وهو اتباع الحق - ضلوا^(١). ونحن يهمننا من هذا النص سبب التسمية.

فالمعرفة المقدسة إذا لم تأخذ طريقها إلى الحضور فى عطاء الفرد أو الأمة - فإن ذلك يستوجب غضب الله ﷻ ومقته، وما يتبع هذا الغضب من لعن وسحق وعذاب وإهلاك - وبهذا تتطوق آيات القرآن الكريم كما قال تعالى {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ} [طه ٨١]. وقال {وَوَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء ٩٣].

أما إذا غابت تلك المعرفة، وقام العطاء دون استناد إلى المعرفة المقدسة فإن هذا يؤدي إلى ضلال صاحب العطاء، فيكون إنساناً ضالاً، وتكون أمة ضالة، ويتسم الإنتاج بالضلال فيكون إنتاجاً ضالاً، يضل صاحبه ويضل غيره، قال تعالى {وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة ٧٧]. وأخطر قضية يقع فيها أصحاب الضلال حين يضلون ولا يشعرون بضلالهم، كما قال تعالى {الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف ١٠٤].

فالضلال هو العمل الذى لا يستند إلى المعرفة المقدسة، كما نصت على هذا الآية {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الملك ٢٩]، فالمؤمنون بالرحمن وبما جاء من عند الرحمن من معارف قدسية هم بمنأى عن الضلال.

أسباب غياب المعرفة المقدسة (الضلال)

وأسباب غياب المعرفة المقدسة كثيرة، منها: إنكار قداسة المعرفة أصلاً، وعدم الاعتراف بها - كما قال تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء ١٣٦].

ومنها، أسباب خارجية: كالكبراء الذين يضلون الناس ويصرفونهم عن هذه المعرفة {أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} [الأحزاب ٦٧]، والشيطان الذى يسعى لإيقاع البشر فى هذه الدائرة {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَتَهُ بُضُلًا وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} [الحج ٤]،

(١) تفسير ابن كثير، ٣٩/١.

والطواغيت والأصنام أيا كان مسماها، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَصْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم ٣٦]، وكالخشوع لأحكام الناس وتقاليدهم وعادات المجتمع ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَحْرُصُونَ﴾ [الأنعام ١١٦]، ﴿إِنَّهُمْ أَلَّفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

ومنها: ما يقع فيه المرء من انحراف نتيجة لأمراض قلبية، وقد يكون على علم بالمعرفة المقدسة، كمن يتبع الهوى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية ٢٣]، وكمن يقع في مخالفة الله ﷻ ورسوله ﷺ وقد علم سبيلهما، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب ٣٦]، فالآية تتحدث عن معصية يقع فيها مسلم، يخالف أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ، كما يوحي بذلك سياق الآية. ومنها: الصد عن سبيل الله ﷻ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد ١].

فكل هذه الأسباب تعمل على الفصل بين المعرفة المقدسة والعطاء؛ فيقع الضلال حينئذ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى ٤٦].

أما إذا كان العطاء قائماً على أساس المعرفة المقدسة، فإن العبد يهتدى إلى الصراط المستقيم، والاهتداء إلى الصراط المستقيم مستوجب لإنعام الله ﷻ وفضله، سواء أكان الإنعام لفرد بما يناله من رضى وطمأنينة وتوفيق وسعادة وفلاح فى الدنيا والآخرة، أم كان الإنعام لأمة بما تناله من عزة ونصر وتمكين وقوة ورفعته، والأمة التى لم تصل إلى الصراط المستقيم فلن تنال إنعام الله ﷻ عليها، ولهذا تعيش متخلفة ذليلة خائفة خاضعة قابضة ضعيفة - كحال المسلمين اليوم.

الضلال الإنساني بين التباب والعذاب (سورة المسد)

إن الله ﷻ الذي أعطى الإنسان النعمة، علمه قبل ذلك المعرفة المقدسة التي تعطى للإنسان معناه وقيّمته، وتوجهه إلى كيفية التعامل مع النعم، فإذا فعل ذلك أفاد أولاً أنه سينتج عطاء إيجابياً، وأفاد ثانياً أنه سيجد ثمرة المعرفة في الدنيا وفي الآخرة. ولكن إذا ضل الإنسان عن المعرفة المقدسة، وقطع صلته بها، فإنه سينتج عطاء سلبياً، كما أنه لن ينتفع بالنعم، ولن يجد ثمرتها، فتتحول النعم إلى نقم يذوق مرارتها في الدنيا والآخرة، ويمكن توضيح هذا بهذه المعادلات:

- إنسان + معرفة مقدسة ← عطاء إنساني إيجابي.
- نعمة + معرفة مقدسة ← نعمة مثمرة.
- إنسان - معرفة مقدسة ← عطاء إنساني سلبي.
- نعمة - معرفة مقدسة ← نعمة مُرّة.

وقد اختتمت سورة الفاتحة ببيان أن الصراط المستقيم هو ما يصل إليه المهتدون الذين تتفاعل في نفوسهم المعرفة المقدسة مع عطائهم، فينالون إنعام الله ﷻ، وهذا بخلاف المغضوب عليهم من الله ﷻ الذين عرفوا ثم منعوا، وبخلاف الضالين الذين انقطعوا عن المعرفة المقدسة.

وسورة المسد جاءت بنموذجي الضلال: نموذج العطاء السيئ (الصاد عن سبيل الله ﷻ)، ونموذج التفاعل الخاطئ مع النعمة (الذي لا ينتفع بنعم الله ﷻ) - متمثلين في (أبو لهب)، والنموذج الأول مستوحى من سياق الموقف، والنموذج الثاني مستوحى من السياق اللغوي. هذان النموذجان - يستوجبان جزاءً مُراً، هذا الجزاء هو (التباب) في الدنيا، و(العذاب) في الآخرة. وسنتناول السورة في محورين، الأول: نماذج الضلال. والثاني: جزاء الضالين.

[المحور الأول: نماذج الضلال]

النموذج الأول: الصاد عن سبيل الله ﷻ (نموذج العطاء السيئ)

هذا النموذج مستوحى من سياق الموقف الذي نزلت فيه السورة، فقد أخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء ٢١]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: "يا بني فهر، يا بني عدى، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: رأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب "تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟ فنزلت (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) (١).

فأبو لهب - كما يوحي السياق - يمثل نموذج الصد عن سبيل الله ﷻ، الذي كان يقف لصاحب الدعوة بالمرصاد، يؤذيه في نفسه وبيته وبناته، يؤذيه بالسب والشتم، يؤذيه بالتخذيل عنه، يؤذيه بتكذيبه والسخرية منه في المحافل، وقد تحالف معه في القيام بهذه المهمة امرأته حمالة الحطب، وأولاده (١).

وهو نموذج يتكرر دائماً، طالما كان في الأرض دعاة إلى الله ﷻ - يتكرر في صور شتى، وأساليب مختلفة، قد يكون النموذج فرداً، وقد يكون جماعة، وقد يكون حزباً، وقد يكون دولة، وقد يكون دولاً تتفق في صورة تحالف أو اتحاد. كما أنه قد يكون في صورة استهزاء أو إيذاء أو مصادرة وحجر للحرية أو ضرب أو سجن أو طرد أو إبعاد. أيأ كانت صورة هذا النموذج فإنه نموذج يقف لدعوة الله ﷻ، يحول بينها وبين الناس، ويبدل كل ما بوسعه، ويسخر كافة إمكانياته في سبيل منع حملة الحق، وقرأة المعرفة المقدسة - منعهم من أن يبلغوا هذه المعرفة إلى البشر، حتى يظل البشر أسرى الضلال، كما سوف يعترفون {وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ} [الشعراء ٩٩].

النموذج الثاني: الذي لا ينتفع بنعم الله ﷻ (نموذج التفاعل الخاطيء مع النعم)

هذا النموذج مستوحى من السياق اللغوي، فقولته (مَا أَعْنَى عَنَّهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) (١)، يعنى أنه لم ينتفع بهذه النعمة، وهى المال والقدرة على اكتسابه، فهما نعمتان لا نعمة واحدة، إذ القدرة على كسب المال نعمة عظيمة. قال الزمخشري "ما أعنى" استفهام فى معنى

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) يمكن الرجوع إلى صور كثيرة من هذا الإيذاء، فى تفسير ابن كثير ٤/٤٣. وسيرة ابن هشام ٢/٢٠٠ وما بعدها.

الإنكار.. أو نفي (وما كسب) مرفوع، و(ما) موصولة أو مصدرية، بمعنى: ومكسوبه، أو كسبه؛ والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله^(١).

فالآية تنفي أن يكون أبو لهب انتفع بهاتين النعمتين، إما نفي على سبيل الإخبار، والتقدير: لم ينفعه ماله وما كسبه، أو نفي على سبيل الإنكار، والتقدير: أي شيء نفعه ماله وما كسبه، إنه لم ينفعه شيء.

ثم اختلف المفسرون في المراد بـ(ما كسب)، فقيل: رأس المال والأرباح وقيل: ماله التالذ (القديم) والطارف (الجديد)، وقيل: ماله الذي ورثه، والذي كسبه بنفسه، وقيل: ماله وعمله الخبيث^(٢). والذي يستصفي من هذه الأقوال أن المراد بالمال: ما جاء له من غير كد، بل حصله بورائه أو كان رأس مال حاصل... أما الكسب فهو ما حصله بكد وجهد سواء أكانت أرباحاً أم طوارف.. الخ، والكسب يحتاج إلى عقل وتدبير.

فهذا نموذج لرجل آتاه الله ﷻ مالاً وعقلاً يكسب به، لكنه ما انتفع بما أوتى فما أغنى عنه ماله وكسبه، والآية مسوقة مساق التعليل، حيث حصل التباب لأبى لهب بسبب عدم انتفاعه، فكأنه عندما قيل (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) {١} قيل: لماذا يا رب؟ قال لأنه: (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) {٢}، ونتيجة لذلك فإنه (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) {٣} هو (وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) {٤}، وسيكون (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) {٥}.

فأبو لهب ما انتفع بهذه النعمة لا في الدنيا ولهذا أصيب بالتباب، ولا في الآخرة ولهذا صلى ناراً ذات لهب. وكان مقتضى النعمة أن يحسن التعامل معها حتى توصله إلى صعيد السعود في الدارين - كما سبق إيضاح هذا في سورة القلم.

وهذا النموذج يمثل صورة أخرى من صور الضلال؛ لأن التفاعل الصحيح مع النعمة (المعطى الإلهي) يرتكز على المعرفة المقدسة، فإذا تم ذلك كانت النتائج صحيحة، وتؤدي النعمة ثمرتها، ويذوق الإنسان حلاوتها، لكن إذا حصل الانقطاع بين المعرفة المقدسة والنعمة فإن الإنسان سيتفاعل معها تفاعلاً خاطئاً، وتكون النتيجة خاطئة أيضاً. ومن ثم تعود النعمة نقمة، وإذا كانت النعمة يحظى صاحبها بنعيم المنعم، فإن النعمة يحظى صاحبها بانتقام المنتقم، فيذوق الإنسان مرارة النقمة في صور كثيرة، هذه الصورة يجمعها لفظ (التباب) في الدنيا، و(العذاب) في الآخرة.

ولا أود أن استرسل -هنا- في الحديث عن مفهوم الضلال في الإسلام، ولكن علينا أن نوقن بأنه مفهوم راسخ يشمل كل تمرد إنساني على الإيمان بالله ﷻ والمعرفة المقدسة التي جاء بها رسل الله . عليهم السلام. هذا التمرد أدى إلى ضلال البشرية ضلالاً بعيداً - فضلت في التعامل مع الخالق، وضلت في التعامل مع الكون، وضلت في التعامل مع

(١) الكشف ٦٤٨/٤، مكتبة مصر.

(٢) انظر هذه الأقوال في الكشف ٦٤٨/٤.

الإنسان، وضلت في التعامل مع الحياة.

[المحور الثاني: جزاء الضالين]

من مقتضيات العدل الإلهي ألا يترك الإنسان هملًا، يعمل ما يشاء ثم لا يجازى على ذلك . أحسن أم أساء، ولكن المحسن له ثوابه، والمسيء له عقابه. أما المحسنون الذين اهتدوا إلى الصراط المستقيم فجزاؤهم إنعام الله ﷻ عليهم كما في سورة الفاتحة (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ)، وصور إنعام الله ﷻ عليهم كثيرة، ليس هنا مجال تناولها، ولكن - أيا كانت صور الإنعام، فإن المهتدي يجد ثمرة النعمة ويزوق حلاوتها في الدنيا بـ:

١- استمرار النعمة ودوامها، قال تعالى: {كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} [النحل ٨١].

٢- زيادتها ونماؤها، قال تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم ٧].
وفي الآخرة يكون ضيف الرحمن في جنات النعيم، واللفظان (نعمة، نعيم) من جنس واحد، قال تعالى في جزائهم {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ} [القلم ٤٤].
ندلف هنا إلى محور السورة وهو بيان جزاء الضالين الذي يتلخص في كلمتين (تباب وعذاب)، أما التباب ففي الدنيا، وأما العذاب ففي الآخرة، فالآية الأولى من هذه السورة أشارت إلى التباب.

أولاً: التباب

❖ المعنى اللغوي

للتباب أربعة معانٍ في لسان العرب، وإن كان بعضها من بعض، الأول: النقص والخسران^(١)، والثاني: الهلاك^(٢)، والثالث: الضعف^(٣)، والرابع: الرداءة^(٤). ولا يخفى ما بين

(١) قال في اللسان: "وتبت يدها تباً وتباباً: خسرتا" .. وفي التنزيل العزيز: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {١})، أى ضلنا وخسرتا. وقال الراجز:

أخسرُ بها من صفقةٍ لم تستقلَّ تبت يدا صافقها، ماذا فعل

(٢) قال في اللسان وفي حديث أبي لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟ التب: الهلاك، وتببواهم تنبيهاً" أى: أهلكوهم.

(٣) قال في اللسان "والتاب: الضعيف، والجمع: أتباب"، "والتاب: الكبير من الرجال، والأنتى: تابة"، ومنه المثل: أشابة أم تابة؟ لأن التابة اقتربت من الهلاك ونقص الحياة، والهزم ضعف، يقال "تبتب: إذا شاخ".

(٤) ورد في لسان العرب "والتبِّي والتبِّي: ضرب من التمر، قال أبو حنيفة: وهو الغالب على تمرهم، يعني: أهل البحرين، وفي التهذيب: ردى يأكله سقاط الناس قال الشاعر:

وأعظمُ بطناً، تحت درع، تخالهُ إذا حُسي التَّبِّي - زقا مُعْبِراً

هذه المعانى من ترابط، فهى معانى نقص وصغار، فالضعيف ردى، ومآله الهلاك، والهالك لا يكون فى ازدياد، إنما يكون فى نقص وخسار.

والمتأمل فى كلام العرب يجد أنهم يقولون: تباً لفلان، أى خسراناً له وهلاكاً، وتبت يده أى خسرتا، وإذا خسرتا خسر صاحبها. ويقولون: تب فلان: إذا وقع فى التباب سواء أكان خسراناً أم هلاكاً أم ضعفاً ورداءة.

وإذا تأملنا الآية الأولى فى سورة المسد (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {١})، نجد أن المعنى (تبت يده) أى: خسرتا، (وتب) أى: وقع فى التباب كله، و(تبت) دعاء عليه، و(وتب) إخبار بحصول التباب. قال فى الكشاف "ومعنى: (وتب)، وكان ذلك وحصل؛ كقوله: جزانى جزاه الله شرّ جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وقد تب^(١).

❖ مظاهر التباب

يمكن أن نطلق على هذه المرحلة الراهنة من حياة البشرية: **المرحلة الملوثة**. فبسبب ضلال الإنسان، عاقبه الله ﷻ بالتباب، وأصبحنا نحيا بعلاقات مسمومة، فعلاقة الإنسان مع الله ﷻ أصبحت بالتلوث، بين إنسان يجحده وبين إنسان قد اتخذ معه آلهة أخرى من هوى أو شهوة أو مال أو... وبين إنسان اتخذها إلهاً فى المناسبات ويحسب أنه يعبده، ثم ينصرف عنه فى حياته إلى سواه.

وعلاقة الإنسان مع الكائنات الغيبية (الملائكة والجن) أصبحت مكمّن السخرية لكثير من المنقّفين الذين يرون فى الحديث عن هذه الكائنات كلاماً فارغاً. وأصبحت علاقة شكلية فى جانب آخر، حيث نؤمن بهم كجزء من العقيدة فقط، ولا وجود لهذه العلاقة فى الواقع.

وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان قد ذابت فيها كل القيم، وحل محلها (الغاية تبرر الوسيلة)، فاستحل الإنسان سحل الإنسان وسحقه وإهدار كرامته، واستباحة إنسانيته، وأصبحنا نعيش بين أنياب الذئاب. وفى ذلك أقول:

هو الليل تحشر فيه الجيوش فتملاً هذى البسيطة جوراً
ذئابٌ وإنسٌ بروح الوحوش تدنّس روح السماحة زوراً

أما علاقة الإنسان بالكون (الطبيعة والبيئة) فقد قامت على العداوة والقهر، وصرت تسمع عن (قهر الطبيعة)، و(غزو الفضاء)، و(حرب النجوم)، ثم استباح الإنسان لنفسه بعد ذلك إفساد البيئة وتلويثها.

أما علاقة الإنسان بالحياة فلم يعد يرى فيها أكثر من مرتع يُشعل فيه سعاره؛ ليحقق أكبر قدر مستطاع من شهواته وملذاته ومنافعه - ولم يعد يسعى لإعمارها.

وأما عن علاقة الإنسان باليوم الآخر - فإنها أصيبت بالشلل الكلي، فالإنسان المادى يستخف بفكرة اليوم الآخر، والإنسان المتدين قد ذُهل عن تلك الحقيقة في غمرة طغيان المادة الجارف، {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: ١٦-١٧].

هذا الضلال الإنساني أدى بالإنسان إلى تباب عظيم في الدنيا، ومن مظاهر هذا

التاباب:

- النقص والخسار، بسبب ضلاله في علاقته مع الله ﷻ.
 - الرداءة بسبب ضلاله في علاقته مع الإنسان.
 - الضعف بسبب ضلاله في علاقته مع البيئة.
 - الهلاك بسبب ضلاله في علاقته مع الحياة الدنيا والآخرة.
- وسأكتفى بإشارة موجزة لكل مظهر:

أولاً: النقص والخسار

النقص هو مظهر التباب لضلال علاقة الفرد مع الله ﷻ، بينما الخسار مظهر

التاباب لضلال علاقة الجماعة مع الله ﷻ.

النقص، وهو المعيشة الضنك {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً} [طه ١٢٤]، وهو السيئة التي تحيق بالإنسان، {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكُمْ} [النساء ٧٩]، **والنقص يعنى أن الإنسان لم يعد يتمتع بجوانب حياته كاملة، بل أصبح يحيا حياة ناقصة في روحه وعقله ونفسه وجسمه** وهذه الحياة الناقصة هي المعيشة الضنك.

فالروح المسمومة هي تلك الروح التي أصبحت ترهب مما لا يستحق الرهبة،

وترغب فيما لا يستحق الرغبة، نتيجة السموم التي أحاطت بها وتوغلت فيها. فالإنسان

الناقص تعلقت روحه بالمادة رغبة ورهبة، فرغبته كلها تلهث وراء المادة وسرابها الخادع

التمثل في التقنية وشراء أحدث الأجهزة وملاحقة آخر الموديلات، والجرى وراء آخر موضحة

- جرى ولهات وسعار لا يتوقف عند حد، وأصبح هم الإنسان تأمين مستقبله وتأنيث داره.

كذلك أصبح كثير من الناس فى حقيقة الأمر يعبدون آلهة أخرى، غير الله ﷻ،
ومن أشهرها:

١- العلم. ويراد به علم التقنية، حيث لم يعد من حق الناس أن يثقوا فى شيء، إلا فى هذا العلم، ويرون أن الحقيقة هي ما يقدمه هذا العلم التطبيقي، وما يثبت له بالمشاهدة، وأما ما عدا ذلك فمحل نظر.

وقد اعتقد العلم أن "بإمكانه طمس الإله وتقديم البرهان على عدم وجوده... فبفضل الأيدلوجيا، اكتسب العلم صفات الألوهية، كما لم يحدث أبداً من قبل"، وأصبح الناس ينظرون للعلم على "أنه ملاذنا الوحيد، ويتم تنفيذ أى أوجه سلبية له بصرامة"^(١).
ولقد دفع هذا الإله الجديد بعض علمانيي العرب إلى أن يعدوه نبيا من طراز جديد، جاء فوحد الناس. بعد أن فرقتهم الرسل. بمعجزات لم تستطع تقديمها الأنبياء، كما قال أحد الشعراء المعاصرين:

قام فى الناس نبى، إنما شأنه ليس كشأن المرسلين
وحد الناس وقد فرقهم كافة الرسل على مر السنين
جاءهم من غير إنجيل ولم يأتهم بالوحي جبريل الأمين
لم يروا منه عصا موسى التي تلقف الإفك وسحر الساحرين
معجزات العلم قد أوفت على معجزات الدين فى ماضي القرون
أمِنوا بالعلم ديناً وهدى ليس بعد العلم للأفهام دين

فيا عجباً لهذا النبي الجديد! ويا ليت شعري متى وحد البشرية؟! وهل أنهار الدماء التي تسيل اليوم إلا ثمرة من ثمار تطبيقاته الخاطئة؟!

٢- المال، ولا يخفى أن المحرك الأساسى لإنسان العصر - هو المال، وعلى مقدار ما يمتلك الإنسان من دخل تتحدد قيمته الاجتماعية، ومهما يكن الشخص فلن يحترم إلا بما معه من مال. ومن جهة ثانية، فإن الاقتصاد أو السوق هو الدين الجديد الذى يرد للناس أن يؤمنوا به، كما يقول روجيه جارودى "هذا الدين الذى لن يكون فقط نهاية للتاريخ، ولكنه سيكون موتاً للإنسان ولإله الذى هو كامن فيه"^(٢).

(١) خدمة التكنولوجيا ٢١٠-٢١٢، تأليف: جاك ألول، ترجمة: فاطمة نصر، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤.

(٢) كيف نصنع المستقبل، ٢٧٣، روجيه جارودى، ترجمة: د.منى طلبة ود.أنور مغيث، دار الشروق، ط:٢، ٢٠٠١/١٤٢١.

٣- النماذج البشرية الزائفة المنحطة المتمثلة في أرياب الملاعب، ونجوم التمثيل والسينما والرقص والغناء... الخ، والمشكلة أن هناك سياسة عامة تتبنى النفخ في هذه الأقباب الجوفاء، حتى تتلهى بها الناس، وتتشغل بشئونها وأحاديثها، وتحل عبادة النجوم والأبطال محل العاطفة الدينية، التي تتعلق بالحب والتقدير لهذه الأشياء، "ويصبح النجم في عالم اللهو والتسلية هو الصنم الذي يُعبد بالمعنى الأساسي للكلمة، أي أنه يصبح الوجود المطلق والصورة المثالية والرب الحق"^(١).

أما الرهبة فقد تعلق بالوجه المخيف للمادة، حيث أصبح الناس يرهبون هذه الآلات ويتحدثون عن قوتها، وعن أسلحة الدمار، وعن التكنولوجيا المتقدمة، وبالتالي تصبح الدولة التي تملك التقنية الهائلة دولة مرهوبة الجانب. يقول جاك أيلول "تكتسب الأشياء مثل الحاسبات والتلفزيونات والدراجات والصواريخ بعداً خيالياً نظراً للحس بسطوتها وطغيان تواجدها وهيمنتها، والمجالات اللامحدودة التي تتيحها، وأسرارها الغريبة عنا، والرهبة المقدسة التي نخبرها ونحن نواجه الانشطار النووي -مثلاً- وهذه التركيبة المعقدة أمر ديني نمطي، فقد أفرغنا الطبيعة من خاصيتها الدينية والمقدسة ونقلناها إلى الأشياء حولنا"^(٢).

وهكذا بدلاً من أن تتوجه الروح إلى الله ﷻ بالرغبة والرهبة كان توجهها إلى المادة بالرغبة والرهبة، وهذا وإن كان مظهراً من مظاهر الضلال إلا أنه في نتيجته النهائية يصبح مظهراً من مظاهر التباب، إذ يعكس الضنك الذي يحياه الإنسان، ذلك أن هذه الحياة تكلف الإنسان كثيراً، تكلفه ضريبة باهظة الثمن يدفعها جراء تعلق روحه بغير الله ﷻ.

والعقل الملوث

لقد فقد العقل الإنساني - اليوم - كثيراً من وظائفه العظيمة، وهي ضريبة يدفعها جراء ضلاله {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك ١٠]، وفقد معه وسائل المعرفة الأخرى {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ غَمٌّ لَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة ١٧١].

ومن مظاهر هذا التلوث العقلي:

(١) خدعة التكنولوجيا، ٤٥٦.

(٢) نفسه، ١٣٠، ولاحظ أن الكاتب ينطلق من دين يقدر الطبيعة.

❖ ضعف الإدراك

وهذا يحصل نتيجة للغزو الهائل للمعلوماتي - لعقل الإنسان، بين صور متلاحقة، وأصوات سريعة، ومعلومات لا يقع عليها حصر، وفيضان المعلومات يؤدي إلى تسطيح المعلومات^(١).

ونتيجة لهذا فقد وصل العقل الإنساني إلى مرحلة فقد فيها الثقة، وأصيب بـ(فقدان الثقة) حيث أصبح من الصعوبة بمكان معرفة ما هو حقيقي، وما هو غير حقيقي؛ نظراً للمعالجة النظامية الخادعة في كل مكان. إلا أن استحالة معرفة ما هو حقيقي بسبب عدم كفاءة المعايير أمر أشد خطورة^(٢).

"إن القوى التي تهددها قوة المعلومات ليس لها من سبيل سوى أن تتحول إلى أدوات للتعطيم والإرباك.. ومع وجود الكاميرا كشاهد - تمارس القوى بشكل نظامي إعلاماً زائفاً، وانتشار الكذب في هذا المجال هو الإجابة على من يقول باحتمال انتشار الحقيقة مع صعود الوسائط الإعلامية، فقد انتشر الكذب للتغطية على ما تنتجه الوسائط الإعلامية من انتشار الحقيقة"^(٣).

❖ الرؤية المشوشة للعالم

كما أن العقل أصيب بالرؤية المشوشة للعالم، حيث "ينتج عن الكم الهائل للمعلومات حياة عمياء ليس لها جذور أو استمرارية ممكنة"^(٤). والأمر الأشد خطورة في هذا الصدد أن عالم التلفزيون سيختلط بالعالم الحقيقي، ومن ثم يتعامل العقل مع العالم الحي كما يتعامل مع عالم التلفزيون، فكما يرى في التلفزيون آلاف المشاهد من البؤس والظلم، دون أن تكون له حيلة إلا المشاهدة - فكذاك عندما ينتقل إلى عالمه الخارجي ويرى هذه المشاهد يكون نزوعه سلبياً، لا إيجابياً، وهذه أخطر لوثات العقل^(٥).

(١) جاء في: (خدعة التكنولوجيا): "إن (٩٩٩) من كل ألف من البيانات التي تصلنا لا علاقة لنا بها البتة، إلا أنها ما فتئت تضرب بقوة على أسماعنا وأبصارنا وتشن هجماتها علينا، لأن المقصود منها هو أن نثير اهتمامنا، وأن نتحكم في مشاعرنا وأفكارنا، وفيما يروقنا ولا يروقنا، وفي النهاية تلزمننا بأفعال ما أو تعدل من أرائنا ومواقفنا وسلوكنا، وتغزو خيالنا ولا وعينا، يكون هذا بانوراما عقلية علينا أن نتموضع فيها"، نفسه، ٣٩٤.

(٢) خدعة التكنولوجيا، ص ٣٩٤.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ٣٩٦.

(٥) يعجبني قول جاك أبلول: "التلفزيون شاشة تحجب عنا الواقع، على حين يعتقد المشاهد أن التلفزيون شاشة تعرض عليه الحقيقة نفسها، إذ يعني الإحساس بالمباشرة ويكون الإنسان حاضراً - أننا في موقع القصف أو الحادث. ومن ثم

❖ ذواء حاسة النقد

ومن لوثات العقل المعاصر ذواء الحاسة النقدية، وخواء الحس التأملي، وذلك نتيجة لحماقات كثيرة ترتكب باسم التقدم، ومنها سيطرة التلفزيون خاصة - والإعلام عامة- على حياتنا، فأصبحنا كالأطفال نتلقى كل معلوماتنا من التلفزيون، وننظر إلى الرؤية الإعلامية نظرة إكبار. يقول بايف تيو "إن المشاهدة المطولة للتلفزيون تبني (أى تخدر) العقل التأملي للضمير وتعيق الكلام.. إنها تقتل الإنسان الناضج الواعي داخلنا وتجعله طفولياً"^(١).

ومن ناحية ثانية فإن التتابع الرهيب، والسرعة المتلاحقة فى عالم التقنية لا تترك للإنسان الفرصة فى التأمل. كذلك ظروف الحياة المعيشية التى تجبر الإنسان على تأمين مستقبله، وملاحقة أقرانه لا تدع له مساحة للتأمل.

❖ قولبة الذكاء الإنسانى

وأخيراً، وليس آخراً فإن العالم يتجه إلى حصر الذكاء الإنسانى فى صور معينة، فنجد فى العالم الغربى والشرقى أن الإنسان الذكى هو ذلك الذى يتخصص وينتج فى الفروع العلمية التطبيقية خاصة المجال الفيزيائى والكيميائى والطبى وأخيراً مجال الحاسبات (الكمبيوتر)، حيث أصبح الملمح الأساسى للذكاء، "هناك أيضاً تهديد للذكاء، فالأذكاء فى مجتمعاتهم هم من باستطاعتهم التعامل مع الحاسب ... فليس ثمة أهمية لمعرفة الأدب واللغات القديمة والتاريخ. وهناك مكان للإنسانيات عند الحاجة فقط. ولا بد للإنسانيات كى تكون متقبلة، أن تساعد على أقلمة الأفراد مع عالم التقنية، فإن لم تفعل هذا فلا مكان لها"^(٢). ولا يخفى أن هذا يلغى التنوع العظيم الذى تتميز به عقول البشر، وإن اختلاف العقول والإمكانات والإدراكات هو مقوم أساسى من مقومات الحياة.

والنفس المنحطة

النفس التى يحظى بها إنسان العصر - نفس لا قيمة لها، القيمة فقط فى أن تحيا حياة بهيمية، تلبى غرائزها الحيوانية وتعيش لها فقط، ولا ترقى إلى مستوى النفس الإنسانية، ومن ثم أصبحت اهتمامات الناس سخيفة، ورغباتهم حقيرة.

يمكن القول بأن التلفزيون يتلاعب بالواقع حيث تكون شاشته حاجزاً بيننا وبين الحياة، وتمثل عليها الأشباح، إلا أننا نفهم الأشباح على أنها الحقيقة مما يؤدي إلى مساواتنا بين الواقع والأشباح".

(١) خدعة التكنولوجيا، ١٦٤.

(٢) نفسه، ٣٦٤.

والجسد المنهك

الحقيقة أن مظاهر التيباب في ضعف الجسد -اليوم- لا تخفى على أي ناظر، بل هي من أوضح المظاهر، وكم تتعالى الصيحات والصرخات في حفظ الجسد الإنساني اليوم. ومع وضوح هذه المظاهر، وتعالى الصرخات - إلا أننا نقبع في أجساد مخيفة قد أعياها الداء؛ كنتيجة واضحة لضلال الإنسان. ومن هذه المظاهر:

استهلاك السموم، بدءاً من الأطعمة ومروراً بالمنظفات والمطهرات والمساحيق، وانتهاء بالأدوية^(١).

وها نحن كل يوم نكتشف سموماً جديدة تضاف إلى رصيد السموم السابقة، وما يتبع ذلك من أمراض وعاهات لا تتقطع، بل تزداد تعقيداً بازدياد تعقيد الحياة المدنية. ولا أريد الاسترسال في عرض سمية الأطعمة أو الأدوية أو مستحضرات التجميل، ولا في نواتج هذه السموم، فيمكن الرجوع إليها في كتب التخصص^(٢).

ومن مظاهر التيباب: **الإجهاد البدني، والتوتر العصبي** الذي أصبح من مآسى هذا الزمن "والإجهاد العصبي لا يرجع فقط إلى التغير الذي طرأ على العمل، فسببه هو نمط الحياة الحديثة بشكل عام، والحاجة المستمرة لإنجاز كل شئ بسرعة أكبر، وتسارع إيقاع

(١) لقد أضحي كل صنف من طعامنا "يحتوى على كمية من السموم المختلفة النسب في المصادر والمفاعيل... وغدت أجسامنا حقول تجارب لأنواع المركبات الكيميائية التي تدخلها على شكل مواد غذائية... تتلوث الأرض بمركبات كيميائية متعددة التسميات، وتتلوث المياه بفضلات الصناعات ويتلوث الهواء بدخان المعامل والألياف، فتحمل الأمطار السموم إلى الأرض، ويحمل التبخر سموم الأرض إلى السماء، وتدخل هذه السموم مجتمعة إلى المزروعات ومنها إلى طعامنا فإلى أجسامنا بعد سلوكها طرقاً ملتوية، وتتخفى سموم أخرى في الأطعمة والمشروبات المعلبة بعد أن تضاف إليها المواد الحافظة والمواد الملونة والمواد المعدلة للطعم [وهذا إلى جوار الأسمدة والمبيدات]، فإذا بمعده الإنسان في أوائل هذا القرن منفي لسموم الصناعة التي لا ترحم" [المرشد في الغذاء النافع والضار في طعام الإنسان، ١٠-١١، د. نزار دندش، دار المؤلف، ط: ١، ٢٠٠١م]. كما "تستعمل البشرية في أيامنا هذه أكثر من خمسة آلاف نوع من المواد الكيماوية في الزراعة، وتصل كميات من كل هذه المواد إلى أجسامنا بطرق مختلفة، فالمعلبات المستوردة من أمريكا تنتقل إلينا بعضاً من الكيماويات التي استعملت في أمريكا، وتلك الآتية من آسيا تزود أجسامنا برواسب التربة الآسيوية، وهكذا دواليك حتى تكون أجسامنا قد تدربت على سموم العالم المختلفة" [نفسه، ص ١٦٢].

وعن أثر السموم الكيميائية يقول: "وهي وإن لم تؤد إلى قتل الإنسان دفعة واحدة، فإنها تحدث خللاً في وظائف أعضائه وتؤثر على أعصابه وعلى دماغه، وغالباً ما يترافق ذلك مع آلام في الرأس وأمراض في الأوعية الدموية وفي الجهاز التنفسي ويؤدي إلى سعال وربو والتهابات صدرية خطيرة. إن التلوث الغذائي الزراعي والصناعي يسبب الكثير من العوارض الصحية الغريبة التي استجدت على الإنسان في القرن العشرين. لقد عظم ابتلاؤنا حتى راح كل منا يحسد معدته إذا لم تتعرض للقرح، وكليتيه إن هما استمرت في القيام بوظيفتهما، بل ويحسد كل أعضائه إن هي ساعدته في قضاء سني عمره بسلام" [نفسه، ١٦٣].

(٢) انظر: المرشد في الغذاء، الفصل الثامن والتاسع، وانظر: خدعة التكنولوجيا، ٧٦ وما بعدها.

الحياة (مثل الوجبات السريعة)، وتفاقم سطحية التواصل الإنساني. والتوتر الناجم عن كثرة تزامم المواعيد سبب آخر للتوتر العصبي يكمن فى أن خطى حياتنا لم تعد تتلاءم مع الموسمية، وأتاحت الإضاءة الصناعية لنا ممارسة الحياة ليلاً بقدر ما نمارسها نهاراً، فقد كسرت تلك الإضاءة واحداً من الإيقاعات الأساسية فى الحياة^(١).

ولا يخفى منافاة هذا للفطرة التى اقتضت أن الليل للراحة {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً} [النبا ١٠]، حيث جعل الإنسان الليل معاشاً، "وتظهر الدراسات أيضاً أن حياة الإنسان التى طالت الآن هى حياة أكثر وهناً وقلقاً؛ فصحتنا أكثر هشاشة، فقد أصبحنا أقل جلدأ أمام المأسى والأحزان والإخفاق، كما أصبحنا أقل جلدأ أيضاً أمام الإجهاد والحرمان، وضعت مقاومة أيضاً أمام قلة التغذية وتقلبات المناخ والضغوط الداخلىة والشارجية. وأصبحنا أكثر عرضة للعدوى، وتدهورت حواسنا خاصة السمع والبصر وأصبحت أقل حدة، وأصبحت أعصابنا أكثر رهافة، وعلينا اتخاذ المزيد من الإجراءات الوقائية، ونلازم الفراش لأتفه الأسباب"^(٢).

ثم إن للحياة السمعية الصاخبة، المتمثلة فى الضوضاء، ضوضاء الآلات كالسيارات، وضوضاء الازدحام، وضوضاء الحركة، وضوضاء الموسيقى، وضوضاء الوسائط الإعلامية و... آثاراً مخيفة على الجسم^(٣).

ومن ناحية ثانية فقد أصبح الجسد الإنساني مترهلاً، حيث صارت الآلة هى المسيطرة على العمل، وأصبحت الأشغال الشاقة تعتمد على جهد الآلة وقوتها، ويكون دور الإنسان غالباً هو اللعب بالأزرار، ومع تطور الحاسوب فقد دخل كل المجالات حتى مجال الزراعة، والقيام بشئون النبات، والقيام بشئون الرعى – أما الحديث عن الروبوتات فهو لا ينقطع.

والخلاصة أن جسد الإنسان – فى هذا العصر – أصبح مزبلة هائلة تلقى فى جوفها السموم، فنفرز فى صورة أمراض وتوترات، لا يبرجى انقطاً عما أو بروها – طالما أن الإنسان قد ظل فى علاقته مع الله ﷻ، وزل فى تفاعله مع نعم الله ﷻ، وكان تفاعله معها تفاعلاً سلبياً.

* * *

(١) خدعة التكنولوجيا، ٥٥.

(٢) نفسه، ٥٧.

(٣) "فحينما يتجاوز الصوت ٨٠ ديسيبل يحدث تغيراً فى تركيب الدم، وتزيادا فى توتر الشرايين، وفى معدل الكلسترول، وإفراز الهرمونات والإجهاد... إضافة إلى هذا فقد تم البرهان على أن الضوضاء المفرطة تضعف الملكات العقلية..." [خدعة التكنولوجيا، ٤٥٤].

* الفسار

أما **الفسار** فهو جانب التباب الجمعى لسوء العلاقة مع الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر ٣٩]، وقال ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا حُسْرًا﴾ [الطلاق ٩]. وللفسار جانبان تحدثت عنهما آية النحل كقانون إلهي - يصيب المجتمع عندما يضل، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَتْنَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل ١١٢]. **فالمجتمع الذي يضل يلبسه الله ﷻ لباسي: الجوع والخوف.**

١- **لباس الجوع**، والجوع بمعناه المعروف هو عدم حصول الجسم على القوت الكافي من الطعام. إلا أن مفهومه يمتد ليصبح: عجز الإنسان عن أن يحصل على القوت الكافي اللازم لحياته حياة طبيعية، سواء أكان هذا القوت طعاماً أم شرباً أم دواءً أم هواءً نقياً أم بيئة صحية أم غير ذلك مما تتعلق حياة الإنسان الطبيعية به، ويكون في نقصها نقصاً في حياته.

وبهذا المعنى نجد أن العالم الثالث يعاني من الجوع كما يعاني منه العالم المتقدم - مع اختلاف جهات المعاناة، فإذا كان الجوع في كثير من بلدان العالم المتخلف يعود إلى فقدان الطعام والشرب أو قتلتهما، أو نقص التغذية أو سوءها، فإن الجوع في بلدان العالم المتقدم يعود إلى فقدان الهواء النقي، والبيئة الصحية.

يقول جاك أيلول متحدثاً عن فقر العالم الغربي "تحيا في فقر حقيقى فيما يتعلق بالأرض والهواء والمياه والطبيعة... وهناك أيضاً فقر حقيقى فى الاتصال بالحيوانات مما يفسر اهتمام أهل المدن بالقطط والكلاب.. وأيضاً فهناك ندرة فى الهواء حيث يتفق العلماء على أن هواء المدن ملوث، كذلك الطبقات العليا من الغلاف الجوى التى تحوى نسبة خطيرة من الكربون. أما بالنسبة للمياه، فهناك تلوث متزايد للمياه السطحية والجوفية وتناقص مستمر فى كمية المياه الموجودة، أما فيما يتعلق بالطبيعة فبعد أن كنا نعيش فى البيئة التى خلقت لنا، نقوم الآن بصنع بيئتنا دونما محيط طبيعى"^(١).

ولباس الجوع هو أكبر المشاكل التى تعانى منها البشرية اليوم، يقول أماريتا صن "نحن نعيش فى عالم يسوده -على نطاق واسع- الجوع ونقص التغذية والمجاعات

(١) نفسه، ١٣٤-١٣٥.

المتكررة^(١) "وإن ما يجعل هذا الجوع المستشري أكثر من مأساة أو تراجيديا هو طريقتنا فى قبوله والتسامح معه وكأنه جزء من طبيعة العالم الحديث، وكأننا نعيش تراجيديا هى القدر ولا سبيل لاتقائها"^(٢). ويمكن الرجوع إلى الإحصائيات المخيفة لمعرفة هذه الحقائق^(٣).

٢- لباس الخوف، والخوف يعنى فقدان الأمن، بمفهوم الأمن الواسع. وهو نقيض الأمن، والبشرية اليوم تعيش رهن مخاوف كثيرة، خوف من المرض، وخوف من القلق، وخوف من الحروب، وخوف من الكوارث، وخوف من المجاعات، وخوف من العنف، وخوف من المستقبل... الخ. وسأقف مع بعض مظاهر الخوف.

• **الخوف من المرض**، أصبحت الفكرة السائدة فى عالم اليوم أن الأصحاء مرضى وإن لم يعلموا بذلك، وبذلك يقوم الناس بفحوصات مستمرة، وزيارات دورية للطبيب، وعلاجات لا حد لها، ومهدئات ومسكنات ومنومات، وعقاقير واستشارات. ووراء ذلك فهناك أمراض تغزو العالم، وتهدد ساكنيه دون أن يجدوا لها دواء كالإيدز والسرطان، وفيروس الكبد سي (C)، والسكر وشلل الأطفال، وأيضاً جنون البقر والحمى القلاعية.. إلى غير ذلك من الأمراض الفتاكة التى أصبحت تدق ناقوس الخطر لهذا العالم الذى يركض بعيداً عن الله ﷻ. أيضاً الأمراض النفسية، والتوترات العصبية، والعيش رهن الاكتئاب والقلق، وارتفاع الضغط لأتفه الأسباب...

• **الخوف من المستقبل** متمثلاً فى الانفجار السكانى، وانتشار شبغ البطالة الذى أصبح حديث العالم اليوم، والسعي إلى الاستغناء عن عمل (٨٠%) من سكان البشر، والخوف من تقلبات الأسواق المالية، وأزمات المال والأعمال.

• **الخوف من الهلاك والدمار** سواء أكان ذلك الدمار بسبب الإنسان،

(١) التنمية حرة، ١٩٥، تأليف: أمارتيا صن، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة ٣٠٥، مايو ٢٠٠٤.

(٢) نفسه، ٢٤٥.

(٣) يكفى أن نعرف أن ملياراً ونصف المليار يعيشون فى فقر مطلق بأقل من دولار واحد فى اليوم، وفى كل سنة يموت (١٣) مليون شخص من الجوع، ويموت (١٥) مليون طفل من الجوع سنوياً، وهذا بخلاف المجاعات التى تكتسح البشرية بين الحين والآخر، كمجاعة البنغال عام (١٩٤٣م) التى راح ضحيتها (٣ ملايين من البشر)، ومجاعة (ودلو) فى أثيوبيا عام (١٩٧٣م)، ومجاعة بنجلاديش عام (١٩٧٤م)، وغير ذلك من المجاعات فى أفريقيا وغيرها، وكما يقول مايكل كاريندرس عن هذه المجاعات "إنما خلقها البشر وليس الطبيعية.. الناس يضارون بالحرب والأسعار الباهظة وغير ذلك من مظاهر الفوضى التى صنعها الإنسان، ولهذا يكون البشر عرضة لأخطار الندرة، بل والتصور جوعاً" [لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة، ٦٠، تأليف: مايكل كاريندرس، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة ٢٢٩، يناير ١٩٩٨].

كحوادث العنف والحروب وانتشار الجرائم^(١)، أو بسبب الطبيعة كالكوارث، أو تلك الحوادث الناشئة بسبب الآلات كالسيارات، وحوادث السفن والطائرات.

ولكن أهم المخاوف التي يسجلها الباحثون الآن هي المخاوف المتعلقة بالخطر النووي، حيث تمتلك الدول الكبرى وبعض دول العالم الثالث مخازن نووية رهيبة، "فإذا انفجر حتى جزء قليل من هذه الأسلحة فليس هناك احتمال أن يبقى على قيد الحياة أى كائن من الكائنات الثديية، كما سوف تقاسي الكائنات الأخرى من أضرار مرعبة، ولن يصبح العالم قابلاً للحياة بالنسبة للجميع"^(٢).

وهكذا يدفع الإنسان أمنه ضريبة باهظة التكلفة، بل الحقيقة أنه لا يعدل قيمة الأمن شيئاً - يدفع أمنه ضريبة لبعده عن الله ﷻ، ولضلاله فى علاقته مع الله ﷻ، كما دفع معيشته السوية، وعاش عيشة ضكاً للسب نفسه.

ثانياً: الرداءة

لضلال الإنسان فى علاقته مع أخيه الإنسان - عاقبه الله ﷻ بتباب هذه العلاقة، وتبابها هو رداءتها. فهى علاقة توصف بالرداءة، وأبرز مظاهر هذه الرداءة:

^(١) فى أمريكا - مثلاً - تتم حالة وفاة كل (١٥ ث) بسبب العنف، أى ما يساوى (٥٧٦٠ شخصاً) فى اليوم واللييلة - فهذا يدل على المؤشر الخطير لحوادث العنف، والخوف المتزايد منها. وهذا غير الخوف من انتشار الجريمة بسبب المخدرات والمسكرات.

^(٢) عالم فيفيس بسكانه، ١٤٠، تأليف: سيزورى كالن، ترجمة: ليلي الجبالي، عالم المعرفة ٢١٣، سبتمبر ١٩٩٦، ١٤٩. والأسباب التي قد تؤدي إلى الانفجار النووي كثيرة، ألمح إليها سيزورى كالن فى كتابه "عالم فيفيس بسكانه"، وهاهو (آر، إيه. بوكانان) يفحص حديثه أسى حول خطورة هذا الموضوع فيقول: "إن إمكان زرع أدوات الحرب التكنولوجية للتدمير الذاتى الشامل يمثل سيفاً مصلتنا فوق رقاب النوع البشرى - منذ إلقاء أول قنبلتين ذريتين انشطارتيتين على هيروشيما وناجازاكي فى أغسطس ١٩٤٥م. وإن تكديس هذا النوع من القنابل ووسائل أخرى أشد تدميراً وهى القنابل الهيدروجينية الانشطارية، داخل ترسانات الأسلحة فى العالم، من شأنه أن يجعل فناء النوع البشرى احتمالاً وارداً. معنى هذا أنه إن لم نضع فى الحسبان المخزون الرهيب من أسلحة كيميائية وبيولوجية مثل الغازات السامة والبكتريا القاتلة، وما يسمى بالأسلحة التقليدية- فإن هذا يزرع الخوف، ويحمل إمكانات تدمير لا رجعة فيه. وهناك الخطر المائل نتيجة انتشار إشعاعات من محطات توليد الكهرباء التي تعمل بالقوة النووية، إذ لا يضمن أحد أماناً كاملاً لها أثناء الحرب. وهناك أيضاً الأخطار الرهيبة التي يمكن أن تقع بسبب حادث عارض فى واحدة من هذه المحطات المخصصة لتوليد القوى (النووية)... - تضاعف القلق العام بسبب مشكلة لا تزال من دون حل وهى البحث عن وسيلة آمنة للتخلص من النفايات النووية لهذه المحطات.. [وعموماً] فإن وجود القنابل النووية ومحطات القوى النووية يشكلان تهديداً بتدمير البشرية وبالنتولث الإشعاعى" [الآلة قوة وسلطة، ٢٥٦-٢٥٧، تأليف: آر إيه بوكانان، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة ٢٥٩، يوليو ٢٠٠٠].

أ- تدهور العلاقات الإنسانية.

بدءاً من علاقة الأسرة وانتهاءً بعلاقة الدول. **وإن أحسن ما توصف به العلاقات**

الإنسانية اليوم أنها علاقات هشّة، فأقل حرارة سنسحق هذه الخيوط الباقية.

إنّ تحول الأرض إلى قرية كونية قد فضح هذه العلاقات الهشّة، وأبان أنها علاقات زائفة، وأن النفسية الفردية هي أساس العلاقات، ولا وجود لمراعاة مصالح الآخرين، "إن مجتمعنا يتحول إلى مجتمع فردي مرة أخرى، للفرد السيادة فيه، وإن التقنية والفرد قرينان"^(١).

كما أصبحت النظم المدنية هي محور العلاقات، ف"لا يهتم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده، أو الزوجة زوجها، إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون في الدائرة المدنية التي اختطها المجتمع حول أفرادها، وما دام لا يحدث عملهم هذا اضطراباً في المجتمع وثورة على النظام ولا يعرقل سير المدينة فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد، أو فرك من قرينة، أو جفاء من زوج، أو دعارة من امرأة، أو فسق من رجل، أو خيانة من زوجة"^(٢).

وهكذا تتوسع دائرة الهشاشة في العلاقات؛ لنتبين أن الدول تقيم علاقاتها على أساس المصالح النفعية فقط، ولا يمنع نبذ كل المبادئ والقيم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وأصبحت علاقاتنا تقوم وتتقوض بطرق أسرع من البرق.

إن علاقات العالم قائمة على الافتراس؛ فالقوى يفرس الضعيف، والغنى يأكل الفقير، وأصبح حديث الحروب حديثاً مخيفاً، وأصبح أخطبوط الاقتصاد الدولي يلتف حول الأعناق، ويكفي أن نعرف أن المشكلة التي تؤرق أجنان العالم الثالث - هي مشكلة الديون ومضاعفاتها الربوية، هذه المشكلة التي نشأت أساساً من نهب العالم (المتحضر) لثروات العالم (المتخلف)!! لم يعد في حياتنا مجال لمعرفة حقيقة التعاون والإخاء.

ومما سبب تدهور العلاقات أيضاً وانحطاطها - الآلات والأجهزة، فمثلاً: قضى الهاتف على تبادل الناس الزيارات واشتباكهم في اتصالات إنسانية، ولا ننكر فائدة التقنية العظيمة في الهاتف مثلاً، فهو يقوم بخدمات كثيرة للفرد، من تحديد مواعيد، وتوفير جهود وأوقات، "إلا أن وجه النشاط الشيطاني لهذه الآلات هو غزوها لحياة الفرد بأكملها، وتقويضها لفرص الأنشطة واللقاءات الإنسانية الحميمة"^(٣).

وحتي الألعاب الإلكترونية التي شاعت في الآونة الأخيرة، تعزل الناس عن بعضهم البعض، وتجعل الإنسان نجى الآلة، ولا ننسى دور التلفزيون وغيره في تحطيم العلاقات والاتصالات..

(١) خدعة التكنولوجيا، ١٤٥.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٣٦٤، أبو الحسن الندوي، مكتبة السنة، ١٤١٠/١٩٩٠.

(٣) خدعة التكنولوجيا، ١٢٧.

حتى السوق، فقد أصبحت عملية البيع والشراء - في أسواق المضاربات - تتم عن بُعد.. وهكذا نجد صدق المقولة أنه "كلما زادت عملية تجميعنا بواسطة الآلات، زاد بعدنا واغترابنا عن بعضنا البعض"^(١).

ب- تحطم القيم والمبادئ السامية

يمكن أن نقول عن هذا العصر بأنه عصر (فقدان القيمة) فكل شئ فيه فقد قيمته، وأصبحنا نحيا حياة عبثية تضرب بجذورها في كيان النشاط الإنساني، فالكلمة فقدت قيمتها، وأصبح لا معنى لها. وأحالت المدرسة التفكيكية النص إلى طلاس، ومعاني لا نهائية لها، ومن ثم يضيع النص وسط احتمالات لا حصر لها من المعاني. والحياة فقدت قيمتها، ففي ظل فلسفة العبث الوجودية تصبح الحياة وكل أنشطة الإنسان، وكل فكر إنساني - لا معنى لها على الإطلاق، "فلأن نحيا هو واقع محض، وليس ثمة معنى لما يحدث، وليس لنا أن نبحث عن معنى لما يحدث أو أن ننسبه لأي شئ. فليس للتاريخ معنى، كما أنه لا يتحرك باتجاه أى هدف، ولا يتبع أية قوانين، وليس له صفة الدوام فليس ثمة وجود للخير والشر، ومن ثم - فباستثناء أخلاقيات الغموض - فالأخلاقيات غير ممكنة كما أنه ليس هناك معنى للعلاقات مع الآخرين؛ إذ إنها مستحيلة استحالة تامة من جميع أوجهها...."^(٢).

وباختصار فإنه ليس لأى شئ فى هذه الحياة قيمة، والإنسان ذاته ليس له قيمة، إنما خلق عبثاً - وحاشا لله {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون ١١٥].

وامتدت هذه العبثية إلى عطاء الإنسان الفكرى - فأصبحت كثير من الفنون والآداب لا معنى لها، ولا يدرى أصحابها ماذا يفعلون فيها. كما امتدت إلى عطاء الإنسان الاقتصادى، فالنفقات المسعورة التى تتحكم فى مختلف نواحي حياتنا هى السمة المسيطرة لإنسان العصر.

حتى إنتاجاتنا أصبحت توصف، بأنها إنتاجات تخلق الحاجات، ولا تسدها، فالقضية أن "تنتج تقنية أكثر سواء كان لها معنى أم لا، وسواء كانت ثمة حاجة إليها أم لا، ثم يبدأ الضغط علينا من أجل الشراء..."^(٣). ثم هذا التبديد المخيف المروع لكل شئ، بدءاً من استهلاك الإنسان للطعام، حتى تبديده للهواء والماء والفضاء والوقت، تبديد فى الاستهلاك، وتبديد فى التصنيع.

(١) نفسه، ١٢٧.

(٢) نفسه، ٢٣٢.

(٣) نفسه، ٣١٤.

إذن فالعبيثية هي القيمة المسيطرة في الحياة، وهي الناتج النهائي لعلاقة

ضلت طريقهما، وفي ضوء هذه العبيثية تقف قيمها لتتحكم في سلوك الناس، فتصبح قيم الإسراف والاستهلاك هي القيم الموجهة للعلاقات الإنسانية، ومن ثم يعبد المال ويقدم ويتخذ إلهاً في الأرض، وصنماً نقدم له القرابين - ولو كانت هذه القرابين هي الإنسان نفسه، وعلاقات الناس بعضهم البعض. وتحت رحمة العبيثية يضحي الإنسان بأخيه الإنسان، فيسحق كرامته وحرية وحقه المقدس في الحياة. ويفقد الناس كل معاني الإخاء والتعاون، وكل قيم العدالة والكرامة، وكل مبادئ الحق والحرية.

ج- سيادة قوانين الغاب

نتيجة لندهور العلاقات وانحطاط القيم - تصبح علاقة الإنسان بالإنسان هي علاقة القوي العربييد بالضعيف الرعّيد، فيسعى القوي إلى تحطيم الضعيف بكل وسيلة من الوسائل، ويسعى الضعيف إلى تقديس القوي وعبادته، والتضحية بكل شيء في سبيل رضاه، وحتى نعرف سيادة هذا القانون ننظر في جانبين: الجانب الاقتصادي، والجانب العسكري فقط. أما الجانب الاقتصادي فحديث الديون والمجاعات والأزمات الاقتصادية، لا ينقطع سيله، وأخيراً حديث السوق الواحدة والشركات المتعددة الجنسيات التي أصبحت أفاعى مسمومة تغرق البلدان بالديون، وتحتكر الإنتاج العالمي، وتسحق أي شركات محلية. وأما الجانب العسكري فحديث الحروب يكفي دليلاً على هذا، بدءاً من الحركة الاحتلالية الغربية للعالم الآخر حتى يومنا هذا، والعالم يشهد حروباً متوالية لم يخف سعارها، ولم يهدأ أوارها.

فهناك ملايين الضحايا بسبب تلك الحروب، حتى إنها تقدر سنوياً بـ(٥٢) مليوناً، إلى غير ذلك من ضحايا ومن مشوهين ومعوقين بسبب الإشعاعات، وما وراء ذلك من تدمير هائل للبيئة، ومن تعذيب ووحشية، ومن انتهاك الأعراض والحرمات، ومن اغتصاب وتخريب ونهب.. الخ. وها هو العالم يشهد يومياً مذابح مروعة في هذا العالم المسكين، بشر يذبح بشراً، وآخرون ليس لهم إلا المشاهدة والحوقة.

ثالثاً: الضعف

وهذا هو مظهر التباب الناجم عن إساءة استخدام الإنسان للمادة - حيث أدى ذلك إلى ضعف البيئة؛ نتيجة لحملها أخطاراً هائلة جراء التلوث المروع. وبالتالي أصبحت هذه البيئة تهدد الإنسان، وتشكل رعباً حقيقياً يمكن أن ينقض على ساكنيه في صورة زلازل وكوارث وبراكين وغير ذلك.

إن إساءة استخدام الإنسان للمادة . ألحق الضرر بالبيئة، مما أدى إلى تلويثها،

وحرمان الناس من التمتع بحياة طبيعية، بل حرمان الأحياء الأخرى من التمتع بالحياة، بل أدى إلى ذلك إلى إفساد النظام البيئي، فتلوث الهواء، والماء، والتربة.

هناك العديد من المشاكل البيئية التي تؤرق أجفان البشرية، ومنها: مشكلة الاحتباس الحراري، وثقوب الأوزون، وتراكم ثاني أكسيد الكربون في الجو، والأمطار الحمضية، وتلوث المسطحات المائية في معظم أنحاء البلدان الصناعية، والتلوث الناتج عن عوادم السيارات ومختلف الآلات، والتلوث الحراري، وتلوث التربة، وإلقاء المخلفات الخطرة في زوايا أرضنا، والمخلفات المشعة الناتجة عن المفاعلات النووية ومصانع الأسلحة، وخطر المبيدات... وغيرها من المشاكل. وكل مشكلة من هذه المشاكل لها آثار خطيرة على نظام بيئتنا، وعلى حياة الكائنات المختلفة على هذه الأرض، ولا يقتصر التأثير على هذا الجيل فحسب، بل يمتد لأجيال قادمة.

وتقدر منظمة الصحة العالمية أن ما يقرب من خمس سكان العالم يتعرضون لمستويات خطيرة من ملوثات الهواء، وأن ما يقرب من خمسة ملايين شخص يموتون سنوياً، بسبب تجرعهم ماءً ملوثاً. والحقيقة كما قال جاك أيلول أننا "تواجه خطر تدمير أنفسنا بتدميرنا وسطنا البيئي، والطبيعة بمفردها لا تهتم إلا أننا لو بالغنا في قفلة توازنها فعلينا تحمل النتائج الفظيعة"^(١).

وهذا الضعف البيئي قد خلق مشكلات عديدة في حياة الإنسان، كالتشوهات ووجود نسبة (١٣%) من البشر غير أسوياء يقوم المجتمع بنبذهم. وأيضاً يحق لنا أن نتساءل عن هذه الأمراض التي تهدد طعام الإنسان من الحيوانات كجنون البقر والحمى القلاعية التي تصيب الغنم. ألا يكون وراءها هذه البنية البيئية التي أفسدها الإنسان فشوه بذلك بيئته وطعامه وشرابه، بل وبلغ التشوه أوجه في ما لا يقل عن (١٣%) من البشر؟ ثم ما أسباب هذه الأمراض التي تقتلع الحياة عند الأطفال: شلل الأطفال، سرطان الأطفال، الفشل الكلوي، و.....؟ ما وراء هذه الأمراض؟ أليس هو الإنسان الذي أفسد البيئة، فأصبحت تعبر عن فسادها في صور مختلفة، مرة في زلازل وأعاصير، ومرة في أمراض وتشوهات.

"ففي الطبيعة ثمة كثير من الأمثلة التي تشهد على أن تجاهل حدود نظام معين يمكن أن يؤدي إلى عمليات انكماش أي كوارث لا رجعة عنها، فعوامل من قبيل انبعاث الغازات الضارة، وتدمير الغابات من خلال اجتثاث ما فيها من أشجار، والاستخدام المفرط للأسمدة، تؤدي إلى نتائج معروفة تتجسد من خلال التغيرات المناخية وانهيارات التربة وفيضان الأنهار والجداول، وما سوى ذلك من كوارث كثيرة"^(٢).

(١) خدعة التكنولوجيا، ٢٦٩.

(٢) نهاية عصر البترول، ٢٣٦، تأليف: كولن كامبيل وآخرون، ترجمة: د. عدنان عباس علي، عالم المعرفة ٣٠٧، سبتمبر ٢٠٠٤.

وهكذا حقق الإنسان ما نهى الله ﷻ عنه ﴿وَلَا تَسِيدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف ٥٦]، أفسد الإنسان هذه البيئة وقد أصلحها الله ﷻ، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة ٢٠٥].

رابعاً: الهلاك

نتيجة لضلال الإنسان في علاقته مع الله ﷻ أولاً، ثم مع الخلق ثانياً، ثم مع الحياة الدنيا والآخرة - نتيجة لهذا كله يقع الإنسان في الهلاك، قال تعالى ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام ٢٦]. والقرآن الكريم قد حكي لنا عبرا شتى في أقوام هلكوا، قال تعالى في هذا القانون ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبُ﴾ [هود ١٠١]، وقال تعالى يذكر بعض أنواع الهلاك ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت ٤٠].

غير أن الأمر اختلف من بعد هلاك فرعون، كما ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص ٤٣] "يعنى أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامه، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله ﷻ من المشركين" (١)، وقد نقل ذلك عن أبي سعيد الخدرى أيضاً.

وإن كان هذا لا يمنع من حصول هلاك جزئي، فلا يكون هلاكاً شاملاً لأمة ما، وإنما يهلك بعضها، كما حصل في زلزال تسونامى الذى هلك فيه ما يزيد على ثلاثمائة ألف، غير الملايين التى تشردت والتي تأثرت جسيماً أو نفسياً بسببه وهو عدد هائل.

والقرنان الأخيران مليئان بحوادث مخيفة من زلازل وأعاصير وفيضانات، وجوائح مرضية، الخ (٢).

(١) ١١٧/٦

(٢) يقول وحيد الدين خان "إن هذه الزلازل قيامة على نطاق غير واسع، فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف، ودويها الرهيب، وعندما تتساقط الجدران، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة، حتى كأنها أوراق الكوتشينة، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها، وأسفلها أعلاها، وعندما تحل الخرائط الموحشة محل المدن العامرة الكبرى فى ثوان معدودة، وعندما تسير طوابين النعوش، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر - فتلكم هى قيامة الزلزال، وفى تلك اللحظة يشعر الإنسان بجزءه أمام قوى الطبيعة، فإن الزلازل تفرع أبواب المدن، دون سابق إنذار، والبلية كل البلية أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل، ولا بموعده وقوعها وهى فى نفسها تنبئ عن قيامة كبرى، سوف تعجونا غداً يوم على غرة منا. إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها كما يشاء"، ينظر كتابه: الإسلام يتحدى، ٨٢. وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، مؤسسة الرسالة، ط: ٢٢، ٢٠٠١/١٤٢٢.

وهناك هلاك آخر، إنه هلاك المكانة، فالأمة بسبب ضلالها فى علاقاتها يعاقبها الله ﷻ بزلزال هائل يدمر مكانتها الحضارية، وهو واضح فى كثير من أمم الأرض، ولا أذهب بعيداً - فالمسلمون عندما ولغوا فى الضلال نزع الله ﷻ منهم ما كان بؤهم من مكانة وعزة ورفعة، وهو أعظم ضلال تأثرت بسببه البشرية، ذلك أنه حجب الصراط المستقيم العالمى عن البشرية، ولم تعد البشرية قادرة على الوقوف على قدميها أمام هذه التعثرات. وكتاب (ماذا خسر العالم، بانحطاط المسلمين) فيه برهان على ما أقول - وكنت أقترح أن يسمى: ماذا خسر العالم بضلال المسلمين؟ ولقد خسر العالم معالم الصراط المستقيم - الذى لن يراه إلا باهتداء المسلمين.

ثانياً: العذاب

وهو وعيد الله ﷻ للضالين من البشر - بعذاب فى الآخرة، وقد أفاض القرآن فى الحديث عنه بين إقامة البراهين على وقوعه، وبين وصف مشاهدته وبيان أهواله، وهو عذاب هائل يتنوع تنوعاً كبيراً، فمنه عذاب جسمى ومنه عذاب نفسى، والعذاب الجسمى بعضه لهب وسعير وحريق، وبعضه ضرب وسحب، كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر ٤٨]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال ٥٠].

ما المخرج من الضلال (سورة التكوير)

إنما يقع الإنسان في الضلال - كما عرفنا - حين تضطرب المعرفة لديه، فينشأ عن هذا الاضطراب سلبية في العطاء. ولكن ما السبيل إلى صيانة المعرفة من الاضطراب، والعطاء من السلبية؟

أما المعرفة فإن السبيل إلى صيانتها هو بقاؤها قدسية تتلقى من لدن الخالق العظيم، وأما العطاء فإن السبيل إلى صيانتها هو إدراك الإنسان اليقيني بمسئوليته الكاملة عن عمله (عطائه). وبعبارة أخرى، فالوحي هو السبيل الوحيد لبقاء المعرفة قدسية شمولية مؤثرة فعالة، والإيمان اليقيني باليوم الآخر وثوابه وعقابه هو السبيل الوحيد لإنتاج الإنسان أعمالاً صالحة. ومن ثم فقد جاءت سورة التكوير تتحدث عن هذين المحورين: اليوم الآخر والوحي.

المحور الأول: الإيمان باليوم الآخر [من آية: ١ إلى: ٤: ١]

تشابكت مظاهر الخلق المبنوثة في السماء والأرض، في الآفاق والأنفس، في الدنيا والآخرة - تشابكت لتقرر الحقيقة العظيمة (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ {٤}).

هذه المظاهر، بعضها سماوي، كالشمس والنجوم، وبعضها أرضي، كالجبال اليابسة، والبحار المائية، والأحياء الأليفة: العشار، والوحشية: الوحوش. ثم في عالم الأنفس: النفوس، وعطاءاتها التي ستأتي في الصحف المنشورة، ومن عطاءاتها السلبية وأد البنات.

ثم تنتظم هذه المظاهر، وما يصيبها من انقلاب هائل لمقدم ذلك اليوم الشديد - تنتظم لتشهد التغيير الهائل في العالم العلوي الذي تحجبنا عنه السماء، فتكشط هذه الطبقة كما قال {وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة ١٦]، {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَكُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان ٢٥]. ثم تكون خاتمة المشاهد في دنو الجنة وهي الدار التي أعدها الله ﷻ للمتقين، وتسعر النار واضطرامها وزفيرها في انتظار العصاة - مشاهد هذه المخلوقات تنتظمها حركات ثورية، وانقلابات هائلة^(١) (تكوير وانكدار وتسعير وحشر

(١) لفظ التكوير، يدل في اللغة على: (دور وتجمع)، وتكوير الشمس، يراد به - والله أعلم بمراده - ما يسمى بـ (الانهيار الجذبي)، والمراد بالانهيار الجذبي، كما في الفيزياء الكونية، أن الشمس ستختل كثافتها، وتفقد التوازن؛ نتيجة لوفرة الهليوم فيها، ونفاد الهيدروجين. وحينئذ تسعى الشمس لإعادة التوازن، فيحدث انتفاخ هائل في الجزء الخارجي من الشمس، وينقلص اللب، ويتغير لونها إلى الحمرة، فتصبح عملاقاً أحمر، يبتلع الكواكب الثلاثة: عطارد والزهرة،

وتسجير، وسؤال وجواب، ونشر وكشط، ودنو، وتسعير) هذه الحركات العظيمة التي يتغير بها النظام الكوني تصل بنا إلى الحقيقة الكبيرة في عالم الإنسان والجان - فإذا حصل هذا كله فعند ذلك (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ {٤}).

والمجئى بـ(نفس) منكراً ليشمل كل نفس، وليجرد كل نفس من أي تباهي أو تعالي، فهي نفس لا أكثر ولا أقل، نفس مخلوقة، قد جاءت اليوم محضرة أعمالاً وعطاءات شتى، جاءت محملة بكل ما قدمت في الحياة، ستره رأي العين، سترى البسمة والعبسة، سترى الهمسة والغمسة، سترى الحقيبر الذي عملته والجليل، سترى القول كله حسنه وقبيحه، سترى ظلمها وعدلها، {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران ٣٠]، وعند ذلك يصرخ هذا الإنسان {يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف ٤٩]. ولكن هيهات ف(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى {٣} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى {٤} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى {٥}) [النجم: ٣٩-٤١].

إذن فليوقن الإنسان بهذا من الآن، حتى يستعد لذلك اليوم. وإذا ما أيقن الإنسان بذلك فإنه لن يحضر إلا العمل الصالح معه، وسيجاهد في حياته حتى يقدم على ربه بالعطاء الإيجابي الذي ينفعه {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨-٨٩].

المحور الثاني: تلقى المعرفة من الوحي [من آية: ١٥ إلى آخرها]

تأتى هذه الجملة القسمية (فَلَا أُقْسِمُ بِالْحُنُوسِ {٥} الْجَوَارِ الْكُنُوسِ {٦} وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ {٧} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ {٨}) فتتنظم مظاهر الحياة المتحركة في شقيها: المادي والزمني، فكل شئ يتحرك - إذ لا مكان للسكون، ولا قيمة للجمود والركود في هذه الحياة - هذه الحياة المتحركة نجوم تظهر ثم تغيب^(١)، وتجرى - وليل يعسعس ويقتمح على الناس

والأرض. ثم يحدث انهيار للجزء الخارجي من الشمس؛ لأن اللب لا يستطيع أن يسندها، فتتكشم انكماشاً مفاجئاً وسريعاً، فتتقارب الذرات تقارباً شديداً حتى تكاد تتداخل، إلا أن قوة التنافر الكهربائي بين الأغلفة الإلكترونية للذرات تقاوم تداخلها عندما تصبح المسافة بينها قليلة، وبذلك تتعادل قوة التنافر الكهربائي مع قوى الجذب التي تؤدي إلى تكوير الشمس، وعندما يحصل هذا التوازن تكون الشمس قد وصلت إلى مستقرها، وتدعى عندئذ قزم أبيض؛ إذ لا يتبقى من ضوئها إلا نور خافت ضئيل.... والأقزام البيضاء إذا كانت كتلتها أكبر من كتلة شمسنا فإنها قد تنفجر إلى أشلاء؛ لأنها في حالة غير مستقرة، أما الأقزام البيضاء التي في مثل كتلة شمسنا فإنها تستقر على حالتها لملايين السنين. وهنا نفهم قوله تعالى: "والشمس تجري لمستقر لها" [يس: ٣٨]، كما نفهم آية التكوير، فالتكوير الذي هو دور وتجمع، يحدث أثناء الانهيار الجذبي، إذ تتجمع مادة الشمس على بعضها وتدور، كما نفهم آية سورة القيامة: "وجمع الشمس والقمر" [القيامة: ٩] حين تتبلع الشمس الأرض. [بتصرف عن: خلق الكون بين العلم والإيمان، د. محمد باسل الطائي، ص ٤٦-٤٧].

(١) (فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس)، الخنس، هي التي تختفي بحيث لا تظهر، ولهذا ورد في الحديث أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، أي توارى واختفى بحيث لا يظهر. ولعل الخنس المذكورة هنا إشارة إلى ما

خلواتهم، ثم صبح يتنفس^(١)، فتتنفس معه الكائنات، وتستيقظ من سباتها المخلوقات، لتوجد من هذا الاستيقاظ حركة ونشاطاً وسعيّاً دائماً- وهذا النشاط الإنساني -خاصة- ينبغي أن يكون امتداداً مقدساً لمعرفة مقدسة، وإلا فلا قيمة له ﴿وَوَدِدْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَعَمَلَانَهُ هَبَاءً مَّثُورًا﴾ [الفرقان ٢٣].

هذه المعرفة التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها، ينبغي أن يتلقاها الإنسان من ذات المصدر الذي خلقه وخلق له القدرة والإمكانات التي يعمل بها، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات ٩٦]. وطريق هذا التلقي هو الوحي - وما لم يؤمن الإنسان بالوحي فإنه يقطع على نفسه الطريق في وصول المعرفة المقدسة إليه، ويقيم علاقة سلبية بين نشاطه والمعرفة المقدسة، بل تستند نشاطاته -عندئذ- إلى معارف وضعية لا قداسة لها ولا عالمية، ولا تتلاءم مع المبادئ الرفيعة التي أمر الإنسان بإقامتها - مبادئ الحق والعدل والإخاء والمساواة والحرية والتعاون.

من هنا، فالطريق الوحيد لصقل معرفة الإنسان وحفظها في الإطار القدسي، هو الإيمان بالوحي. والوحي له مرحلتان:

المرحلة الأولى: أخذ المعرفة القدسية من الله ﷻ، وإنزالها إلى البشر - وهذه الوظيفة يقوم بها رسول ملكي، والرسول الموكل بهذه المهمة - هو جبريل عليه السلام - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٣﴾)، وهي صفات

كشفت أبحاث الفيزياء الكونية مؤخرا، وهي الثقوب السوداء، وهي نجوم عملاقة تتركز في قلب المجرات، وتتكون بعد أن تصير أفزأما بيضاء، حيث تتكدس فيها الجزيئات بدرجة لا يمكن تخيلها، وتلاشى المسافات بين الذرات، وبذلك تصبح لهذا النجم جاذبية هائلة جدا، فيجذب كل ما حوله من جسيمات، بل إنه يجذب حتى الضوء، فلا يستطيع الإفلات من سطح النجم، وعندئذ فإن هذا النجم يغيب تماما عن الرصد، ولا يمكن رصده حتى بالمراسد الراديوية، فلا يرى منه شيئا، ويسمى عندئذ ثقب أسود (Black hole).

(١) التنفس في الكائنات الحية هو مجموعة من العمليات التي تمكن الجسم من الحصول على حاجته من الأكسجين، وتخليصه من ثاني أكسيد الكربون. وبذلك يحافظ التنفس على التوازن الحامضي - القاعدي، ويحافظ على حرارة الجسم. وتتم عملية التنفس من خلال عملية الشهيق والزفير. والسؤال الذي يوضع نفسه هنا: هل تنفس الصباح حقيقي أو مجازي؟ المفسرون على أن ذلك مجازي، ولكن هنا بحث لطيف يثبت أنه حقيقي، وليس مجرد تشبيه، فمن مظاهر تنفس الصباح: أنه يقوم بإدخال الهواء البارد النقي الغني بالأكسجين، وهذه عملية الشهيق، كما يقوم بدفع الهواء الدافئ الملوث بثاني أكسيد الكربون نتيجة لاستقراره طول الليل قريبا من سطح الأرض، وهذه عملية الزفير، فنسبة الأكسجين خاصة في الصباح مع نقاء الهواء تساعد على عملية التنفس لجميع الكائنات الحية. وفي الصباح تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون (O₃) عند الفجر، وتقل تدريجيا حتى تضمحل عند طلوع الشمس، وهذا الغاز منشط للجهاز العصبي والفكري عند الإنسان، كما أن الكثير من الأنشطة الحيوية تحدث نهارا كعملية التمثيل الضوئي في النبات، وسرعة الرياح تنشيط نهارا وتهدأ ليلا، كما أن الهواء في النهار يتحرك ويتمدد وينقل من مكان إلى آخر؛ نتيجة لارتفاع درجة الحرارة بخلاف الليل. [ينظر: دلالة الإعجاز العلمي في إثبات حقيقة تنفس الصبح والتغيرات المناخية المصاحبة، د. هدى عبد الله عيسى العباد، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة].

عظيمة تؤهله لحمل هذه الأمانة العظيمة، فهو ذو قوة ومكانة عند ذى العرش - وهو أمين يحفظ ويؤدى ما أوكل إليه من مهام. وأما طريقة وحي الله ﷻ إليه فهو أنه يسمع القرآن من الله ﷻ بلفظه المخصوص، كما عليه أهل السنة والجماعة^(١).

المرحلة الثانية: أخذ المعرفة التى جاء بها الرسول الملكى منه - وتبليغها إلى البشر، وهذه الوظيفة يقوم بها رسول بشري، يتلقى عن الملك ثم يبلغ إلى البشر، وقد قام بهذه المهمة رسل كثير من البشر، وكان خاتمهم محمداً ﷺ {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب ٤٠]، ومن ثم أصبح المعبر الوحيد لتلقى المعرفة القدسية.

ومحمد ﷺ قد أوتى من الصفات ما أهله لحمل هذه الأمانة العظيمة ومن ثم تبليغها، {وَمَا صَاحِبِكُم بِمَجْنُونٍ} {٣} {وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ} {٣} {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} {٤}، إنها صفة العقل الكامل والأمانة المطلقة، وأما نفي الجنون عنه؛ فلأن قومه كانوا يتهمونه بهذا، ولكن الله ﷻ يقول لهم إنه صاحبكم، والصاحب يعرف صاحبه، وأنتم الذين شهدتم له بالصدق والأمانة والعقل الراجح - طيلة أربعين سنة - فأنى صار بعد هذا السن متهماً أو مجنوناً؟

ومن الشبهة التى أثارها الجاحدون حول الوحي - وحكاها القرآن عنهم - أنهم أقروا بعقرية النبي ﷺ قديماً وحديثاً، ولكنهم نفوا أن يكون تلقى القرآن من المصدر الملائكي، بل أثبتوا له مصادر أخرى، ومن هذه المصادر:

١- **المصدر الشيطاني**، حيث زعموا أنه تلقاه من الشيطان، وإن اختلفت المسميات بعد ذلك، فقالوا بأنه كاهن- والكهان يتلقون معارفهم من الشياطين، وقالوا بأنه مجنون، والمجنون من استولى عليه الجن وغلبوا عليه وأصبح يتحدث بلسانهم، {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر ٦]. ولهذا نفي الله ﷻ عنه الكهانة والجنون {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ} [الأعراف ١٨٤]، {فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} [الطور ٢٩]، وفى التكوير نفي أن يكون هناك أي مصدر شيطاني (وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَّجِيمٌ} {٥٠}، وفى الشعراء {وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ} {٣٠} {وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} {٣١} {إِنَّهُمْ عَن السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ} {٣٢} [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وفى سورة التكوير {وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَّجِيمٌ} {٥٠}.

٢- **المصدر البشري**، حيث زعموا أنه تلقى معارفه عن بشر {وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَتَهُمُ

(١) مباحث فى علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣٥، مؤسسة الرسالة، ط: ٢، ١٩٩٩/١٤٢٠.

يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحل ١٠٣]، ونفى الله ﷻ عنه هذه المصدرية كما في الآية نفسها^(١).

٣- **المصدر النفسي**، حيث زعموا أن محمداً ﷺ قد أوتى من الذكاء والفراسة والفتنة والبلاغة - ما يستطيع أن يكشف به خبايا النفوس، ويصوغ بها هذه المعارف العظيمة، ومن هنا جاء قولهم بأنه شعر، وثانية بأنه سحر، وزعموا أن الرسول ﷺ ساحر أو شاعر. والآيات التي حكى عنهم هذه التهمة كثيرة، وقد أثبت الله ﷻ في كتابه أن القرآن ليس مصدره نفسياً، بل مصدره سماوي (وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٣} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ {١٣} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {١٤}) [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

لقد نزل القرآن الكريم من عند الله ﷻ متضمناً المعارف المقدسة، والإرشاد الإلهي للإنسان إلى العمل الصالح وعمارة الحياة بالخير، وشاملاً سعادة الإنسان وفلاحه في الدارين - وهو بهذا ذكر لجميع العالمين، فأين تذهبون أيها الناس عن المصدر القدسي للمعرفة؟! ولم تتأون عن الاستقامة عليها؟! ولكن الإنسان باختياره إن شاء آمن وإن شاء كفر (لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ {٢٨})، ولكنه سيتحمل نتيجة اختياره. ولحديث المشيئة فيض في مكان آخر. (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ {٣} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {٣} لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ {٣} وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {٣}).

(١) وينظر دحض الشبهة في: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ٤٧-٤٩.

الفصل الثاني: العمل والجزاء

مدخل:

تآزرت السور السبع السابقة في إيضاح قضية المعرفة والعطاء، واتصالهما وانفصالهما، وما يترتب على ذلك من تباب وعذاب . وقد وجدنا في طيات ذلك الحديث بيان حقيقة عظمتها من حقائق هذا الدين، وهي أن كل إنسان مرتبه بعمله، قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر ٣٨]، والسور التالية سوف تجلى جوانب كثيرة من هذه الحقيقة؛ لأنها العمود الثالث في حياة الإنسان، بل هي العمود الأول الذي ترتكز عليه الأعمدة الأخرى. والملاحظ أن هذه السور كلها من السور القصار . وهي أقصر من السور السابقة . حيث جاءت معبرة عن الجزاء بإيقاعات سريعة، تعتمد على الضربات الخاطفة القوية؛ كي تنبه الإنسان وتحذره إن أخطأ وتمادى. أجابت هذه السور عن سؤالين أساسيين:

السؤال الأول: ما قوانين الجزاء؟

فبينت السور ثلاثة قوانين:

١. قانون (الفلاح والخسارة)، (سورة الأعلى).
 ٢. قانون (اختلاف الأداء يستلزم اختلاف الجزاء)، (سورة الليل).
 ٣. قانون (لكل مقدمة خاتمة)، فالمقدمة الصالحة خاتمتها الطمأنينة، والمقدمة السيئة خاتمتها التباب والعذاب، (سورة الفجر).
- ثم عرضت نموذجاً من نماذج النفس المطمئنة، وهي نفس رسول الله ﷺ، ومن تبعه واهتدى بهداه، (سورتا الضحى والشرح).

السؤال الثاني: ما مقتضيات الجزاء؟

والمراد بهذا بيان الأمور التي تجعل من الجزاء حتما لازما، فوجود هذه الأمور يقتضي وجود الجزاء، وهي:

١- (اتفاقية العمل المقدس بين الله ﷻ وبين العبد)، فالإنسان أجير استأجره الله ﷻ واستخلفه على الأرض، ووعده أن يوفيه أجره إذا التزم ببند الشروط المتفق عليها، (سورة العصر).

٢- (حقيقة القوة وطبيعة الإنسان)، فعندما تلتقي القوة مع الإنسان على غير هدى، فالنتيجة بوار القوة وكنود الإنسان، ولولا وجود الجزاء رادعا وزاجرا - لانفرط العقد بين القوة والإنسان، (سورة العاديات). ثم جاءت (سورة الكوثر) لتربأ برسول الله ﷺ عن نموذج الإنسان الكنود.

٣- (النعمة ومسئولية الإنسان)، فالإنسان قد وهبه الله ﷻ نعمًا لا تعد ولا تحصى، وهذا يقتضي أن يسأل عما فعل فيها، (سورة التكاثر).

وأخيرا، ماذا بعد كل ما سبق، هل يلتزم الإنسان أو ينحرف عن الصواب والمقصد الصحيح؟ (سورة الماعون).

قانون الفلاح والخسارة (سورة الأعلى)

القانون الإلهي ينص على أنه (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى {١} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى {٥})، فالفلاح يكون لمن: ١- تزكى. ٢- ذكر اسم ربه. ٣- وأثمر هذا الذكر صلاة وعملاً صالحاً. ومن لم يكن كذلك فله الخسارة كل الخسارة.

وفى سبيل الوصول إلى هذا الفلاح ابتدأت السورة ببيان الذكر الصحيح وما يولده فى نفس الإنسان من خشية ورهبة يتبعها عمل وتذكير. وبينت المصادر الأساسية للذكر، وهي: الفكر، والقرآن، واليسرى. ثم بينت السورة مهمة الإنسان الذاكر، وهي التذكير. ثم بينت سبب عدول الناس عن الحق.

[مصادر الذكر]

١- الفكر

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى {١} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {٣} وَالَّذِي أخرجَ المَرعى {٤} فَجَعَلَهُ غنَاءً أَحْوَى {٥})، يرشدنا مطلع سورة الأعلى إلى المنهجية الصحيحة في تسبيح الله ﷻ، وتعظيمه، وملء القلب بجلاله وخشوعه، وذلك بالنظر والتأمل في ما أبدعه الخالق، هذا الخلق الذى خلقه فسواه، وهذه المخلوقات هداها الله ﷻ إلى أقدارها، وهذه الأقدار المحكمة المضبوطة التى يسير عليها الكون كما تلحظ ذلك فى أي شئ، كالشجر تثمر وفق سنن الله ﷻ، ثم تيبس أوراقها وفق سنن الله ﷻ (أخرج المَرعى {٤} فَجَعَلَهُ غنَاءً أَحْوَى {٥}).

إن التفكير فى مخلوقات الله ﷻ، والتأمل فى سننه يملأ القلب بعظمة الرب ورهيبته وخشيته، فينطلق الإنسان ذاكراً لله سبحانه منزهاً لجلاله، معظماً لخالقه فى كل لحظة من لحظات حياته، لا ينصرف قلبه إلى غيره، ولا يرى أحداً سواه، إنه التسبيح العظيم الذى يملأ حياة الإنسان بالخالق العظيم، فيجعل منه إنساناً عظيماً فى هذا الوجود.

٢- القرآن

وعد الله ﷻ رسوله ﷺ فقال (سَتُرْوَكُ فَلَا تَنسَى {١} إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)، والله ﷻ قد أقرأ رسوله ﷻ هذا القرآن العظيم ووعده بأنه لا ينسيه منه إلا ما شاء، كما قال (مَا تَسْمَعُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) [البقرة ١٠٦]. فطالما كان هذا الكتاب محفوظاً من قبل الله ﷻ،

فهو الكتاب الجدير بأن يتعين مصدراً لحياة الإنسان، ينهل منه ويعب، فيكون له بصائر في حياته. وعندما يتخذ الإنسان مصدراً لمعرفته، فإن عطاءه في هذه الحياة سيكون إيجابياً، وعمله سيكون صالحاً، يوافق سنن الله ﷺ ولا يخالفها، ويعمل في رضا ربه ولا يسخطه - وهذا هو ذكر الله ﷻ، ولهذا فإن الإنسان يظل يراقب ربه في هذا الذكر، فهو (يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى {٧})، وبالتالي فهو الذي يحاسبه.

ولا يخفى ما في هذا الوعد وهو قوله (يَعْلَمُ الْجَهْرَ) من بشارة عظيمة لرسول الله ﷺ، تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه.. وهى بشرى لأمته من ورائه، تطمئن بها إلى أصل هذه العقيدة، فهى من الله ﷻ، والله ﷻ حافظها وكافلها فى قلب نبيها ﷺ، وهذا من رحمته سبحانه، ومن كرامة هذا الدين عنده، وعظمة هذا الأمر فى ميزانه^(١).

٣ - اليسرى

اليسرى هى الدين الميسر أقواله وأفعاله، فالله ﷻ يسر لهذه الأمة دينها وقرآنها، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر ٢٢]، { وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج ٧٨]، {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ} [النساء ٢٨].

كما يسر الله ﷻ هذه الأمة لدينها - طالما ذكرت ربه، حيث ترى أن الله ﷻ بشر رسوله ﷺ هنا (وَيُسِّرُكَ لِلْيُسْرَى {٨})، قال ابن كثير: "أى نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشر لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر"^(٢). ولهذا نطق رسول الله ﷻ بها حقيقة عظيمة "إن هذا الدين يسر"^(٣)، "يسروا ولا تعسروا"^(٤).

وعندما يرى الإنسان هذا اليسر العظيم فى الإسلام فإنه ينطلق فى حياته مستمسكاً بعراه، مستنبراً بهداه، يشكر ربه على تيسيره، يشكره بجنانه ولسانه وجوارحه، فيفيض ذكره عملاً صالحاً.

فهذه ثلاثة مصادر للذكر، والذكر لا يعنى حركة اللسان، بل يعنى حركة الإنسان بما يرضى الخالق العظيم الذى أنزل القرآن وشرع الدين فجعله يسيراً.

(١) فى ظلال القرآن، ٦/٣٨٨٩.

(٢) ابن كثير، ٨/٢٩٧.

(٣) رواه البخارى (٣٩).

(٤) رواه البخارى (٦٩)، ومسلم، ١٧٣٤.

[الذكر والتذكير]

إذا انطلق الإنسان في حياته من هذه المصادر فسيكون ذاكرة لربه، ثم ينتقل إلى طور آخر أعظم، وهو أن يقوم بتذكير الناس بربهم، والتذكير يعني حمل الناس على ذكر الله ﷻ بأي وسيلة مشروعة كانت، والدين الإسلامي في حقيقته لم يجئ إلا لتذكير الناس، (فَذَكَّرْنَا لَهُمْ قِسْطَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ عَلِيمِينَ). وهذا التذكير يعني الأمر بالمعروف وإقامته، والنهي عن المنكر وإزالته، فالمسلم يقوم بالتذكير حيث يمارس هذا التذكير في نفسه أولاً اعتقاداً وتطبيقاً، ثم يمارسه في حياة الآخرين دعوة وإصلاحاً، وسعياً للتغيير وفق سنن الله ﷻ، وهذا ما تتطرق به آية آل عمران {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران ١١٠].

وليس على المسلم بعد ذلك هداية الناس، إنما عليه تذكيرهم (سَيَذَكِّرْ مَنْ يَحْسَبُنِي) ويخاف لقاء ربه، (وَيَجْعَلُهَا أَسْئَلًا لَّيْسَ بِرِغْبٍ) الذي رغب عن ذكر الله ﷻ، وعن رضاه، ومن ثم فإن جزاءه في الآخرة شنيع فهو سوف (يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى) ثم لا يموت فيها ولا يحيى، فهو سيصلى بعذاب نار كبرى، ليست كأبي نار، والأدهى من ذلك أنه لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا بسبب العذاب الذي يعيش فيه، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلِمًا تَنْجَحَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء ٥٦]. أما الذي خشى ربه فذكره، وأثمر هذا الذكر عملاً صالحاً، فزكى نفسه وطهرها من حطام الدنيا، وأخلصها لربه فهو صاحب الفلاح والفوز، (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) وذكر اسم ربه فصلَّى {٥}.

سبب عدول الناس عن الحق

تقرر السورة أن سبب عدول الناس عن الحق، وتخليهم عنه، ونفورهم منه كما تنفر الحمر من قسورة - ذلك هو (بَلْ يُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، فهم يؤثرون المتاع الزائل، واللذة العاجلة يؤثرونها ويسعون إليها، فلا هم لهم إلا هذه الدنيا الحفيرة، يتكالبون عليها ويتقاتلون.

يسعى الفرد لتأمين حياته، ويجعل نصب عينيه أن يصبح شيئاً مذكوراً في الدنيا بأى وسيلة كانت. ومن ثم فإن نفسه لا تصبح مؤهلة لحمل جلال الله ﷻ وعظمته؛ إذ لا يجتمع في قلب إيثار الله ﷻ وإيثار الدنيا، فالدنيا تسفل الإنسان وتهينه، والله ﷻ يعليه ويكرمه. ولو اختار الإنسان ربه وأثر ما عنده واستعد للقائه لفاض بالدنيا سعادة ورضا وطمأنينة وعزة ورفعة ومكانة، وفاز بالآخرة جنة وجواراً {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٤-٥٥].

وهنا تقرر السورة هذه الحقيقة وهي أن الآخرة هي الدار الباقية، وأن مبتغى الباقي هو الفائز، أما مبتغى الدنيا الفانية فهو الخاسر (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى {٧}).

هذه الحقيقة العظمى حقيقة الفلاح والخسارة وارتباطها بالعمل، حقيقة قد مضت عليها الكتب الإلهية السابقة، فالحق واحد قامت السماء والأرض عليه، وخلق الناس عليه، وسيموتون عليه، ثم يبعثون ويحاسبون عليه، ويجازون عليه. (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى {٨} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى {٩}).

قانون اختلاف الأداء يستلزم اختلاف الجزاء (سورة الليل)

فى سورة الليل بيان لمفهوم الجزاء وفق العمل، وجاء البيان بصورة فريدة، حيث جاء من خلال بيان سلسلة من الاختلافات فى الكون والجنس والعمل والعطاء والعقيدة، وما يقتضيه اختلاف العمل من اختلاف الجزاء، فطالما أن الناس شتى، فإن أعمالهم مختلفة، ولهذا فلا بد من جنة ونار، وإلا كانت الحياة عبثاً.

الاختلاف فى الخلق

خلق الله ﷻ هذه البسيطة، ولم يشأ أن يجعلها على وتيرة واحدة، وإلا أصيبت بالجمود والركود، فالليل يغشاها فيكون لباساً وسكناً وملذاً آمناً للناس، ثم يأتى النهار فيجلى الليل فيكون معاشاً وانطلاقاً للناس. وخلق الله ﷻ كل حي وجعله جنسين ذكراً وأنثى، ولولا اختلاف الجنسية لما استمرت دورة الحياة على الأرض (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣).

الاختلاف فى السعي والعمل (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤)

يقسم الله ﷻ بهذه المظاهر المختلفة على أن سعى البشرية مختلف، "مختلف فى حقيقته، مختلف فى بواعثه، مختلف فى اتجاهه، مختلف فى نتائجه"^(١)، ومهما اختلفت مساعى الناس ومشاريهم، فإنها فى الأخير تنتهى إلى قناتين: قناة العمل الصالح، وقناة العمل الطالح.

القناة الأولى: العمل الصالح

قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧)، فالعمل الصالح يتمثل فى ثلاثة أمور:

- ١- العطاء الإيجابى وهو يشمل كل ما يعطى من وقت ومال وجهد ونفس وخلق حسن.
- ٢- المعرفة القلبية بالله ﷻ، ويستدل عليها بتقوى الإنسان، وخشيته لربه، فتراه وقافاً عند حدود الله ﷻ، يلاحظ الله ﷻ فى كل أعماله، ويراقبه فى كل أقواله.
- ٣- الإيمان بوعد الله ﷻ، فالله ﷻ وعد من أطاعه بالحسنى وهى الجزاء الأحسن فى الدنيا

(١) فى ظلال القرآن، ٦/٣٩٢٢.

وفى الآخرة.

فهذه الثلاثة هي مظاهر العمل الصالح، فمهما اختلفت درجات العاملين فإنها فى الأخير تجتمع تحت هذه المظلة، ولكي يكون الإنسان من أصحاب هذه المظلة فلا بد أن يلتزم بينودها، على الأقل أن يلتزم بالحد الأدنى حتى يكون إنساناً صالحاً، وقد تكفلت السنة ببيان الحد الأدنى من العمل الصالح، وهذا مع إيماننا بأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية كما هو مذهب أهل الحق.

وجزاء هذه الفئة هو (فَسَيُسَّرُّهُ لِلْيُسْرَى {٧}) - وقد سبق أن ذكرنا أن التيسير لليسرى نعمة عظيمة يجازى الله ﷻ بها من سعى إليها، فيعيش فى يسر، ويموت فى يسر، ويبعث فى يسر، ويؤمن من الأهوال، ويدخل الجنة بيسر.

ومن الآيات التى تنص على هذا اليسر فى الدنيا {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد ٢٨]، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل ٩٧]، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسَخَلَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخَلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور ٥٥]، {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة ٣٨]. وفى الآخرة {فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧-٩]، ويخبرنا رسول الله ﷺ أن روح المسلم عند موته تخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء،^(١) إلى غير ذلك.

القناة الثانية: العمل الطالح

قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى {٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى {٩} فَسَيُسَّرُّهُ لِلْيُسْرَى {١٠})،

ويتمثل العمل الطالح فى ثلاثة أمور:

١- العطاء السلبي، ويعبر عنه القرآن بالبخل، فهو يبخل بوقته أو ماله أو جهده أو... الخ. يبخل بذلك عن أن يفقه فى سبيل الله ﷻ، ولكنه يبادر بإنفاقه فى الصد عن دين الله ﷻ، أو فى تلبية رغباته، وإشباع شهواته.

٢- المعرفة السلبية بالله ﷻ. عرفنا سابقاً أن مصدر المعرفة الحق هو الله ﷻ، فإذا قامت معرفة الإنسان فى الحياة على هذا، فإنها تنتج عملاً صالحاً، لكن الإنسان عندما

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٧٨٠٣)، وصححه الألبانى.

ينصرف عن الله ﷻ، فإنه يعلن استغناؤه عن هذا المصدر، واستغناؤه عن عونه وألطافه، ويعلن أنه قد استغنى بما عدا الله ﷻ عن الله ﷻ. وهذا ما كان يسأل رسول الله ﷺ ربه أن يصرفه عنه، فيدعو "ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله" (١).

ومن استغنى عن الله ﷻ وكله الله ﷻ إلى ما استغنى به، فمن استغنى بنفسه وكله الله ﷻ إليها، ومن استغنى بجاهه أو ماله وكله الله ﷻ إليه، ومن استغنى بقبيلته أو دولته وكله الله ﷻ إليها، وأما من استغنى بربه فإنه يحفظه ويرعاه. وعلى الإنسان الذي استغنى عن الله ﷻ - أن يلجأ إلى ما استغنى به عن ربه (وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) (٢)، {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} [القصص ٦٤].

٣- التكذيب بوعد الله ﷻ ووعيده. سواء ما وعد الله ﷻ به الطائعين، أو ما أوعده الله ﷻ به العاصين - وسواء كان في الدنيا أم في الآخرة.

فهذه مظاهر العمل الطالح، بغض النظر عن اختلاف درجات العاملين. وجزاء هذه الفئة أن تيسر للعسرى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى {وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف ٣٦]، {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه ١٢٤]، وفي حديث نزع الروح أن روحه تنزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول (٣).

(إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَىٰ {١٣})

شتان بين من استقى معرفته من الله ﷻ فانتقاه، وأيقن بوعده ووعيده فخافه، واستعد للقاءه في اليوم الآخر - وبين من استغنى عن استقاء المعرفة من المصدر السماوي، فكذب بلقائه، وهو بهذا لا يضر إلا نفسه، فالله ﷻ تكفل ببيان الهدى، والأسس التي توصل الإنسان إلى اليسرى، فإذا اهتدى الإنسان فلنفسه، وإن ضل فإنما يضل عليها. وموعد الجزاء الختامي ليس في هذه المرحلة الأولى من الحياة، وإنما في المرحلة الآخرة، وكلاهما يملكهما الله ﷻ، فلا يظن الإنسان أنه بانتهاء حياته قد أغلق ملفه وانتهى أمره، كلا فالأجل مضروب لذلك اليوم (وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ {١١} لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ {١٣} لِيَوْمِ الْفَصْلِ {١٣}) [المرسلات: ١١-١٣]، قال

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (١٩٥٣٥)، وحسن إسناده الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٧٨٠٣)، وصححه الألباني.

تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ {٣} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ {٣}).

(الأشقى والأتقى)

ومن وعيد الله ﷻ العظيم النار، قال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى {١٤})، فالله ﷻ أرسل الرسل وأنزل الكتب، لتحذير الإنسان من عصيان ربه واتباع عدوه، فمن أبى فالنار هي مثواه، وهو الأشقى الذي رضى بالشقاء والتعاسة، (لا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى {٥} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى {١١}). ويقف على الطرف الآخر من أطاع ربه واتفاه وخشى عقابه وبذل ماله لأجله؛ تزكية لنفسه وتطهيراً لقلبه، ولا يبتغى بعبثه أحداً من الخلق، إنما يبتغى وجه ربه، فهذا سيكرمه الله ﷻ حتى يرضى (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى {١٣} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى {١٤} وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى {١٤} إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى {١٤} وَلَسَوْفَ يَرْضَى {١٤}).

وهي كلمة عظيمة (وَلَسَوْفَ يَرْضَى {١٤})، فالخالق العظيم سيعطى عبده ويكرمه ما شاء حتى يرضيه، يعطيه في الدنيا السعادة والطمأنينة والعزة والراحة النفسية حتى يرضى، ويعطيه في الآخرة جنة الرضوان وجوار الرحمن، وأي كرامة بعد هذه الكرامة.

قانون لكل مقدمة خاتمة (سورة الفجر)

مقدمة الشيء عنوان يقود إلى الخاتمة، والخاتمة هي النتيجة الطبيعية للمقدمة. وفي قول الإنسان (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي {٣}) دليل واضح أن الدنيا هي المقدمة، وأن الآخرة هي الخاتمة. وإذا كانت المقدمة من صنع الإنسان فهو الذى يختار ويعمل، وهو الذى يصوغها كما يشاء، فإن الخاتمة والنتائج النهائية من صناعة الخالق، فهو الذى يقوم بها، وهى نتائج واضحة سلفاً لا تحتاج إلى فكر وروية، وكل إنسان يرى خاتمته التى تنتظره فى ضوء مقدمته التى اختارها.

الفجر والليل

يقسم الله ﷻ بالفجر وبالليالى العشر، وبالشفع والوتر، وبالليل الساري، وهى مظاهر زمنية، فإذا كان الفجر هو مقدمة اليوم فإن الليل هو خاتمته. وهذا القسم يجلي حقيقة (المقدمة والخاتمة)، فلا شئ فى الخلق يند عن هذا القانون، وهو قانون يدركه ذور العقول (هل فى ذلك قسم لذي حجر {٥})؟! ولكن فقط الإنسان الغبي قد يجهل أو يتجاهل هذا القانون حين يعلن {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [الجاثية ٢٤]، بملء فمه يصرخ أن الدنيا مقدمة لا خاتمة لها. وهو خطأ شنيع سيُرديه ويشقيه، فالمخلوقات كلها تسير وفق قانون (المقدمة والخاتمة).

الطغيان والعذاب

يسرى قانون (المقدمة والخاتمة) فى حياة الإنسان كما يسرى فى حياة المخلوقات كلها. وهذا نموذج سريع يبرز هذه الحقيقة. إنه نموذج مُرّ، يبدأه الإنسان بخراب، ويختمه الجبار بعذاب، يطغى الإنسان ويتمرد ويملاً الأرض فساداً، ويتقلها ببغيه وصلفه، فلا يزال ينتفخ هو وقوته الهزيلة، حتى يظن ألا أحد فوقه، ويصرخ "من أشد منا قوة؟؟" فيسير فى الأرض يركل الضعيف، ويدوس المسكين. وتتلاحق أنفاس آخرين فى هذه الأرض تقع عليهم وطأة الظالمين، ويظن الناس أن الحياة ستبقى هكذا: ظالم يتجبر وضعيف يتدلل، ظالم يدوس وضعيف يداس... فبيأس الناس {حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف ١٠]. نعم يعلن الجبار خاتمة هذه المقدمة، فإذا بها عذاب مصبوب، (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ {٣}).

وهذا التاريخ يشهد ويروى ما كان من ثمود و عاد وفرعون، ما كان منهم من طغيان، وما لقوا بعد ذلك من عذاب وهلاك ودمار فى الدنيا، وأما الخاتمة الآخرة ستأتى، فهى أشد وأنكى. (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾).

إن طغيان الظلمة والمتجبرين سيملاً الأرض فساداً، وإذا امتلأت الأرض بالفساد لم تعد صالحة للبقاء، فإما أن يخسف الله ﷻ بتلك الأرض حتى لا تعود صالحة للحياة؛ إذ هى نشاز فى لحن الكون العظيم المؤمن بالله ﷻ الممتلئ إيماناً. وإما أن يبيد الله ﷻ أولئك المفسدين حتى يأتى أقوام غيرهم يعمررون الأرض بالصلام، فتتطهر وتتواءم مع ذرات الكون كله.

فقوم عاد و ثمود أهلکم الله ﷻ (فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَلَكَوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَهَلَكَوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾) [الحاقة: ٥-٦]، كما خسف الله ﷻ بأرضهم فصارت صحراء قاحلة، جرداء يابسة لا حياة فيها. أما فرعون فأهلكه الله ﷻ ومن معه غرقاً فى البحر، ثم جاء الله ﷻ بغيرهم يسكن أرضهم فيصلحها (كَمْ تَرَكَوا مِن جَنَاتٍ وَغَيْبُونَ ﴿٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٦﴾ وَتَعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ ﴿٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٨﴾) [الدخان: ٢٥-٢٨].

فعرضت آيات السورة للنموذجين. نموذج تهلك فيه الأرض والعباد كما هو حال عاد و ثمود (وقوم لوط)، ونموذج يهلك فيه الإنسان فقط، وتبقى الأرض ليرثها آخرون، كما هو حال قوم فرعون. وكلا النموذجين فيه عظة وذكرى للإنسان، والنموذجان ماثلان أمامه، غير أن النموذج الأول أكثر بروزاً، والإنسان يشاهده باستمرار (وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطْرَ السَّوِّءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) [الفرقان: ٤٠].

وفى ذلك أقول:

تلك آثارهم شهدت أنهم	عمرؤا فمضؤا، فامضين إثرهم
أين سيدهم؟ أين خادمهم؟	ورث الله تلك القرى بعدهم
ومضت أمة خلفها أمة	فوق هذا الأديم الذي ضمهم
ذهبوا وتولوا وما بقيت	بعدهما ذهبوا غير أعمالهم
وغداً كلنا ذاهبٌ بعدهم	أينا خالدٌ؟ شأننا شأنهم

وننفذ من هذا لنقرر اطراد القانون، فلأن صاحب الجزاء موجود لا يغيب عن الساحة، حيث إنه بالمرصاد، يرصد كل حركة وسكنة فى هذه الأرض، فإنه سينفذ قانونه فى أى وقت كما نفذه فى فجر التاريخ حين طغى أجدادنا، جمعهم الطغيان، فحصدهم العذاب،

وها نحن نرى البشرية اليوم يجمعها طغيان كبير وفساد عظيم، ألا فلتخش حصاد الكبير المتعال، (إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ {٤}).

هل بسط الرزق أو تضيقه يعد من الجزاء؟

ها هنا قضية يوضحها كتاب الله الكريم، حيث عرض أن طغيان الناس مقدمة خاتمتها عذاب الله ﷻ، في الدنيا - حيث أهلكهم ودمرهم تدميراً. قد يفهم من هذا أن من أصيب في حياته بالبلاء وقلة الرزق فإنما هو جزاء يجازيه الله ﷻ على أعماله السيئة، وأن من بسط الله ﷻ له في الرزق وأكرمه فإنما هو لكرامته عند الله ﷻ. وفي هذا تعرض الآيات هذا الفهم الساذج عند الإنسان (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ {٥} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ {٦}). وهذا فهم ساذج، نعم، لأنه يظن أن بسط الرزق أو تضيقه من الجزاء، أو بعبارة أخرى أن هذا هو خاتمة ينالها من ربه لما قدم في حياته.

وقد تردد هذا الفهم على كثير من الألسنة، فقارون عندما أغدق الله ﷻ عليه بالنعمة قال {إِنَّمَا أُوتِيئُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨]، وقال الله ﷻ في بيان أن هذا الفهم فتنة مطردة عند البشر، (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيئُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {١١} قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {١٢} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُحْزَنِينَ {١٣} أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {١٤}) [الزمر: ٤٩: ٥٢].

والآيات تبين أن الإنسان يرى في ضيق الرزق والضرء - بلوى، فيلجأ إلى ربه فإذا غير حاله إلى النعمة إذا به يقع في الفتنة، ويدعى أن هذا إنما هو لكرامته عند الله ﷻ. وهذا وهم وقع فيه السابقون واللاحقون، فعاقبهم الله ﷻ، ثم يبين الله ﷻ حقيقة الأمر أن بسط الرزق أو قدره يرجع إلى مشيئة الله ﷻ وسننه. قال تعالى (وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كُفُورًا {١} وَلَيْنِ أَدَقْنَا نِعْمًا بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا {٢} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {٣}) [هود: ٩-١١].

إن القانون الإلهي في هذا الأمر قد حسمه القرآن بما لا يدع مقالاً لفاثل، قال تعالى {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ} [الإسراء: ٢٠]، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا} [الشورى: ٢٠]. وعلى هذا فبسط الرزق والتمكين في الأرض والعلو والرخاء والاقتصاد والاستقرار السياسي لا يدل على أن هذا هو

الجزاء الإلهي لما قدمه الإنسان أو الأمة المستمتعة برغد العيش وكذلك العكس، وهو قدر الرزق أو العيش في اضطراب وخوف لا يدل على أن هذا هو الجزاء الإلهي لما قدمه الإنسان.

وهذا لا يتعارض مع ما يقرره القرآن أن من أحسن وعمل صالحاً فإن الله ﴿﴾ سيمكن له في الأرض ويهب له حياة مطمئنة مستقرة في الدنيا، والعكس وهو أن من أساء فإن الله ﴿﴾ سيهينه. فهذا وعد وليس جزاء. ووعده الله ﴿﴾ يتحقق متى شاء، فمتى ما سعى الناس إليه والتزموا بما عليهم - منحهم الله ﴿﴾ ما وعدهم، ثم إن أمر التمكين في الأرض والرخاء... يخضع لسنن إلهية متى ما عملها الإنسان واتبعتها حصل ثمرتها وبنى أرباحها ولو كان كافراً، قال تعالى ﴿كُلًّا تُمِدُّ هُوَ لَاءَ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء ٢٠]. وقال تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر ٤٥]، **فالدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء.**

هل كل مقدمة لها خاتمة؟

نعم كل مقدمة لها خاتمة، ولكن متى تكون الخاتمة؟ الوهم كل الوهم أن يظن الإنسان أن الخاتمة هي في الدنيا، لا. فكما سبق أن بينا أن الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء، والخاتمة ينتظرها الإنسان في دار الجزاء وليس في دار الابتلاء ولا يمنع هذا من أن يقع بعض الخاتمة في دار الابتلاء فيمكن الله ﴿﴾ من أطاعه، ويذل من عصاه.

وهذا المقطع من سورة الفجر يبين حقيقة أن الدنيا دار ابتلاء، أو بمعنى آخر: الدنيا مقدمة فقط - قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ {٣} وَلَا تَحَاطُّونَ عَلَيَّ طَعَامِ الْمَسْكِينِ {٤} وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا {٥} وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا {٦}، فهذا من مظاهر الطغيان التي يعملها الإنسان، وقد يخرج من الحياة دون أن يصب الله ﴿﴾ عليه العذاب كما صبه على عاد وثمود وفرعون. **فهل يحسب هذا الإنسان - أو تلك الأمة - أنه قد نجا من خاتمته؟**

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ {٣} وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ {٤} وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ {٥} كلاً. لا يحسب الإنسان أنه قد نجا، كلاً، فلم تنته القصة بعد، ولكن إذا دكت الأرض وأعلن الجبار انتهاء الحياء الدنيا وقدم اليوم الآخر، وحان موعد الجزاء - عندئذ - ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ يتذكر ما عمل في الدنيا، يتذكر طغيانه وجبروته، يتذكر فسقه وبغيه، يتذكر أنه كان يظلم الضعيف، ويهين

اليتم، ويدفع المسكين. يتذكر أنه كان يقدر المال ولا يبالي من أين جمعه ولا فيم أنفقه، يتذكر كل ذلك، (وَأَتَى لَهُ الذِّكْرَى {٣})، لقد فات الأوان، وليس له إلا الندم (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي {٤})، فيتمنى أن يكون قد عمل صالحاً فيها، حتى تكون الخاتمة سالحة، ولكنه ندمٌ ولات ساعة مندم، وأمانٍ ٍ لا تنفع شيئاً {يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام ٢٧]. انتهى زمن الأمنيات، وجاء زمن الجزاء والحساب؛ ليعلن الجبار الخاتمة النهائية.

الخاتمة النهائية

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ {٥} وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ {٦}). وهذه خاتمة المسيئين، أصحاب الأعمال الطالحة، الذين طغوا واستغنوا عن الله ﷻ وكذبوا بالحسنى. (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {٧} ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً {٨} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي {٩} وَادْخُلِي جَنَّتِي {١٠})، وهذه خاتمة المحسنين، أصحاب الأعمال الصالحة الذين أعطوا واتفقوا وصدقوا بالحسنى لهم الطمأنينة والرضا عند ربهم، ومجاورة الذين أنعم عليهم، وفوق ذلك فهم في جنات ونهر {فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر ٥٥].

النفس المطمئنة (سورة الضحى) و(سورة الشرح)

فى السورة السابقة أوضح الحق أن لكل مقدمة خاتمة، وأن المقدمة الصالحة خاتمتها الطمأنينة فى الدنيا والآخرة. وهذه السورة والتي تليها جاءتا لضرب نموذج من نماذج النفس المطمئنة التي أكرمها الله ﷻ ورعاها فى الدنيا، ثم وعداها فى الآخرة (وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ {١}).

إنها نفس رسول الله ﷺ، تأتي العناية الإلهية لتمسح على فؤاده وتعطيه الراحة والسكينة حتى يرضى، وتمتن عليه بهذا العطاء العظيم.

من طمأنينة الكون إلى طمأنينة النفس

(وَالضُّحَىٰ {١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ {٢})، يقول سيد قطب: "يقسم الله ﷻ بهذين الآتين الرائقين الموحيين، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس، ويوحى إلى القلب البشرى بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي المتعاطف مع كل حي، فيعيش ذلك القلب فى أنس من هذا الوجود، غير موحش ولا غريب فيه فريد، وفى هذه السورة بالذات يكون لهذا الأناس وقعه، فضل الأناس هو المراد مده، وكأنما يوحى الله ﷻ لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة أن ربه أفاض من حوله الأناس فى هذا الوجود، وأنه من ثم غير مجفو فيه ولا فريد"^(١).

وأما طمأنينة النفس فتتجلى فى هذا اللمسة الإلهية الحانية (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ {٢})، نعم لم يتركك ربك لأحد، إنما هو الذى يتولاك برعايته وبحفظه وبِعصمته، وتحرسك عينه.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم؛ فالمخاوف كلهن أمان

ما ودعك ربك، فسر فى هذه الحياة مطمئن النفس، هادئ البال، رافع الرأس، لا ترهب أحداً ولا ترجو أحداً. وهذا كله فى الدنيا، (وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ {١})، ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفوق كل ذلك (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ {٥})، يا الله!! ما أروعها من كلمات، تهون دونها الأرض والسماوات، إنه وعد من

(١) فى ظلال القرآن، ٣٩٢٦/٦.

الجبار العظيم لهذا العبد الذي ضحى بكل شئ من أجل ربه، وعد بأنه لا يزال يعطيه حتى يرضى، يعطيه رفعة وتمكيناً وطمأنينة وراحة وظفراً وتأييداً. وهذه عطاءات عظيمة ينالها الإنسان في الدنيا، ويعطيه جنة ومجاورة لربه في الآخرة.

ورسول الله ﷺ هو أعلم الناس بحقيقة هذا الوعد الإلهي، فربه الذي آواه بعد يتم، وهذاه بعد ضلالة، وأغاناه بعد عيلة. فيعرف ما كان وما صار إليه، ومن ثم يوجهه الله ﷻ ويوجه كل مسلم إلى أن يعطى ولا يمنع، ويحسن ولا يسيء، لأن الإنسان يجازى بإحسانه إحساناً وطمأنينة وكرامة ورضاء، كما جازى الله ﷻ رسوله ﷺ وهو أرحم الناس لضعيف، وأرقهم لمسكين، وأحناهم على يتيم، وهذا بخلاف أولئك الذين ذكرهم الله ﷻ في سورة الفجر {بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} [الفجر ١٧].

إن أمة تقهر يتيمها ولا تكرمه، وتتهر سائلها ولا تحترمه - لهى أمة صائرة إلى الفناء، ومستوجبة غضب الجبار عليها؛ لأن هذه الأدواء دلالة على تأصل الشر فيها وعلى طغيانها، وواحدة من هذه الأدواء كفيلة بهدم بنائها فكيف باجتماعها كلها؟! إن الله ﷻ ينأى بأوليائه أن يصابوا بهذا الداء، فالمسلم يرى الآخرة خيراً له من الدنيا، فهى الباقية - فلا ينتكس فى أحوال هذه الأدواء، ولا يرتكس فى حماة تلك الأمراض. كمن لا يؤمن بالآخرة ويؤثر الدنيا.

عطاء بلا حدود

تعلمنا سورة الشرح أن الالتجاء إلى الله ﷻ والرغبة فى ما عنده، والنصب فى سبيله . يعود على المؤمن بمنافع عظيمة.

أولاهها: انشراح الصدر، وهو تعبير قرآنى رفيع يعنى ما يجده الإنسان فى نفسه من سعادة ورضا وطمأنينة وراحة، لا يعيش رهين القلق والاكتئاب، ولا قرين الخوف والاضطراب. إن انشراح الصدر عطاء يختص به الله ﷻ، فلا يعطيه أحد سواه، ومهما بحث عنه الإنسان عند غيره فلن يرجع إلا بخفى حنين، المال لا يشرح الصدر، والجاه والمنصب لا يشرحان الصدر، والتقلب فى عالم الشهرة لا يشرح الصدر . إنما يشرح الصدر ذكر الله ﷻ والعيش فى كنفه، والاستظلال بهدأيته {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد ٢٨]، والابتعاد عن هذا المصدر كفىل بأن يشقى الإنسان ويرديه {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه ١٢٤].

ثانيها: وضع الوزر، والوزر هو ما ينقض الظهر ويثقله بحمله. ويقصد بوضعه ما رفعه الله ﷺ عن هذه الأمة من الحرج، وما شرعه لها من اليسر، كما قال تعالى {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج ٧٨] ^(١).

ولا أدل على ذلك من رفع كثير من الشرائع السابقة التي كان فيها إصر وثقل، كما قال المؤمنون في دعاء ربهم {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} [البقرة ٢٨٦]، تجد اليسر في هذا الدين في كل شيء، وأعظم يسر فيه هو أنه جاء موافقاً للعقل، ولم يحيره في متاهات غير متناهية كحال الديانات الأخرى التي تنتهي برفض العقل، ورفض مخاطبته، وهذا ما جعل كثيراً يدخلون فيه، حتى قال أحدهم: سبب إسلامي أتى وجدت في الإسلام جواباً شافياً لكل ما يشغل عقلي.

ثالثها: رفع الذكر، ولاشك أن الآيات جاءت مخاطبة لرسول الله ﷺ، وهذه المزايا أوتيتها رسول الله ﷺ، وأكرمه الله ﷻ بها، فقد رفع الله ﷻ ذكره مع اسمه فلا يدخل الجنة أحد - بعد بعثة رسول الله ﷺ - ما لم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ. قال حسان:

أغر عليه للنبوة خاتم	من الله، من نور يلوح ويشهد
وضم إليه اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد
وشق له من اسمه ليجلّه	فدو العرش محمود وهذا محمد

نعم. لاشك في ذلك. ولكن الآيات أيضاً توحى بأن كل من سار على هديه واعتصم بربه ورغب فيما عنده، وضحي بحياته من أجله، ودعا إليه على بصيرة، وبذل الغالي والنفيس حتى يرفع اسم الله ﷻ في الأرض - فإن الله ﷻ يرفع ذكره. وهذا من الجزاء الذي يقدمه الله ﷻ للعبد في الدنيا قبل الآخرة، وكما في الحديث أن من أحبه الله .. وضع له القبول في الأرض ^(٢). وها هو التاريخ يشهد، فقد ذهب كثير من الناس، وانتهت أيامهم، ولكننا لا نزال نذكر العاملين الذين نذروا حياتهم لله ﷻ. وأرفع ذكر يناله المؤمن هو أن يدخل الجنة، فيظل خالدًا بذاته وبروحه في نعيم مقيم، وفي رضوان أبدي.

^(١) يراجع الحديث عن هذا في سورة الأعلى.
^(٢) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

رابعها: اليسر بعد العسر، وهذه كرامة عظيمة يؤتاها المؤمنون الملتجئون إلى ربهم. فمهما أصيب المرء بعسر وشدة وضيق فإن ذلك كله ينفرج عندما يلجأ إلى الله ﷻ {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} [النمل ٦٢]. وقد ضرب القرآن نماذج كثيرة بدل الله ﷻ فيها حالة أصحابها يسراً بعد عسر، كأيوب ويونس ولوط وموسى وغيرهم من أنبياء الله . عليهم السلام جميعاً، وقد وعد الله ﷻ باطراد قانونه فقال (وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) {٨٧} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} {٨٨} [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

فاللهم أزل عسرنا وأبدلنا به يسرا، وأزل ذلنا وأبدلنا به ظفرا، وأزل ضعفنا وأبدلنا به نصرا، وأزل خمولنا وأبدلنا به ذكرا، وضع عنا وزرا، واشرح لنا صدرا.
فاذا أردت أن تتال هذه المنافع فما عليك إلا أن تتصب إلى ربك وترغب إليه (فاذا فرغت فانصب} {٧} وإلى ربك فارغب} {٨}).

اتفاقية العمل المقدسة (سورة العصر)

يقسم الله ﷻ بالعصر. والعصر هو الفترة الأخيرة في النهار، التي بانتهائها ينتهي النهار ويدخل الليل، والنهار هو وقت السعي والمعاش {وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [النبا ١١]، أما (الليل) فهو وقت الراحة والنوم، {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} [النبا ١٠]. والإنسان يسعي في نهاره منذ طلوع (الفجر)، ثم يأتي (الضحى) وهو عامل، ويظل يعمل طيلة النهار، وأخيراً يأتي (العصر)^(*)، فيحاول الإنسان أن ينهي شغل ذلك اليوم ثم يستريح في الليل. فالعصر عندما يأتي يكون الإنسان في نهاية عمله، وفيه يأخذ أجره عمله ربحاً أو خسارة. ولنضرب مثلاً، لو أن رجلاً استأجر أجيراً في وقت الفجر، وقال له: اعمل يوماً كاملاً في أرضي، ولكن أريد عملك يكون حسب هذه الشروط. وأعطاه بعض الشروط، ثم ذهب الرجل، وجاء آخر اليوم وقت العصر، لينظر ماذا عمل الرجل فيعطيه أجرته، فإذا وجده قد عمل بخلاف ما طلب منه، فإنه سيوبخه ثم يطرده ولا يعطيه شيئاً، فيخسر كل ما عمل ويذهب هباء دون أن يلقى عليه أجراً؛ لأنه عمل خاطئ. أما إذا وجده قد عمل مثل ما طلب منه فإنه سيكرمه ويوفيه أجره فيكون رابحاً.

❖ عقد مقدس

وهذه الحياة الدنيا هي عقد بين الله ﷻ وبين أجير -الذي هو الإنسان- تركه الله ﷻ فيها ليعيش يوماً كاملاً (عمره)، يبدأ بالفجر وينتهي بالعصر، وطلب منه أن يعمل ويسعى في الدنيا وفق أربعة شروط، فإذا عمل وفقها الإنسان فإنه سيربح، ويكون لعمله قيمة. وإن لم يعمل وفقها فسيأتي آخر اليوم (وقت عصر حياته) صفر اليدين خاسراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﷻ، إذ هي خسارة كبرى، خسارة حياة لا يمكن تلافيها.

وقبل أن نقرأ الشروط، نؤكد أن الفجر هو رمز لمقدمة حياة الإنسان، وأن العصر هو رمز لنهاية حياة الإنسان. ومن ثم جاءت سورة الفجر أولاً لتبين للإنسان أنه ما زال في المقدمة، وأنه يستطيع أن يعمل عملاً صحيحاً صالحاً، ثم جاءت سورة العصر، لتبين للإنسان أنه في (عصر) حياته أي في آخرها، لا يجنى إلا ما قدم، إما ربحاً وإما خسارة، ولم يعد بوسعه أن يعمل. ففي هذه اللحظة ستطوى صفحة أعماله ويغادر الدنيا ليدخل في ليل حياته وهو البرزخ الذي سيقضى فيه ساكناً لا عمل ولا سعي، ثم يبعثه الله ﷻ يوم

(*) تأمل ورود سور (الفجر، الضحى، العصر) مرتبة في نزولها، كترتيبها في أزماتها.

القيامة، وفي ذلك تلغى حكاية الزمن، فليس في يوم القيامة فجر ولا عصر، إنما هو الخلود الأبدى سواء في النعيم أم في الجحيم.

ولماذا يضيعُ عمل الإنسان وكدهه، ويفسر كل سعيه؟

إن من يُتعب نفسه في أن يبني بيتاً على الرمل - سيضيع عمله هباءً منثوراً؛ لأنه لن يتم له بناء حتى ينهدم ما انبنى، وهكذا يظل حتى ينتهي الزمن فلا هو الذى ظفر ببناء، ولا هو الذى سلم من العناء.

وهذا هو حال هذا الإنسان الشقي في هذه الدنيا . الإنسان . الذى تحدثت عنه سورة الأعلى والليل والفجر، سيظل يشقى فى الدنيا، ويكدح ويتعب وينصب، وفى الأخير يذهب عناؤه هدرًا كأن لم يكن، ويقع فى الخسران، ذلك أنه بنى بيته على الرمل، وهي قاعدة غير صحيحة ولا يصح أن يبني عليها، فمن أصر فهو الخاسر.

وكذلك هذا الإنسان الذى يبني حياته على قواعد رملية بابتعاده عن هدى السماء الذى أنزله للناس ربهم وأمهم بأن بينوا حياتهم عليه وإلا فهو الخسران، قال تعالى لَوْ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا [الفرقان ٢٣].

شروط الاتفاقية

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {٢} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ {٣})

أما الشروط الأربعة التى اشترطها الله ﷻ كقاعدة صحيحة يريح الإنسان - فقط - متى التزم بها، ويخسر متى ما فرط فيها - فهي:

- ١- الإيمان. ٢- العمل الصالح. ٣- التواصى بالحق. ٤- التواصى بالصبر.

الإيمان

وحقيقة الإيمان فى التصور الإسلامى: اتصال يربط الإنسان بعالم الغيب، فلا يظل حبيس حدود الحواس الضيقة، ولا العقل الضيق.

وأول أساس يؤمن به هو الله ﷻ الذى خلقه ورزقه وهداه، وإيمان الإنسان بالله ﷻ خالقاً ورباً ورازقاً ومدبراً للكون، يستوجب منه أن يعرف من هذا المصدر الإلهى إجابات الأسئلة العظمى التى تؤرقه وهى: من أين جاء؟ ولماذا؟ وما مصيره؟ والله ﷻ قد أرسل الرسل وأنزل الكتب لتعرف الإنسان بإجابة هذه الأسئلة الثلاثة. إذن فإيمانه بالله ﷻ يوجب عليه أن يؤمن بالكتب والرسل وباليوم الآخر.

كما يعلم بهذا الإيمان أن الله ﷻ خلقه وخلق خلقاً آخر بعضه مشهود وبعضه غير مشهود للإنسان، كالملائكة والجان، وقد أخبرنا عنهم عالم الغيب والشهادة، فإيماننا بوجودهم يبعث فينا الطمأنينة بأن فى الكون عقلاء غيرنا، كما أنه يكسر من استقالة الإنسان واستعلائه فليس هو وحده فى الكون.

وعندما يعرف الإنسان لماذا خلقه الله ﷻ، يسعى لتحقيق الهدف الأساسى من وجوده، وفى هذا يأخذ بالسنن والأسباب الإلهية كوسائل لتحقيق الهدف - ولكنه يعلم أنه لن يكون شئ، ولن يتحقق شئ إلا بقدر الله ﷻ ومشئته، فالإنسان - أى إنسان - قد تصدمه الأقدار، وقد تدفعه وتكون فى صالحه، فلا يتأفف أولاً، ولا يستكبر ثانياً؛ إذ هو يعلم أن القدر قدر الله ﷻ، وليس بيد الإنسان أن يسوق الأقدار، ولكن بيده بذل الأسباب، فإذا أتت الأقدار موافقة رضى بها وشكر الله ﷻ، وإذا أتت مخالفة رضى بها أيضاً وحمد الله ﷻ.

إذن فالإيمان هو القاعدة الأساس فى بناء الإنسان، وهو الركيزة الأولى فى صلاح العمل، وهو الطاقة الهائلة التى تبعث فى صاحبها التحمل والصبر والتضحية والجهاد فى سبيل إعلاء الحق.

وبقدر إيمانه يكون صلاح عمله، وبقدر إيمانه تكون إرادته وعزيمته وتضحيته وغيرته على حرمة الله ﷻ وإيثار ما عند الله ﷻ على ما عند الناس، وإيثار مرضاة الله ﷻ على مرضاته، وليس فى الخلق أحد أعظم صبراً وبذلاً وتضحية وجهاداً، وأصلح أعمالاً من النبيين، وذلك لأن طاقة الإيمان عندهم هائلة وعظيمة، دائماً يجدونها، ويزودونها مباشرة من عند الله ﷻ، فهى طاقة لا تتضب. ثم يتفاوت الناس بعد ذلك فى الإيمان والعمل حتى تجد أضعف الناس عملاً هو أضعفهم إيماناً.

بهذا نعرف أهمية هذا الأمر، حتى إن الدعوات الصحيحة لا تتطلق إلا منه، ولا تفزع إلا إليه، وإذا أصاب جماعة أو أمة ضرر أو ضعف، أو فسدت أعمالها، أو هانت على الناس - فإن السبب يعود إلى الإيمان إن ضعفاً وضعف، وإن قوة فقوة.

والأساس الذى يقوم عليه الإيمان هو تجرد الإنسان من حظوظ النفس، وتخليه قلبه من كل شئ، ثم تعبئة هذا القلب بشئ واحد وهو حب الله ﷻ، فإن من أحب شيئاً بذل فى سبيله كل شئ حتى حياته. وتأمل قول عنتره فى حبيبته:

ولقد ذكرْتُك، والرماحُ نواهلُ
فوددتُ تقبيلَ السيوف؛ لأنها
منى، وبيض الهند تقطر من دمي
لمعتُ كبارقِ ثغركِ المتبسّم

فهو لحبه هذه الفتاة استهان بكل شئ من أجلها، واستلذ أصعب اللحظات التي تمر به، وهي لحظة القتال وانفجار الدماء، فبمجرد أن يذكرها لا يستسهل فقط تضحيته، بل يود تقبيل السيوف التي تنوشه؛ لأنها تذكره بها.

فإذا كان هذا حب الإنسان لإنسان مثله لا يملك له ضراً ولا نفعاً، فما بالك بحب الإنسان لربه الذى خلقه وأوجده ورزقه وهداه ورعاه ودلله وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وزوده بما يقيه من أعدائه، وهياً له مسكناً مناسباً يسكن فيه ويعيش آمناً مستقراً، وهياً له فى هذا المسكن كل وسائل الراحة التى تساعد على أداء مهامه، وبعد ذلك سيدخله جنته فيكون جاراً لربه خالداً فيها أبداً - فقط، لا يريد منه سوى أن يؤمن به. حقاً إن من لا يفعل ذلك فهو فى خسر.

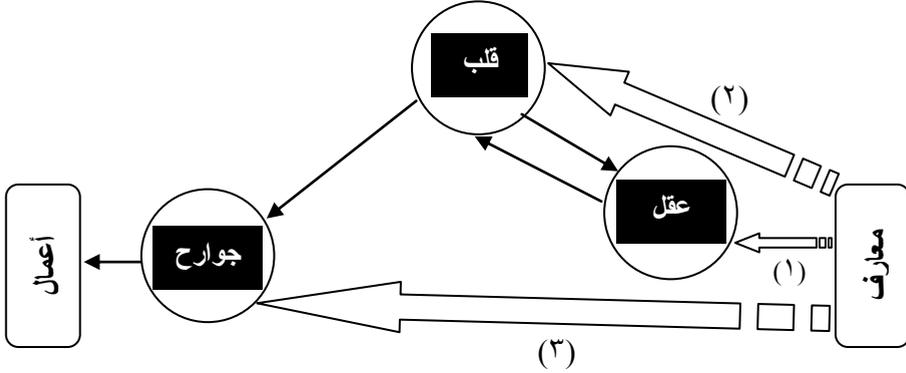
العمل الصالح

كما أسفلنا فإن العمل هو النتيجة الطبيعية لما يملأ قلب الإنسان ووجدانه من رغبات، ولما يملأ عقله من معارف وتصورات. فإذا كانت تلك المعارف قدسية، وتلك الرغبات إلهية، فالنتيجة عمل صالح، وهى نتيجة لازمة، فالمقدمة تستلزم نتيجتها، وقدسية المعرفة هو الإيمان النظرى، وإلهية الرغبات هو الإيمان الوجدانى.

العمل الصالح ثمرة للإيمان النظرى والوجدانى معا

قد يمتلك الإنسان معرفة قدسية يستقيها من المصدر الإلهى، ككثير من المسلمين الذين يعلمون أركان الإيمان، وما يرضى الله ﷻ وما يسخطه، وجزاء الطاعة والمعصية... ولكن هذا الإيمان لا ينتج عملاً صالحاً. فالحقيقة أنه وجد إيمان نظرى فى العقل - نعم ولكنه لم ينتقل إلى القلب، فلم ينشأ إيمان وجدانى، ومن ثم غاب العمل الصالح. وذلك أن ملك الجوارح هو القلب وليس العقل. فالقلب هو الذى يصدر الأوامر للجوارح بالعمل، فلن يأمرها إلا بما يعرف هو، لا بما يعرف العقل.

إن المعادلة القرآنية تقول: **إيمان نظري + إيمان وجداني = عمل صالح**.
وهذا شكل يوضح العلاقة الجدلية بين تفاعل العقل والقلب والجوارح:



في هذا الشكل - كما ترى - تتخذ المعارف ثلاث طرق للوصول إلى الإنسان، تمثلها الأرقام الثلاثة:

(١) وصول المعارف عن طريق العقل

تأتى المعارف فيبتلقها العقل (السكرتير)، ثم يقوم العقل برفعها إلى القلب (الملك)، فيصدر الملك تعميماً وينزله إلى الجوارح (الجنود) فتنفذ.
والعقل بينه وبين القلب قناة اتجاهاها من أسفل إلى أعلى، ويحتاج إلى جهد فى إيصال مواده عبر هذه القناة إلى القلب؛ لأنه يقوم بحمل رسالته والصعود بها إلى أعلى، والصعود فيه مشقة وتعب، أما القلب فالقناة التى بينه وبين الجوارح مختلفة الاتجاه، إذ اتجاهاها من أعلى إلى أسفل، والنزول فيها يسير وهين.
فإذا ما تقاعس العقل عن حمل رسالته، أو تشاءب القلب معلناً رغبته فى عدم استقبال أحد، وظلت قناة التواصل عاطلة عن العمل فلن تصل المعرفة العقلية إلى القلب، ومن ثم يصاب القلب بالتآكل والتمزق والأسقام، فيصدر أوامر عوجاء إلى الجوارح، لا توافق المعارف التى انحبست فى العقل.

لهذا كانت عناية الإسلام الكبرى بإصلاح القلب، "ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب"^(١). ولهذا استحق القلب

^(١) رواه البخارى (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

أن يكون محل نظر الله ﷻ "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"^(١).

وقد سبق معنا في سورة المزمل عرض قضية إصلاح القلب حتى يكون مؤهلاً للملك، فيكون ملكاً صحيحاً قوياً مهيباً يحمل الجوارح على العمل الصالح. ويقدر قوة الملك تكون قوة الجنود، ويقدر صلاح القلب يكون صلاح العمل.

(٢) وصول المعارف مباشرة إلى القلب

وقد تصل المعارف مباشرة إلى القلب، فتتجاوز خطوط الحراسة الأولية، حيث إن العقل يمثل الخط الدفاعي الأول، فالمعارف عندما تصل إليه يغربلها ويصفيها، ثم يقوم بترشيح ما يراه مناسباً فيحمله إلى القلب، واستبعاد ما لا يراه، فالعقل بمثابة مركز دراسة القرار، ولكنه ليس الذى يتخذ القرار.

تصل نتائج الدراسة إلى القلب الذى هو مركز اتخاذ القرار، والقلب قد يرفض القرار وقد يتبناه، وذلك حسب ما يراه من مصالح ورغبات، ثم يأمر الجوارح بتنفيذه، فالجوارح هى ميدان التنفيذ (تنفيذ القرار)، وليس لها أن تناقش أو ترفض.

هذه العملية الكبيرة تتعرض لزلزلة عندما تتجاوز المعارف مركز دراسة القرار، لتتجه مباشرة إلى مركز اتخاذ القرار (القلب)، والمعارف إذا وصلت إلى القلب مباشرة فلها حالتان، الأولى: استشارة القلب، والثانية: إثارة القلب وتفعيل العقل.

❖ استشارة القلب

الحالة الأولى: أن يتفاعل القلب معها مباشرة، ويقوم بإصدار الأوامر إلى الجوارح فى ضوء ما وفد إليه. وهذه الحالة تتميز بأنها **آنية**، أى أن التفاعل معها يكون آنياً فى تلك اللحظة، ومن ثم يزول بعد حين يقصر أو يطول حسب اهتمام القلب بها، وسواء أكانت تلك المعارف إيجابية كما لو رقى قلب لشيخ مؤثر، أو لموقف مؤثر أو غير ذلك فتفاعل مع هذا التأثير يوماً أو أسبوعاً ثم يتلاشى كل ذلك، أم كانت سلبية كما لو تأثر قلب بداع شيطاني يثير شهوته، ويستثير نزوته، فيتفاعل مع هذا المؤثر ثم يندم بعد ذلك. فهذه الحالة كما رأيت سلاح خطر؛ لأن القلب يقوم بتعطيل قنوات العقل، فيقع فى العمى، ولهذا قال الله ﷻ عنهم: {صَمُّكُمْ عُمَىٰ فهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة ١٧١].

ومعروف أن العقل يتلقى معارفه عبر الحواس ثم يرسلها إلى القلب، فإذا ألغى القلب ذلك وعطل تلك القنوات فإنه يكون أولاً قد ألغى الحواس، فكأنه بلا سمع وبلا بصر ثم

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

ألقى عقله، فكأنه بلا عقل. والإسلام حذر الناس من هذه الحالة، ولو كانت إيجابية؛ لأن الإنسان يكون سريع التذبذب. كما أنه لا يكون صاحب موقف، ونلاحظ هذا كثيراً عند الناس الذين تشكل عواطفهم الخطب الحماسية والكلمات الرنانة، فيغتر بهم الخطيب فيقفون معه مؤيدين ومناصرين، ولكن إذا جد الجد ولوا الأدبار، وما أكثر المواقف التي تحصل في عصرنا.

ودعاة الباطل يعتمدون في خطابهم على هذه الحالة، وهي حالة خطاب القلب واستنارته، ويقومون بتقطيع القنوات التي بين القلب وبين العقل، حتى لا يردها القلب إليه؛ لأنهم يعلمون أن العقل يمد القلب بالبصيرة - ومن ثم يحولون بينهما، وهذا الخطاب الحضاري المعاصر لم يتعد هذه المرحلة، فهو يخاطب القلب فيشعله ويحركه، ويحول دون تواصله مع العقل، ومن ثم يعيش الناس أسرى هذا الخطاب، يعيشون منغمسين في ملذاتهم وشهواتهم، راكدين في خنوعهم وذلهم.

❖ إثارة القلب وتفعيل العقل

الحالة الثانية: أن يتفاعل القلب معها، ولكنه لا يقرر حتى يرد هذه المعارف إلى العقل، يدرسها، ويمحصها، ثم يبعث العقل بتقرير عنها إما القبول وإما الرد. **والحقيقة أن هذه الحالة هي أقوى حالات الخطاب، وهي التي تنشئ رجالاً أصحاب مواقف يثبتون، ويضحون من أجلها، ولا تصرفهم عن تحقيق أهدافهم رغبات أو شهوات ولا ترهيب أو تخويف.**

واعتماد هذا الخطاب في إيصال المعارف هو الطريق الذي سلكه القرآن، حيث كان يعتمد إلى إثارة القلب وتحجيش الوجدان، ثم يقوم بتشغيل قنوات الاتصال بينه وبين العقل، فيقتنع العقل بهذا الخطاب فيأخذ الخطاب قوة عظيمة، قوة داخلية هائلة، تقوم الجوارح بترجمتها خارجياً إلى أفعال راسخة، وأعمال ثابتة، هذه الشخصية التي يصنعها خطاب العقل والقلب لا تتزلزل أمام العواصف، ولا تتحنى أمام العواطف.

وإن استخدام هذا الخطاب من شأنه أن يفضح أصحاب الخطاب الأول خطاب القلب فقط-، ومن ثم يحول المنتفعون وهم المملأ أصحاب المصالح والشهوات، يحولون بين الناس وبين هذا الخطاب بكل وسيلة، قال تعالى يحكى أفعالهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت ٢٦]، ﴿وَإِذَا ثَمَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَبَّاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ ٤٣].

والقرآن يستخدم لفظ (القلب) أحياناً ليراد به العقل كما في قوله، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الكهف ٥٧]، فالفقه من وظائف العقل، والآية تشير إلى تقطيع القنوات العقلية فلا تقوم بوظائفها في تغذية القلب، والآيات تشير إلى أن تعطل العقل وقنواته الداخلة إليه من الحواس، والخارجة منه إلى الفؤاد - تعطلها هو السبب وراء نكوص هؤلاء عن الحق.

وأحياناً نرى أن الباطل يستخدم هذا الخطاب العقلي القلبي فينشئ رجالاً يقومون بالباطل ويدافعون عنه، ويضحون في سبيله. والحقيقة أن خطاب هؤلاء يعتمد على القلب فقط، أما العقل فإن القنوات التي تصل بينه وبين القلب وهمية حيث توجد عوامل داخلية كالهوى والإعجاب، وعوامل خارجية كالقوة والمال - تقوم بإنشاء هذه القنوات الوهمية وتغذيتها؛ حتى يكتسب الخطاب قوة، ويمكن أن يسقط خطاب هؤلاء بفصح حقيقة هذه القنوات، وبيان أنها وهمية، بينما القنوات الذاتية الصحيحة معطلة، وطريق هذا هو الحوار والمناقشة.

(٣) وصول المعارف إلى الجوارح مباشرة

وأخيراً فقد تتعدى المعارف كل الطرق لتصل إلى الجوارح المنفذة، فتقوم بالتنفيذ مباشرة، وهذه آية كبيرة في حماقة، لأن جوارح الإنسان في هذه الحالة تأتمر بقلب غيره، كمثل الجنود الذين ينفذون أوامر قائد آخر ليس قائدهم، والقرآن الكريم بين هذه الحالة في قوله تعالى {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} [النور ١٥] فتلقى المعلومة لم يكن بالعقل ولا بالقلب بل باللسان الذي تلقى ونفذ مباشرة، وهذا أمر شنيع يلغى إرادة الإنسان، ويعطلها، ويجعله مسخرة لغيره، وأضحوكة لأولئك المنتهزين. وكثير من الناس اليوم هذا حالهم وشأنهم.

التواصي بالحق والتواصي بالصبر

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)، أى تواصي هؤلاء المؤمنون الذين يعملون الصالحات، بعضهم يوصى بعضاً ويعينه، والتواصي يعنى إيجاد قنوات تواصل بين أفراد يجمعهم هم واحد، ويوحدهم هدف واحد، ويسعون لغاية واحدة.

لو امتلأت الأرض بناس مؤمنين يعملون الصالحات، ثم لم يجمعهم التواصي - لما عبدوا الله ﷻ حق عبادته، لماذا؟ لأن عبادة الله ﷻ ينبغي أن تتمثل أولاً في الفرد، ثم تتمثل ثانياً في المجتمع، وتمثلها في المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بانتظام الأفراد المؤمنين في دائرة واحدة يقومون من خلالها بتحقيق العبادة في المجتمع البشري، وجعل السكن الذى

يسكنون فيه سكناً إسلامياً وفق مواصفات بانيه، وهذا السكن هو الأرض، وبانيه هو الله ﷻ الذي خلقه، والله ﷻ قد أمر بتعمير هذا السكن بالصلاح {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف ٥٦].

ولكن من يقوم بتحقيق العبادة في المجتمع؟ أو من يقيم دين الله ﷻ في الناس؟ ومن يقوم بتعمير بيتنا الكبير (الأرض) بالصلاح؟

تجيب الآية أن من يقوم بذلك هم الفئة المؤمنة ذات العمل الصالح، المنتظمة في دائرة، يجمعها التواصي على الحق والتواصي على الصبر.

والحقيقة أن التواصي عمل جماعي تقوم به الجماعة المؤمنة حيث يوصى بعضهم بعضاً، ولا يقوم به فرد، فالهدف من هذا العمل هو أن يتقوى هؤلاء المؤمنون ويتعاضدون على إقامة دين الله ﷻ في الناس وعمارة الأرض بالصلاح، فهدف اجتماع هؤلاء هو التعاون والتناصر والتواصي على إقامة الحق، والتواصي على الصبر حتى يتحقق الهدف. والسورة تبين أن نجات الإنسان من الخسران متوقفة على أمرين، هما، الأول: أن يؤمن ويصلح نفسه وفق منهج الله ﷻ. والثاني إقامة دين الله ﷻ وإصلاح المجتمع.

وإذا كانت إقامة الدين في حياة الناس واجبة. فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والله ﷻ يرشدنا أن إقامة هذا الواجب يكون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فيلزم وجود الحد الأدنى من هذا التواصي كشيء ينفع الإنسان المؤمن من الخسران. ولا يكفي لنجاة الإنسان من الخسر أن يؤمن ويعمل صالحاً حتى يتواصي مع إخوانه بالحق وبالصبر. فإذا قيل: كيف يتواصي معهم بالحق ويقيمه، وبالصبر ويلزمه؟ فالجواب أن الواجب هو تحقق هذا الأمر بأي وسيلة مشروعة كانت، سواء بإقامة اتحاد أو حزب أو جماعة أو غير ذلك، وعليهم أن يتعاهدوا على إقامة هذا الواجب، وعليهم أن يبذلوا أموالهم وأوقاتهم وأنفسهم في سبيل إقامة هذا الواجب.

حقيقة القوة وطبيعة الإنسان (سورة العاديات)

لا يردع الإنسان عن غيه، ويزجره عن طغيانه مثل اليقين بالبعث والحساب، لو علم الإنسان بذلك علم اليقين لما تمادى فيما هو فيه من كنود لخالقه. جاءت سورة العاديات لتقرر هذه الحقيقة بصورة تتدفق في زواياها الحياة والحركة.

طبيعة القوة

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} {١} فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} {٢} فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا} {٣} فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} {٤} فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا} {٥}، "تبدأ السورة بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المغيرة مع الصباح، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار"^(١).

وضبح الخيل أن تسمع من أفواها صوتاً لا هو بالصهيل ولا الحممة، وهذا المشهد تختفي وراءه بعض الحقائق:

١- **حقيقة الحركة**، فالحياة كلها متحركة، تأبى السكون، وترفض الركود، وحتى الحيوانات تستحق أن تذكر في هذا الكتاب الخالد، ويقسم بها - كما أقسم الله ﷻ قبل ذلك بعقارب الزمن عندما تتحرك وتعمل وتسعى. فخصص للخيل هنا خمس آيات تصف حركتها منذ أن تبدأ حتى تنتهي، ويبدو أثرها في الهجوم وإثارة النقع. إذن فالإنسان إن أراد أن يخلد في التاريخ فسيبيل ذلك هو الحركة لا السكون ولا الجمود. وما أجمل ما قال الدكتور يوسف القرضاوي:

قلت: الحياة هي التحرك	(م)	لا	السكون	ولا	الهمود
وهي التفاعل والتطور	(م)	لا	التحجر	والجمود	
وهي التلذذ بالمتاعب	(م)	لا	التلذذ	بالرقود	
هي أن تعيش خليفة		في	الأرض	شأنك	أن تسود

٢- **حقيقة القوة**: كانت الخيل تمثل في عصر نزول القرآن القوة العسكرية الكبرى التي يعتمد عليها العرب، فهي دباباتهم وطائراتهم ومدعاتهم، ولهذا كان العرب يولونها كل اهتمام، وربما دفع أحدهم حياته ثمناً لها، كما قال الشاعر الجاهلي، مخاطباً أحد الملوك حين طلب منه خيله، واسمها: (سكاب). فأبى، فقال:

(١) في ظلال القرآن، ٦/٣٩٥٧.

أبيت اللعن إن (سكاب) علق نفيس لا يُعار ولا يُباع
مُقَدَّاةً مَكْرَمَةً علينا يُجاع لها العيال ولا تُجاع
سليلة سابقين تتاجلاها إذا نسبا يضمهما الكراع
فلا تطمع -أبيت اللعن- فيها ومنعكها بشيء، مُستطاع

وهذه القوة التي يخيل إلى الإنسان أنه مالكاها - ليست بيده، إنما سخرها الله ﷻ له، والإنسان اليوم حين يمتلك أسباب القوة يظن أنه مالكاها، والحقيقة أنه أجبر استأجره الله ﷻ لحمايتها من أيدي العابثين، فإذا ما عبث هو بها فقد وقع في طغيان عظيم سيعلم عاقبته بعد، حين تتبعثر القبور.

طبيعة الإنسان

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾).
الإنسان بطبيعته كنود لربه، والكنود هو الكفور الذي مهما أحسنت إليه فإنه يكفر إحسانك، ويسعى في عصيانك. وأي كفر أعظم من إنسان يعصى منعماً خلقه ورزقه ورعا ونماه، وهياً له سبل العيش، وأوجد له وسائل المعرفة، ثم طلب منه أن يعمل بهذه وفق المنهج الإلهي - فتمرد هذا الإنسان وعصى ربه، وأعلن أنه نذُّ لربه في هذه الدنيا، ولكن لا يعجل فسوف يأتي يوم يشهد على نفسه بكفرها، ويندم حين لا ينفع الندم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [عافر ٥٢].

والسبب الذي يجعل الإنسان يكفر ربه هو إثارة الحياة الدنيا كما في سورة الأعلى، أو الحب الشديد لمتاعها وما لها كما في هذه السورة، وكلاهما يعنيان أن الدنيا هي التي حلت في صدر الإنسان وملأت وجدانه، واستولت على قلبه، وشغفته حباً - ولم يبق فيها مكان لربه، ومن ثم ملأ الأرض فساداً وعصيانا.

نهاية المطاف

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿٣﴾).
يتمرد الإنسان على ربه، وكأنه غير قادر عليه، وكأنه لا يعلم أنه سيرجع إليه يوماً ما، فيحاسبه حساب الخبير العارف ببواطن الأمور وظواهرها، خبير بما خفي من نوايا، عليم بما ظهر من أعمال، وعندئذ سيعرف الإنسان حقيقة أمره، وحقيقة طبيعته.

هدية الله (سورة الكوثر)

بينت سورة العاديات نموذج الكنود الذي يؤتية الله ﷻ نعمة ثم يكفرها ولا يشكر ربه، ثم جاءت سورة الكوثر لتربأ برسول الله ﷺ عن هذا النموذج السيئ، وتشير إلى أنه كنموذج صالح - فإنه يقابل نعم الله ﷻ بشكره وعبادته والخضوع له (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ(١). أي: يا محمد أعطيناك هذه النعمة فأحدث لها شكراً بالصلاة والخضوع لربك، وتقديم القرابين دلالة على الطاعة. قال ابن كثير: "كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة - ومن ذلك نهر الكوثر - فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده"^(١).

والإنسان عندما يشكر الله ﷻ فإنه يخلد ذكره، ويبقى أثره، حتى لو انقطع نسله، وقل ماله، وضعف جاهه، فالأبتر ليس من ينقطع نسله إنما هو الكنود الذي يكفر ربه.

ثم إن الآية كما يقول علماء التفسير نزلت في العاص بن وائل حيث كان يقول إذا ذكر رسول الله ﷺ: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله ﷻ هذه السورة^(٢). وعن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج والسدانة والسفاة، فقال: أنتم خير منه، فنزلت (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)^(٣).

فالسورة إذن تقرر أن حقيقة الأبتر هو من لا يحسن استقبال هدية الله ﷻ، أما من أحسن استقبالها فليس بأبتر ولا كنود، إنما هو صاحب الذكر والخلود.

(١) تفسير ابن كثير ٣٩٤/٨.

(٢) نفسه، ٣٩٥/٨.

(٣) قال ابن كثير: رواه البزار وإسناده صحيح، انظر تفسيره ٣٩٥/٨.

مسئولية الإنسان عن النعم (سورة التكاثر)

ما أظلم ذلك الإنسان الذى انغمس فى متاع الدنيا وزخرفها، فتباهى بالمال وتكاثر بالولد، وتفاخر بالسلطان، فإذا به فجأة رهين المقبرة بلا مال ولا ولد ولا سلطان. إن إيثار الدنيا والتكاثر بمتاعها يعمى الإنسان عن مصيره الذى ينتظره.

إن نعم الله ﷻ على العبد تحف به منذ كان جنيناً متوارياً فى رحم أمه حتى يصير دفيناً متوارياً فى رحم الأرض. يرتع فى نعيم الله ﷻ، كل نفس من أنفاسه يشهد بهذا النعيم، وكل حركة وكل سكنة تنطق بهذا النعيم الذى يكتنفه. أفيصح فى الأذهان ألا يُسأل الإنسان عن هذا؟ كلا (ثُمَّ لِنُسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ {٨}).

وهذه السورة جاءت امتداداً للسور السابقة – العاديات ثم الكوثر، والتقت معهما فى الهدف نفسه، وهو أن الإنسان مسئول عن نعم الله ﷻ، ومسئول عن عمله فيها، وأنه لا بد أن يعلم موقناً أن الدنيا ليست نهاية القصة وإنما هى فصل من فصولها، سرعان ما تتلاشى لتبدأ فصول أخرى تحكى الحقيقة (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ {٢} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ {٤} كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ {٥} لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ {٦} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ {٧}).

وماذا بعد؟ (سورة الماعون)

بعد تلك المقدمات الواضحة التي بينت أن الإنسان مسئول عن عمله، وأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، تعقبها الآخرة وفيها الحساب والجزاء - بعد تلك المقدمات لا يسع العاقل إلا أن يقدم لحياته الأبدية، وهذا يقتضى أن يقدم الإنسان أعمالاً صالحة. فاعجب كل العجب بعد هذا لمن يحدد عن هذا، فيكذب بحقائق الدين العظيمة التي عليها تقوم السماء والأرض، وخلق الناس وعليها يموتون، وعليها يعثون ثم يحاسبون. حقيقة أنه لا يكذب إلا من استخف عقله واستصغر نفسه، واستحقر (أرأيتَ الذي يُكذِّبُ بِالَّذِينَ { }).

❖ صواب العمل وإخلاقه

هذا الذي يكذب بالدين هو من انحرف عن صواب العمل أو عن إخلاقه.

١- الانحراف عن صواب العمل. إن العمل لا يقبله الله ﷻ إلا إذا كان صواباً موافقاً للشرع فإن خالف ذلك ردَّ على صاحبه، وعد هذا منه تكذيباً بالدين الذي يقول له الصواب كذا. وهو يقول: لا، بل كذا، ومن صور هذا الانحراف:

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ { })، ويحقره ويهينه، وهذا إشارة إلى غياب العدل والإحسان من قاموس هذا المنحرف. وهو داء عضال إذا أصيب به شخص أو أمة ملأها قسوة على الضعفاء، وجبروتاً على الفقراء، وبطراً للحق وغمطاً للناس. فدعُ اليتيم مظهر ينبئ عن مرض خطير ألا وهو غياب العدل والإحسان، والله ﷻ قد أمر بهما { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ [النحل ٩٠]، وأقام الدين عليهما، وأقام صلاح الناس في معاشهم وديناهم عليهما، وعندما يغيب العدل يحل محله الظلم والجور، وعندما يغيب الإحسان يحل محله الاستعلاء والاستكبار.

(وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ { })، وهذه صورة أخرى تبين الشح الذي يملأ نفس هذا المنحرف، فالآية لا تخبرنا أنه يمتنع عن طعام المسكين أو يمنع عنه، إنما يقف موقفاً سلبياً وهو أنه لا يحض على طعامه. وهي صورة قاتمة تعكسها النفس المصابة بداء السلبية التي لا تبادر إلى فعل الخير، ولا تنهض إلى نصرة المظلوم، ولا تفرغ إلى إغاثة المستغيث. النفس المتبلدة التي ترى المنكر فنقره، ويقع عليها الضيم فتذعن له. هذه النفسية غير مؤهلة لحمل رسالة الله ﷻ ولا لإقامة دين الله ﷻ، وكأنها تجهل فرضية هذا الأمر، ووجوبه، ووعيد المقصر فيه. فهي تكذب بالدين.

هذه الأمراض الثلاثة التي تشخصها الآياتان: غياب العدل والإحسان، وغياب روح المبادرة، وحلول الجور والاستكبار والسلبية. - بصرفن الإنسان عن الوصول إلى صواب العمل، وَيَحُلْنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بُلُوغِ الْحَقِّ، كما قال تعالى {سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف ١٤٦]، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل ١٤]. هؤلاء محجوبون عن الهداية إلى الصراط المستقيم، بهذه الأمراض التي صنعوها، وهم مطية الشيطان فهو كالفيروس الذي يتعرع ويتكاثر في البيئة المهيأة، وهذه البيئة هي مرتع الشيطان {لَأَقْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف ١٦].

٢- الانحراف عن مقصد العمل. وهذا يقع فيه من يعمل العمل صائباً موافقاً للشرع في ظاهره، ولكنه لا يوافق الشرع في المقصد وهو إخلاص العمل لله ﷻ. فيقصد بعمله غير الله ﷻ وهذا ما يسمى بالرياء. ولكن الله ﷻ لا يقبل العمل ما لم يكن خالصاً له، فإن لم يخلص له رده في وجه صاحبه، كما في الحديث القدسي "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"^(١).

والرياء داء يصيب القلب فينحرف السلوك عن ملاحظة الله ﷻ، ويصبح العامل عاملاً لغير الله ﷻ وليس لله ﷻ، وإذا عرفنا أن العمل بمعناه الشامل هو عبادة، فإن العامل لغير الله ﷻ يصبح عابداً غير الله ﷻ، ويصبح معبوده الهوى أو الناس أو المنفعة أو... الخ. وإليه الإشارة بقوله {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} {الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ} {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}.

ولأن صاحب هذا المرض لا يلاحظ ربه فإن الله ﷻ يخذله عن الصواب أيضاً، كما قال تعالى في وصف هؤلاء {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}، فلا وجود بخير للناس، ويمنع عنهم كل ما يمكن أن يستعينوا به في قضاء حوائجهم، وهذا المظهر يعكس النفس الكنود، السلبية الشحيحة التي تمنع الخير.

❖ الماعون

والماعون، قيل أنه: الزكاة، وقيل: أنه اسم لما لا يمنع عادة، من الأشياء العارية التي يستعان به في عمل البيت، كالفأس والقدر والدلو، وقيل أنه اسم يطلق على الإعانة بالمال، ويراد به الصدقة. وكل هذه الأقوال محتملة، ولو رجعنا إلى اشتقاق اللفظ، فالماعون، بزنة فاعول، من المَعْن، وهو الشيء القليل، يقال: مال معن: أي قليل. والمراد أنهم يمنعون

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

الشيء القليل الذي لا يبرزوهم شيئاً، وهذا كما ذكرت يعكس النفس الكنود السلبية الشحيحة التي تمنع الخير.

ودلالة الماعون . هي دلالة عامة، تأخذ في كل عصر ما يمكن أن يطلق عليه لفظ ماعون، فإذا كانت في عصر ما تأخذ الدلالة على الإبرة، والفأس، والقدر، ونحو ذلك . فإنها في هذا العصر تأخذ دلالات أخرى، أوسع وأشمل . ومن ذلك أن تمنع الدولة عن دولة أخرى فضل المعونة بحاجتها، وتعبث بفضول أموالها في أشياء تافهة . ومنها أن تمنع دولة عن جارتها الاستفادة من المنافذ البحرية . إذا كانت هي لا تطل عليها . وغير ذلك مما لا يبرزاً الدولة شيئاً .

يقول الشيخ محمد عبده: "فخاصة المصدق بالدين . أي التي تميزه عن سواه من المكذبين . هي العدل والرحمة، وبذل المعروف للناس . وخاصة المكذب . التي يمتاز بها عن المصدقين . هي احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحب الأثرة بالمال، والتعزز بالقوة، ومنع المعروف عن يستحقه من الناس" (١).

(١) الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم: د. محمد عمارة، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٥، ص ٥١٤.

الباب الثاني: العبودية بين تكليف الرحمن ورصيد الإنسان

العبودية . هي من أعظم القضايا في هذا الوجود، بل هي أعظم قضية، وهي الغاية من خلق الإنس والجان، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات ٥٦]، وهي الحق الذي افترضه الله ﷻ على عباده، كما في الحديث النبوي "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً"^(١). فهي حق خالص لله ﷻ، وهي أعظم عطاء يقدمه الإنسان في الحياة، كما سبق بيانه في سورة الفاتحة.

ولما كانت العبودية بهذه المنزلة من الأهمية فقد جاءت السور التالية تتحدث عنها، وكانت السور السبع عشرة السابقة قد تحدثت عن المعرفة والعطاء والجزاء، ثم خصصت هذه السور للحديث عن أعظم المعارف التي يتوجب على الإنسان معرفتها، وأعظم عطاء يقدمه الإنسان، وأعظم قضية يترتب عليها أعظم الجزاء، إما نعيم مقيم، وإما سعير وجحيم. وقد تحدثت هذه السور الإحدى وعشرون حول قضية العبودية، وأجابت على أسئلة عديدة، وأولها: من المعبود الحق؟ وما أوصافه؟ ولماذا تعبد آلهة أخرى لا تملك من أوصاف الألوهية شيئاً؟ وقد أجاب عنها الفصل الأول. ثم ما معنى العبودية؟ هل هي مجرد معرفة؟ أو أنها معرفة وسلوك؟ ثم ما أهمية العبودية بالنسبة للإنسان؟ وما أهميتها بالنسبة لعلاقاته؟ ولعطاءاته؟ وهذه الأسئلة أجاب عنها الفصل الثاني والثالث.

وفي الفصل الرابع جاء الحديث مبيناً أن العبودية هي تكليف الله ﷻ للإنسان، والله ﷻ حين كلف الإنسان بها، لم يتركه سدى، وإنما وهبه مؤهلات عديدة يكون قادراً بها على أداء هذه المهمة العظيمة، ومن ناحية أخرى، فقد ضمن الله ﷻ على نفسه ضمانات حين كلف الإنسان بأن يعبد، هذه الضمانات تحفظ الجهد الإنساني من التبدد. وأخيراً، جاءت سورة القمر وسورة ص، مبينتين موقف الإنسان عبر تاريخه من هذه المهمة، الإنسان حين يشقى ويتمرد، والإنسان حين يستجيب ويتقرب.

^(١) رواه أحمد (١٣٢٤٥)، والبخاري (٥٥١٠)، ومسلم (٤٣).

الفصل الأول: المعبود الحق

لقد جاءت ست سور متتالية لتجيب عن السؤال الكبير: من المعبود الحق؟ فأوضحت (سورة الكافرون) أن المسلم الحق لا يمكن بأي حال أن يعبد ما يعبده الكافرون وأن الكفار لِعَنَّتِهِمْ لا يتخلون عن معبودهم.

ويعد ذلك يأتي سؤال يضع نفسه: من هو معبودنا . إذن؟ ومن هو معبود الكفار؟ لقد جاءت السور الأربع التالية لسورة (الكافرون)، بالإجابة عن السؤال الأول، وهي سورة الفيل والفلق والناس والإخلاص، ثم جاءت سورة النجم للإجابة عن السؤال الثاني. أما معبودنا فإنه صاحب القدرة والقوة المطلقة (سورة الفيل)، وصاحب الملاذ الآمن الذي يأمن عنده من فزع إليه (سورة الفلق)، وصاحب العصمة الذي يعصم أتباعه من كل أذى وشر (سورة الناس)، وهو المتفرد في هذا الكون تصمد إليه الخلائق (سورة الإخلاص). وأما معبودات الكافرين . فهي معبودات بحاجة إلى وقفة متأنية معها، ومناقشة أولئك الذين اتخذوها معبودات من دون الله ﷻ. هل هي معبودات ذات قدرة وقوة وتفرد . تستحق العبادة، وتستطيع أن تقدم لِعِبَادِهَا الملاذ الآمن، والعصمة الدافعة للأذى؟ أو أنها معبودات زائفة لا تملك نفعا ولا ضرا؟ هذا ما سنتناقشه (سورة النجم).

براءة ومفاصلة (سورة الكافرون)

جاء في السنة المطهرة أن النبي ﷺ قال لنوفل: "اقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثم نم على خاتمها؛ فإنها براءة من الشرك"^(١). ولهذا كان الرسول ﷺ يقرأ بها مع الإخلاص في ركعتي الفجر^(٢).

إنها سورة البراءة من الشرك كما سماها رسول الله ﷺ، والمفاصلة والمجانبة لكل ما هم عليه. وقوله (الكافرون) "يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله ﷻ هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم كلية"^(٣).

جاء خطاب هذه السورة بتنوع النفي وتعدد. سواء من قبل المسلم تجاه الكافر: (لا أعبد ما تعبدون)، (ولا أنا عابد ما عبدتم)، أو من قبل الكافر تجاه المسلم: (ولا أتم عابدون ما أعبد) تكررت مرتين، ثم إثبات النقيض (لكم دينكم ولي دين).

❖ نفي تحذير ونفي تعنت

أما النفي في (لا أعبد.. ولا أنا عابد) فهو نفي يحمل معنى التحذير من الله ﷻ للمسلم، بمعنى: احذر أيها المسلم من أن تزل قدمك في هذا المستقع الآسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص ٨٧-٨٨]. وقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِيفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَمْ يَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ {٣} {وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكِنُ إِلَهُمَّ شَيْئًا قَلِيلًا} {٤} {إِذَا لَادُّقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} {٥} [الإسراء ٧٣-٧٥]. وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة ٢١٧].

(١) رواه الترمذي (٣٣٢٥)، وأبو داود (٤٣٩٦)، وأحمد (٢٢٦٩٠)، والدارمي (٣٢٩٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (١١٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) تفسير ابن كثير، ٣٩٧/٨.

وأما النفي في قوله: (ولا أنتم عابدون) فهو نفي يبرز واقع هؤلاء المتصلبين والمتعنتين الذين لا يؤمنون أبدا مهما رأوا من آيات، كما قال تعالى: "كَذَلِكَ سَلَكْنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأُولِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿٦﴾" [الحجر ١٢-١٥]، وكما قال تعالى: {وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة ١٤٥].

❖ (لكم دينكم ولي دين)

يطول بنا المقام لو ذهبنا نستعرض آيات التنزيل التي جاءت تحمل هذه الحقيقة الكبرى، وهي حقيقة ذات شقين:

الشق الأول: أن المسلم عليه أن يتبرأ كل البراءة من أهل الكفر، ومما هم عليه من عقائد وأعمال وعادات وتقاليد تخالف مبادئ الإسلام، كما أن عليه أن يعلن بكل وضوح هذه المفصلة والبراءة، فالإسلام دين لا يقبل الترفيع ولا أنصاف الحلول ولا البحث عن مفارق الطرق. لا، بل بكل صراحة ووضوح يعلن للعالم الكافر "لكم دينكم ولي دين".

الشق الثاني: بيان عنيت الكافرين، فمهما رأوا من آيات فإنهم يعاندون الحق، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل ١٤]، وفي هذا دعوة واضحة للمسلم أن يفهم طبيعة خصمه الكافر، وليعلم سلفا أن الكافر لن يتنازل له عن مبادئه، إنما هي المراوغة فقط التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [البقرة ٢١٧]. فهم مستمرين على ذلك أبدا، {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء ٨٩]، {وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة ١٢٠].

إذن فهم يتعاضون معنا على مبدأ الدعوة إلى الكفر، وكل وسائلهم التي يستخدمونها معنا يريدون من ورائها أن تكفر مثلهم {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء ٨٩]، ولا نظن أنهم لا يحملون هم الدعوة إلى باطلهم. كلاً، إنهم دعاة، لا يزالون يجددون ويبدعون في دعوتهم حتى نسقط في حبالهم بردة صريحة نخلع فيها ربة الإسلام، أو ردة غير صريحة بالواقع في مودتهم وموالاتهم { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة ٥١].

القوي القادر (سورة الفيل)

من أبرز صفات الرب القوة والقدرة، إذا لو انعدمت صفتا القوة والقدرة لكان الرب عاجزاً، وتعالى الله ﷻ عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر ٤٤].

وصفة القدرة صفة ملازمة للملك صاحب الملك؛ إذ هي دالة على قيوميته وهيمنته وتدبيره وتصريفه، قال جل شأنه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك ١]، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة ١٢٠].

وبهذه الصفة حاج الله ﷻ البشرية، فحجّهم في قدرته على التصرف فيهم كما شاء في حياتهم وبعد مماتهم، ومن ثم فهو القادر على أن يعذبهم في حياتهم كما قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام ٦٥]، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُثْرِكَ مَا نَعُدُّهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون ٩٥].

وكذلك جاءت سورة الفيل لتعرض نموذجاً واقعياً أوقع الله ﷻ فيه بقدرته عذابه على مجموعة من الكافرين. وهو القادر على أن يبعثهم بعد مماتهم، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف ٣٣]، وفوق ذلك فهو القادر على تمكين أتباعه ونصرهم، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٣٩].

فهذا الذي عرفت وصفه - هو القادر على أن يفي بما وعد، ويحقق ما وعد، وهو الذي يُتَقَىٰ عذابه وتُرْجى رحمته، وهو الذي يأمر فيطاع وينهي فيستمع إليه، وهو الذي يخضع له الناس ويدعون.

والله ﷻ يشير بكل وضوح إلى هذه الصفة في سورة الفيل: ﴿الْمِ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ الْمِ يَجْعَلُ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَصَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾. فهو يقول: إن معبودك. أيها المسلم. هو القادر الذي تبدو آثار قدرته وتصرفاته، فانظر إليه (الْمِ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)، رد كيدهم في نحرهم، وأرسل عليهم جنداً من جنوده (طَيْرًا أَبَابِيلَ)، فشتتت جموعهم،

واستأصلت شأفتهم، وجعلتهم عبرة، صاروا كورق الشجر الذي تأكله البهائم (كَصَفِ مَأْكُولٍ).

والآيات توضح أن هؤلاء القوم جاءوا بفيلتهم؛ يحادون الله ﷻ، ويستعبدون الناس، ويرغمونهم على تنفيذ ما يشاءون، جاءوا ليقهروا المستضعفين، وليبينوا للناس أنه أصحاب القوة. فشاء الله ﷻ أن يبين للناس أنهم أصحاب الضعف، وأن قوتهم ارتدت ضعفاً، وكيدهم ومكرهم ارتد تضليلاً، وجيوشهم ارتدت فلولاً.

وهذا نموذج يتكرر في كل زمان، فأصحاب الفيل قد تكون قوتهم متمثلة

في الفيل كما هو حال أبرهة، وقد تكون قوتهم متمثلة في البوارج والصواريخ

والقنابل.... فإذا ما قام (أصحاب الفيل) بالاستعلاء على الضعفاء، ونازعوا الله ﷻ في أرضه - محقهم الله ﷻ وسحق قوتهم؛ لأنه لا يوجد في الكون صاحب قوة مطلقة وقدرة غير متناهية سوى واحد فقط، هو الله ﷻ سبحانه وتعالى - فمن نازعه في هذه الخصوصية أذله وكبته.

وهذه الصفة يرتبط بها كثير من صفات الله ﷻ التي تتجلى فيها قدرته وقوته، مثل:

العزيم، الجبار، المتكبر، المهيم، القهار، العلي، الرقيب، المتعال، المعز، المذل، المنتقم.

الملاذ الآمن (سورة الفلق)

وردت آثار عديدة في فضل المعوذتين (الفلق والناس)، وأن الرسول ﷺ كان يتعوذ بهما، ومن هذه: أن الرسول ﷺ قال لعقبة بن عامر: "لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من "قل أعوذ برب الفلق"^(١). وهذا الفضل دليل على أن السورة تحمل أمراً عظيماً، فالسورة تبين صفة أخرى من صفات المعبود الحق، ألا وهي الحفظ، فالله ﷻ يحفظ من لجأ إليه ويؤمّنه، ويعيذه من شرور الخلق، ولا يدع لهم سلطاناً عليه، فيعيش آمناً في كنف الله ﷻ ورعايته، محاطاً بعناية ربه وحمايته.

فإنَّ الله ﷻ هو السلام الذي يُسَلِّم عباده ويقيهم المكروه، وهو المؤمن الذي يؤمّن أوليائه، وبهذه الحقائق نطقت آيات الكتاب العظيم كما في قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس ٦٢]، وقوله تعالى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [النساء ١٤١]، وقوله لإبليس: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء ٦٥]، كما أن الله ﷻ قد وعد رسوله ﷺ بأن يعصمه، فقال: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة ٦٧]، أي لا يهديهم إلى النيل منك أو إلى إلحاق السوء بك، بل تظل أبها النبي معصوماً من مكرهم وشرورهم، والله ﷻ سيتولى إحباط كل تدبيرهم ومكرهم، {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال ٣٠]. وكثير هي الآيات التي تبشر المؤمنين بأن لهم عند الله ﷻ الأمان والسكينة والطمأنينة والرضا والحياة الطيبة والسعادة.

إذن فهذه السورة جاءت لثري الناس أن المعبود الحق هو الحفيظ السلام المؤمن، وهو القريب المجيب اللطيف، وهو الولي، والملاذ الآمن يرحم من يستعيذ به ويكرمه ويهديه إلى مراده، فهو الرحيم الكريم الهادي. والملاذ الآمن لا يرد من جاء إليه خائباً - وإن أساء إليه - بل يعفو ويصفح، فهو العفو الغفور التواب.

هذا هو المعبود الحق، والسورة تكشف جانباً عظيماً يفتح أبواب الأمان للناس، ويمكنهم أن يصلوا إليه إذا سلكوا الطريق الصحيح، هذا الطريق هو طريق الإيمان، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام ٨٢]، وعدم

(١) رواه النسائي (٥٣٤٤)، وأحمد (١٦٧٠٢)، وصححه الألباني.

الإيمان إنما هو طريق إلى الخوف {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَنَّ اللَّهَ فَاذَأَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْحَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل ١١٢].

وها هي البشرية وصلت إلى مراقبي التقدم التقني والعلمي، ولكنها تعيش في أنفاق من الرعب، وكهوف من الذعر - يستوي في ذلك أغنياء الدول وفقراءها، تعيش البشرية اليوم في خوف رهيب، لا نجد تفسيراً له إلا في المصدر الإلهي {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... }.

❖ رب الفلق

والسورة تبين أن الله ﷻ - رب الفلق - هو الذي يستعاذ به من شر الخلائق كلها؛ ففي الخلائق شر كثير، وفيها مصادر للرعب بالنسبة للإنسان، فالإنسان يرهب الليل، ويرهب ركوب البحر، ويرهب طوفان البحر، ويرهب زلزال الأرض، ويرهب رجم الشهب، ويرهب وحوش الغابة، ويرهب كثيراً من الدواب المؤذية، كالثعابين والعقارب و... الخ، وغير ذلك مما يطول بنا المقام لو ذهبنا لعرضه.

ثم إن الإنسان يرهب من أخيه الإنسان وما يحمل داخله من عوالم مخفية كالحقد والغضب وحب الطغيان والاستعلاء والظلم والرغبة في العلو وهضم الآخرين حقوقهم، وما ينتج عن هذه العوالم من أعمال مخيفة يقوم بها الإنسان، تتمثل في سحر أو ضرب أو تعذيب أو قهر أو ظلم... الخ.

هذه العوالم المخيفة التي يرهبها الإنسان، سواء تلك التي بثها الله ﷻ في الآفاق، أم تلك التي تضمها جوانح الإنسان - كلها ليل مظلم، وكلها سواد حالك - ولا يُبدد هذا الظلام ويسحق هذا السواد إلا ربُّ الفلق - والفلق هو الصباح المضئ الذي يبدد الظلام، ولا يخفى ما توحيه هذه الإضافة (رب الفلق) من أمان وسكينة، فكما يُبدد الفلق كل ظلام. فإن رب الفلق سيبدد كل ذعر وخوف لدى المؤمنين به.

العاصم المانع (سورة الناس)

الملاذ الآمن هو الذي يوفر الأمن والحماية من الشرور التي تأتي من خارج النفس، أما العاصم فهو الذي يوفر الأمان والحماية من الشرور التي تتبعث من داخل النفس، فهو عاصم يعصم النفس من شرورها. ولما كانت الشرور الخارجية أقل خطر من الشرور الداخلية؛ إذ مهما تكن الشرور الخارجية فإنه يمكن توقيها بخلاف الشرور الداخلية التي تقبأ النفس، فلا تملك لها ردا - لما كان الأمر كذلك كان التعوذ بصفة واحدة (رب الفلق) من جميع الشرور الخارجية، وجاء التعوذ بثلاث صفات (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ) من شر النفس الداخلي.

إن أعظم شر يقهر النفس هو شر الوسواس، فهذا الشر يهدم البناء الذي

بناه الله ﷻ، فالله ﷻ بنى هذا الإنسان ومنحه من الصفات ما يستطيع بها أن ينهض بهمته في هذه الأرض، وهي مهمة الاستخلاف. هذا الطين نفخ الله ﷻ فيه من روحه فسواه بشرا سويا، ومنحه العلم ووسائل العلم والمعرفة، وخلق له جميع ما في الأرض وسخرها له، وأمره بأن يقوم بعمارته، وجعله خليفة في الأرض، وأمره أن ينهج في خلافته بمنهج السماء لا بمنهج الأرض، وهياً لهذا النهج بما أودع فيه من قدرات وإمكانات وطاقات هائلة، وجعل فيه قوى جبارة تمكنه من مواجهة كل مصاعب الحياة ومتاعبها ومكافحتها، والصمود حتى يحقق أهدافه. هذا البناء الإلهي العظيم لا يمكن لأي قوة أن تهدمه، ولا يستطيع أحد أن يهزه أو يزلزل بنيانه، لكن يمكن لشيء واحد أن يهدم هذا البناء - هذا الشيء هو الوسواس الذي ينقض عرى البنيان عروةً عروةً حتى يحيله إلى ركام أو حطام.

ولكن ما الوسواس؟ وما الخناس؟

الوسواس . كما في كتب اللغة . هو همس الصائد وكلامه الخفي، يستخدمه عندما يريد الإيقاع بفريسته حتى لا تشعر به. ووسوس: إذا تكلم بكلام لا يبينه⁽¹⁾. أما

(1) تاج العروس، مادة: وس وس.

الخنوس فهو التأخر والانقباض، وخنوس الكواكب: استخفاؤها بالنهار وظهورها بالليل، والخناس: صيغة مبالغة، أي: كثير الخنس.

وفي السورة استعادة من شر الوسواس الخناس، وهذه صفتة، أما عمل هذا الوسواس فهو {الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} [الناس ٥]، والذي يقوم بهذا الوسواس هم الجنّة والناس. فالوسواس إذن شر مستطير يجد الإنسان أثره في صدره حديثا خفيا، ووساوس مثبتة، وهما فاسدا، يجده في صدره داعيا إلى الشهوة واللذة والشر، وناصحا بنصحه بالدعة والضعة والتخاذل، يؤد في جوانحه اليأس والفشل، ويسقى في سويداء فؤاده شجر الإحباط والكسل - ثم وراء ذلك يزين له كل مفسدة، وينفث في وجهه العراويل أمام كل خير. فيعيش الإنسان رهين هذا الوسواس الذي يقوى ويستحکم عندما يسترسل المرء في سماع صوته.

ولكن هذا الوسواس سرعان ما يختفي لو استعاذ الإنسان بربه وطلب اللجوء إليه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان) (١)، فالعجز تذهب الاستعانة بالله ﷻ، وكان رسول الله ﷺ دائما ما يدعو ربه قائلا: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال) (٢).

هذا الوسواس يأتي من ثلاث جهات:

الأولى: الجنّة، وهم الشياطين، ونعرف طبيعة الصراع بين الإنسان والشيطان الذي أقسم أمام الله ﷻ أن يبذل حياته في سبيل غواية الإنسان، قال: {قَالَ فِعْرَتُكَ لاَ غَوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص ٨٢]، ولكن الله ﷻ عصم الإنسان منه، فلم يعد للشيطان إلا الوسواس، {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الإسراء ٦٥]، {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء ٧٦]، ويتلاشى طغيانه بمجرد ذكر الإنسان ربه، وفي الأثر: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس) (٣).

الثانية: الناس، فهم لا يفتأون يزينون لبعضهم كل منكر، ويصرفونهم عن كل معروف. كرفقاء السوء، وبائعو الشهوات، والعابثون بالفكر، وكثير غيرهم.

(١) رواه مسلم (٤٨١٦) من حديث أبي هريرة

(٢) رواه أحمد (١١٦٧٠)، والبخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٤٨٧٨)، والترمذي (٣٤٠٦)، والنسائي (٥٣٥٣)، وأبو داود (١٣١٧).

(٣) أورده صاحب مشكاة المصابيح (٢٢٨١) من حديث ابن عباس ؓ، وقال: رواه البخاري تعليقا. ولم أجده فيه.

الثالثة: النفس، فالإنسان من الناس، وهو يوسوس لنفسه أيضا، ولهذا قال الله ﷻ: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {٧} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {٨} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا {٩} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا {١٠}) [الشمس: ٧-١٠]، والنفس مصدر كبير من مصادر التثبيط والإحباط والوسوسة، وهي من أعداء الإنسان، عليه أن يتقيها ويحذّر مكائدها. قال تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) [يوسف: ٥٣].

ونعود إلى رأس الموضوع، فنقول إن الإنسان مخلوق ضعيف أمام هذه القوى الشريرة التي تسعى لاقتلاع كيانه من داخله، وتحاول هدم بنيانه من أصله. وما لم يستند الإنسان إلى خالقه القوى العظيم كي يعصمه ويمنعه من هذه القوى. فإنه سيضيع هباءً. لا أحد يقدر أن يعصم الإنسان إلا الربُّ الذي يدبر كل الأمور، الملكُ الذي بيده ناصية كل شيء، الإلهُ المستعلي على جميع الخلق، صاحب هذه الصفات هو الذي يعصم من لجأ إليه، واستعان به، وما سواه فيعجز أن يعصم نفسه، فضلا عن أن يعصم غيره.

الواحد الصمد (سورة الإخلاص)

هذه السورة ذات فضائل عظيمة كما لا يخفى، ففي البخاري أن النبي ﷺ قال: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"^(١). فما سر هذا الفضل العظيم؟ إن هذه السورة التي لا تتجاوز أربع آيات قد جمعت حقيقة التوحيد وما يجب على الموحدين تجاه الخالق.

أولاً: حقيقة التوحيد

لا توجد عبارة أدل على هذه الحقيقة من هذه الآية العظيمة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ). ما أقل عدد حروفها وما أكثر معانيها، إنها وصفت المعبود الحق بالأحدية، فهو أحدٌ، والأحد هو الذي لا نظير له ولا شبيهة ولا ندٌ ولا عديلٌ.

والأحمد هو المتفرد في كل شيء، في وجوده وفي صفاته وفي أفعاله.

أما وجوده فهو الأول والآخر الذي ليس قبله شيء وليس بعده شيء، وهو الدائم الذي لا يفنى، وهو الحي الذي لا يموت. كل شيء يحتاج في وجوده وبقائه إليه، وهو لا يحتاج إلى شيء.

وأما صفاته فله صفات الكمال كلها، المبرأة من كل عيب، المنزهة عن كل نقص (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى ١١]. له كمال العلم والحلم والعظمة والحكمة والخبرة: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) [غافر ١٩]، (وهو السميع) الذي يسمع كل شيء، وهو (البصير) الذي يبصر كل شيء^(٢)، وهو الذي (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) {٢} (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) {٤}.

وأما أفعاله فهو القادر على كل شيء، يوجد ويفنى، ويحيي ويميت، ويعز ويزل، ويخفض ويرفع، ويبسط ويقدر، خلق الإنسان ثم علمه البيان، (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ

(١) رواه البخاري (٤٦٢٧)، وغيره، من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) قال تعالى: (وَإِعْنِدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [الأنعام ٥٩]، (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) [الحشر ٢٢]، (وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة ٢٥٥].

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ {يونس 3}، {وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ} {الرعد ٤١}، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} {يس ٨٢}.

هذا هو الأحد الذي يستحق أن يعبد، ومن سوى الله ﷻ يكون له هذا التفرد. قال عكرمة: "لما قالت اليهود: نحن نعبد عزيزاً ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ^(١). ومن هذا النص نفهم أن عبادة ما غير الله ﷻ هو الشرك بعينه، والشرك يناقضه التوحيد، والتوحيد هو خلوص العبادة لله وحده.

ثانياً: واجب الناس تجاهه

سأل المعلم الرياني رسول الله ﷺ صاحبه معاذ بن جبل ؓ: "يا معاذ ما حق الله على العباد؟" فسكت معاذ، فأجابه رسول الله ﷺ: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً" ^(٢).

هذا الحق الإلهي هو ما تلخصه كلمة واحدة وهي قوله {اللَّهُ الصَّمَدُ}، فالصمد هو الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، الصمد هو السيد الذي يتوجه إليه الناس ثم يصدرون عن أمره وحكمه. وهذه هي حقيقة العبادة، فحقيقتها أن تتوجه إلى المعبود راغباً فيه وفي وعده، راهباً منه ومن وعيده، وتتمثل أمره في حياتك، فتصدر عنه، وتستسلم لحكمه فلا تخالفه.

إن الله سبحانه وتعالى هو الصمد الذي يقضي جميع حوائج المخلوقات، ومنها الإنسان، ولولاه لما عاش أحد. فالعجيب أن يشذ الإنسان عن هذا النعم الكوني العظيم في الأمر الذي جعل فيه مختاراً. إن الإنسان يقضي حوائجه ربه، وتصمد أعضاؤه كلها على الله ﷻ، فتحيا وتنمو. أما نفسه فتأبى أن تصمد إلى الله ﷻ، فنتجه إلى مخلوقٍ مثلاً؛ إما برهبة أو رغبة أو استسلام أو خضوع أو استعانة أو استعاذة أو غير ذلك من مقتضيات العبادة. متى كان الإنسان يعبد الله ﷻ وهو يرهب غيره؟! أو يرغب فيما عند غيره من متاع زائل ناسياً ما عند الله ﷻ؟! ومتى عبد الإنسان ربه وهو لا يسكن روحه أو عقله؛ فروحه في هوى الدنيا، وعقله في همها؟! ومتى عبد الإنسان ربه وهو يتلقى قوانينه من غيره؟! ومتى عبد الإنسان ربه وهو يحتكم إلى سواه؟! {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} {النساء ٦٥}.

^(١) تفسير ابن كثير ٤١٢/٨

^(٢) رواه أحمد (١٣٢٤٥)، والبخاري (٥٥١٠)، ومسلم (٤٣).

وبين سورتي (الكافرون) و(الإخلاص) تتجلى قيم المعبود الحق، وفي سورة (الكافرون) بيان واضح لما يجب على الإنسان العاقل أن يتخلى عنه - وفي سورة (الإخلاص) بيان واضح لما يجب على الإنسان العاقل أن يتخلى به؛ فيجب أن يتخلى عن كل معبود سوى الله ﷻ، ويجب أن يتخلى بعبادة الله ﷻ. هاتان السورتان تفصحان كل الإفصاح عن هوية المسلم الحق الذي يرفض كل ما عدا الله ﷻ، ويذعن كل الإذعان لله ﷻ. ومن هنا نعرف السر في أن الرسول ﷺ كان يفتح أول صلاة في يومه بقراءتهما حيث كان يقرأ بهما في ركعتي الفجر^(١)؛ لتكونا بمثابة منبه للمسلم، يصرخ فيه: هذا أنت، فكن كما خلقك الله ﷻ إنسانا حرا.

وأخيرا، فبعد أن عرف الإنسان صفات المعبود الحق من خلال هذه السور الأربع وعرف واجبه تجاه هذا المعبود - ينتقل القرآن الكريم إلى الحديث عن المعبودات الأخرى التي يتجه إليها الإنسان ويبين صفاتها، وعليك أن تقارن . لو افترضنا أن هناك مجالا للمقارنة . وإلا فلا تصح المقارنة في هذا المجال، ولكن دعونا نتحدث بمنطق القرآن (وَأَيُّهَا أُوَّيَّاكُمْ لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [سبأ ٢٤].

(١) رواه مسلم (١١٩٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

معبودات أنى عُبِدت؟! (سورة النجم)

نزلت هذه السورة لتناقش حقائق المعبودات الزائفة التي يعبدها الكفار، وتُسبِّر أعماق هؤلاء العُباد الذين انصرفوا عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلالة. وقد ابتدأت السورة بتقرير الحق والهدى الذي جاء به ﷺ، واختتمت بتقرير الحقائق الخالدة التي قامت عليها السماوات والأرض. وسنتحدث عن كل محور في السورة على حدة.

المحور الأول: الوحي والاتصال بين السماء والأرض [من آية ١: إلى ١٨]

بينت السور السابقة أن المعبود الحق هو القوي القدير، الملجأ الأمين، وهو الملاذ الوحيد، وهو الأحد الصمد. وهنا يتساءل الإنسان: **إذن كيف نعبد هذا المعبود؟ وما الطريق الموصلة إليه؟**

تأتي بداية السورة لتبين أن الطريق الموصلة إليه هي **الوحي** الذي أنزله إلى الأرض جبريل عليه السلام، وتلقاه محمد ﷺ، وقام بتبليغ ما أنزل إليه. وكما عرفنا صفات المعبود الحق، فقد جاءت هذه الآيات تعرض لنا صفات الرسول البشري والرسول الملكي، وطرق التواصل بينهما.

❖ الرسول البشري

أما الرسول البشري فنقول الآية فيه (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ {٢} وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ {٣})، إذن فله صفتان:

الأولى: اتباع الحق، واتباع الحق يعني: عدم الضلال في أخذ الحق - وهذه ميزة الأنبياء وورثتهم الذين يتبعون الحق ولا يحدون عنه. أما الكفار فإنهم {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم ٢٨].

الثانية: صحة المقصد، فلا يغوى ولا ينحرف، بل يظل مقصده خالصا سليما متجها إلى ربه وحده، منصرفا عن كل ما دونه من دنيا وشهوات وملذات. وهذا بخلاف الكفار الذين يتبعون هوى النفوس، ويقعون في حبالها كما تبين الآيات بعد ذلك {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} [النجم ٢٣]، فأثبت القرآن صفتي كمالٍ لنبيه ﷺ، وأثبت نقيضهما لعدوه الجاهل - وعليك أن تقارن.

هذا **واتباع الحق يؤدي بالإنسان إلى الإطابة في العمل، وصحة المقصد يؤدي به إلى الإخلاص في العمل** - وهذا هو العمل الحسن الذي يقوم على هذين الركنتين {لِيَلْبُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [المالك ٢]. هذان الركنان متى اجتمعا أنتجا إنتاجا حسنا، ومن هذا النتاج: **الأمانة**، وهي صفة لازمة لحامل الرسالة حتى يؤديها صحيحة وافية، ولهذا وصف الله ﷺ رسوله ﷺ فقال: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ {٢} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ {٤}). فهو أمين الله ﷻ في أرضه، يؤدي ما أوحى إليه، ولا يلبسه بهوى أو أماني، بل هو الوحي، وقد بين الحق هذا الأمر سابقا فقال (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ {٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ {٤٦} فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ {٤٧}) [الحاقة: ٤٤-٤٧]. والأمانة هي الصفة التي وصفت بها الحق رسوله الملكي سابقا {مُطَاعٌ ثُمَّ آمِنٌ} [التكوير ٢١]. وهي الصفة التي يلزم على حملة الرسالة أن يتحلوا بها، ويلزم على كل صاحب مسئولية أن يتحلى بها {قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} [النمل ٣٩]، {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أُنذِرُكَ بِهٖ أَسْحَابَ الْجِبَالِ الَّتِي مُتَمَدِّدَةٌ بِهٖ فَمَا تُصْبِحُ إِلَّا غَدِيرًا أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ الْبُرْجُ الْأَيْمَنُ وَمَنْ جَاءَ مِنْهَا فَاعْبُدْ} [سورة الحجر: ١٥-١٦].

❖ الرسول الملكي

وأما الرسول الملكي فهو شديد القوى الظاهرة والباطنة، يستطيع بقوته هذه أن يحمل الأمانة، وهو ذو مِرَّة أو ذو منظر حسن بهي، ينبئ عن قوة خلقه التي خلقه الله ﷻ عليها. وقد وصف بصفات أخرى في التكوير، والغرض هنا ليس وصفه، إنما إثبات التقائه بالرسول البشري، فهو قد لقيه في الأرض (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ {٥} ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ {٦} وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ {٧} ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ {٨} فَكَانَ قاب قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ {٩} فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ {١٠} مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ {١١}).

وهذه هي النزلة الأولى التي دنا جبريل عليه السلام فيها من محمد ﷺ فكان قاب قوسين منه أو أدنى، فأوحى الله ﷻ إلى رسوله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام ما أوحى، ومحمد ﷺ صادق في تلك الرؤية، ما كذبه قلبه، وأنتم أيها الكفار ما زلتم تمارونه في هذه الرؤية، فلا تعجبوا فقد رآه نزلة أخرى، ليست في الأرض إنما في السماء عند سدرة المنتهى وذلك ليلة الإسراء، وهناك رأى آيات كبرى كثيرة كما جاء في الأحاديث الصحاح^(١).

(١) قال ابن كثير: "هذه الرؤية لجبريل عليه السلام لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتلقى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله ﷻ عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة فأوحى إليه صدر سورة اقرأ. ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مرارا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هم بذلك ناداه جبريل

إذن فهذا الوحي وهذان رسل الله من الملائكة والبشر، وهذا التقاؤهما الذي يبين عظمتهما عند الله ﷻ ومكانتهما لديه. إنها عظمة مطلقة، وسمو كبير. يعيشه الإنسان في صحبة هؤلاء العظام.

المحور الثاني: ما بال المعبودات الوضيعة؟ [من آية: ١٩ إلى: ٣٠]

إذا كان هذا شأن المعبود الحق وهذا شأن رسله، معبود عظيم، ورسول عظام، واتصال بين رسول السماء والأرض عظيم. فأنتم أيها الكفار، أرايتم معبوداتكم اللواتي تسمونها: (اللات والعزى، ومناة)، ما شأنهن؟ وما صفاتهن؟ وما مبلغ قدرتهن؟ ثم أنتظرون إذا جاء لأحدكم أنثى، وتفرحون بالولد، ثم تتسبون البنات إلى الله ﷻ؟ أو تزعمون أن الملائكة بنات الله ﷻ. فهم كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ﷻ، وأن الله ﷻ، تعالى الله ﷻ عما يقولون، قد ناسب الجن فكان النتاج هم الملائكة، [انظر سورة الصافات: ١٥١ - ١٥٩]، وكل هذا تحرّص وظنون وليس قائما على شيء من العلم.

هذا التخبط نشأ من اتباع الظن والهوى، وترك الحق والهدى، كما أنه نتج عن عدم الإيمان باليوم الآخر، حيث ينطلق الإنسان يفترى ما يشاء دون شعور بمسئولية تجاه ما يقول. والعجيب أن هؤلاء المشركين الذين كان يأنف أحدهم أن تولد له أنثى فنتسب إليه، فإذا ولدت له أنثى اسودّ وجهه وتوارى من القوم، واحترأ أيمسكها ويرضى بالهون الذي يدعيه؟ أم يدسها في التراب ويئدها؟ في حين يرضون أن ينسبوا إلى الله ﷻ إناثا - في زعمهم - (أَلَكُمُ الدَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) {٣} تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ {٣} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَثُمَّ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ {٣}).

❖ إلا بسلطان من الله

من هنا نقف مع قضية الإله المعبود، البشر هم الذين يختارون لهم إلهها؟ فيذهبون ينعوتونه بما شاعوا، ويسمونهم بما شاعوا، فمرة يسمونه "اللات"، ومرة يسمونه "العزى"، ومرة يسمونه "مناة" - وقد يسمى فرعون أو أوزيريس، وقد يسمى حزبا أو مذهبيا أو نظرية أو إقليما أو... الخ.

🕌 من الهواة: يا محمد أنت رسول الله حقا وأنا جبريل، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل عليه السلام - ورسول الله ﷺ بالأبطح - في صورته التي خلقه الله ﷻ عليها، له ستمائة جناح قد عظم خلقه الأفق، فأقترب منه، وأوحى إليه من الله ﷻ ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خلقه الذي بعثه إليه [تفسير ابن كثير، ٣٤١/٧].

فما الذي يحكم هذا الأمر، ويضبطه؟ هل الظن والتخرّص هو الذي يحدو بالإنسان فيختار له آلهة؟ هل هو الهوى والتمني؟ أم ماذا؟
 إن كل المذاهب والنظريات والجماعات والأحزاب و... الخ، أيًا كان اسمها وأيًا كان شعارها - في نظر الإسلام مرفوضة وباطلة، وقائمة على الظنون والهوى والانحراف، ما لم يكن لها من الله ﷻ سلطان. والله ﷻ قد جاءنا بالهدى، وهو السلطان الذي أنزل؛ فإما الحق والهدى، وإما الظنون والهوى، وعدم الشرعية الإلهية. هذه الأمور تخضع لمقياس واحد فقط هو هدى الله ﷻ، نعرضها عليه، وإلا نبذناها وأعرضنا عنها.
 فليست المسألة أن يتمنى الإنسان ما يريد، فهو في أرض غيره، وفي ملك غيره، في أرض الذي له ملك الدنيا والآخرة، وعلى الضيف أن يلتزم بقانون مضيفه وشرعه وعرفه، و"يا غريب كن أديباً". ولأن الملك ملكه فلا أحد يجرؤ على الشفاعة بين يديه لأحد إلا بإذنه (وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ {٣}).

❖ حقيقة الحائرين

لقد كشفت هذه الآيات النقاب عن حقيقة هؤلاء الحائرين الذين يتركون البحر ويذهبون إلى السراب، يتركون المصدر الأصلي للتشريع، ويذهبون إلى حجر أو شجر أو بشر، ليستمدوا منه شريعتهم وقوانين حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هؤلاء وقعوا في معضلتين:

الأولى: أنهم جهلوا حقيقة العلم، ومبلّغهم من العلم - لو سلمنا أن لديهم علما - ضئيل، فما هو إلا ظنٌ وتخرّص، والظن لا يغني من الحق شيئاً، تنهاوى أدلتهم أمام نفخة نباب، وكلُّ بضاعتهم طنين أجوف ليس وراءه شيء، والحقُّ كل الحق مع أهل العلم الذي استمدوا حياتهم من المنبع الأصلي للتشريع.

الثانية: نتيجة لهذا الجهل؛ فإنه قد انحرفت معاييرهم، فكما جهلوا مصدر التشريع فقد جهلوا فهم الحياة، فإن المصدر الحقيقي الذي نستمد منه شريعتنا وتصورنا هو الله ﷻ تعالى، وإن الحياة الحقيقية التي نحيا فيها، ويجب أن نعمل لها، ونستعد للقائها إنما هي الدار الآخرة.

فمن أدرك هذين الأصلين فقد هُديَ إلى صراط مستقيم، واهتدى إلى فلاحه ونجاحه، ومن جهل ولم يُردْ إلا الحياة الدنيا الدنية فقد شقيّ وضل عن سبيل الله ﷻ، وباء

بخسران وخيبة. وهؤلاء أصيبوا بانحراف معياري صور لهم أن الدنيا هي الحياة الحقيقية، ومن ثم أقاموا مقاييسهم على هذا المعيار المنحرف.

وإن من وقع في هذه الأوحال لجدير بأن يُعرض عنه . كما أعرض هو عن حقيقتي العلم والحياة؛ لأنه سقيم، ومرضه خطير، فمثله كمثل الأجر، و"قر من المجذوم فرارك من الأسد" نعم، إن في عقله جرباً، وإن في قلبه جذماً، انظر إليه بنور الله ﷻ تراه كذلك (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {١١}).

❖ العلم والقصد

يقف قلبي مع كلمتين في هذه الآيات:

الأولى: (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَفْسُسُ) كشفت هذه الآية عن أخطر داء يُصاب به الإنسان، إنه داء الانحراف، انحراف العلم والقصد؛ فأفة العلم الظن، وآفة القصد الهوى. وإذا أصيب إنسان بهذا الداء أو تفتّى في أمة، فإن بُرءها لا يُرجى.

ومنذ مطلع السورة، ونحن نرى القرآن يشن حرباً على هذين الداعين. بدءاً بقوله (مَا ضَلَّ صَالِحُكُمْ وَمَا غَوَىٰ {٢})، فهو ينزه رسوله ﷺ من ضلال العلم، أو غواية المقصد، ومن ثم فالنور الإلهي والهدى الرباني الذي جاء به هو الحق الصحيح القائم على صحة العلم والمقصد، **صحة العلم الذي يدعو الإنسان إلى تلقي الحق من مصدره الصحيح وهو الله ﷻ، وصحة المقصد الذي يُصمّم للإنسان معايبه في التعامل مع الوجود، ويحفظها من الانحراف.** أما الكفار فما دعاهم إلى عبادة غير الله ﷻ إلا هذان الداعان كما في الآية، وكما جاء بعد ذلك (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)، وهذا انحراف العلم. (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {١١})، وهذا انحراف المقصد.

إذا عرفت هذه الجملة أدركت أن مهمة الأنبياء وورثتهم في الأرض هي حمل البشرية على صحة العلم بالتعليم، وعلى صحة المقصد بالتركية، قال تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة ١٥١]، وأمة الرسالة اليوم مهمتها في الأرض تصحيح العلم والمقصد، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه، فأمتنا أصبح علمها ظنوناً وتخريصاً، وأصبحت مقاصدها أهواء وأماني وشهوات ورغبات معلقة بغير الله ﷻ، فأين هذه الأمة التي أخرجت للناس؟! [وفي ذلك أقول:]

أهم الذين تخبطوا بضلالة
ركبوا حمار الجهل في الظلماء؟!

أهم الذين نسوا إلهاً خالقاً
وتهافتوا في وهدة الأهواء؟!

إن الأمل معقود بتلك الفئة التي تنطلق متمردة على الأعراف الضالة المنحرفة، تنطلق رافضة التقليد الأعمى، تنطلق سامقة لتنهل من ذلك المنهل الذي جاء به رسول الله ﷺ صافيا نقيًا (إني تارك فيكم . ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما) (١)، وتنطلق في البشرية لتؤدي هاتين المهمتين: تصحيح العلم القائم على الحق، وتصحيح المقصد القائم على هدى الله ﷻ.

❖ حقيقة الإعراض

الثانية: (فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا)، فما معنى الإعراض؟ وكيف يتحقق؟ وهل هو واجب؟ وهل الأمر ما زال ساريا أو أنه منسوخ؟

لا تزيد كتب اللغة على القول بأن الإعراض هو الصد والتولي، وهو مأخوذ من العارض، فإذا أعرضت عن الشخص: صددت بوجهك عنه ووليته عارضك. و(الإعراض) في القرآن الكريم يدور حول التولي والصد والهجر والترك، فكلها بمعنى. والإعراض يعني التولي بالحواس عن أداء وظائفها وتعطيلها، كما هو حال الكفار {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [فصلت ٤]، {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف ١٠٥]، {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه ١٢٤]. إذن فهؤلاء حالوا بين الحواس وبين وظائفها تماما - وهذا هو الإعراض، إذن فالإعراض هو الانصراف التام بالشيء عما هو له.

فكما انصرف هؤلاء بحواسهم عما خلقت له. وهو إعراض مذموم؛ نظراً لما تعلق به. فإن جزاءهم أن يعرض عنهم المؤمنون، وينصرفوا انصرافا تاما عنهم. فالإعراض الذي أمر به رسوله ﷺ في الآية هو الانصراف التام عنهم {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر ٩٤]، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف ١٩٩]، {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام ٦٨].

إن الإعراض هو أن ينصرف الإنسان بكل ما يُقبل به، فالإنسان يقابل الإنسان بالبشر والمودة والسلام... الخ، والإعراض أن يطوي هذه الأمور عند مقابلة من يعرض عنه فلا يشتر ولا مودة ولا سلام. هذا هو مفهوم الإعراض، وهذا ما فهمه الرعيل الأول كما في قصة أسماء رضي الله عنها عندما جاءت أمها تزورها وتهديها هدية فرفضت حتى أنزل الله ﷻ - بيانا

(١) رواه أحمد (١٠٦٨١)، والترمذي (٣٧٢٠)، من حديث زيد بن أرقم، وصححه الألباني.

وتوضيحا {لَا يَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُحَرِّجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨]. أما من عداهم فلا برّ بهم، ولا احترام لهم، ولهذا جاء في الحديث^(١) النهي عن بدء الكفار بالسلام، والأمر بالجائهم إلى أضييق الطريق... الخ.

وفوق ذلك فالإعراض يعني حرمة موالاتهم ومناصرتهم وممالئتهم ومحبتهم وتمني الخير لهم ما داموا على حالهم، ومع هذا كله . يبقى واجبنا تجاههم وهو الدعوة فلا منافاة بين الدعوة والإعراض، فتظل تدعوهم إلى الحق، وأنت معرض عنهم وعن باطلهم، قال سيد قطب: "يجب الإعراض عن يتولى عن ذكر الله ﷻ، ويقف عند حدود الدنيا، الإعراض على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل في غير موضعه، والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه"^(٢).

ويقول بعض المفسرين بأن الآية منسوخة بآية السيف، ولكنني لا أجد مساعا لهذا القول، فطالما بقي الكفر وجب الإعراض، مع التأكيد على أنه لا منافاة بين الدعوة والإعراض، بل بين الجهاد بالسيف والإعراض، فكلّ له جانبه، ادعهم وأعرض عنهم، بل ولو جاهدتهم لظل إعراض القلب والفكر عنهم مستمرا، فما الذي نسخ إذن؟!

المحور الثالث: هل يستويان مثلا؟ [من آية: ٣١ إلى آخر السورة]

إذن - كما رأيت - ذلك شأن المعبود الحق وشأن رسله وشأن عبادته، وهذا شأن المعبودات الزائفة وعبادها - وطالما أن هذه المعبودات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملكه لعابديها؟! فالذي يملك النفع والضرر والجزاء هو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وما فيهن، فيجازي المحسن بإحسانه، ويجازي المسيء بإساءته {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيُكْفُرْ} [الكهف: ٢٩].

وما يجب أن نفقهه أن المحسن قد يزل ويخطئ فيعصي ربه، وقد يرتكب كبيرة في حق مولاه، ولكنه سرعان ما يلجأ إلى واسع المغفرة فيتوب عليه. ففي الآيات تلمح الضعف الإنساني وصراع الإنسان في هذه الحياة مع أعداء كُثُر، ومن هذا صراعه مع الخطيئة، فهو يزل، وذلك ضعف، والله ﷻ هو الذي خلق الإنسان وهو أعلم به، وهو يعلم طبيعته، ولهذا فمن رحمته أن فتح باب التوبة لهذا الإنسان ما دام في الدنيا. فعلى الرغم من أن الجزاء وفق

(١) رواه أبو داود (٤٥٢٩)، من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني.

(٢) في ظلال القرآن، تفسير سورة النجم.

العمل، وأن كل عمل يعمله الإنسان يُجازى عليه، إلا أن الله برحمته قد جعل فرصة للإنسان إذا عمل شيئاً أن يبادر فيتوب، فيغفر الله ﷻ له زلته، ويرفع عنه عقاب العمل، ويسامحه.

والتأمل في الآيات يرينا أن الناس فريقان: الأول فريق الهداية، والثاني فريق الضلالة (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ {٣٠})، أما فريق الهداية فهؤلاء هم المحسنون الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ألموا بشيء منها تابوا إلى ربهم ورجعوا (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَكَمِ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ {٣٥}) أولئك جزاؤهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {٣٦}) [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

❖ أسباب ضلال الضالين

وأما فريق الضلالة فهم الذين أساءوا في حياتهم، أساءوا في فهم الحياة وحقيقتها، وأساءوا في التعرف على خالقهم وعبادته، وأساءوا في التعامل مع الدين. إن صفة هؤلاء البارزة هي التولي والإعراض عن الحق وعن أهله، وإذا أعطوا قليلاً وأقبلوا. فعضاؤهم قليل، وإقبالهم كبير، سرعان ما ينقلب على عقبيه، ويرتد إلى نكوصه وتولييه، (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ {٣٠} وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ {٣٥})، وضلال هؤلاء . كما تبين الآيات . مردّه إلى ثلاثة أمور:

الأول: الجهل بالغيب. والغيب هي الحقائق التي يراها قلب المؤمن، ولا تراها عينه إلا بعد قلبه، سواء أكانت في الدنيا كالإيمان بقضاء الله ﷻ وقدره، والإيمان بوعدده ووعيده، أو في الآخرة كالإيمان بالبرزخ وما فيه وما وراءه من أهوال عظام، ثم حساب يتبعه ثواب وكرامة أو عقاب ومهانة. فجهل الإنسان بهذا الغيب يُرديه ويشقيه. وسبيل معرفة هذه الغيوب هو عالم الغيب والشهادة، وهو الذي على كل شيء شهيد، ولو كان عند الإنسان هذا العلم . كأنه يراه رأي العين . لما كذب وتولى، ولما أعرض وأدبر، (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ {٣٥}).

الثاني: التخلي عن المسؤولية. والمسؤولية هي الأمانة التي حملها الإنسان، وقد أعرضت عنها السماوات والأرض والجبال (فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب: ٧٢]، ظلوماً لنفسه حين يحمل الأمانة ثم ينكص عنها ويتخلى ويتولى، وجهولاً يجهل ما وراءه من تبعات ويجهل **قوانين الأمانة الخمسة الكبرى**، وهي:

١. (أَلَا تَرَىٰ وَازِرَةً وَّرَزْرًا أُخْرَىٰ {٣٨})، فكل نفس تحمل وزرها وذنبيها، ولا يؤاخذ الله ﴿﴾ بذنبيها نفساً أُخرى، فلا أحد يحمل وزر غيره.
 ٢. (وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ {٣٩})، فالإنسان في الدنيا سيعيش ثم يخرج منها، ولا يرحل معه إلا سعيه الذي سعاه في الدنيا. والآية تفيد مفهومين، الأول: أن الإنسان لا يملك إلا عمله، فكل ممتلكات الإنسان تعود سراياً، تقنى وتبلى، ولا يبقى معه إلا ممتلك واحد، وهو العمل. يبقى معه أينما ذهب، في دنياه وفي قبره وفي آخرته، فالعمل هو الذخر الحقيقي، وهو الكنز الباقي، فلينظر الإنسان ماذا يدخر لنفسه؟! والثاني: لا أحد يستطيع أن يسعى بدل غيره، فكل إنسان يسعى لنفسه فقط، ولا يملك أن يعطي غيره شيئاً من سعيه^(١).
 ٣. (وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ {٤٠})، نعم. لا يذهب سعي الإنسان هدراً بل كل ما يعمله سيراه رأي العين، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا يمكن أن يعمل الإنسان شيئاً ثم يضيع هذا العمل، (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ {الأنبياء ٤٧}).
 ٤. (ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءُ الْاَوْفَىٰ {٤١})، وهذه خلاصة القوانين، فالإنسان سيسعى ولا بد أن يجازى على سعيه؛ إن حسناً فحسنى، وإن سوءاً فسوأى، يجازى جزاء وأفياً تاماً عند عدلٍ لا يظلم أحداً، ولكن من الذي يجازيه؟ هذا ما تفصح عنه الآية الخامسة.
 ٥. (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمَتَّهَىٰ {٤٢})، فالمجازى هو الله ﴿﴾ الذي ترجع إليه البشرية كلها، ويحاسبهم على أعمالهم.
- هذه الحقائق الخمس هي الحق المبين الذي نطقت به صحف إبراهيم وموسى الصحيحة، ثم جاء القرآن فأفصح عنها كل الإفصاح. وجهل الإنسان بها يجعله يتخلى عن مسئوليته ويضيعها ويفرط فيها فيتولى عنها، ولكن إعراضه عنها ونكوصه عن تحملها لن يفيد شيئاً، فهي منوطة به. شاء أم أبى، "لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن علمه ما فعل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه"^(٢).

(١) لا علاقة لهذه الحقيقة بخلاف الفقهاء المعروف، وهو: هل يصح تقرب الإنسان عن غيره؟ فتلك تتعلق ببعض القربات الفرعية، أما الأصل فلا، كقضايا الإيمان والواجبات.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤١)، والدارمي (٥٣٦)، من حديث أبي برزة الأسلمي، وصححه الألباني

الثالث: الجهل بحقيقة الرب والآئه

نتيجة لجهل الناس بحقيقة الرب المعبود؛ فإنهم يقعون في الضلال - حيث يتجهون إلى غيره راغبين أو راهبين، عابدين أو طائعين، ولو أنهم نظروا ببصائرهم إلى آلاء الله ﷻ التدميرية والتدميرية لما تماروا فيها، ولأذعنوا له وحده بالعبادة (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى {٥٠})، والآيات تشير إلى نوعين من آلاء الله ﷻ:

الأول: الآلاء التدميرية

وبها يتم تدبير الكون بما فيه ومن فيه، وأفعال التدبير قد أفاض القرآن في الحديث عنها، كما في سورة الأعراف ويونس وغيرها قال تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. وسورة النجم بينت بعض هذه الأفعال، فالله ﷻ بيده الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء، والإغناء والإقناء، وتسخير النجوم ورعايتها، كالشعري (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى {٥٣} وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا {٥٤}) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى {٥٤})^(١)، فهذه الأفعال كلها بيد الله ﷻ. والإنسان يرى هذه الآلاء في كل لحظة ولفظة، فما الذي يمنعه من الإيمان؟!

فيا عجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟!
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الثاني: الآلاء التدميرية

وتظهر هذه الآلاء في الإفناء الذي يُهلك الله ﷻ به العصاة، وينتقم به من الطغاة، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، لا يردده عنهم شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، والتدمير هو نوع من التدبير؛ لأنه إزالة العناصر البشرية التي لا تصلح

(١) آيتا ٤٥، ٤٦ من السورة (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى) فيهما دلالة واضحة على أن المسئول عن تحديد جنس الجنين هو النطفة حال إيمانها، فالبيضة دائما تحمل كروسوم (x)، أما النطفة فقد تحمل كروسوم (x)، أو (y)، والخلية المتكونة التي تحدد جنس الجنين، إذا كانت (xx) فالجنين أنثى، وإذا كانت (xy) فالجنين ذكر. وهذه الخلية المتكونة تسمى الزيجوت، وهي النطفة الأمشاج. والبشرية لم تكتشف هذه الحقيقة إلا في أوائل القرن العشرين بعد اكتشاف المجهر. والمعلومة السائدة من قبل - تبعا لأرسطو ومن تابعه - أن الحيض هو المسئول عن ذلك!!

للحياة، فبأخذها الله ﷻ أخذاً شديداً، كما حصل لقوم نوح وعاد وشمود، قال تعالى (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ... فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ {٥٤}).

وإذا كانت الآلاء التدميرية هي مقتضى ربوبية الله ﷻ. فالرب يدبر الأمور {الآلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤]. فإن الآلاء التدميرية يستوجبها ظلم الإنسان وطغيانه، فالظلم والطغيان من الإنسان يستوجبان من الله ﷻ التدمير والإهلاك، ولهذا قال تعالى بعد أن ذكر إهلاك عاد وشمود وقوم نوح (إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ {٥٤})، وقد سبق الحديث مفصلاً في سورة (اقرأ).

وبعد أن وصل الخطاب القرآني بالإنسان إلى هذه المرحلة، وتبين له ضلال من يتخذ من دون الله ﷻ معبودات يذعن لها ويستسلم، وأن هذا الضلال مرده إلى جهل الإنسان وظلمه، وأن هذا الظلم يستوجب عقاب الله ﷻ - تعلن الآيات القرآنية في صراحة ووضوح خطورة هذه القضية، فالنذير قد أتى، والقيامة قد دنت، والقوم سادرون في غيهم، لا يرتدعون من رادع، ولا ينزجرون لزاجر، ولا يُنْجِي البشرية من عقاب الله ﷻ وتبأبه إلا السجود (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوهُ {١٣}). وقد عرفنا مفهوم السجود سابقاً، في سورة المزمل، فلا نعيد القول فيه.

الفصل الثاني: معنى العبودية

عرفنا من خلال السور السابقة: مَنْ المعبود الحق؟ وما صفاته؟ ثم بينت سورة النجم المعبودات التي تعبد من دون الله ﷻ وزيفها، والمرض الذي في قلوب عبّادها وعقولهم. فإذا عرف الإنسان أن الله ﷻ هو المعبود الحق فإنه يتساءل: كيف أعبد؟ وما معنى عبوديتي له؟ والإجابة عن هذا: أن العبودية لها جانبان، جانب يتعلق بالمعرفة التي يتقناها الإنسان، وجانب يتعلق بالسلوك (العطاء) الذي ينتجه الإنسان. وقد جاءت (سورة عبس) ثم (القدر) ثم (الشمس) لتبين المعنى المعرفي للعبودية، ثم جاءت (سورة البروج) لتبين المعنى السلوكي للعبودية.

(أ) المعنى المعرفي للعبودية

إن عبودية الإنسان لله ﷻ تقتضي منه أن يتلقى معارفه منه، والمعرفة لها ثلاثة جوانب: القيم والمنهج وأسس العلاقات، إذن فعبودية الإنسان لربه تقتضي أن يستمد منه . وحده . القيم (وهذا موضوع سورة عبس)، والمنهج (وهذا موضوع سورة القدر)، وأسس العلاقات - أي علاقات الإنسان بغيره من المخلوقات (وهذا موضوع سورة الشمس). ويجب أن ندرك أمراً في غاية الأهمية وهو أن الإنسان عندما يستمد معارفه من غير الله ﷻ فإنما يعلن بذلك عبوديته له.

أولاً: استمداد القيم من المعبود (سورة عبس)

أول شيء يلزم الإنسان إذ أقر بعبوديته لله ﷻ - أن يفصل من كافة الرواسب التي استقرت فيه، وأن يغلق كافة القنوات التي اتصل بها - ليتصل بقناة واحدة فقط هي التي تملئ عليه الصحيح من الخطأ، وترية الميزان الصائب في مقياس الحياة ووزن الناس، إن رواسب الباطل وقنوات العرف والتقليد والعصبية والقومية و... و... قد أقرت للناس قيما ومبادئ ومعايير للصواب والخطأ، ومقاييس للتفاضل والتفاوت - وكل هذه القيم المبادئ والمعايير أرضية دونية، لا تغنى من الحق شيئاً؛ لأنها معايير شوهاء، وقيم بترء، ومبادئ قاصرة، تجعل من العالي سفلاً ومن السافل علواً، وتجعل من الحق باطلاً ومن الصواب خطأً، وتحل محل الفضيلة الرذيلة، ومحل الطهر الفحش، ويصبح الكذاب صدوقاً والخائن أميناً، ويرى الناس بها المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

وطالما بقي الناس أسرى هذه الرواسب والقنوات - فإن الحياة لا تستقيم، وخلافة الإنسان لا تتحقق، وكرامة الإنسان تنهشها ذئاب من المبادئ الوضيعة، وتسحقها وحوش من القيم الحقيرة. وعليه فأول واجب يلزم الإنسان في عبادة ربه أن يعلن مفاصلة لكل تلك القيم والمبادئ المنحرفة، ويعلنها (لا أعبدُ ما تعبدون {٢})، (ولا أنا عابدٌ ما عبدتم {٣}) - ويفتح كيانه وروحه وعقله لقيم السماء فقط.

ولتقرير هذا المعنى نزلت سورة عبس مبتدئة بعتاب رقيق لرسول الله ﷺ، ومن خلال هذا العتاب تم تقرير هذا المعنى، وهو وجوب استمداد القيم ومعايير الصواب والخطأ ومقاييس المفاضلة في حياة الناس من الله ﷻ، ثم بينت السورة أن الإنسان نفسه منبثق من صنع الله ﷻ، وأن مقومات حياته من غذاء وماء انبثقت من صنع الله ﷻ، وأن مرده إلى الله ﷻ - فكيف لا تنبثق قيمه من عند الله ﷻ؟ فمصدر وجود الإنسان ووجود مقوماته هو مصدر تقرير القيم والمبادئ.

عتاب رقيق [من آية: ١ إلى ١٢]

كلنا يعرف سبب نزول هذه السورة وارتباطها بالأعمى ابن أم مكتوم، ونحن ننفذ إلى ما وراء القصة لنستشف القيم الكامنة، والدروس الصامتة، "إن الناس يعيشون في الأرض ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى، كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم، وهم يتعاملون بقيم أخرى فيها النسب، وفيها القوة، وفيها المال، وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه

القيم من ارتباطات عملية، اقتصادية وغير اقتصادية تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم لبعض، فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض، ثم يجئ الإسلام ليقول {لَنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ} [الحجرات ١٣]، فيضرب صفحا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، العنيفة الضغط على مشاعرهم، الشديدة الجاذبية إلى الأرض، ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء، المعترف بها وحدها في ميزان السماء^١.

نجد عتابا شديدا لرسول الله ﷺ؛ جراء انشغاله عن دعوة مسكين فقير أعمى، جاء ليقول له: علمني مما علمك الله ﷻ - فكره رسول الله ﷺ مجيئه وأعرض عنه، لا لشيء إنما طمعا في إسلام الأكاير من قريش، حيث شعر بأن هذا الأعمى سيعطله عن دعوة أولئك. وخيوط القصة تبدأ من أن المجتمعات تُولى الطبقة العليا فيها - طبقة الأغنياء والنفوذ السياسي والإعلامي - توليها اهتمامها الخاص، {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} [المنافقون ٤]، يبجلهم الناس ويعظمونهم، لا حديث للناس إلا حديثهم، ولا متابعات لهم إلا أخبارهم - وعلى الضفة الأخرى فقير لا يؤبه له، ومسكين لا يلتفت إليه، وضعيف لا تُرعى حقوقه.... الخ. ومنشأ الخلل من فساد التصور، فمتى كان الإنسان أرقى خلقا من أخيه الإنسان وقد نسلا من رحمة واحدة؟!

نسي الطين . ساعة . أنه طينٌ (م) حقيِرٌ . فصال تيهأ وعريدٌ
وكسا الخُرُّ جسمه فتباهى وحوى المال كيُسُه فتمردٌ
يا أخي لا تملُ بوجهك عني ما أنا فحمةٌ ولا أنت فرقدٌ

فقيم الناس إلى زوال وبوار، ودعوة الله ﷻ يجب أن تصل إلى عبيد الله ﷻ جميعا دون تفضل، وليستيقن الناس أن فروق الجنس والمال والقوة والنسب والمنصب إنما هي فروق هامشية، ومتغيرات ثانوية، يستوي الإنسان فيها مع الحيوان، وأن الفرق الأساسي الذي يتمايز به الناس ويتفاضلون يعود إلى القيم السماوية التي يحملها، ويضحى من أجلها.

من هنا عوتب رسول الله ﷺ حيث انشغل عن مسكين فقير أعمى، مؤثرا أكابر قريش، فقال الله ﷻ له {وَمَا يُدْرِيكَ لِمَ لَا يَرْكَبُ} {٢} أَوْ يَدَّكُرُ فَتَنْفَعَهُ الدَّكْرُ} {١}. أفتمنع عنه التزكية أم تحجب عنه الذكرى؟ فهو جاء طالبا راغبا - {أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى} {ه} فأنت له تَصَدَّقْ} {١} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ} {٧}، ما بالك يا محمد تتصدى بدعوتك لمن استغنى عنها؟ وحجبه منصبه ومكانته من أن يرى الحق، فما عليك ألا يؤمن، وقد بلغته الدعوة، ولكن كيف تتشغل عن من جاءك يسعى؟! كلا إن الأمر جد خطير، وإن الإسلام لم يأت ليتغاضى عن

^١ في ظلال القرآن، ٦/٣٨٢٣-٣٨٢٤.

مبادئ الجاهلية المنحرفة. كلا، إنما جاء ليصحح معايير الصواب والخطأ للناس، فهي تذكرة، (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ {٣})، حتى ينتفع بالذكرى لنفسه.

مكانة هذه القيم [من آية: ١٣ إلى: ١٦]

تتبين مكانة الشيء إذا عُرف محلّه، وهذه القيم هي قيم كريمة رفيعة مطهرة، ذلك أن محلها (في صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ {٣} مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ {٤})، فانصفت بثلاث صفات، الأولى: كرامتها، فلم تحقرها أهواء الناس. والثانية: رفعتها، فقد جاءت من عند العلي الغفار، ولم تنبعث من الأرض. والثالثة: طهرها فهي مصنونة عن كل دنس، بعيدة عن كل خَبَثٍ، وفوق ذلك فإنها محفوظة (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ {٥} كِرَامٍ بَرَرَةٍ {٦}).

إن أي قيمة لا تحمل هذه الصفات الثلاث فهي مرفوضة ومردودة على أصحابها، إن قيم الفروق الجنسية أو الإقليمية أو القومية - قيم حقيرة يتعالى بها الناس بعضهم على بعض، وضيعة منشأها من الأرض، خبيثة، قد تندست برغبات النفوس المريضة، والأهواء السقيمة. وكذلك قل في سائر قيم الأرض التي تتسم بالحقارة والوضاعة والنجاسة.

ويجب أن نكون صرحاء مع الناس، فكل من احتفى بقيمة من هذه القيم الأرضية - فإنما يعلن عن حقارته ووضاعته هو أيضاً، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهنٍ أبية ولا تكنوا"^(١)، وواجه رسول الله ﷺ صاحبه العظيم أبا ذر ﷺ عندما احتفى بهذه القيم في لحظة ضعف، فقال له رسول الله ﷺ: "إنك امرؤ فيك جاهلية"^(٢).

وعلى هذه القيم السماوية يجب أن يتربى الناس، ومن أعلن إسلامه فيجب أن يذعن لقيم ربه، وينبذ قيم العصبية القومية، ويسحق قيم المال والنسب والحسب، ويسخر من قيم القوة والجاه - وليعلم بأنها كلها عناصر اختلاف بين الناس؛ لإقامة الحياة، ولتعارف البشر، وتبادل المنافع بينهم قال تعالى ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُحْرِيًّا﴾ [الزخرف ٣٢].

(١) رواه أحمد (٢٠٢٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٥٣٣)، من حديث أبي بن كعب، وصححه الألباني. وقوله (يتعزى بعزاء أهل الجاهلية)، ينتسب إليها وينتمي لها، وينادي بمرورها، كأن يقول يفلان، أو لكذا من أمور الجاهلية. و(أعضوه بهن أبية)، أي: قولوا له: اعضض سواة أبيك، كناية عن الشتم والسب، (ولا تكنوا): أي قولوها بصراحة دون تعريض. وهذا كناية عن الذم البالغ لمن تعزى بعزاء الجاهلية. وقيل أن معناه: من انتسب وانتمى إلى الجاهلية بإحياء سنة أهلها واتباع سبيلهم في الشتم واللعن والتعبير ومواجهتكم بالمنكر فاذكروا له قبائح آبائه من عبادة الأصنام وشرب الخمر وغيرهما صريحا لا كناية ليرتدع به عن التعرض للأعراض.

(٢) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٣١٣٩)، من حديث أبي ذر ﷺ.

وحدة المصدر والمرجع [من آية: ١٧ إلى آخرها]

تبين آيات السورة أن المصدر الذي ينبثق منه كل شيء، ويرجع إليه كل شيء واحد، وتقدم الدليل على ذلك. وعليه فمن الطبيعي أن يستمد الإنسان قيمه ومبادئه وموجهات حياته من ذلك المصدر؛ حتى يتفق مع فطرته، ويتلاءم مع الكون من حوله، وإلا فهو النشاز القبيح الذي يطلق عليه القرآن وصف (الكفرة الفجرة). وتقدم الآيات ثلاثة أدلة لبيان هذه الوحدة:

١. الله الذي خلق الإنسان

{قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ} {٣} مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ} {٤} مِنْ تُطْفَةِ خَلْقِهِ فَقَدَرَهُ} {٥} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ} {٦} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} {٧} ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} {٨} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} {٩}، لم يكن هذا الإنسان شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله ﷻ ونفخ فيه من روحه فإذا به بشراً سوياً، وليس لشيء أن يوجد الإنسان، فقد كان نطفة حقيرة، لا حياة فيها، فخلقه الله ﷻ منها، وقدر له ما ينال في حياته من رزق ومال وجاه وسعادة، ثم يأتي أجله - ثم أخرجته إلى الحياة وقد رسمها له، ووضع الخطة التي سيحيا في ضوئها، ويسره هذا السبيل (ثمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} {٧} ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} {٨}، فلمْ لم يقض الإنسان ما أمره ربه من عبوديته، فيستمد قيمه ومبادئه منه، كما انبثق هو ذاته منه؟!]

٢. الله الذي خلق طعام الإنسان ورزقه

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} {١٤} ... مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} {١٥}، لا يد للإنسان، ولا حيلة له في إيجاد رزقه، فألله ﷻ هو الذي خلق الطعام. وكما يترعرع الإنسان حتى يستوي، فكذلك يترعرع النبات حتى ينضج، والله ﷻ هو الذي يريعى ويسقى ويشق الأرض، ثم يخرج زرعها فيكون متاعاً للإنسان ولأنعامه التي ينتفع بها في حياته. إذن فالله ﷻ هو الذي أعطى الإنسان مقومات حياته.

وتأمل الضمائر في الدليل الأول "خلقه فقدره، يسره، أماته، فأقبره، شاء، أنشره، أمره". فكلها ضمائر غائبة تعود إلى الله ﷻ، بينما في الدليل الثاني "أنا، صبينا، شققنا، فأنبئتنا". فكلها ضمائر العظمة يتكلم الله فيها عن نفسه. ولعل السر - والله أعلم - أن الإنسان الكفور

(١) في الآية (١٩) إعجاز علمي، حيث يقسم علم الأجنة الحديث طور النطفة إلى مرحلتين: الأولى مرحلة الخلق، حيث يخلق الإنسان باتحاد الحوين المنوي مع البويضة، فتتكون خلية إنسانية كاملة تحتوي (٤٦) كروسوما حامل وراثي. ثم تأتي المرحلة الثانية، وهي مرحلة التقدير، وتعرف عند علماء الأجنة بالبرمجة الجينية، وفيها تتحدد الصفات التي تسود في الجنين الذي خلق، كما تتحدد الصفات الوراثية التي ستتحقق على الجنين، وقد تظهر في أحفاده. إذن الخلق أولاً، فالتقدير ثانياً، وتستغرق العمليتان أقل من (٣٠) ساعة. وهذا واضح في إشارة الآية، واستخدام حرف الفاء الذي يفيد التعقيب (خلقه فقدره). [ينظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، لمجموعة من العلماء، ص ١٨٨].

يُغَيَّبُ اللهُ عَنْ حَيَاتِهِ، وَيَرْفُضُ وُجُودَهُ، حَتَّى وَلَوْ أَقْرَبَ بِهِ فَإِنَّهُ بَانْصِرَافِهِ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَاسْتِمْدَادِهِ قِيمَهُ مِنْ غَيْرِهِ، يَعلَنُ أَنَّ رَبَّهُ غَائِبٌ، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ، لِيُكشِفَ دَخِيلَةَ هَذَا الْإِنْسَانِ، وَهَذَا بِخِلَافِ الطَّعَامِ حَيْثُ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالْحَضُورِ؛ لِأَنَّ الْعَنْصَرَ الشَّاذِ فِي هَذَا الْوُجُودِ إِنَّمَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ فَقَطْ، وَأَمَّا مِنْ عَدَاهُ فَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﷻ {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء ٤٤].

٣. الله مرجع الخلائق جميعاً

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّالِحَةُ} ٣٠} ... أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ} ٤٢}،) الصَّخَّ، هُوَ: الضَّرْبُ بِشَيْءٍ صَلَبٌ عَلَى مُصَمَّتٍ، وَالصَّاخَةُ، هِيَ: الصَّيْحَةُ الَّتِي تُصَمُّ لِشِدَّتِهَا، وَمَجِيءُ لَفْظِ (الصَّاخَةُ) فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِيهِ إِيحَاءٌ بِالْوَاقِعِ الْمُنْتَجِرِ الَّذِي يَحْيَاهُ أَوْلَئِكَ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ - وَهُمْ مَنْ يَسْتَمْدُونَ قِيمَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ. فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ السُّورَةَ قَدْ بَيَّنَّتِ الْحَقَّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَدَلَّلَتْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَتَزَحَّزِحُونَ عَنْ بَاطِلِهِمْ، كَالصَّخْرِ الْجَامِدِ - وَلِهَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِلَّا طَرَقٌ شَدِيدٌ يَفْتَتِ هَذِهِ الصَّخُورَ، وَيَكْسِرُ تَصَلِبَهَا، وَعِنْدَ ذَلِكَ سَيَنْسِي الْإِنْسَانُ عَجْرَفَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ، وَيَفِرُّ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، حَتَّى لَا يَفْتَضِحَ أَمَامَهُمْ بِالْخِزْيِ الَّذِي يَتَجَرَّعُهُ، وَحَتَّى لَا يُظْهَرَ لَهُمُ الذَّلَّةُ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا، هَؤُلَاءِ وَجُوهُهُمْ (يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ} ٤٠} تَرَهَّقَهَا قَتْرَةٌ} ٤١}،) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ﷻ وَاسْتَمْدُوا قِيمَهُمْ مِنْهُ، فَوَجُوهُهُمْ (يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ} ٣٨} صَاحِكَةٌ مُسْتَسْرَةٌ} ٣٩}.

وبعد أن تبين لك أيها الإنسان أن ذاتك انبثقت من صنع الله ﷻ، وأن مقومات حياتك من طعام ورزق وهواء... انبثقت من صنع الله ﷻ، وأن مردك إلى الله ﷻ - فكيف لا تنبثق قيمك من عند الله ﷻ!؟

ألا إن تَمرَدَ الْإِنْسَانِ عَلَى رَبِّهِ هُوَ الْكُفْرُ، وَإِنَّ قَلَّةَ حَيَاتِهِ . حَيْثُ يَأْكُلُ وَيَكْفُرُ . هُوَ الْفَجُورُ (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ} ٤٢}).

ثانياً: استمداد المنهج منه (سورة القدر)

المنهج هو كل ما يصوغ شخصية الإنسان، ويوجه سلوكه في هذه الحياة، ويضع له الأطر التي يتحرك في ضوئها، وعلى هذا تسمو أهداف الإنسان، وتتضح شخصيته على قدر سمو المنهج، وتتخط شخصية الإنسان وتصبح مسخاً إذا كان المنهج منحطاً.

ولأن الله ﷻ خلق الإنسان وكرمه؛ فقد وضع له منهجاً سامياً يسعى بالإنسان إلى الكمال، ويحقق الأهداف التي خلق الإنسان من أجلها، والإنسان لا يكون عابداً لله ﷻ إلا إذا توجه إليه واستمد منهجه منه، وترك كل منهج يأتي من عند غير الله ﷻ؛ لأن المناهج البشرية يشوبها النقص والضعف والاضطراب قال تعالى {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

جاءت سورة القدر بعد سورة عبس؛ لتبين للناس أن المعنى المعرفي الثاني للعبودية هو أن يستمد الإنسان منهجه من الله ﷻ - كما استمد قيمه ومبادئه منه. وإذ تبين سلفاً أن كرامة القيم تأتي من كرامة المحل الرفيع الذي حُفظت فيه، فإن سورة القدر تبين أن كرامة المنهج تأتي من ناحيتين:

الأولى: كرامة المكان، فهو منهج سماوي نزل من السماء، أنزله الله ﷻ. إذن فهو ليس منبعثاً من الأرض، بل هو نازل من أعلى إلى الإنسان، ونزوله يحمل دلالة المكانة العظمى التي يتبوأها.

الثانية: كرامة الزمن الذي نزل فيه، فالله ﷻ أنزله في ليلة القدر، وهي ليلة قَدَرها عظيم عند الله ﷻ (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟)؛ هذه الليلة هي أعظم ليلة في السنة، في أعظم شهر في السنة، وهي ليلة الخير والبركة والسلام، فهي (حَيَّرَ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)، وهي ليلة مباركة (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)، وهي ليلة السلام (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ).

هذه الصفات الثلاث تنعكس بدورها على المنهج المنزل فهو خير من كل المناهج التي دونه، وفيه البركة والنماء لمن اتبعه في الدنيا والآخرة، وهو السلام الذي يحل على الأرض وعلى أهلها جميعاً.

ثالثاً: استمداد أسس العلاقات منه (سورة الشمس)

بداية نلاحظ أن هذه السورة ابتدأت بسبعة أقسام، شكلت تقريبا نسبة خمسين في المائة من آيات السورة، وهذا لا يوجد في سورة أخرى. وهذه الأشياء التي أقسم الله ﷻ بها تصنف في أربعة حقول: الحقل الطبيعي (الشمس، القمر)، والحقل الزماني (الليل، النهار)^(١)، والحقل المكاني (السماء، الأرض)، والحقل الإنساني (النفس).

والحقول الثلاثة الأولى جمعت بين المتضادات؛ إشارة إلى استيعاب ما عداها مما هو في الحقل نفسه. وهي دعوة للإنسان حتى يجعل علاقاته مع هذه الأشياء قائمة على أسس تسخيرها، والانتفاع بها، من خلال فقه القوانين التي تهيب الانتفاع بها. وهذه الحقول تمثل ثلاث آيات عظمى، الأولى: آيات الآفاق، المتمثلة في الطبيعة والمكان، الثانية: آيات المجتمع وتاريخه، المتمثلة في تعاقب الليل والنهار، الثالثة: آيات النفس.

وإنسان مأمور بإقامة علاقاته مع هذه الثلاث الآيات وفق ما نصب له من دلائل ترشده إلى التعامل الصحيح. هذه الدلائل تتمثل في ثلاثة جوانب، الأول: ما ألهمه الله ﷻ في نفسه، وما خلق فيه من وسائل المعرفة، قال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]. الثاني: الآيات المنصوبة في الآفاق والمجتمع والنفوس، قال تعالى: {سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أُنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣]. الثالث: الآيات التي أنزلها الله ﷻ، وأرسل بها رسله، والتي جاءت تذكر الناس بما ينبغي أن يكونوا عليه، كما قال تعالى: (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ ﴿٢﴾) [عبس: ١١-١٢].

(١) في قوله تعالى (والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها) إعجاز علمي، فالأصل أن النهار موجود دائما، إذ إن أشعة الشمس دائمة الانبعاث، وأما الليل فيحس باحتجاب ضوء الشمس عن نصف كرة الأرض، نتيجة لدورانها حول نفسها، فلا يصل الضوء إلى سطحها المعاكس للشمس فيكون الليل. والآية صريحة أن الليل هو الذي يغشى الأرض، والشمس تجليها عن هذه الغشبية. وهذا ما يفاد من قوله تعالى أيضا: "والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى" [الليل: ١-٢]، وقوله: "يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا" [الأعراف: ٥٤].

وخاصة هذا أن الآيات تدعو الإنسان إلى أن يستمدّ أسس علاقاته من الله ﷻ، بحيث تكون علاقاته بما حوله من الكائنات (علاقة تقوى) لا (فجور). وعلاقة التقوى تؤدي إلى التزكية التي مألها الفلام، أما علاقة الفجور فتؤدي إلى التَّدْسيَّة^(١) التي مألها الخيبة، قال تعالى (فَالْهَمَّهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا} {٨} قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} {١} وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} {٢}).

التقوى والفجور

إذن فالتقوى، هي: حسن العلاقة مع الخالق، ومع خلقه، وآياته. وهذا هو المراد بقول الإمام علي ؑ عندما سُئِلَ عن التقوى فقال: "هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل"، فحُسن العلاقة مع الله ﷻ تقوم على الخوف منه، وحُسنها مع الكتاب تقوم على العمل به، وحسنها مع الحياة تقوم على فهمها والسعي فيها والرضا بما كتب الله ﷻ، وحُسنها مع اليوم الآخر تقوم على الاستعداد له.

وقد أفاضت آيات القرآن في الحديث عن التقوى، فهي تبين أن وظيفة الرسل والمنذرين في هذه الأرض هي دعوة الناس إلى التقوى، أي: إلى أن يقيموا علاقاتهم مع الله ﷻ، ومع خلقه، وآياته على أسس قويمية {أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} [النحل ٢]، ودعوة الرسل كانت {أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء ١٠٦، ١٢٤، ١٤٢...])، وهي وصية الله ﷻ لخلقه {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء ١٣١]، {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [البقرة ١٨٧]، فالتقوى . إذن . هي الغاية من بيان الآيات.

❖ التقوى في القرآن هي حسن العلاقة

وحتى ندلل على أن القرآن يعنى بـ (التقوى): حسن العلاقة، فدعونا نعرض بعض

آياته:

١. آيات الآفاق لا يُحسن التعامل معها إلا التقوي، وهذا وصف يعنى أن التقوى أن نُحسن التعامل مع هذه الآيات، قال تعالى: {إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس ٦].

(١) دسّى نفسه تدسية، أي: جعلها خسيصة بالعمل الخبيث.

٢. إن أسس العلاقات الإنسانية القويمة، المتمثلة في العدل والتسامح والوفاء بالعهد والبر والكرم ومراعاة الحرمات . إنها تعني التقوى، كما تنصّ على ذلك الآيات القرآنية: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة:٨]، {وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة:٢٣٧]، {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:٧٦]، {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى} [البقرة:١٨٩]، {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُحْزِنُوا فِي صَيِّفِي} [هود:٧٨]. والإخلال بأي أساس من ذلك فإنما هو فجور {الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ} [الأنفال:٥٦].

٣. وأسس التعامل القويمة مع الأشياء هي تقوى كإتيان البيوت من أبوابها {وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [البقرة:١٨٩]، وتأمل الربط بين التقوى والفلاح.

٤. والتقوى هي التطبيق الصحيح للأحكام والقوانين الشخصية والاجتماعية. ولهذا لو تأملت آيات الأحكام في القرآن الكريم، كالأمر برد الاعتداء، وأحكام الحج، والأمر بإتيان النساء في الحرث، وبأحكام الرضاع، وبحرمة الربا، وبأحكام الدين - لوجدت بعد الأمر غالبا ما يأتي {وَاتَّقُوا اللَّهَ}، ومن ذلك تمتيع المطلقات {وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة:٢٤١]، {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:٣٦]، {وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:١٢٣]، حيث إن التقوى في التعامل مع المحاربين من الكفار هو الرد بالمثل والغلظة عليهم.

٥. وحسن المعاملة مع الله ﷻ، القائمة على الخوف منه والإجلال له، والخضوع له . هي تقوى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} [آل عمران:١٠٢]، {ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج:٣٢].

❖ المتقون وآيات الله

وتكمن أهمية التقوى في أن المتقين فقط هم الذين يهتدون بآيات الله ﷻ، ويتعظون بها، وينذكرون، ومن ثم فهم أهل القبول والبيشارة والكرامة، {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٨]، {وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [الحاقة:٤٨]، {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٨].

الْمُتَّقِينَ} [المائدة ٢٧]، {فَاتِمَا يَسْرَتَاهُ يَلْسَانِك لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم ٩٧]، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات ١٣]، وهم الذين يحظون بمحبة الله ﷻ ومعيته وولايته، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة ٤]، {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة ١٩٤]، {إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ} [الأنفال ٣٤].

ولأن التقوى هي العلاقة الصحيحة مع كل شيء، فإن المتقي يفلح بتقواه في دنياه، فيجعل الله ﷻ له يسرا ورزقا وفرجا وفرقانا.... {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق ٢]، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق ٤]، {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [الأنفال ٢٩]، {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف ٩٦]، والعاقبة والنصرة تكون لهم؛ لأنهم يفقهون قوانين النصر {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه ١٣٢].

كما يفلح في أخراه، {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} [مريم ٦٣]، {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [الليل ١٧]، وهم أصحاب النجاة في الدارين؛ لفهمهم قوانين النجاة، {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الزمر ٦١].

بهذا يتضح أن التقوى في القرآن الكريم هي ما سبق أن ذكرناه، فمفهومها واسع، ومدلولها شامل، يشمل جميع العلاقات، ولا يقتصر على علاقة الإنسان بخالقه فقط، كما يحسب كثير من الناس، إنها تعنى التعامل الصحيح مع كل شيء، وفقه قوانين هذا التعامل.

❖ الفجور نقيض التقوى

أما الفجور فهو على النقيض من ذلك، إذ يعني التعامل الخاطئ، أو عدم فقه قوانين التعامل، أو عدم تطبيقيها، ولهذا لا يستويان {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص ٢٨]، {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة ١٠٩]. وتأمل دقة اللفظ القرآني، فالفاجر يؤسس بنيانه العلاقات على شفا جرف هار، فهو لا يثبت، بل يتزلزل ويتزعزع؛ إذ هو بيان قائم على قواعد هشّة لا أساس لها.

والقرآن يبين طبيعة الإنسان التي تنزع إلى الضعة، والانفلات من التكاليف، وتأسيس البنیان على هشاشة العلاقات - {بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [القيامة:٥]، ولكن طريق الفجور طريق خطير، يهلك صاحبه ويُشقيه في الدنيا، ويرديه ويخزيه في الآخرة، {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ} [المطففين:٧]، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار ١٣-١٤].

من نماذج الفجور

تعرض السورة . بعد بيان أسس علاقة الإنسان مع الكائنات . لنموذج بشري فَجَرَ في علاقته مع آيات الله ﷻ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} {١١} إِذِ ابْنَعْتَ أَشْقَاهَا} {١٣}، فوقف النذير يحذرهم، وقال لهم: (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} {١٣}، ولكنهم لم ينتفعوا بالتحذير؛ لأن علاقتهم مع الآيات قد قامت أساسا على الفجور، فوقعوا في التدسية المتمثلة في عقر الناقة (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا). ولأن علاقة الفجور مألها الخيبة؛ فقد حاقت الخيبة بهؤلاء القوم، حيث فشلوا في أن يحيوا حياة كريمة، فكان الأولى حينئذ بهم أن يُمحوا من الحياة (فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا} {١٤}). وهو مصير شنيع يستحقه كل من فجر في علاقته مع آيات الله ﷻ، ودسى نفسه بهذا الفجور.

(ب) المعنى السلوكي

القيام بدين الله (سورة البروج)

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ {١} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ {٢} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ {٣}).

يقسم الله ﷻ بالسماء، وهي ذات بعد مكاني، واليوم الموعود، وهو ذو بعد زمني. أما السماء فهي السقف العلوي الذي يستمد الإنسان الصالح منه منهجه. كما أوضحت سورة القدر حيث نزل جبريل عليه السلام بالوحي، والقسم بها يؤكد للإنسان الصالح أنه طالما ارتبط بمنهج السماء فهو إنسان سماوي. وأما اليوم الموعود فهو ذلك اليوم الذي ما زال في علم الغيب ولمّا يأت - والإنسان السماوي يراه بعين اليقين، فيؤمن به ويستعد له، بخلاف الإنسان الأرضي القصير النظر، الضيق الأفق.

وأما الشاهد فهو الله ﷻ يشهد أعمال الخلاق، والمشهود هو الإنسان الذي استخلفه الله ﷻ في الأرض لِنْتُمْ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ {يونس ١٤}. وهذا شكل بياني يبين العلاقة بين هذه الثلاثة الأمور:



إن المنهج السماوي ينزل من السماء إلى المشهود - الإنسان - فيرفضه أو يأخذه {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنْ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف ٢٩]، ثم يكون الحساب في اليوم الموعود.

وتأمل آية سورة الكهف التي بينت أولاً مصدر المنهج (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ)، ثم بينت تعامل المشهود. الإنسان. معه، إما إيمان، وإما كفر (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ)، ثم بينت الحساب الذي أعد لمن أساء (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)، ولمن أحسن {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف ٣٠].

المشهود [من آية: ٤ إلى ١١]

والمشهود (الإنسان)، وله عملان في هذه الأرض:

الأول: إما أن يكون عمله فاسدا يستكبر عن دين الله ﷻ، ويعرض عن آياته، ويصد عن سبيله، ويقف لأولياء الله ﷻ بالمرصاد، فيؤذيه ويحاربهم، ويفتل لهم المكائد، ويدس عليهم الدسائس - فهؤلاء يستحقون لعنة الله ﷻ في الدنيا، وعذابه في الآخرة، (قَبِلَ أَصْحَابُ الْأُحْدُودِ؛ { التَّارِذَاتِ الْوَقُودِ } إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ {١} وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ {٢} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {٣})، والقتل هو اللعن والطرده والدعاء عليهم بكل صغار وهوان في الدنيا، وأما في الآخرة (فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ {٤}).

وهذا العمل الطالح ينافي العبودية، ويخالف مقتضاها، فلا يمكن أن يدعى أحد أنه يعبد الله ﷻ ثم يسعى في محاربة أوليائه، والكيد لهم، وإبذائهم؛ إذ لا يجتمع النقيضان: دعوى العبودية، ومحاربة العابدين.

الثاني: وإما أن يكون عمله صالحا، فيقوم في هذه الأرض بما يريد خالقه الذي جعله خليفة فيها، فيسعى فيها باذلا كل شيء من أجل رضا ربه، وهو بهذا يتحمل المشاق والمتاعب، ويقاسي المصائب والمكائد، ويواجه الحياة صابرا مصابرا مرابطا، ويوقن أن سنة الله ﷻ في الحياة هي الابتلاء {وَلَوْ يَنشَاءُ اللَّهُ لَاتَّصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ {محمد: ٤}، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا {الملك: ٢} . ومن ثم يعلنها للخلائق {وَمَا تَنْقَمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفَرَحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ {الأعراف: ١٢٦}، فينطلق في الحياة، موصولا بالله ﷻ، لا يرى من عداه، ولا يهاب من سواه، ولا يرجو إلا إياه.

سأحمل روحي على راحتني وأمضي بها في مهاري الردي
فإما حياة تسرُّ الصديق وإما مماتٌ يُغيظ العدا

ينطلق لا يعرف كلاً ولا ملأً حتى يحكم الله ﷻ بينه وبين أعدائه. ورسالته

في الحياة: أمر بمعروف وإقامته، ونهي عن منكر وإزالته - هؤلاء لهم عند الله ﷻ كل تأييد ونصر وتمكين ورضا، فإن لم يكن في الدنيا، فإن لهم في الآخرة ما تشتهي أنفسهم (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ {١}). إي وربي، فهو الفوز الكبير الذي لا يخسر من فاز به شيئاً، ولا يبالي بأي تضحية يقدمها في سبيل الفوز الكبير، وهذا هو معنى العبودية الذي يتميز به العابد من غيره.

الشاهد [من آية: ١٢ إلى آخرها]

ذلك شأن المشهود، فما شأن الشاهد الذي يشهد كل أعمال عباده؟ {وإن كان مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء ٤٧]. نتحدث بقية السورة عن الشاهد (وما تقموا منهم إلا أن يؤمئوا بالله العزيز الحميد) {الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد} {١}. هذه ثلاث صفات:

١. **العزة والقدرة**. وتتمثل في شدة بطشه، وقدرته على فعل ما يريد، ينتقم ممن شاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وقدرته على بدء الخلق وإعادتهم (إن بطش ربك لشديد) {٣} {إنه هو يبدئ ويعيد} {٤}، (فَعَمَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) {٥} {هل أتاك حديث الجنود} {٦} {فرعون وتمود} {٧}.

٢. **المحبة والعفو**. (وهو العفور الودود) {٨}، يغفر ذنوب المخطئين ويسامحهم، وهو الحبيب الذي يحب الخلق ويحبونه، والناس من طبيعتها أن تحب وتحمد من يعفو عنهم ويتسامح معهم، ويودهم، والله عفو، وأمر بالعرفه وتعالى عما يشركون} {٩}.

٣. **الإحاطة والشهادة**. فهو له ملك السماوات والأرض وما بينهما، بما فيهن ومن فيهن، ومع هذا الملك العظيم فإنه شهيد على كل شيء يحدث في ملكوته، وهو صاحب العرش العظيم المتعالي على خلقه، المحيط بخلقه، لا أحد يفر منه (ذو العرش المجيد) {١٠}، (بل الذين كفروا في تكذيب) {١١} {والله من وراءهم محيط} {١٢}.

هذه الصفات الثلاث - صفات الشاهد العظيم الذي يشهد كل شيء، ويقدر على فعل أي شيء. ومهما أساء العبيد في حقه فإنه غفور يغفر ويعفو، ودود حبيب فهذا هو شأن الشاهد، إنه الشاهد العظيم الذي يقول عن نفسه {وكفى بالله شهيداً} [الفتح ٢٨].

وكما رأيت فالله عفو أنزل على عباده المنهج الذي يجب عليه اتباعه، وأخبرهم بأنه سينظر ماذا يعملون ويشهد أعمالهم، ويطلع عليها، ثم لقاءهم معه في اليوم الموعود للحساب والجزاء. ومن هنا جاء التأكيد مرة أخرى على المنهج، (بل هو قرآن مجيد) {١٣} في لوح محفوظ} {١٤}، فهو منهج يحمل صفات العظمة والعلو، لا يشوبه نقص، ولا يعرض له اختلاف.

إن العباد لا يستطيعون أن يقوموا بما يريد الله عفو حتى يعرفوا ما يريد، وكتابه العظيم قد أنبأهم بما يريد الله عفو منهم، فإيمانهم به هو جزء من العبودية، والجزء الآخر من العبودية هو القيام بهذا الإيمان، والتضحية من أجله، وفي سبيل ذلك سيكون هناك ابتلاء وجهاد - فعلى العابدين أن يمثلوا قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} [آل عمران ٢٠٠].

الفصل الثالث: أهمية العبادة

بعد أن بينت السور السابقة من هو المعبود، ثم بينت معنى العبادة، ومتى يكون الإنسان عابداً؟ - جاءت هذه السور الأربع (التين، وقريش، والقارعة، والقيامة) لتبين أهمية العبادة في حياة الإنسان في دنياه وأخراه. فالعبادة تحفظ الخلق الإنساني من التردّي (التين)، وتحفظ النعم الإلهية من الانتقاص (قريش) - وتصون العطاء الإنساني من التبدد (القارعة)، وتصون العلاقات الإنسانية من الفجور (القيامة).

١. صيانة الإنسان من الترددي (التين)

يقسم الله ﷺ بالتين والزيتون، ومنبته بالشام حيث بعث عيسى عليه السلام، (وطور سينين) حيث كلم الله ﷺ موسى عليه السلام، ومكة البلد الأمين، حيث بعث الله ﷺ محمدا ﷺ، وهذه الأقسام تشير إلى الديانات الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام)، وهي أديان نزلت من السماء لهداية البشرية، ولإرشادهم إلى معنى العبودية، وقام بوظيفة البلاغ الرسل أولاً، ثم أتباعهم من بعدهم.

وهذه الأديان أنزلها الله ﷻ لحفظ الإنسان، وصيانتة من الترددي والوقوع في

مهاوي الملاك - فأقسم الله ﷻ بالأماكن التي نزلت فيها (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ {١})، فخلقه في أحسن صورة، وأحسن روح، وبأعظم عقل، وبأكرم نفس، وجعله متميزاً عن سائر المخلوقات، وباختصار فقد وهبه الله ﷻ أعظم مقومات الخلق التي يستطيع بها أن يقوم بخلافة الله ﷻ في أرضه، وهذه المقومات معرضة للترددي والانتكاس، ولا يصونها إلا العبادة كما تنص الآية (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ {٢})، و(أَسْفَلَ سَافِلِينَ) يشير إلى الترددي الذي يقع فيه الإنسان فتنشقى روحه، ويذوى جسده، ويخور عقله، وتتحط نفسه، ثم يفسد مجتمعه ويقع في النقص والرداءة^(١).

ثم بين الحق أن الذي يصون العبد هو عبادته (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ {١})، والإيمان هو العبادة المعرفية، وعمل الصالحات هو العبادة السلوكية، ولا ينجو الإنسان إلا بهما معاً، وينال الأجر العظيم، والصيانة التامة فيعيش مصاناً في دنياه، معافى في جسده، عزيزاً في نفسه، محلقة في روحه، عظيماً في عقله. ولأنه لا يستوي من عبد الله ﷻ فسان خلقه، ومن ترمد على الله ﷻ فأوقع نفسه في السفلى والترددي - فلا يمكن أن يترك الخلق عبثاً، بل لا بد من الجزاء وهذا مقتضى الحكمة الإلهية (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ {٧} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ {٨}).

(١) عرضنا سابقاً - في سورة المسد - لمظاهر التباب والترددي، فارجع إليها إن شئت.

٢. صيانة العطاء الإلهي من الانتقاص (سورة قريش)

العطاء الإلهي هو الأمر الذي يكتمل به الخلق الإنساني، حيث يعطي للإنسان مقومات وجوده وحياته، قال تعالى {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ} [طه، ٥٠]، وقال تعالى {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ} [الأعلى ٢-٣].

وعطاء الله ﷻ للإنسان يشمل كل شيء تقوم به حياته، فأعطاه البيت الكبير (الأرض)، وجعلها صالحة للحياة، موطأة مذلة {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ} [الملك ١٥]، وزودها بكل ما فيه صلاح حياة الإنسان، سواء فيما يتعلق بموقعها الخارجي في محيط الكواكب، أم فيما يتعلق بأقواتها ما نصب الله ﷻ فيها مما يقوم به أمر الإنسان.

كما أعطى الإنسان عطاءات عظيمة كالأمان والسعادة والرضى والسكينة والطمأنينة والألفة وغير ذلك، {وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} [إبراهيم ٣٤].

■ تمرد الإنسان وعطاء الرحمن

وكل هذه العطاءات يأخذها الانتقاص والانحسار، عندما يتمرد الإنسان على المعطي العظيم، ولا يذعن له بالعبادة. وفي سورة قريش جاء الأمر بالعبادة مقترنا بعطاءين: الإطعام والتأمين، والإطعام إشارة إلى كافة العطاءات المادية، والتأمين إشارة إلى كافة العطاءات المعنوية.

وصيانة هذه العطاءات مرهون بعبادة الرب المعطي، والانحراف عن هذه العبادة يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه، {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل ١١٢].

وقد وضحت هذه السورة أن إيلاف قريش نعمة أنعم الله ﷻ بها عليهم، وينبغي أن تقابل هذه النعمة بشكرها، وشكر النعمة عبادة المنعم {وَأِذْ تَأْتِيكُمْ لِينٌ شُكْرُكُمْ لِأَن يَذُوقَكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم ٧]. قال الزمخشري في قوله (إيلاف قريش) أي

"أن نعم الله ﷻ عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة"^(١).

▪ الإيلاف والأمان الاجتماعي

والسورة جاءت تمن على قريش بأن الله ﷻ آلف بينهم^(٢)، ومهد لهم سبل الأمان الاجتماعي، والرضا النفسي. بهاتين النعمتين: توفير القوت والأمن. وفي هذا إشارة إلى أن توفير القوت والأمن هما السبيل الأول لضمان ألفة المجتمع، وإزالة القلاقل، وواد الفتنة، ورأب الصدع. وهما السبيل الأول لأن يشعر الجميع بأنهم كالأسرة الواحدة، فلا يتختم أقوام ليجوع آخرون، ولا تأمن فئة لتفزع فئات أخرى. إنما يعيش الجميع آمنين مطمئنين، وعندئذ يتحقق الأمن والرخاء، ويصل المجتمع إلى درجة الإيلاف.

(١) الكشاف ٦٣٥/٤.

(٢) الإيلاف، قيل أنه من التأليف، إذ كانوا في رحلتهم يألفون الملوك في الشام واليمن، وقيل: من الألف والتعود، أي ألفوا الرحلتين. وقيل: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم. و(رحلة) منصوبة إما على أنها مفعول به لـ(إيلاف)، وإما أنها منصوبة بمصدر مقدر، أي: ارتحالهم.

٣. صيانة العطاء للإنسان من التبدد (سورة القارعة)

تبين السورة أن كل شيء في ذلك اليوم سيكون طائش الميزان، خفيف الوزن، فالناس (كَالْفَرَّاشِ الْمُبْتُوثِ؛)، والجبال (كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ؛)، يفقد الخلق الإنساني وزنه، وتفقد الأشياء وزنها - {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} [الأعراف: ٨]، يطيش كل شيء في الميزان، ولا يتقل فيه إلا عبادة الرحمن.

ومن ثم فإن عطاء الإنسان، وعمله الذي عمله في الدنيا لن يهال عليه التراب، ولن يذهب بداء، وإنما سيؤخذ بعين الاعتبار، فإن كان عمله صالحا، فسيثقل ميزانه، ومن ثقل ميزانه نال السعادة كلها، وإن كان عمله سيئا، فسيخف ميزانه ويطيش، ومن خف ميزانه فقد خسر نفسه، {فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ} {١} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {٧} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} {٨} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} {٩} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ} {١٠} نَارٌ حَامِيَةٌ} {١١}.

٤. صيانة العلاقات الإنسانية من الفجور (سورة القيامة)

الذي يصون علاقات الإنسان من الفجور - كما بينا - هو العبادة بمعناها الشامل، وعرفنا أن الفجور هو التعامل الخاطيء مع الخالق، وخلق، والإنسان يقع في علاقة الفجور حينما يتمرد على خالقه، ويأبى أن يستمد منه الأسس والقيم والمنهج الذي يحتكم إليه ويسير عليه. وقد جعل الله ﷻ للإنسان نذيرا وبيانا، حتى يقيم علاقته على أسس التقوى، وحتى لا يقع في علاقات الفجور.

أولاً: النذر

لم يترك الله ﷻ الإنسان سدى حين أمره أن يقيم علاقاته وفق أسس التقوى، وحذره من الفجور، بل وضع ضمانات تدفع الإنسان نحو التقوى، وتزعه عن الفجور، هذه الضمانات هي النذر، حيث جعل للإنسان نذيرين:

النذير الأول: النذير الخارجي (يوم القيامة)

وهذا نذير عظيم، قوي الردع، عظيم الخطر، بعده إما فوز مبين للإنسان بجنة الرحمن، وإما خسران مبين في جحيم ونيران، وقد حاء القرآن الكريم بحديث متنوع ومستفيض عن هذا النذير وأهواله، وأنه وعد الله ﷻ الحق - ودائما ما يبين القرآن خطورة هذا النذير، في شتى الصور والأساليب، ولا تكاد تخلو سورة من الحديث عنه، ولكن الإنسان يحاول أن ينسى هذا النذير أو يتناساه، ويؤتمنى نفسه ببعده وقوعه (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ {١})، وقد جاء هذا الاستبعاد صريحا عنه {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُحْرَجُ حَيًّا؟!} [مریم ٦٦].

وسورة القيامة قد كشفت الستار عن حقيقتين تتعلقان بنسيان اليوم الآخر:

الأولى: السبب الظاهري لنسيان اليوم الآخر، حيث أوضحت السورة أن الإنسان

يتناسى هذا اليوم بحجتين: استبعاد الإعادة، والشعور بالاستغناء عن الخالق.

▪ استبعاد الإعادة

فالإنسان يستبعد الخلق ثانية، (أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعُ عِظَامَهُ {٢})، وكما قال {وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس ٧٨]. وتردد هذا الأمر عنهم في كثير من سور القرآن الكريم، وقد عالج القرآن هذا الوهم ودلل على أن هذا الأمر غير بعيد (بلى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ {١})^(١)، {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس ٧٩].

▪ الشعور بالاستغناء عن الخالق

حيث يشعر الإنسان أنه قد استغنى عن خالقه، وأن له أن يسرح في هذا الكون كما شاء، ومن ثم فلا حسيب له ولا رقيب عليه، إنما هي الفوضوية التي يحيها داخل أعماقه، ويريد أن يجعلها تحكم حياته (أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى {٣})، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون ١١٥].

وهذا شعور بئس أنتج فلسفة شوهاء عند الإنسان، فلسفة العبث والفوضى وتجريد كل شيء من معناه، ومن ثم ينطلق الإنسان يفجر في علاقاته مع كل شيء. غير أن الله ﷻ يبين أن الإنسان لم يكن شيئاً، ثم بدأ نطفة فعلة فمضغة... وهكذا بدأ يتدرج في الحياة، والله ﷻ هو الذي يحوطه ويرعاه، والإنسان محتاج إليه، لا يقدر أن يستغنى عنه، فما بال الإنسان يرى أنه قد استغنى حين شبّ واكتمل خلقه؟! وبعبارة أخرى: أَيْتْرِكُ اللَّهُ ﷻ الْإِنْسَانَ وَقَدْ أَصْبَحَ خَلْقًا سَوِيًّا بَعْدَ أَنْ رَعَاهُ مِنْذُ كَانَ نُطْفَةً؟! (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِي يُمْنَى {٣٧} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى {٣٨}).

الثانية: السبب النفسي لنسيان اليوم الآخر

إن السبب الحقيقي الذي يكمن داخل النفس الإنسانية - لنسيان يوم القيامة يتمثل في رغبتين: الرغبة في الفجور، وحب الدنيا.

(١) المعنى أن الله ﷻ قادر على أن يسوي بنان الإنسان، فمن باب أولى إعادة الإنسان وخالقه، وهذا استدلال فيه إشارة إلى أن تسوية البنان أصعب - بالمقياس البشري من الإعادة، أما عند الله ﷻ فـ"ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة". ولقد كشف العلم الحديث عن أن بصمات الأصابع تمثل الشفرة التي تميز إنساناً عن آخر، ولو كانوا ثوانم، ومن ثم اتخذ علم الجنائيات البصمات كدليل على شخصية الجاني. ولقد كان الناس لا يرون في خطوط البنان إلا خطوطاً عادية حتى جاء القرن التاسع عشر فكشف حقيقة البصمات، ومن ثم فهمنا مغزى استدلال القرآن بنسويتها.

* **الرغبة في الفجور:** (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) {٥}، فالإنسان يريد أن يتحلل من كافة الموازين والقيم والأسس التي يشعر أنها تكبح جماحه، وذلك بغية الوقوع في الفجور؛ لأن تلك القيم والندارات من شأنها أن تمنعه وتردعه، وأكبر هذه النذر هو اليوم الآخر - يوم الحساب على الأعمال، فينساه الإنسان حتى لا يكون عقبة أمامه، ويكفر به، ويظن أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

* **حب الدنيا:** (كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ {٦} وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ {٧})، وهذا داء إذا دخل القلب أفسده، وجعله كنيفا منتنا، لا يُرَجَى بروءه، ولا يجتمع حب الدنيا وحب الآخرة في قلب، فمن أحب الدنيا أبغض الآخرة، ومن أحب شيئاً وسوس لنفسه أنه لا يوجد نقيضه، وحين يقع الإنسان في حب الدنيا يكره الأخرى حتى ينساها أو يتناساها {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [الأعلى ١٦].

من هنا جاء حديث السورة عن هذا النذير، فبددت السورة أولاً شبهات الإنسان، وفضحت دخاله ورغباته، ونقلت مشاهد حبه من ذلك اليوم ترتعد لها الفرائص، (فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ {٧} وَخَسَفَ الْقَمَرُ {٨} وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ {٩} يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ {١٠} كَلا لَأَ وَرَزَّ {١١} إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ {١٢} يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ {١٣}). وتأمل سؤال الإنسان (أَيْنَ الْمَفْرُ) وقد كان في الدنيا يسأل (أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ لتكشف مدى الغباء الذي يقع فيه الإنسان حين ينسى ذلك اليوم. ومدى الحيرة التي سيطرت على هذا الإنسان المسكين.

النذير الثاني: النذير الداخلي (النفس اللوامة)

هي النفس التي لا تفتأ تلوم صاحبها، وتؤنبه وتوبخه كلما فجر في علاقاته، وهي الضمير الداخلي الذي لا يزال يصرخ بالإنسان: أولى لك من أن تقع فريسة للفجور. إن النفس اللوامة هي النذير الداخلي الذي يدفع الإنسان إلى تصحيح مساره، وكل إنسان لديه نذير داخلي قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس ٧-٨]، والسورة تؤكد هذا، قال تعالى (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ {١٤} وَلَوْ أَلْمَىٰ مَعَاذِرَهُ {١٥})، قال ابن كثير عند تفسير الآية: "أي هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله، ولو اعتذر وأنكر"^(١).

ولأن الإنسان يعرف نفسه، ويعلم فعله، فإنه يقوم بلوم نفسه كلما قصرت وفرطت، حتى إن الله ﷻ يوم القيامة يجعله شهيدا على نفسه {أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ

(١) تفسير ابن كثير، ٢١٧/٨.

حَسْبِيَ} [الإسراء ١٤]، {حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [فصلت ٢٠]. وعليه فهو يعلم الصواب من الخطأ، والصحيح من الغلط، ولو زين لنفسه وحاول أن يبرر لنفسه صحة العمل الخاطئ (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} {٥}).

▪ البارد الفاتر

والإنسان قد يخدر نذيره الداخلي، ويقوم بتغييبه عن الحضور، ولا يدعه يتكلم، بل يسعى في سحقه حتى لا يشعر بالتأنيب، وهذا النوع من الناس نوع (بارد فاتر) يوغل في الخطيئة، ولا يجد من نفسه تأنيباً عقيماً، قد فقد الإحساس.

مَنْ يَهُنُّ يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلائم
وقد عرضت السورة لهذا النوع الفاتر (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى} {٣} وَلَكِنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّى} {٣} ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَطِي} {٣}، يعصي ويفسد، وكأن شيئاً لم يكن، بل يذهب إلى
أهله يتمطى ملء فراشه، ويغدو ويروح فيهم متبجحا، ويمضغ بشدقيه فخرًا وزهواً، ويلوك
بلسانه فخرًا ولهواً.

هذا النوع الفاتر لا يجدي معه إلا كيب بالنار، ولهذا كان الخطاب الإلهي له بالتهديد
الفظيع (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} {٣} ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} {٣}، فكرر (أَوْلَى) أربع مرات في آيتين
قصيرتين، وهو ما لم يحدث في القرآن كله، وذلك لأن هذا النوع من البشر تتبدل أحاسيسه،
فتفقد وسائل المعرفة عنده قيمتها، وعندئذ لا تنفعه ذكرى، ولا تجدي معه موعظة {صُمُّ
بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَمَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة ١٧١]، وهم سيعترفون بهذا ولكن بعد فوات الأوان، {وَقَالُوا لَوْ
كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك ١٠].

والإنسان عندما يصل إلى هذه الدرجة من بلاهة الإحساس ينحط من مرتبة
الإنسانية إلى درك الحيوانية، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ
قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّاهُمْ
أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف ١٧٩].

ثانياً: البيان

كما جعل الله ﷻ للإنسان نذرا تحذره مغبة الوقوع في الفجور، وتردعه عن الإيغال في الآثام والخطايا - فقد جعل له بيانا، حيث تكفل الحق تعالى أن يبين للإنسان ما يهديه إلى الأسس القويمة في التعامل مع كل شيء، قال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} [الليل ١٢]. والله ﷻ قد جعل للإنسان بيانين يهديانه إلى الصراط المستقيم، البيان الأول: يتمثل في آيات الله ﷻ في كتابه، والبيان الثاني: يتمثل في آيات الله ﷻ في الآفاق والأنفس.

▪ البيان الأول: آيات الكتاب

والبيان الأول يتمثل الآن في **القرآن الكريم** الذي أنزله الله ﷻ على رسوله محمداً ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان مما يحرك به شفتيه، فأنزل الله ﷻ الآيات (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ {١١}) {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {١٣}} فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {١٤} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {١٥})^(١). وأورد ابن كثير عن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقي منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه، خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله ﷻ (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ {١١}...).

فالآيات تخاطب رسول الله ﷺ - المتلقي الأول لهذا البيان :: ألا يحرك به لسانه مع جبريل عليه السلام خشية نسيانه، فإن الله ﷻ قد تكفل بثلاثة أشياء، **وطلب من الإنسان شيئا واحدا تجاه هذا البيان**. فأما الذي تكفل الله ﷻ به فهو (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {١٣})، (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {١٥})، وأما الذي على الإنسان (فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {١٤}).

١- (جمعه) قال ابن عباس: "جمعه في صدرك"^(٢)، فأنزل الله ﷻ جمع القرآن أولا في صدر النبي ﷺ، ثم في صدور أصحابه، حتى وصل إلينا متواترا، لم يسقط منه حرف، ولم تتغير منه حركة {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر ٩].

(١) رواه البخاري (٤)، من حديث ابن عباس.

(٢) صحيح البخاري (٤).

٢- (قرآنه) أي تهيئته للقراءة، وتيسيره لها. والإنسان مأمور بأن يقرأ هذا البيان، لا قراءة هدًى، بل قراءة تدبر. فالله ﷻ تكفل بأن يهيئ كتابه للقراءة {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر ١٧]، فجعله ذكراً مبيناً، ويسر قراءته للعالمين جميعاً {لَنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [التكوير ٢٧].

٣- (بيانه) فالله ﷻ قد جعل فيه من الآيات ما يدل عليه وعلى الحق الذي فيه، ونصب فيه من الدلائل ما يهدي الناس إلى أسس التقوى، ويرشدهم إلى الخير والمعروف، ويصرفهم عن الشر والمنكر، وقد وعد بأنه سيُري الناس من الآيات في الكون ما يدلهم على أنه الحق {سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت ٥٣].

وأمام هذا **فالواجب على الإنسان أن يتبعم قرآنه** (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) {٨}، فالعاقل من إذا دلَّ على الحق تبعه، وإذا هُدي إلى الخير لزمه، وإذا أُرشد إلى المعروف استمسك به. والله ﷻ تكفل بقراءة كتابه للناس بتيسيره للذكر، ثم بيانه لهم - فعليهم أن يتبعوا هذا اليسر، ويلتزموا بهذا البيان، ويقتفوا هذا الهدى العظيم.

▪ البيان الثاني: آيات الأنفس

أما **البيان الثاني** فإليه الإشارة بالآيات (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الثَّرَاقِيَّ {٣} وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ {٧} وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ {٢٨} وَالتَّتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ {٢٩} إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ {٣٠})، فالموت من آيات الله ﷻ في الأنفس التي تصرخ بالناس كل لحظة.

ثالثاً: فريقان

بعد أن عرف الناس نذارة الله ﷻ، وبيانه، فإن الناس سينقسمون إلى فريقين تجاه النذارة والبيان، فأما فريقٌ فينتفعون بالنذارة ويتبعون القرآن، وهؤلاء سيسعدون في الدنيا والآخرة (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٤﴾)، فتكرم بالنظر إلى ربها الذي استمدت منه بيانها، وانتفعت بنذارته. وأما الفريق الآخر فيشقون، حيث لا ينفعهم نذير، ولا يردعهم نكير، ولا يرشدهم بيان، وهؤلاء يذلون في الدارين (وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٥﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٦﴾).

والإنسان لا يستبعد أجل الله ﷻ، وما وعد فيه المتبعين من نضارة، وما أوعد فيه العاصين من نذارة - فإن هي إلا لحظات معدودات، وأيام قليلة، ينتهي فيها أجل الإنسان، وتقوم قيامته (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٨﴾ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٩﴾)، كلا، لا يستبعد شيئاً، فقد انتهى كل شيء في الدنيا وتقرر وعد الله ﷻ، (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿١٠﴾)، تساق الخلائق كلها إليه {يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا وَتَسْؤِقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا} [مريم ٨٥-٨٦].

وحينئذ سيعلم أصحاب الأحاسيس الباردة، والمشاعر الجامدة . سوء ما كانوا عليه، وهوان ما صاروا إليه، ويصيح بهم الجبار (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿١١﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿١٢﴾)، ويتحقق إذ ذاك للإنسان أن الله ﷻ خلقه وجعله قيمة كبيرة في المخلوقات، وأنه لن يترك هملاً، بل إن كل ما أصدره من أقوال وأفعال قد أخذت بعين الاعتبار (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١٣﴾)، وتتبدد أوهامه التي كان يعلق بها {إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [المؤمنون ٣٧]، بل الأمر غير ذلك، إنها حياة بعد موت، وحساب على ما قدم الإنسان، وجزاء بجنة أو نيران.

من لم ينتفع بالنذر (سورة الهمزة)

أوضحت السورة السابقة (القيامة) أن الله ﷻ جعل للناس نذيرين وبيانين، فمن لم ينتفع بهذه النذر وتلك البيانات، فحقه أن يُنبذ في الحطمة تحطمه حطما وتهدمه هدما - كما تبين ذلك سورة الهمزة.

والهمزة للهمزة: هو كثير الهمز للهمز، الذي صارت هذه الأخلاق من طباعه وعاداته، فهو يستمرئ هذه النقائص، ويجد لذة في ممارستها.

هذا العطاء السلبي الذي يتمثل في سوء العلاقة مع الناس، فعلاقته معهم لم تقم على العدل والإحسان والإيثار، إنما قامت على الكيد لهم والمكر بهم، واحتقارهم، وانتقاصهم. كما يتمثل في سوء العلاقة مع نعم الله ﷻ، فهو لا يجمع المال لتسخيره في المنافع، وإنما يجمع المال ليكثر به، ويتقوى به على الضعفاء، ولهذا يظل دائما يعدد ماله، ويحسب أن ماله سيخلده في الدنيا، ويبقى له حياة بعد حياته.

إن هذا العطاء السلبي ينبئ عن أن صاحبه قد فقد الإحساس تجاه النذر، فلا النذير الداخلي أغنى، ولا النذير الخارجي أجدى. فمثل هذا الإنسان مصيره إلى الحطمة، وهي الشديدة الحطم والكسر، فهي التي تناسب أخلاقه الذميمة، وعلاقاته الذميمة، ثم إنه لا يُلقى فيها إلقاء، بل ينبذ نبذا (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ}، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ} نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ} {الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ} {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ} {فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ} {، فهي نار متقدة، تحطم أفئدة الكافرين، تلك الأفئدة التي كانت مصدر الشرور لأصحابها، حيث ماتت فيها المؤشرات الحساسة التي تقوم بالإنذار، وتبلدت الضمائر المتبقطة، فينبغي أن تلوذ النار تلك الأفئدة، وتنتقد فيها، ثم توصل عليهم الأبواب حتى يستحكم الاتقاد.

الفصل الرابع: تكليف الله للإنسان ومؤهلاته وضماناته

بعد أن بينت السور السابقة من هو المعبود، ثم بينت معنى العبادة، ومتى يكون الإنسان عابداً؟، ثم بينت أهمية العبودية . جاءت السور الأربع التالية لتبين قضية جوهرية في مسألة العبودية. فقد بينت أن العبودية إنما هي تكليف الله ﷻ، وحق الله ﷻ على الإنسان، وأنها هي المهمة العظمى المناطة بالإنسان في هذه الحياة (سورة المرسلات)، والإنسان يخطئ ويضل الطريق حين يتمرد على عبودية ربه (سورة ق). ثم بينت المؤهلات التي وهبها الله ﷻ للإنسان حين كلفه بهذه المهمة (سورة البلد)، وأخيراً بينت الضمانات التي ضمنها الله ﷻ على نفسه حين كلف الإنسان بهذه المهمة (سورة الطارق).

المهمة العظمى (سورة المرسلات)

إن المهمة العظمى هي تلك المهمة التي أسندها الخالق العظيم إلى أعظم المخلوقات الذي هو الإنسان، هي الأمانة الكبرى التي عرضها الله ﷻ على السماوات والأرض والجبال {فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} [الأحزاب ٧٢]، إنها التكليف الإلهي الذي أناطه الله ﷻ بالإنسان، وأمره أن يقوم به، ورتب على هذا التكليف جنة لمن أطاع، وجحيماً لمن عصى، إنها تتلخص في قوله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات ٥٦]، فهي العبادة التي خلق الإنسان لأجلها، فيحيا لها ويموت في سبيل إقامتها {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام ١٦٢]. وهذه السورة جاءت لتبين معالم هذا التكليف العظيم في ثلاثة محاور: تمهيد، وخاتمة، وبينهما لوازم التكليف الإلهي.

تمهيد: [من آية: ١ إلى: ١٥]

يبدأ التمهيد بالقسم العظيم (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا{١}...)، والمقصود بهذه الصفات هم الملائكة، قال الزمخشري: "أقسم بطوائف من الملائكة أرسلهم بأوامره، فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح تخففا في امتثال أمره. ويطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل - بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرا إلى الأنبياء، (عذرا) للمحقين، أو (نذرا) للمبطلين"^(١).

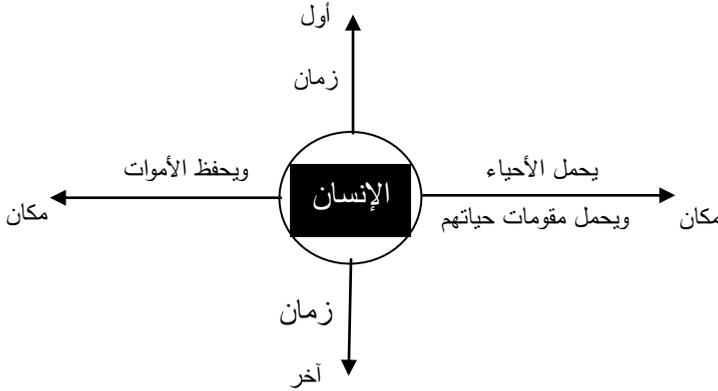
والقسم بالملائكة يحمل في طيِّه تكليف الله ﷻ للإنسان، حيث يتم التكليف الإلهي بواسطة رسله من الملائكة إلى رسله من البشر، فكان من الأنسب حمل القسم على أن المراد به الملائكة، لا الرياح - كما ذهب إليه بعض المفسرين.

هذه الملائكة يقسم الله ﷻ بها على حقيقة الوعد الإلهي للبشرية الذي ستسبقه إرهاصات عديدة، من طمس النجوم، وانفراج السماء، ونسف الجبال، وفي ذلك اليوم سيتم الفصل بين الخلائق، فهو الأجل المضروب لرسول الله . عليهم السلام . الذين قد بلغوا وأنذروا، فاستجاب لهم فريق، وكذب بهم آخرون، فكما أن الله ﷻ قد أرسل رسله من الملائكة والناس، فإنه سيحقق وعيده، وهناك سيخسر المكذبون (وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ{٥}).

(١) الكشف ٥٢٣/٤.

لوازم التكليف: [من آية: ١٦ إلى: ٢٨]

إن الله ﷻ اختار خلقاً من مخلوقاته ليقع عليه التكليف، ذلكم هو الإنسان، ومن ثم هياها لهذه المهمة، وخلق فيه من القدرات ما يجعله أهلاً لهذا التكليف. ثم إن الله ﷻ اختار له مكاناً وزماناً صالحين لتنفيذ التكليف. وإذا كان الإنسان هو الجملة الأساسية في التكليف، فإن المكان والزمان هما الحملتان اللازمتان لتمام القاء بالتكليف، وهما شكلان خطيين متقاطعين يقع الإند



هذه الحقيقة يعرضها المحور الثاني من سورة المرسلات في صورة تتدفق بالحركة، وتتنبض بالحياة. فتناولت الآيات أولاً الزمان، (أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ {١٦}...)، ثم تناولت الإنسان ذاته، (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ {١٧}...)، ثم تناولت المكان وهي الأرض، (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كَمَا تَأْتِي {١٨}...)، فاكتتفا الزمان والمكان - الإنسان، وهذا الاكتتاف في الآيات مثناه في الشكل السابق بتقاطع الخطيين حول محور مركزي، يمثل الإنسان فيه بؤرة الاهتمام.

الزمان:

(أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ {١٦} ثُمَّ نَسِيتُ الْآخِرِينَ {١٧} كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ {١٨} وَيَوْمَ يَوْمَ يَوْمَ يَوْمَ لِلْمُكَذِّبِينَ {١٩})، تمثل هذه الآيات الحركة الرأسية للتاريخ حيث تبدأ بالأولين، وتنتهي بالآخرين - هذه الحركة الرأسية هي المجال الزمني للإنسان كي يقوم فيه بالتكليف، والإنسان الصالح هو الذي يملأ هذه الحركة الزمنية بالعطاء الإيجابي والعمل الصالح، فيجد من الله ﷻ كل كرامة وسعادة.

ولكن الإنسان الطالح يملأ هذه الحركة الزمنية بالإفساد، فيكون جزاؤه الهلاك، وهذه هي الصورة القائمة للإنسان تجاه حركة الزمن، وهي الصورة الغالبة للإنسان، كما قال الله ﷻ

{كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُوهُ} {المؤمنون ٤٤}. ولأنها الصورة الغالبة فقد أبرزت سورة المرسلات الجانب السلبي لحركة الزمن، حيث أهلك الله ﷺ الأولين وسوف يتبعهم الآخريين، وهي سنة الله ﷻ المطردة (كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} {٨}،) فمآلهم التبدد والزوال ولو بعد حين.

الإنسان:

{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} {٢} فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} {٣} إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ} {٣} فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} {٣} وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} {٤}، في هذا المقطع تبرز صورة ذلك الإنسان الضعيف الذي لا حول له ولا قوة، فهو مخلوق من ماء مهين حقير - إنه مثال الضعف كل الضعف.

وتبرز من جهة أخرى قدرة القوي المتين، فهو الذي جعل من هذا الماء المهين خلقاً عظيماً، عبر أطوار عديدة، ومراحل مديدة، فهو القادر على كل شيء (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) ^(١). فإذا عرف الإنسان ضعفه، ورأى قدرة ربه وقوته - فإنه سيدعن لأمر ربه؛ إذ يشعر بحاجته إليه، ومن ثم سيقوم بالتكليف المناط به، فإن كذب فالويل . كل الويل . له.

المكان (الأرض):

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا} {٥} أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا} {٦} وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا} {٧} وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} {٨}، تظهر في هذه الآيات حقيقتان:

الأولى: حفظ الأرض لمن فيها، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً، فالأرض تحفظ كل من مشي عليها، وذلك بتهيئة الله ﷻ لها، {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} {٤}.

الثانية: حفظ الله ﷻ للأرض، وذلك بما بث فيها من عوامل تحفظها من التبدد في الهواء (مثل الرواسي)، وبما سخر لساكنيها من مقومات تجعلها صالحة للسكنى، (مثل الماء).

(١) (فجعلناه في قرار مكين)، القرار يشير إلى العلاقة بين الجنين والرحم، فالرحم مكان لاستقرار الجنين، منذ أن يكون نطفة حتى يخرج من الرحم، كما أنه قرار للجنين بأويه ويغذيه، وللرحم عضلات وأوعية تحمي الجنين، كما أن الرحم يتمدد ليتلائم مع نمو الجنين. والمكين إشارة إلى العلاقة بين الرحم وجسم الأم، فالمكين يعني: مثبت بقوة، حيث يقع الرحم في وسط الجسم، وفي مركز الحوض، وهو محاط بالعظام والعضلات والأربطة التي تثبته بقوة في الجسم. من هنا نلاحظ أن دلالة اللفظين دقيقة جداً، ففيهما تعبير عن حقيقة الرحم، ووظائفه الدقيقة. [بتصرف عن: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، لمجموعة من المؤلفين، ص ٥٦-٥٥].

ولو تأملنا في هذه الآيات لوجدنا أن رعاية الأرض للإنسان هو الوجه الآمن لها. وهناك وجه آخر يتمثل في أنها تفور في وجه ساكنيها بركانا، أو تتشقق زلزلا، أو... وهو الوجه المخيف للأرض. ولكن ذكر الوجه الآمن في هذا السياق هو المناسب؛ إذ المقام مقام امتنان وبيان، فالله ﷻ سخر هذا السكن للإنسان ليؤدي عليه تكليف خالقه، فكان الأولى ذكر الوجه الآمن الذي يبيت في قلب الإنسان الطمأنينة والأمان، فكأن الله ﷻ يقول له: اعمل ما كلفت به ولا تخف شيئا، فأنت مصون حيا وميتا، والأرض التي تسكنها مصونة بالرواسي ومهيأة بالمرافق.

خاتمة: [من آية: ٢٩ إلى آخرها]

بعد أن بينت السورة أن الله ﷻ قد هيا الإنسان للتكليف، وهياً له ما يلزم من زمان ومكان، وبين قبل ذلك أنه سيحاسب الإنسان، إذ جعله حرا مختارا، فهو يتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه - جاءت خاتمة السورة لتضع الإنسان أمام مصيره الذي كان يُنذر به في الدنيا، فإذا بالخطاب يُلقى إليه (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون {٣٠})، هكذا دون مقدمات، إنما هو أمر مباشر، فلم يعد للإنسان مجال للمراوغة، فجهنم أمامه، ووعيد الله ﷻ يتحقق، وهذا ما كان يكذب به الإنسان (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب {٣١} لا ظليل ولا يُعنى من اللهب {٣٢} إنها ترمى بشرر كالقصر {٣٣} كأنه جمالت صغر {٣٤}).

وفي ذلك اليوم يحق بهذا الإنسان خزي عظيم، وذل مهين، فلا نطق لديه، ولا اعتذار ولا له شأن ولا اعتبار (هدا يوم لا ينطقون {٣٥} ولا يؤذن لهم فيعتزون {٣٦})، (هدا يوم الفصل جمعناكم والأولين {٣٧} فإن كان لكم كيد فيكيدون {٣٨}) أين ذلك البليغ إذا نطق؟! وأين ذلك البديع إذا برق؟! أين ذلك اللسان الفصيح؟! والبيان البليغ؟! والعقل المفكر؟! والقلم السيال؟! أين تلك القدرات والمؤهلات؟! وأين تلك الخبرات والمهارات؟! أهدا مصيرها؟! يعجز صاحبها عن النطق وإبانة العذر، ويُتحدى فلا يستجيب!! أيا لحقارة هؤلاء.

أما أولئك المتقون الذي استجابوا لربهم، وأقاموا في الدنيا ما كلفوا به فلمه شأن آخر، وذكر عاطر (إن المتقين في ظلال وغيون {٣٩}...)، الكرامة موفورة لهم، والتعظيم مقصور عليهم، والتتعيم لا يناله غيرهم، وهذه سنة العظيم الذي يجازى من أحسن إحسانا (إنما كذلك تجزي المحسنين {٤٠}).

إذا كان هذا هو المصير المنتظر، وهو الجزاء الدائم - فليعمل الإنسان في دنياه ما أراد، فإنه سيلقاه غدا. ليكن محسنا فإنه لا ينفع إلا نفسه، أو مجرما فإنه لا يضر إلا نفسه.

ولكن ليعلم المجرمون أنها أيام قليلة يتمتعون فيها، ثم يزول ذلك إلى عذاب دائم (كُلُوا وَتَمَتُّوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ {٤٦}).

وأخيراً، فإن استجابة المتقين لأمر الله ﷻ هي التي جعلتهم محسنين، وإن إعراض الكاذبين عن أمر الله ﷻ هو الذي جعلهم مجرمين، هذه الحقيقة الواضحة تشير إليها الآية (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ {٤٨})، أي: اخضعوا لأمر الله ﷻ واستجيبوا لأمره، فهم يرفضون الخضوع، ويتمردون على الاستجابة لله ﷻ. وعجبا لهؤلاء المعاندون الجاحدين!! فهم إذ لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وبالأدلة التي فيه، وقد جاء بالبراهين الحقة والأدلة المقنعة. فهم إذ لم يؤمنوا بذلك (فِي آيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ {٥٠})؟! لا بأس إذن، لينتظروا حتى يقال لهم (انظروا إلى ما كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ).

تمرد الإنسان على عبودية الرحمن (سورة ق)

قالت أم هشام بنت حارثة: ما أخذتُ (ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ) إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس^(١). قال ابن كثير: "والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمعة؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب"^(٢).

والمأمل في هذه السورة يجد أنها تحكي قصة التمرد الإنساني على عبودية الله ﷻ، حيث جاءت لتبين سبب هذا التمرد، وتكشف دخائل نفوس هؤلاء المتمردين، ثم قامت بدفع حججهم الواوية، وكبي عقولهم اللاوية.

وراء ذلك فإن السورة أبانت المنهج الصحيح في الدعوة - سواء دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، أو دعوة المسلمين إلى الالتزام - هذا المنهج يعتمد قضية اليوم الآخر اعتماداً أساسياً، فهذا الركن هو الذي يردع المخالفين، ويزجر الغافلين، حتى يقيمهم على جادة الصراط.

والإنسان عندما ينسى قضية اليوم الآخر فإنه يتمرد على عبودية ربه، ويستكبر عن إقامة دينه، وينفر من تعاليمه، كما تنفر الحُمُر من الأسود. والواجب علينا في دعوتنا أن نذكر الناس دائماً بهذا الأمر، وأن تشغل أذهانهم به، وألا نترك لهم فرصة لنسيانه، فإن نسيانه تماماً يؤدي بالإنسان إلى الاستكبار على ربه، ونسيانه جزئياً يؤدي بالإنسان إلى عصيان ربه.

وسورة (ق) جاءت تبين هذه القضية، بعد أن بينت السور السابقة معنى العبودية وأهميتها ولوازمها، وبينت أن الله ﷻ قد هيا كل الأسباب للإنسان حتى يقوم بهذا التكليف، حيث ينشأ السؤال هنا: لماذا. إذن. يتمرد الإنسان ويرفض هذه المهمة الجليلة، وفي رفضها من الخطورة عليه وعلى مجتمعه ما قد عرف بيانه؟!

فجاءت سورة (ق) لتبين هذا السبب وتحجب عن هذا السؤال، وقد كان الحديث فيها من خلال ثلاثة محاور: مقدمة، وضمانات البعث، وواجب المؤمن تجاه المتمردين على الحق.

(١) رواه مسلم (١٤٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير ٣٠٣/٧.

المحور الأول: مقدمة [من آية: ١ إلى: ١٤]

جاءت مقدمة السورة لتجيب على السؤال السابق، وتبين أن تمرّد الإنسان على ربه إنما يعود إلى إنكار البعث، وهذا ما بينته كثير من سور القرآن الكريم، ولهذا كان الحديث عن اليوم الآخر متنوعاً، وقويماً يأخذ بالقلوب، ويعصف بالألباب، ويهز الوجدان، حتى يستيقظ النائم، ويعود الغافل.

تبدأ السورة بعرض استعجاب الكافرين من أن يأتيهم منذر فيهم يعرفونه ويألفونه، لا يلبث هذا الاستعجاب أن يتحول إلى القضية الكبرى التي جاء الرسول ﷺ ينذرهم بها، وهي قضية البعث، ويصدر استنكارهم في هذه الجملة: (أَيُّدًا مِمَّنَّا وَكُفًّا تُرَابًا)؟! أي أيعقل أن نبعث، وترجع أجسادنا؟ (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ {١}).

وبالرغم من أن هذه مقولة فاسدة، وحجة داحضة؛ فالذي خلقهم يعلم كل شيء عنهم، لا تخفى عليه منهم خافية، يعلم مصير أجسادهم (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ {٢}). بالرغم من هذا، فإنهم يتخذون إنكار البعث طريقاً للتكذيب، وإنكار الحق، (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ).

ونتيجة لما فعلوه بأنفسهم، فإنهم يعيشون في اضطراب نفسي، وتخلخل ذهني، وتخبط وجداني - وهذا ما عبر عنه القرآن بعد ذلك بقوله (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ {٥})، أي مختلط مضطرب، لا يستبين فيه نور، ولا يتضح فيه دليل، ولا تشرق في سمائه شمس.

والسبب أن الحق الذي كذبوا به يتفق مع نواميس الكون، ويتناسق مع قوانين الفطرة، فالتكذيب به يعنى خلخلة التوازن النفسي، وتحطيم التوافق بين الكون والنفس. أما خلخلة التوازن النفسي فتوحي به اللفظة (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ)، وأما تحطيم التوافق بين الكون والنفس فتشير إليه الآيات التالية، وهي قوله تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ...)، فالآيات تشير إلى التناقض الكوني العجيب القائم على الحق الذي كذبوا به، ولكنهم حطمو تلك الخيوط التي تربط بين فطرة الإنسان، ونواتج الكون.

الكتاب المنظور دليل على الكتاب المسطور

القرآن المجيد - هو كتاب الله الذي يحمل من الآيات ما يشهد على صدقه، وفيه من الدلائل ما يحمل الناس على الإيمان به، ومع كل هذا، فإن الله ﷻ قد جعل كتابه المنظور (الكون) دليلاً ممتد الآفاق، ناطقاً بالبرهان. فبعد أن حكى القرآن عن الكفار تكذيبهم بالحق (القرآن المجيد)، لفت أنظارهم إلى هذا الدليل العظيم الذي لا يستطيعون إنكاره، أو تغطية أعينهم عنه (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ {٦})

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {٧} تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ {٨} وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْعَصِيدِ {٩} وَالتَّحَلُّ بِاسْقَاتٍ لَهَا طَلَعٌ تَضِيدٌ {١٠} رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ {١١}. وفي هذه الآيات وقفات.

الأولى: منهم (كيف)

الآيات تدعو الإنسان إلى النظر في الكون وما فيه من كائنات وأحياء لا حصر لها ولا عد، كما أن الآيات ترشد الإنسان إلى منهج النظر القائم على السؤال (كيف)، كما في الآية (كَيْفَ بَيَّنَّاها)، ومنهج (كيف) هو الذي يفسر للإنسان الظواهر الكونية تفسيراً دقيقاً، ويطلعه على الوصف الدقيق لكيفية حدوث الظاهرة. والله ﷻ قد زود العقل الإنسان بوسائل جبارة يستطيع بواسطتها أن يكشف كيفية حدوث الظواهر، هذه الوسائل تتمثل في الحواس، وخصوصاً حاسة النظر التي يستجلي بها الكتاب المنظور، واللفظ القرآني واضح في الإشارة إلى هذه الحاسة، (أَلَمْ يَنْظُرُوا).

فالعقل الإنساني إذن قادر على كشف كيفية حدوث الظواهر؛ إذ هي في حدود علمه، أما الكشف عن غايتها فهو شيء خارج عن نطاق العقل الإنساني، وبمعنى آخر: يستطيع الإنسان إزاء الظواهر الكونية أن يجيب على السؤال (كيف): كيف حدثت الظاهرة؟ وكيف سارت من البدء حتى وصلت إلى نقطة معينة.... الخ، أما السؤال (لماذا) لماذا حدثت الظاهرة؟ فلا يستطيع العقل الإنساني أن يجيب إجابة واضحة عليه. وعندما يتعدى العقل خطوته، ويتجاوز حده، فيجيب على هذا السؤال - فإنه يقع في تهاافت سخيف، واضطراب عجيب، وقد يعلل العالم الكبير بتعليقاتٍ بدائية يسخر منها الطفل الصغير.

ولكن العقل الإنسان عقل نَهَم لا يقف عند حد، بل يحب أن يعرف كل شيء - من هنا فإن الله ﷻ أوكل إلى الإنسان أن يستخدم عقله فيجيب عن (كيف) وسيصل إلى نتائج مدهشة، وحقائق مذهلة عن هذا الكون. أما إجابة (لماذا) فإن الله ﷻ قد بين للإنسان بيانا شافيا، بين له الحكمة من خلقه، وخلق السماوات والأرض وما بينهما، وأبان له الحكم والأسرار الكامنة وراء ذلك.

فعندما يقرأ الإنسان كتاب الله المنظور - فإنه يجد جواب (كيف)، وعندما

يقرأ كتاب الله المسطور - فإنه يجد جواب (لماذا)، وبهذا يتأزر الكتابان، فكل

منهما فبه دليل على الآخر، وكل منهما يأخذ بيد الإنسان إلى الحق، ولا يكتمل عقل

الإنسان إلا بهما معا، ولا يُصقل وجدانه إلا بالنظر فيهما معا. فإذا ما اتجه الإنسان إلى

كتاب واحد منهما مهملا الكتاب الآخر، فإن ذلك يؤدي إلى انقسام في عقل الإنسان فينعكس ذلك على ممارساته وسلوكياته في الحياة.

ولو تأملت الآيات الكريمة لوجدت أن **الله ﷻ جعل كتابه المنظور بصائر لعباده، وجعل كتابه المسطور ذكراً لهم (بصيرةً وذكراً لكلِّ عبدٍ مُنيبٍ {٨})**، ولا ينتفع بهذين الكتابين إلا العبد المنيب الذي يغير من قراءة الكون إلى الإيمان بالخالق، ويصل بقراءة القرآن إلى طاعة ربه العظيم، فالقرآن يذكره بالحق، والكون يبصره به. أفرأيت أن ترك الإنسان لأحدهما - أو لهما معا - يعود عليه بالضرر، والرؤية المشوشة، والفكرة المضطربة، ويصدق الوصف على هؤلاء **(فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ)**.

الثانية: إنبات الحقائق والحقائق

عند تأمل الألفاظ في الآيات تستوقفنا لفظتان، الأولى: "فوقهم" في **(أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ)**، والثانية: "نزلنا" في قوله **(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا)**. معروف أن السماء فوقهم، فهل في ذكر لفظ (فوقهم) تكرار؟ أو أن وراءه بعض الأسرار؟

إن النظر الدقيق والتأمل العميق في الآية يرينا أنها تدعو الإنسان إلى أن يرمي ببصره إلى ما فوقه، وليس إلى ما تحته، تدعوه ألا يصرف بصره إلا إلى ما هو فوقه، فيستمد مما فوقه منهجه وقيمه وكرامته، تدعوه إلى أن يعتز بما لديه مما جاءه من أعلى، ويأنف أن يرضى لنفسه بقيم أو منهج يأتيه من تحت.

أما لفظ (ونزلنا) فإنه يوحي بأن حياة الأرض تأتيها من الماء الذي ينزل، فإذا نزل الماء اهتزت وربت وأنبتت وأثمرت (رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا). وفي الأرض دروس وعبر، **فكذلك حياة الإنسان، حياة جنسه ونوعه بالماء النازل، وحياة فكرة وروحه بالمنهم النازل**. والخلاصة أن ما نزل من السماء يثمر وينبت، سواء أكان ماء فينبت أشجاراً وحدائق، أم كان منهجاً فينبت رجالاً وحقائق.

الثالثة: (كُلُّ كَتَبَ الرُّسُلِ)

بقراءة هذه الظاهرة الكونية التي تتجلى في الماء النازل من السماء فتحيا به الأرض الميتة - نصل إلى الحق الذي كذب به المشركون، وهو البعث من بعد الموت قال تعالى **(وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ {١٠})**.

وهذا تطبيق قرآني للمنهج الذي دعا إليه، وهو تلاقي كتاب الله المنظور وكتابه المسطور، والإنسان العاقل هو الذي يجيد استخدام (كذلك)، حيث يهتدي بها إلى الحق الذي جاء من عند الله ﷻ.

أما إذا عمي الإنسان، وأصيب عقله بلوثة الانفصام، فإنه يقع في إنكار الحق، والتكذيب به. وعندئذ فلن ينتفع الإنسان اللاحق بعبر الإنسان السابق، وما أصابه جراء تكذيبه. وسواء أكان ذلك الإنسان يركب دابة أم سفينة فضائية، فإن العقل هو العقل، قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ {١٢} وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ {١٣} وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ ثَمُودَ كُلِّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ {١٤})، وتأمل في قوله (كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلَ)، فالكل يتوارد على هذا الخطأ، وهذه حماقة شنيعة يرتكبها الإنسان، ولا يعنبر بما يرى للمكذبين قبله، فينزل وعيد الله ﷻ باللاحق كما نزل بالسابق.

المحور الثاني: ضمانات البعث [من آية: ١٤ إلى: ٣٨]

لجهل الإنسان بقدرة الله ﷻ - أو لتجاهله عن قدرة الله ﷻ - يملأ فاه متشدقا (أَيَّدًا مَثَنًا وَكَثْرًا ذَلِكُ رَجْعٌ بَعِيدٌ {٢})، فينكر البعث؛ بناء على تصوره أن عظمه إذا رُمَّ، فلن يعود إلى ما كان عليه. وأغلب شبه الكافرين حول البعث تعود إلى هذا التصور، ولهذا فند القرآن الكريم - في مواطن كثيرة - هذا التصور، وبين بطلانه وخطئه، كما في هذه السورة (أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لِسْمٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ {٥})، إنه كلام المنطق الواضح، والبرهان الساطع. فإذا كان الله ﷻ قد جاء بكم من عدم، ولم يعي بهذا الخلق، أفيعجزه أن يعيدكم مرة أخرى؟! مع أن الإعادة أهون من الإنشاء - وفقا لمقاييس الإنسان، أما عند الله ﷻ فَمَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِمَثَكُمْ إِلَّا كَفَسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ [لقمان ٢٨].

وقد أورد الحق سبحانه وتعالى - في هذه السورة - الأدلة القاطعة على حتمية البعث؛ حتى يترك الإنسان ليصل بنفسه إلى تلك النتيجة، ويدرك أن عدم البعث عبث لا يليق به وهو المخلوق العظيم، ولا بربه وهو الخالق الحكيم. وهذه الأدلة هي ضمانات إلهية للإنسانية، تعيش في الدنيا حتى يقضى الله ﷻ بزوالها، وعندئذ تبعث الخلائق كلها. ومن ثم فالإنسان يحيا وهو يرى مصيره الذي ينتظره، وجزاء أعماله التي قدمها، (يُبَيِّنُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُدْعَى بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) [القيامة ١٣].

وهذه الضمانات هي: الرقابة الإلهية والهيمنة، والقداسة الإلهية، والعدل الإلهي، والانتقام الإلهي، والقدرة المطلقة.

١. الرقابة الإلهية والهيمنة

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾).

تضمنت الآية الأولى ثلاثاً من الصفات الإلهية، وهي: الخلق، والعلم المحيط، والهيمنة القديرة. فالإنسان انبثق وجوده بخلق الله ﷻ له، واستمر وجوده بحفظ الله ﷻ له وعلمه به وهيمنته عليه. ولولا صفة الخلق الإلهي لاستحال وجود الإنسان، ولولا صفة الحفظ القائمة على العلم والهيمنة لاستحال استمرار هذا الوجود، وبعبارة أكثر إيضاحاً أقول: يحتاج الإنسان حتى يكون موجوداً إلى خالق يتصف بالقدرة على الخلق، ويحتاج الإنسان حتى يستمر وجوده - فرداً أو نوعاً - إلى رب يتصف بالقدرة على الحفظ. والحفظ يقوم على صفتين:

الأولى: العلم المحيط، وإليها الإشارة بقوله (وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ)، فهو علم محيط حتى بوساوس النفس وخلجات الوجدان، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الأنفال ٤٣]، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر ١٩].

الثانية: الهيمنة القديرة، وإليها الإشارة بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)، فهو قريب بعلمه وإطلاعه وإحاطته وهيمنته. وقد أفصحت الآيات عن حقيقة هذه الهيمنة والرقابة (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾)، فهي هيمنة رقابية تحصى كل شيء على الإنسان في حياته، تحصى في كتاب سوف يؤتاه يوم الحساب، {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف ٤٩].

وبهاتين الصفتين (العلم والهيمنة) يحفظ الله ﷻ الإنسان، يحفظ ذاته من

الانقراض، ويحفظ قيمته من الانحطاط، فيعيش الإنسان في كنف راعيه محفوظ الذات، لا يصيبه إلا ما كتبه الله ﷻ له، محفوظ القيمة، حيث إن كل ما يفعله أو يقوله يخضع للتسجيل والحفظ، فلا يفرط في شيء منه، ثم يحاسب عليه ويجازى عليه^(١).

٢. القداسة الإلهية

القداسة هي تنزيه الخالق عن عبثية الخلق {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون ١١٥]، فالله ﷻ إذ خلق الخلق أولاً، ثم أحاطهم بحفظه وعلمه ورقابته ثانياً - أخبرهم بأن هذا كله لا يذهب سدى ولا ينتهي هدراً {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ

(١) في سورة الطارق مزيد من البيان لهذه القضية.

سُدِّيٌّ]{القيامة ٣٦}، بل لا بد أن تكون هناك مرحلة ثانية يتم فيها الحساب والجزاء، وإلى هذا تشير آيات السورة الكريمة (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ {١٦} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ {٢٠} وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ {٢١} لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ {٢٣}). والآيات تتحدث عن سكرة الموت ثم النفخ في الصور وبعث الناس للمحشر.

والم تأمل في الآيات يرى بروز اسم الإشارة (ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)، (ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)، والإشارة الأولى للموت، والثانية للبعث، (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا)، أي هذا اليوم - وهو يوم القيامة، وتكرار الإشارة في هذا المقطع يوحي إلى الإنسان بقداسة القضية، وتنزه الله ﷻ عن العبث، وكأن الآيات تقول: أيها الإنسان، انظر قد جاءك الموت الذي كنت تفر منه، وقد جاء يوم الوعيد الذي كنت تتكره، فتعالى الله ﷻ عما تقول علواً كبيراً.

ثم جاءت الآية الأخيرة في المقطع (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا...)، والخطاب للإنسان - كما يقول ابن كثير^(١)، وفي ذلك سيبصر الإنسان الحق الذي أنكره (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)، ولكن هيهات هيهات {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}{السجدة ١٢}.

٣. العدل الإلهي

(وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ {٣} أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ {٤} مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ {٥} الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ {٦} قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ {٧} قَالَ لَا تَحْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ {٨} مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْبَعِيدِ {٩} يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ {١٠})، (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ {٣} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ {٣} مَنْ حَسِبَى الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ {٣} ائْتَلَوْهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ {٤} لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ {٥}).

تريانا هذه الآيات موقفين متباينين للبشر في الدنيا، أما الأول فهو كل (كفَّارٍ عَنِيدٍ مُتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)، وأما الثاني فهو كل (أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ حَسِبَى الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ). إذن فهما صنفان متباينان أفعالهما وصفاتهما في الدنيا - فهل من العدل أن تنتهي القصة بمجيء الموت دون أن يثاب المحسن، وبعاقب المسيء؟! لا. تبين الآيات أن الصنف الأول يكون بحقه هذا الخطاب (أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ)، (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)، والصنف الثاني حقه هذا الخطاب (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ)، (ائْتَلَوْهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ).

(١) تفسير ابن كثير ٣٠٩/٧.

من هنا فإن العدل الإلهي يعطي كل إنسان حقه من الجزاء وفقا لعمله، وطالما أن هذا الجزاء لا يتحقق في الدنيا، فلا بد له من يوم يتحقق فيه، وهذا من أكبر أدلة البعث، وأوضح ضماناته. ولهذا كثر حديث القرآن عن هذا الدليل، وأفاض في تفصيل ذلك الجزاء لمن أحسن ولمن أساء، حتى يرتدع الغوي، وينزجر الشقي.

وإذا قمنا بمقارنة بين صفات المعذبين والمنعمين، فسوف نجد أن الآيات ذكرت سبب انحراف المنحرفين وسبب التزام ملتزمين، كما ذكرت نتيجة كل من الانحراف والالتزام، وذكرت آثار كل، والجدول يوضح ذلك:

م	وجه المقارنة	المنحرفون	الملتزمون
١	آثار الانحراف أو الالتزام	١. في العقيدة	كفار
		٢. في انقياد الذات	عبيد
		٣. في الممارسة	١/ مناع للخير ٢/ معتد
٢	سبب الانحراف أو الالتزام	الذي جعل مع الله إله آخر	من خشي الرحمن بالغيب
٣	نتيجة الانحراف أو الالتزام	مريب	منيب

واضح من الجدول أن الصنفين يقفان على طرفي نقيض في كل شيء، بداية من نقطة الانطلاق، فالكافرون انطلقوا من منطلق (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) أي كان هذا الإله، حجرا أم بشرا، هوى أم شهوة، فكرة أم مذهبا... فهو قد جعل بدلا من الله ﷻ إله آخر يحتكم إليه، ويذعن له، ويصدر عن أوامره وزواجره، والحق عنده ما يراه إلهه حقا، والباطل ما يراه باطلا.

ولأن هذا المنطلق فاسد البنیان، واهي الأساس؛ فإن آثاره تبدو في حياة صاحبه . كما نصت الآية . كُفِّرْ بِاللَّهِ ﷻ، وتكذيب بالحق الذي جاء من عنده، ومعاندة له، ومعارضة له بالباطل، فلا يستجيب لأمر الله ﷻ، ولا ينزجر عن نهيه.

وأما آثار هذا الانحراف على ممارسته في الحياة فإنها ذات شقين: شق المنع (مناع للخير)، وشق العطاء (معتد) فهو يمنع كل خير في أي مجال تطبيقي يمارسه، سواء في المجال الاجتماعي أم السياسي أم الاقتصادي... فأى مجال يكون فيه، فإنه يمنع الحق أن يصل لمستحقه، ويمنع المؤهلين من شغل المناصب التي يمكن أن يبدعوا فيها، وينهضوا بها. أما عطاؤه فهو الاعتداء، والاعتداء هو البغي وتجاوز الحد، أو التقصير والتفريط في الحق. كلاهما اعتداء.

وهذا بخلاف الصنف الآخر الذي جعل منطلقه (مَنْ حَسِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)، فأسس حياته ومعارفه وممارساته على هذه القاعدة الكبرى، فلا أحد في حياته سوى الله ﷻ، ولا أحد في قلبه غير الله ﷻ، يراقب الله ﷻ ويشعر أن الله ﷻ يراقبه، لا يعمل أعماله من أجل الناس، إنما من أجل الله ﷻ الذي سيجازيه عليها.

وهذا التصور سيثمر آثارا طيبة في حياة الفرد - أما في عقيدته وانقياد نفسه للحق فهو (أواب)، يرجع إلى الحق، ولا يحدد عنه، ولا ينحرف عن ما يريده الله ﷻ، ويقوم بما أمر، ويكف عما رُجر، دائم التوبة والاستغفار؛ أن يكون وقع في خطأ، كما كان رسول الله ﷺ يدعو: (اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)^(١). وهو في ممارساته (حفيظ) يحفظ العهود والمواثيق، فلا ينقض ولا ينكث، ومن ثم يكون الأمين الكفء فيما يقوم به من ممارسات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو قضائية أو غير ذلك من الممارسات، فهو يؤدي الواجبات التي عليه في عمله، ويعطي لمن يرعاه - أيا كان مجال المسؤولية - حقه الذي له.

وأخيرا فإن النتيجة في الدنيا متباينة، فأما نتيجة الانحراف فهي الريب (مريب) وأما نتيجة الالتزام فهي الإنابة (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ). والمريب كما قال ابن كثير: "أي شك في أمره، مريب لمن نظر في أمره"^(٢)، فهو في أمره يظل في شك وحيرة وقلق واكتئاب وتعاسة، يحيا ضنكا، يلهث وراء الدنيا كالكلب المسعور، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الناس لا يطمنون إليه، ولا تصبو نفوسهم إليه، يأخذونه بعين الريبة والشك، وكل ما صدر عنه فهو في سلة الشك والارتياب، فهو مريب في نفسه، مريب عند غيره.

أما الآخر فهو ذو القلب المنيب الطاهر الذي لا يدع شكا أو ريبة تتسلل إلى قلبه، أو تدلف إلى عقله، بل إنه دائم التطهير لعقله، دائم الإصلاح لقلبه، ولهذا فإنه يعيش في رضا وطمأنينة وراحة وسعادة وأمان وسكينة، ويراه الناس مكمنا تقنمهم، ومحط أمانتهم.

(١) رواه أحمد (١٨٧٨١)، من حديث أبي موسى الأشعري، وحسنه الألباني.

(٢) تفسير ابن كثير ٣١٠/٧.

أفمن العدل أن يتساويا في الجزاء وقد اختلفا في المعرفة والعطاء؟! {أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستؤمن} [السجدة ١٨].

٤. الانتقام الإلهي

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِصٍ} {٣} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} {٣}

الدنيا - كما تقرر سلفاً - دار ابتلاء وليست دار جزاء، ومعنى ذلك أن العامل في هذه الدنيا سيعمل ما شاء - {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيُكْفُرْ} [الكهف ٢٩]، والله ﷻ قد جعل الإنسان مختاراً، فيختار طريقه بعد أن خلق له من الوسائل ما يميز به بين الخير والشر {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد ١٠]، وبعد أن تكفل بتبيين الهدى من الضلالة، والحق من الباطل {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} [الليل ١٢]، ثم جعل الدنيا فرصة للعمل - وأجل الجزاء إلى يوم القيامة، وفي ذلك اليوم سيتحقق العدل الإلهي حيث يثاب المحسن ويعاقب المسيء.

وقد اقتضت حكمته ألا يجازى ذلك الجزاء في الدنيا، ولكن هذا - كما بيناه في سورة الفجر - لا يمنع من أن تقع بعض المجازاة في دار الابتلاء، فيمكن الله ﷻ من أطاعه ويذل من عصاه، وقد لا يمكن المطيع، وقد لا يعاقب المعاصي في الدنيا، فدل انتقام الله ﷻ من بعض العصاة في الدنيا، أن الآخرين الذين نجوا من الانتقام في الدنيا رغم عصيانهم - لا بد وأن ينالهم جزاؤهم. وها هي حياتهم تغرب دون أن نرى ذلك العقاب، إذن فهناك حياة أخرى ينالون فيها ما يستحقون، وهكذا دل انتقام الله ﷻ من بعض العصاة أن هناك يوماً آخر يعم الجزاء فيه جميع الخلائق.

وهذا الدليل من أطف الأدلة وأدقها على اليوم الآخر، ولهذا لا يبصره إلا من {كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}. ويمكن الوصول إلى هذا الدليل بالسير في الأرض، والنظر في آثار من خلوا ممن أهلك الله ﷻ خضراءهم وأباد غضراءهم.

٥. القدرة المطلقة

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّثُوبٍ} {٣٨}. ما الذي ينكره الكافر في بعثه بعد موته؟! وكل الأدلة المنطقية تدل على حتمية البعث، وكما بين أول دليل أن الله ﷻ خلق الإنسان ابتداءً ولا يعييه أن يعيده مرة ثانية، فإن هذا الدليل يبين أن الله ﷻ قد خلق ما هو أكبر من خلق الإنسان دون أن يمسه إعياء أو تعب، قال تعالى {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنِّ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٥٧]. فهذه القدرة المطلقة التي يخلق الله ﷻ بها ما يشاء دون أن يصيبه كلل أو ملل. ألا تستطيع أن تبعث الإنسان بعد مماته؟! *

المحور الثالث: واجب المؤمن تجاه المتمردين [من آية: ٣٩ إلى آخرها]

ألا إنه لقول خطل يقع فيه ذلك الغبي الأحمق حين يقول (أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ). وتجاه هذا الخطل يرشد الله ﷻ المؤمن إلى ما يجب عليه تجاه هؤلاء، حيث إن الواجب عليه أمران، الأول: عطاء للنفس، وهو التسبيح والاستعداد، والثاني: عطاء للغير، وهو التذكير بالقرآن.

والأساس الذي يقوم عليه هذان العطاءان هو الصبر، ولهذا ابتدأت الآيات به، (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ)، فهذه العطاءات تحتاج إلى صبر عظيم، وكفاح جسيم، ولهذا نجد القرآن يأمر بالصبر كلما دعا الإنسان إلى العطاء، كما في أول سورة المدثر وغيرها.

أولاً: عطاء النفس

هذا العطاء يهدف إلى إصلاح النفس، وتزكيتها، وإعدادها لتحمل المسؤولية، وإصلاح النفس يقوم على وسيلتين. كما تبين السورة، هما: التسبيح والاستعداد.

■ التسبيح

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ {٣٩} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ {٤٠}). التسبيح هو الوسيلة التي تملأ حياة الإنسان بالخالق العظيم، فتجعل منه إنساناً عظيماً في الوجود، وتجعل منه مخلوقاً فريداً في الحياة، تتحقق فيه معنى الإنسانية، فيعيش حراً كريماً عزيزاً، لا يذل ولا يستذل ولا يهون ولا يستظام، ثم ينطلق مشاركاً إيجابياً، وعنصراً فعالاً في بناء الأسس القويمة في الحياة، هذا هو التسبيح، وهذه هي آثاره في حياة الإنسان. فما حقيقة التسبيح في القرآن الكريم؟

تنص الآيات القرآنية على أن التسبيح عباده تشترك فيها جميع الكائنات دون استثناء، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء ٤٤]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء ٧٩]، ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد ١٣]، ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر ١].

فآيات تبين أن سائر المخلوقات تسبح الله ﷻ، فما من شيء إلا يسبح، حتى الرد يسبح بحمده. وأما بالنسبة للبشر فلا يقوم بهذه المهمة إلا الرجال المتميزون، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا لَّهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور ٣٦-٣٧]، فالرجال المتصفون بمضاء العزيمة وقوة الإرادة الذين لا يلهيهم شيء عن أهدافهم السامية، وغايتهم النبيلة، الذين يعملون في الدنيا ويعملون بالآخرة فيستعدون لها - هؤلاء هم الذين يسبحون ربهم.

ما معنى التسبيح إذن^(١)؟

التسبيح له معنيان^(٢). في السنة النبوية. أحدهما يتعلق بالقول، والآخر يتعلق بالعمل. ومن هنا فإن قصر التسبيح على الذكر غير وارد، وليس له مسوغ. ولهذا قال الطاهر بن عاشور: "فمعنى ﴿وَتَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾: نحن نعظمك وننزهك. والأول بالقول والعمل، والثاني باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية، فلا يتوهم التكرار بين تسبيح وتقديس"^(٣). ويؤيد هذا الفهم قوله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم ٢٨]، أي: لولا تنتهون عن منع المساكين، فجعل الكف عن الحرام تسبيحا.

مما سبق يتبين أن للتسبيح معنى أوسع من مجرد الذكر، وقد اختلف المفسرون في المراد بالتسبيح في آية الإسراء ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ٤٤]. فبعضهم ذهب إلى أن المراد به عموم التنزيه، وأن كل المخلوقات تدل بحالها وبالنظر إليها على وحدانية الله ﷻ، وذهب آخرون إلى أن هذا تسبيح مخصوص بدليل قوله ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، ولكل أدلته.

والذي يبدو لي - والله أعلم - أن المراد بالتسبيح هنا هو خضوع الكائنات لله ﷻ خضوعا مطلقا، وانقيادا لها انقيادا تاما، ويدل على هذا عموم الآيات السابقة كقوله

(١) يكاد يجمع المفسرون واللغويون على أن معنى التسبيح لغة، هو: التنزيه والتبرئة من سوء، وقد جاء في الجامع لأحكام القرآن "التسبيح في كلامهم: التنزيه من سوء على وجه التعظيم، ومنه قول أعشى بني ثعلبة: أقول لما جاعني فخره سبحان من علقمة الفاجر

"أي: براءة من علقمة"

وهناك من يرى أن معنى التسبيح، هو: التعظيم قال أبو صالح في قوله ﴿وَتَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة ٣٠]. قال: نعظمك ونحمدك [الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، سورة البقرة، آية: ٣٠].

(٢) يطلق لفظ التسبيح في السنة على معنيين:

الأول: قول (سبحان الله) كما في الحديث: "من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين" [رواه مسلم (٩٣٩)]، من حديث أبي هريرة، أي: قال سبحان الله.

والثاني: الصلاة كما في الحديث "وما سبح رسول الله ﷺ سُبْحَةَ الضحى قط، وإني لأسبحها" [رواه البخاري (١١٠٦)]، ومسلم (١١٧٤)]، من حديث عائشة.

(٣) التحرير والتنوير ٢/٢٣٢.

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الحشر 1]، وآية الإسراء وغيرها، ولهذا أخبر عن أن الرعد يسبح والجبال تسبح ... فتسبيح هذه - هو تعظيمها لله ﷻ بالخضوع له كما يريد، وإن كان هذا لا ينفى أن يكون لكل كائن خضوع يناسبه، والناس قد تفقهه وقد لا تفقهه.

وبهذا يتبين لنا في معنى التسبيح ما يلي:

١. التسبيح هو التعظيم، ويدل على ذلك أن لفظ الجلالة في التسبيح يقترن بصفة العظمة والعلو والعزة ونحوها من صفات التعظيم، وتأمل هذه الآيات {فَسَبَّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة ٧٤]، {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى 1]، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الجمعة 1]، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات ١٨٠].

فهذا دليل على أن التسبيح يعني تعظيم الله ﷻ المتصف بصفات الكمال من كل سوء وعيب ونقص، كما قال تعالى {سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ} [النساء ١٧١]، {قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس ١٨]. إذن فالتسبيح أعم من التنزيه، إذ قد تنزه شخصا عن السوء دون أن تعظمه، ولكنك لا تعظم إلا وأنت تنزه عن السوء؛ لأن التعظيم يصحبه الرضا والإعجاب، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وخاصة أن التسبيح يقترن بالحمد، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، والحمد هو الثناء الذي يوجهه العبد للتعظيم، فالحمد لا يكون إلا ثناء على العظيم، بخلاف الشكر الذي يكون ثناء لغير العظيم.

٢. ولكن التسبيح ليس مطلق التعظيم، إنما التعظيم المصحوب بالدليل، ويشهد لقولنا أن الأمر بالتسبيح في القرآن الكريم يقترن - غالبا - بتكليف إلهي، هو كالدليل لهذا التعظيم، سواء أكان التكليف قولاً كقوله تعالى {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران ٤١]، أو عملاً، كقوله تعالى {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الحجر ٩٨]، {وَمَنْ اللَّيْلُ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} [الإنسان ٢٦]، {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [السجدة ١٥]،

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تقرن التسبيح بالاستغفار أو التوكل أو الدعاء أو الصبر...

فدليل التعظيم هو الخضوع والطاعة بالقول والعمل - وهذا هو معنى التسبيح في القرآن الكريم، وبهذا نعرف السر في أن القرآن يأمر بالتسبيح في سائر ساعات اليوم، كما في سورة ق {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} {٣} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} {٤}، وفي طه: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} {١٣٠}، {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} {الإنسان ٢٦}.

خلاصة القول أنه لا وجه لتخصيص التسبيح بالتنزيه، أو بمجرد الذكر، بل الأولى - كما رأينا - أن يفسر التسبيح بالتعظيم القائم على الدليل. وعليه فلا يكون من المسبحين إلا من عظم الله ﷻ بلسانه وأعماله - وهؤلاء هم الرجال الذين ورد ذكرهم في آية النور {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} {النور ٣٦-٣٧}. ومن هنا يتبين أن الإنسان لا ينجو من الغرق في الدنيا والآخرة إلا بتسبيح العظيم.

وبهذا التسبيح يستطيع الإنسان أن يزكي نفسه، ويسمو بها، فيعيش رجلا لا يرهب أحدا، ولا يذل لأحد. وبهذه العدة يدعو العصاة، ويقارع الطغاة. وقد اقترن التسبيح في الآية بالصبر؛ لأنه أمر عظيم لا يقوى عليه أي إنسان، إنما يقوى عليه من وصل حبله بحبل الله ﷻ، فاللهم اجعلنا منهم..

▪ الاستعداد ليوم الرحيل

قال تعالى (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ} {١} {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} {٢} {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ} {٣} {يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} {٤}). هذا أمر إلهي للإنسان يأمره أن يستمع لما يخبره من حال يوم القيامة. ومطلوب من الإنسان أن يكون مستمعا فعالا، يستمع فينظر ما الذي ينبغي عليه، لا أن يسمع ثم يعرض، كما قال تعالى مخبرا عن هؤلاء {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} {يونس ٤٢}.

ثم إن هذه الوسيلة هي المكملة مع التسبيح لإصلاح النفس وتزكيتها، وإعدادها لتحمل المشاق والمكاره في سبيل إقامة الحق، وتهيئتها لمقارعة جحافل الباطل وأعوان الشيطان في شتى الميادين. وعلى قدر امتلاك الإنسان لهاتين الوسيلتين تكون قوة نفسه أو رباطة جأشه، وتكون تضحيته وصبره، ويكون خوف الأعداء منه على قدر ما في نفسه من قوة، ولا يكون قوي النفس حتى يكون قوي الصلة بالله ﷻ، والثقة بما عنده، والرغبة بما لديه، والعزوف عما في أيدي الناس، واليقين بأن لا سلطان لأحد عليه، ولا قدرة ولا قوة لأحد على أن ينال منه إلا بمشيئة الله ﷻ .

وفي هذا الصدد جاء التذكير باليوم الآخر الذي أنكره المنكرون، وكذب به الجاحدون - ليدل على هشاشة نفوسهم وضعفهم، فمهما كان شأن الكافر فإن له نفسا خوارة، وقلبا جبانا، وحياة ضنكا.

ثانياً: عطاء للغير (التذكير بالقرآن)

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَيْدٍ}،) إذا كان الصبر هو الركيزة الأساسية لأمان النفس، ومصدر قوتها، وطاقتها التي لا تتضب في التحمل والمواجهة، فإن اليقين باطلاع الله ﷻ وعلمه ومراقبته لما تقدمه هذه النفس من تضحيات في سبيله، ثم يقينها بأن الله ﷻ يعلم ما يحدث لها من أذى واضطهاد وتضييق، ثم يقينها بأن ذلك لن يذهب سدى، بل إن الله ﷻ حكم عدل، وسيثيب المحسن بإحسانه، ويأخذ المسيء بإساءته - هذا اليقين هو الركيزة الأساسية لأمن المجتمع واستقراره، وانطلاقه في الحياة بفعالية وإيجابية، حتى يكون مجتمعا بناءً؛ ذلك أن المجتمع عندما يوقن بأن أي جهد يبذله أفراد له يضيع، فإن هؤلاء الأفراد سيبادرون إلى فعل الخيرات، وإقامة اللبنة الأساسية لمجتمع سليم بعيد عن الأمراض. ومن دون هذا اليقين وذلك الصبر فإن المجتمع يقع عرضة للأمراض الداخلية وفريسة للتآمرات الخارجية.

هذه المقدمة هي القاعدة الكبرى، والذخيرة العظمى للمصلحين حتى يقوموا

بواجبهم تجاه الآخرين، فيعطونهم ما ينفعهم، وقد أرشدت الآيات إلى ما ينبغي

إعطاؤه، ذلكم هو التذكير بالقرآن. فما المراد بذلك؟

القرآن الكريم - هو البرنامج الإلهي لإصلاح البشرية، وهو برنامج حاز صفات الكمال ليس فيه أي عيب أو خلل، وليس فيه أي نقص أو قصور، قال تعالى {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت ٤٢]، وقال تعالى {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل ٨٩]. فهو برنامج شامل كامل شافٍ وافٍ، هذا هو القرآن.

والتذكير به يعني، تبصير الناس بالحقيقة الخالدة التي فيها صلاح جميع أمرهم، واستقامة كل أحوالهم، واستقرار حياتهم. تبصيرهم بنيل الكرامة، وأخذ الحقوق، وإقرار السلام والأمن، وتحقيق العدالة والمساواة، والعيش في ظلال الحرية والإخاء. هذا هو التذكير بالقرآن - وهو الجانب الأول من عمل المصلحين، ولا شك أنه يحتاج إلى جهود جبارة، وطاقت هائلة، حتى يتم تفعيله على الوجه الصحيح. فلأسف أصبح كثير من الناس يفهمون القرآن فهما قاصرا جزئيا، فيؤثر جانب القصور هذا على تذكير الناس، فلا يذكرون بالقرآن كما ينبغي، ومن ثم لا يقومون بدفع عجلة التغيير إلى الأمام.

أما الجانب الثاني من عمل المصلحين فيتمثل في إقامة القرآن في ممارسات الناس وحياتهم، كما قال تعالى: {أَنْ أٰمِنُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى ١٣]، وهذا الجهد اضطلع به رسول الله ﷺ في الفترة المدنية، أما الجانب الأول فقد اضطلع به في الفترة المكية.

مؤهلات الإنسان للعبودية (سورة البلد)

المركز الإشعاعي الأخير لهداية البشر

يقسم الله ﷺ بـ(هَذَا الْبَلَدِ)، وهو البلد الحرام - مكة، ثم يقرن هذا القسم برسوله محمد ﷺ - ويشير إلى إقامته بها (وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)، وهذان - مكة ومحمد ﷺ هما المركز الإشعاعي الأخير لهداية البشر، فلن تهتدي البشرية حتى تنهل منهجها من رسول الله - محمد ﷺ، وتتوجه قلوبها إلى بيت الله الحرام. وبهذا ندرك سر اقترانهما في بدء السورة التي تتحدث عن مؤهلات العبودية لدى الإنسان، كأساس عمل هذه المؤهلات هو الانبثاق من مركز الله ﷺ الذي جعله مصدرا لخير البشر وهدايتهم.

الكيان الإنساني بين تحققه ووجوده

إن الكيان الإنساني لا يوجد إلا بسنة التوالد، (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ {٢})، فبهذه السنة يوجد الإنسان ويستمر وجوده. ولكن هذا الكيان لا يتحقق إنسانيته إلا بسنة أخرى، هي سنة العبودية، ولا عبودية صحيحة إلا عبر منهج محمد رسول الله ﷺ - القائم على التوجه إلى مكة، **فسنة التوالد تُوجد الكيان الإنساني، ومحمد رسول الله ﷺ ومكة هما مصدر تحقق الكيان الإنساني.**

بهذا التشابك البديع تفتتح سورة البلد، لتعطينا في ثلاث آيات - ثلاثة أسس للعبودية:

الأول: وحدة المكان (مكة) الذي تتوجه إليه البشرية في عبوديتها لله ﷺ.
الثاني: وحدة المصدر (الرسول محمد ﷺ) الذي تأخذ البشرية عن طريقه منهج الله ﷺ.
الثالث: وحدة التجارب المتمثلة في تجارب البشرية ورصيدها في العبودية، حيث إن سير الزمان، وتراكم التجارب بين الآباء والأبناء، وتوارث الخبرات بين السابق واللاحق، كل هذه أسس تُري الإنسان طريق الهدى، وتميزه عن طرق الضلال.

الكبد وحمل الأمانة

ثم يقسم الله ﷻ بهذه الأسس العظيمة على الحقيقة الخالدة (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾)، أي: في مشقة وعناء. وقد اختلفت أقوال العلماء في تفسير الكبد، ولكن يجمعها ما ذكرناه من أنه المشقة والعناء.

وأعظم مشقة هي مشقة الكفاح في الحياة، وأعظم عناء هو حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال {فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} [الأحزاب ٧٢]، هذه الأمانة حملها الإنسان، وهي أمانة ثقيلة. إنها الحق الذي قامت عليه السماء والأرض، وهي الحق الذي يموت عليه الناس ثم يبعثون ثم يحاسبون ويجازون، إنها أمانة أبت حملها سائر المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى وحملها الإنسان، فهي أعظم كبد خلق فيه الإنسان، فإن أساء وقصر فهو الخسران العظيم، وإن أحسن ووفى فهو الفوز العظيم، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾) [الانشقاق ٦-١٢].

إذا كان ذلكم شأن هذه الأمانة، وقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يتحملها الإنسان ويتكبد لأجلها - فما الضمانات التي جعلها الله ﷻ على نفسه إذ كلف الإنسان بهذا؟ وما المؤهلات التي أعطاها الله ﷻ له حتى يقدر على النهوض بأعبائها؟

ضمان التكليف

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾).

إن الله ﷻ قد جعل على نفسه - حين كلف الإنسان - أن يحفظ هذا الإنسان بشيئين، الأول: بقدرته عليه، والثاني: بمراقبته له. فالإنسان من أول ما ينشأ - حين يكون نطفة - وحتى يموت ثم يبرم عظمه، ثم يجمعه ويبعثه - في حفظ الله ﷻ، كما قال تعالى {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق ٤].

وهذا الحفظ له وجهان، الأول: القدرة عليه، فالله ﷻ على كل شيء قدير، والإنسان في قبضته لا يحمي، ويجهل الإنسان حين يتوهم أنه قائم على نفسه، فيفسد في الأرض، وينتهك الحقوق، ويبدد الأموال - ويحسب أن يقدر عليه أحد. الثاني: مراقبته، فالله ﷻ على كل شيء شهيد {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر ١٩]، والإنسان يعيش في هذه الحياة تحت المراقبة الإلهية {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق ١٨].

هذا الحفظ الإلهي يشعر الإنسان بعظم المسؤولية التي حملها، وأن الله ﷻ لأجلها يحفظه بقدرته ومراقبته، ثم يحاسبه على ما عمل، ثم يجازيه بالإحسان إحساناً، وبالإساءة عذاباً، فينطلق الإنسان بحريته واختياره - في الدنيا - إما للقيام بالمهمة إن كان ذا عقل ولب، وإما للتخلي عن المسؤولية إن كان غير ذلك {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك ١٠].

مؤهلات التكليف

ومؤهلات التكليف هي ما وهب الله ﷻ للإنسان من وسائل يستطيع بواسطتها أن يعرف الحق فيقوم به في نفسه وبقيمه في الناس، ويعرف الباطل فيبتعد عنه، وينهى عنه الناس. هذه المؤهلات تتمثل في شيئين:

الأول: وسائل المعرفة وهي الحواس، قال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ {٨} وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ {٩})، فبعينه يستطيع أن يبصر الحق، ولسانه يستطيع أن يأمر به. والشفتان مع اللسان يمثلان حجر الزاوية في عملية الكلام الإنساني، والكلام هو الطريقة الأساسية في نقل المعاني من داخل النفس إلى الآخرين، وبه يستطيع أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ولهذا كان الجمع بينهما. وفي آيات أخرى، ذكر الله ﷻ السمع أيضاً كما قال {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} [المؤمنون ٧٨].

الثاني: وسائل الهداية: (وَهَدَيْنَاهُ الْجَدَيْنِ {١٠})، أي: هديناه الطريقين، فما هما الطريقان؟

يقول المفسرون بأن المراد بالآية هديناه طريق الخير والشر، وطريق الحق والباطل، وأعطيناه القدرة على التمييز بينهما، حيث أتى الله ﷻ الإنسان عقلاً به يميز، ومن فقدته فقد شقي، كما سيقول الكافرون حين يعترفون بذنبهم {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك ١٠].

ولا مانع من حمل الآية على هذا المعنى، ولكن الأولى عندي - والله أعلم، أن الآية تبين للإنسان الوسائل التي يصل بها إلى الهداية، كما بينت له الآية الأولى الوسائل التي يصل بها إلى المعرفة. وليس الغرض أن تبين له إلى ماذا يهتدي إلى الخير أم إلى الشر. فإذا عُرف هذا، فإن للهداية وسيلتين: الوسيلة الأولى: الهداية الذاتية، وتتمثل في العقل. والوسيلة الثانية: الهداية الخارجية، وتتمثل في الوحي.

فيكون المعنى: **وهدينا الإنسان بالطريقين: بالعقل والوحي.** وبعد ذلك عليه أن يقرر ويختار {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان ٣].
فإن قيل كيف يتعلق الوحي بالإنسان؟ فالجواب إن الذي يتعلق بالإنسان هو اختيار هذا الطريق الذي أنزله الله ﷻ إليه، فهو يستطيع أن يختاره، ويستطيع أن يرفضه، وعليه أن يتحمل نتيجة اختياره.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

ما الحكمة من إعطاء تلك المؤهلات للإنسان؟ إن الحكمة هي أن تقتحم العقبة، ولهذا جيء بالفاء (فلا)، أي: فطالما وهبك الله ﷻ المؤهلات فأد حقها واقتحم العقبة، "والاقتحام: الدخول والتجاوز بشدة ومشقة. وجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحاماً لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس"^(١).

إن العقبة هي العبودية التي باقتحامها يبلغ الإنسان سعادة الدارين. والعبودية عقبة تحتاج إلى عناء، وليست متعةً وعيشاً في رخاء، لا. إنها تحتاج إلى مجاهدة ومصابرة ومكافحة ومعاونة، ومن نكل عن العبودية فإنما يبنى عن عزه وخوره وضعفه أمام العقبة. والآيات توضح أن للعبودية عنصرين: رعاية الناس، ورعاية النفس.

رعاية الناس

{فَكَ رَقِيَّةٍ} {١٣} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ {١٤} يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ {١٥} أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ {١٦}.

رعاية الناس تعني تركيتهم بإشاعة معنى العبادة الاجتماعي في المجتمع. وهو ليس فضلاً يتفضل به الإنسان على مجتمعه، ولكنه واجب أساسي، عليه أن يقوم به حتى يحقق مصلحته ويضمن نجاته أولاً، ثم يحقق مصلحة مجتمعه ونجاته ثانياً. هذا الواجب المتمثل في إقامة فعل الخير في المجتمع، كفك الرقاب من غل الرق والأسر، وفكها من غل الاستبداد والاستعباد، وفكها من الجور الواقع عليها، وفكها باستخلاص حقوقها، وفكها بإرشادها إلى استخراج حقوقها الإنسانية، بأي وسيلة شرعية كان ذلك.

ومن فعل الخير إطعام اليتيم والمسكين، ويتوسع معنى الإطعام في هذا العصر، فلم يعد معناه أن يأخذ المسكين كسرة خبز أو تمرات يتبلغ بها، بل إن معناه أوسع من ذلك **فالإطعام معناه - اليوم - توفير الاحتياجات الأساسية لغير القادرين، والاحتياجات الأساسية مختلفة، تشمل الحاجة إلى الطعام والكساء والدواء، كما تشمل توفير حاجات**

(١) الزمخشري: الكشاف ٥٩٥/٤. مكتبة مصر.

المجتمع الأساسية اللازمة لأن يكون مجتمعا حرا كريما لا يستجدي غيره، ولا يسترقه أحد. هذه الاحتياجات متنوعة، تتمثل في البنية الأساسية لنهضة المجتمع من تعليم واقتصاد وقوة عسكرية وغيرها.

إن اليتيم والمسكين قد يكون فردا، وقد يكون مجتمعا - والخيط الجامع بينهما هو حاجة كل إلى المقوم الأساسي لوجوده، واقتحام العقبة هو القيام بالواجب الاجتماعي في سد هذه الحاجات، وبدون سد هذه الحاجات فإن ذمة الإنسان تبقى مشغولة به، ولا ينفعه القيام بالعبادة الفردية التي سنتحدث عنها، وعلماؤنا يسمون هذا الواجب بفرض الكفاية الذي يعني أنه إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

غير أن الحقيقة أن هذا الواجب لا يسقط من ذمة الإنسان، ولو قام به الناس كلهم، بل على الإنسان أن يسهم في إقامته؛ لأن ذمته مشغولة حتى يؤدي ما عليه، صاحب المال يساهم بماله في إقامته، وصاحب الجاه يسهم بجاهه، وصاحب السلطان بسلطانه، وصاحب اللسان بلسانه. ومن لا يستطيع أن يقوم بهذا الواجب فليساعد من يقوم به من الناس، وليؤازره ولو بالكلمة، ولو بالموقف، ولو بالدعم المالي، ولو بالدعم المعنوي. ولتستيقن - أيها الإنسان - أنك لست بناج ما لم تقم بهذا الواجب الذي ضيعته الأمة، وأصبح كثير منها يراه نافلة من العبادة، وليس واجبا هو مسئول عنه.

وتأمل كيف أن الله ﷻ قدم هذا الواجب على الواجب الآخر الذي هو رعاية النفس؛ لأنه المظهر الأساسي للعبودية في الأرض، ومن دونه يظل المعبود بين الناس غير الله ﷻ، فيحتكمون إلى سواه، ويرجون سواه، ويخشون سواه، ويستبد بعضهم ببعض، ويتأله بعضهم على بعض، ويعبد بعضهم بعضا.

والمصيبة التي وقعت فيها الأمة اليوم - هو تخليها عن هذا الواجب، بل ومحاربتها لمن يقوم به، والنظر إليه بازدراء واحتقار، وأصبحت الأمة ترى أن القائمين بهذا الواجب هم سبب البلاء، والنكبات....

وما أشبه الليلة بالبارحة، حين قالت ثمود لصالح عندما كان ينصحهم، فقالوا {إطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} [النمل ٤٧]، وهو شأن قوم فرعون مع موسى ﷺ {فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [الأعراف ١٣١]، وقال الله ﷻ يحكي شأن الناس مع سيدنا محمد ﷺ {وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} [النساء ٧٨]. إذن فهو ديدن المنهزمين والضعفاء الذين يتخلون عن واجبهم الاجتماعي، ويرمون من بكل نقيصة.

رعاية النفس

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا). رعاية النفس يعني تطهيرها، وتزكيتها، وذلك بتعبيدها لله ﷻ. وطريق هذه التزكية هو الإيمان بالله ﷻ. وهذا هو واجب الفرد تجاه نفسه، وهو فرض يتعين عليه ولا يقوم به غيره، وهو أساس الصلاح. فمهما كان عمل الإنسان ويره وإحسانه إذا لم يكن مؤمنا، فإنه لن ينفعه ذلك؛ لأن الأساس باطل، فمن لم يطهر نفسه ولم يكرمها، فليس له حق في التكريم، وكل كرامته أن تطهره النار، كما تبين خاتمة السورة (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ {٨} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ {٩}).

أما المؤمنون الذين اقتحموا العقبة، وخاضوا غمارها ف(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَةِ {٨}) والميمنة - في القرآن الكريم - منزلة ينالها من استحق كرامة الله ﷻ، وهم أصحاب اليمين الذين يكرمهم الله ﷻ فيعطيههم صحائفهم يوم القيامة بأيمانهم. وهذا كناية عن نجاتهم وحسن جزائهم - بخلاف أصحاب المشأمة الذين هم أصحاب الشمال، حيث يأخذون صحائفهم بشمائلهم - وهذا كناية عن هلاكهم وسوء جزائهم.

الصبر والمرحمة

وأخيرا، فإن هؤلاء المؤمنين يتواصلون في الدنيا بشيئين: بالصبر، وبالمرحمة. الأول: الصبر. والصبر هو أساس رعاية النفس، فمجاهدة النفس، وتطهيرها وتزكيتها يحتاج إلى كفاح طويل، وجهاد شديد. وبدون الصبر ينهار العمل كله ويتهاوى البناء كله.

الثاني: المرحمة. والمرحمة هي أساس رعاية الناس، فبالمرحمة التي خلقها الله ﷻ في قلب الإنسان يرحم غيره، يرحمه من جحيم الدنيا المتمثل في البؤس والظلم والجوع والعري والخوف والظلم والاضطهاد والاستبداد - فيسعى لدفعه عن أخيه الإنسان، ويرحمه من جحيم الآخرة وسعيرها ولهيبها - فيسعى إلى دعوته للإيمان والقيام بواجبه في هذه الحياة.

ضمانات التكليف: الحفظ (سورة الطارق)

سبق أن بينت سورة البلد أن الحفظ الإلهي للإنسان هو ضمان التكليف الإلهي، أي ما جعله الله ﷻ على نفسه حين كلف الإنسان بعبوديته، فقد جعل على نفسه حفظ هذا الإنسان بقدرته ومراقبته. ولما كان هذا الأمر من الأهمية بمكان؛ لأنه يتعلق بأخطر مهمة في الوجود، ألا وهي مهمة العبودية الملقاة على عاتق الإنسان، المهمة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، المهمة العظمى التي تمرد عليها الإنسان بعد أن عاهد الله ﷻ ليقومن بها ﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف ١٧٢]. - لما كان الأمر كذلك جاءت هذه السورة لتلقي الضوء على قضية الضمان الإلهي (الحفظ الإلهي).

الحقيقة المقسم عليها

يقسم الحق سبحانه بالسماء والطارق الذي هو النجم الثاقب^(١) - يتقرب الظلام بشعاعه، ويبدده - يقسم على (إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)، قال سيد قطب: "ما من نفس إلا عليها حافظ، يراقبها ويحصى عليها، ويحفظ عنها، وهو موكل بها بأمر الله ﷻ. ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار، وهي التي يناط بها العمل والجزاء، ليست هنالك فوضى إذن ولا هيصة، والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس، ولا مهملين في شعابها بلا حافظ، ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب. إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر، والحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر"^(٢).

(١) (والسماء والطارق...)، للنجم هنا صفتان: الثاقب، والطارق، فما الطارق؟ وما الثاقب؟ يقول علماء الفيزياء الكونية أن بعض النجوم ذات الكتل العظيمة بعد تكورها وصبورتها إلى أقزام بيضاء - يحدث أن خارجها ينفجر، فيسبب انفجارا هائلا لغلافها الخارجي، فيمحل الانفجار كمية هائلة جدا من الطاقة تكون على شكل جسيمات سريعة الحركة، مع ضوء شديد، ويظهر النجم في هذه الحالة ثاقبا شديدا السطوح، كما يصحب الانفجار موجات صدمية طارقة هائلة (shock waves)، فالطارق هو الذي يطرق فيصدر صوتا، والثاقب شديد المعان [ينظر: خلق الكون بين العلم والإيمان، د. محمد باسل الطائي، ص ٧٠]. وهذه النجوم تعرف بالنجوم النيوترونية، وقد اكتشفت عام ١٩٦٨ بالتلكسوب اللاسلكي الذي تلقى إشارات لاسلكية منتظمة، كانت تصل على صورة متقطعة تشبه طرق الباب، والسماء فيها ملايين النجوم النيوترونية، التي لو اصطدمت بالأرض لأفنت الحياة، ولهذا أقسم الله ﷻ بها على (إن كل نفس لما عليها حافظ) [ينظر: آيات قرآنية في مشكاة العلم، د. يحيى المحجري].

(٢) في ظلال القرآن ٣٨٧٨/٦.

وقد سبق أن بينا في سورة البلد أن حفظ للإنسان يعني قدرته عليه، فلا يكن منه شيء إلا بإرادته، ومراقبته له، فلا يصدر منه شيء إلا ويعلمه الله ﷻ، وهذا معنى الحفظ الإلهي للإنسان. وبناء على هذا الحفظ سيحاسب الإنسان يوم الدين، لينظر ما صنع فيما أمر به.

أدلة الحفظ

تورد السورة ثلاثة من أدلة الحفظ الإلهي، حتى يستيقن الإنسان أن الله ﷻ قادر عليه، ومطلع عليه. وهذه الأدلة تؤكد الحفظ الإلهي، حتى لا يكون للناس حجة في نكوصهم عن أداء المهمة المسندة إليهم. وهذه الأدلة، هي: حفظ الإنسان في نشأته، وحفظه في مصيره، وحفظ الكون.

الدليل الأول: حفظ الإنسان في نشأته

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} {حُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} {٧}. يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أصل نشأته، يوم أن كان ماء دافقا خرج من بين الصلب والترائب^(١)، فيوم أن كان كذلك. من الذي حفظه؟ وأنشأه؟ وأنشأ له أجهزة وعظاما وعضلات وخلايا وسمعا وبصرا و... الخ؟ ثم من الذي حفظ له تلك الأجهزة ونماها ورباها ورعاها حتى خرج من بطن أمه؟، ثم حفظها له في الصغر حتى أصبح إنسانا سويا، من القادر. إذن. الذي قدر على حفظ تلك النطفة حتى صارت إنسانا؟

(١) الآية تشير على وجه الإعجاز إلى موضع تدفق المنى من الإنسان قبل أن يخرج إلى ظاهر الجسم. والصلب هو مجموعة الفقرات التي تؤلف العمود الفقري، والترائب هي الأضلاع الصدرية. والصلب والترائب مع عظام القلب تشكل ما يسمى تشريحيا بالفقص الصدري. والمعنى: أن الماء الدافق يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، ولكي نفهم هذه الحقيقية نذكر بعض التفاصيل العلمية: مصدر الأوامر العصبية والتي تتحكم بالانتصاب النفسي وعملية القذف عند الرجل - هو في النخاع الشوكي الظهري، وهو الموجود داخل عظام الصلب والترائب، ولهذا تلاحظ دقة اللفظ القرآني "من بين الصلب والترائب"، ولم يقل (من الصلب والترائب)، وأي إصابة مرضية في النخاع الشوكي الصدري تؤدي إلى العجز الجنسي. ومن ناحية أخرى فإن الأوعية الدموية التي تمد الجهاز التناسلي بالغذاء عند الرجل والمرأة تبدأ في مكان هو بين الصلب والترائب، (من الشريان الأبهر، والوريد التجويفي السفلي)، وأي إصابة في هذه الأوعية تعيق الدفق عند الرجل، والإباضة عند المرأة. [ينظر: من علم الطب القرآني، د. عدنان الشريف، ص ٧٨-٨٠، بتصرف]

وفي الآية إعجاز آخر، ذلكم هو وصف المنى بأنه دافق، ودافق اسم فاعل، فالماء هو الدافق، وليس مدفوقا، وواضح من إسناد التدفق إلى الماء أن للماء قوة دفق ذاتية، وقد أثبت العلم الحديث أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لا بد أن تكون حيوية متدفقة متحركة، وهذا شرط للإخصاب. كما أثبت أيضا أن حيوية البويضة شرط لإخصابها.

الدليل الثاني: حفظ الإنسان في مصيره

(إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾، إِنَّ اللَّهَ جَلِيلٌ الَّذِي حَفِظَ الْإِنْسَانَ فِي نَشَأَتِهِ، إِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى حِفْظِهِ حِينَ يَصْبِحُ رَمِيمًا، ثُمَّ يَرْجِعُهُ كَمَا كَانَ { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الأنبياء: ١٠٤]. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - تَخْتَبِرُ سَرَائِرَ الْإِنْسَانِ وَتَتَكَشَّفُ، وَلَا يَكُونُ لَهُ قُوَّةٌ تَمْنَعُهُ وَلَا نَاصِرٌ يَحْمِيهِ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ مِنَ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِي - حِينَ يَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ، يَعْرِفُ مَا الَّذِي قَدِمَهُ فِي الْحَيَاةِ، {يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣].

فَإِذَا تَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ اللَّهَ جَلِيلٌ حَفِظَ الْإِنْسَانَ فِي نَشَأَتِهِ، وَسَيَحْفِظُهُ فِي مَصِيرِهِ . أَفَلَا يَحْفِظُهُ بِقُدْرَتِهِ وَرِقَابَتِهِ فِي حَيَاتِهِ الَّتِي بَيْنَ النِّشْأَةِ وَالْمَصِيرِ !؟

الدليل الثالث: دليل الحفظ في الكون

(وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١﴾ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿٢﴾) ^(١) يَقْسِمُ اللَّهُ جَلِيلٌ بِهَذَيْنِ الْمَخْلُوقِينَ: السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَفِي طَيِّ الْقِسْمِ بِهِمَا، يَبِينُ أَنَّهُ يَحْفِظُ كُلَّ شَيْءٍ - فَهُوَ الْحَفِيزُ، فَالسَّمَاءُ تُرْجَعُ إِلَى الْأَرْضِ مَا تَعْطِيهَا، وَالْأَرْضُ تَحْفِظُ لِلسَّمَاءِ مَا تَهْبِئُهَا. السَّمَاءُ تَأْخُذُ مِنَ الْأَرْضِ مَاءَهَا الَّذِي يَتَبَخَّرُ بِفَعْلِ الْحَرَارَةِ، ثُمَّ تَحْفِظُ هَذَا الْبَخَارَ وَلَا تَدْعُهُ يَتَصَاعَدُ إِلَى الْفُضَاءِ فَيَتَبَدَّدُ

(١) (والسمااء ذات الرجوع دلالة واسعة، أوسع من قصرها على رجوع المطر، ومن أوجه الرجوع التي تقوم بها السماء - وتسمى في العلم الحديث: إعادة الإرسال:

- طبقة التروبوسفير (١٣-١٥ كيلومترا فوق الأرض) تمكن بخار الماء من الصعود من سطح الأرض والتكثف، ثم ترجه مطرا.
- طبقة الأوزون التي تقع على ارتفاع (٢٥كم)، تعكس الإشعاعات الضارة، والأشعة فوق البنفسجية الآتية من الفضاء، وترجعها إلى الفضاء.
- طبقة الإينوسفير تعكس موجات الراديو التي تبيت من الأرض، وترجعها إلى مناطق مختلفة من العالم، تماما مثل الأقمار الصناعية، وبذلك فإنها تجعل البث الإذاعي والتلفزيوني والاتصالات اللاسلكية طويلة المسافة أمرا ممكنا.
- طبقة الماغوسفير تعيد الشحنات الكهربائية التي تصدر عن الشمس وغيرها من النجوم - إلى الفضاء قبل أن تصل إلى الأرض. ولولا هذا الحفظ لسقطت علينا تلك الشحنات الكهربائية صواعق محرقة لا تبقى ولا تذر.
- طبقة الستراتوسفير تقوم برفع الشهب والنيازك التي تغزو الأرض، فتمثل درعا واقيا. [المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ص ٢٤].

(والأرض ذات الصدع)، كذلك فإن دلالة الصدع لا تقف عند ما ذكره المفسرون من أنها الشقوق التي تنشأ في التربة بعد ربهها، ومن خلالها تنشأ البراعم الخضراء، حيث يخترق البرعم التربة؛ من خلال تلك الصدوع أو الشقوق الصغيرة. وإنما تحمل دلالة أخرى لم يكتشفها علماء الجيولوجيا إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث يقولون أن هناك شبكة هائلة من أنظمة الصدوع التي تحيط بالكرة الأرضية لعشرات الآلاف من الكيلو مترات، وفي جميع الاتجاهات، مسببة في تجزيء طبقة (الليثوسفير) إلى ألواح عظمى ومتوسطة وصغرى، وهذه تعتبر من أبرز علامات الكرة الأرضية، وهذه الصدوع سبب في تشرب الغازات من الغلاف الجوي والغلاف المائي للكرة الأرضية، كما أنها سبب في تكوين وتكسير القارات، وتكوين الجبال، وإخصاب القشرة بمعادن جديدة، بشكل منتظم، كما أنها سبب في تحريك ألواح (الليثوسفير) وبالتالي إطلاق الحرارة الكامنة داخل الكرة الأرضية بشكل تدريجي. ولولا هذه الصدوع لاستحالت الحياة على الأرض. [د. زغول النجار، نقلا عن موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٢٤٠ - وما بعدها].

فيه، بل تحفظه وترجعه إلى الأرض ماء في صورة أمطار، والأرض تحفظ هذا الماء النازل في جوفها، ثم تتصدع عن نبات يتغذى على تلك المياه، إذن فلا شيء يضيع، ولا شيء يتبدد، بل كل شيء محفوظ.

وهذه لفنة قرآنية رائعة تؤكد أن كل شيء ينتجه مخلوق فهو محفوظ. فما أنتجته الأرض حفظته السماء، وما أنتجته السماء حفظته الأرض. وكلُّ يحصد ثمرة ما ينتج - وكذلك ما ينتجه الإنسان من أعمال فإن الله ﷻ يحفظه، وسيحصد الإنسان ثمرة ما أنتجه.

الخلاصة

والخلاصة التي تصل إليها السورة بعد تقرير أن الله ﷻ جعل للتكليف ضمانا عظيما - وهو حفظ الإنسان - الخلاصة:

1. أن ما جاء من عند الله ﷻ حق، وأن تكليف الله ﷻ حق، وأن أمره الإنسان بعبادته حق، وسيحاسبه في ضوء هذا الحق، قال (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ {٣} وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ {٤})، فلا مجال للهزل هنا، بل هو القول الفصل، القول الحق الذي جاءت سور القرآن تقرره.
2. أن الحفظ الإلهي هو ضمان التكليف، ولن يضيع شيء يعمله الإنسان، سواء أكان عملا صالحا أم عملا سيئا، فكل شيء محفوظ. وبالتالي، فمهما مكر الإنسان وأفسد، فإنما يضر نفسه؛ لأن الله ﷻ يحفظ ذلك العمل ثم يجازيه عليه، قال تعالى (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا {٥} وَأَكِيدُ كَيْدًا {١١} فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا {١٧}).

وبهذه الخلاصة تنتهي التطوافة الشيقة التي صحبتنا فيها قضية العبودية في السور السابقة. وقد تنوع عرض الحقيقة، وتكاملت أجزاءها، وتآزرت جوانبها؛ لتصل إلى هذه الخاتمة العظيمة. فاعمل أيها الإنسان ما شئت، واستيقن أن كل ما تعمله محفوظ ستحاسب عليه ثم تجازى.

الفصل الخامس: الرصيد الإنساني في العبودية

بعد أن عرضت السور السابقة الجزء الأول من البحث المتعلق بتكليف الرحمن لهذا الإنسان أن يعبده ويقيم دينه في الأرض، تأتي معنا سورتا (القمر، وص) لتعرضا الجزء الآخر من البحث المتعلق برصيد الإنسان من هذه القضية عبر تاريخه الطويل. فتعرض سورة القمر الجانب السلبي، حيث تمرد الإنسان على تكليف ربه، واستمرراً الطغيان، فرصدت سورة القمر هذه القضية من زواياها المختلفة عبر تاريخ البشرية. أما سورة (ص) فقد عرضت الجانب الإيجابي للإنسان، وهو ذلك الإنسان الذي أذعن لربه وانقاد، وأعلن رضاه بتكليف ربه، ثم قام بهذا التكليف في الأرض.

التمرد والطغيان (سورة القمر)

جاءت هذه السورة لترصد الطغيان الإنساني في مسيرته التاريخية، بدءا بقوم نوح ثم عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون - وحتى قریش قوم محمد ﷺ. وهو موضوع السورة الأساسي، وقد ابتدأت بمقدمة عرضت لظاهرة الطغيان - مظاهره وأسبابه، واختتمت بخاتمة بينت فيها القانون الإلهي الخاص بـ (ملف) الطغيان البشري.

مقدمة: ظاهرة الطغيان [من آية: ١ إلى: ٨]

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} ... يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ {٨}). تتحدث المقدمة عن ثلاث قضايا: ناقوس الخطر، ومظاهر الطغيان وأسبابه، وأخيرا موقف المؤمن منهم.

أولاً: ناقوس الخطر

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} {١}). مع اقتراب الساعة وقيام علاماتها، يصبح الحديث عن الطغيان خطيرا؛ ذلك أن عقارب الساعة الأرضية بدأت تعد العد التنازلي لمدة بقاء الإنسان، فاستمراره في الطغيان - كما توحى الآيات التالية - معناه أن الخسارة فظيعة، والمصيبة عظيمة؛ ذلك أن الإنسان سيفقد ميزات الإنسانية عن قريب، حين يرضى لنفسه أن يدخل نارا تلظى. وهذه الدرجة من الانحطاط هو الذي يختارها ويسعى إليها.

ثانياً: مظاهر الظاهرة وأسبابها

■ مظاهر الطغيان

أما المظاهر فتبينها الآيات (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ {٢} وَكَذَّبُوا).

إنها نفس مريضة قد أكلها الداء، وهشمها، فلم تعد صالحة للحياة. نفس ملئت بالتبجح والعناد والتكبر والمماراة، يرى الآية بعينيه ويقول هذا (سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ). وهذه الآيات تعرض ثلاثة من مظاهر الطغيان:

١. **الإعراض عن الحق.** والإعراض هو الصدود والنفور عن الحقيقة، كما قال تعالى {سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَكْبُرُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} [الأعراف ١٤٦]. وكأنما هو شعارهم ودينهم.

وستجد تطبيقات الإعراض - لو نظرت - في شتى مجالات الحياة، ففي جانب الساسة ينفرون من ممارسة العدل، وتوفير الحرية، وصيانة الكرامة، والتشاور في مصالح الأمة - ويتخذون بدلا من ذلك ممارسة الاضطهاد والكبت والقمع والإذلال، والاستبداد. وهذه الكلمات هي عناوين رئيسة في سياسات الطاعين.

وفي جانب الأخلاق يعرضون عن ممارسة الصدق والإخلاص والإتقان وتغليب المصلحة العامة، والمشاركة الإيجابية - ويتخذون بدلا من ذلك ممارسات خاطئة، كالكذب والنفاق واللهث وراء المصلحة الذاتية، والتخلي عن المسؤولية... الخ. إن تطبيقات الإعراض متشعبة في حياة الناس عندما يستبد بها الطغيان، وتركن إليه، سواء أكان طغيان القوة والاستعلاء، أم طغيان الضعف والاستخذاء.

٢. **تزييف الحق.** وهذا مظهر ثان من مظاهر طغيان البشرية، إنه تزييف الحقائق، فهم أولا يعرضون عن الحقائق، ثم يعمدون إليها لتزييفها، والباس الحق ثوب الباطل، والباس الباطل ثوب الحق. الأمين. عندهم. خائن والخائن أمين، التافه من الأمور ومن الناس هم الذين يشغلون اهتمام الناس، والعظيم منهم مقصي عن دائرة الاهتمام.

والطغيان يدفع أهله لتسخير كافة الوسائل من أجل تزييف الحقائق، وهذا ما تشير إليه الآية في سورة القمر (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)، والآية هي الحقيقة الدالة على صدق القرآن، وصدق النبي ﷺ. فهم (أي المشركون) يقولون عن هذا الحق بأنه سحر مستمر دائم لا ينقطع، ولا يزالون يملئون آذان الناس بهذا الزيف حتى يحسبه الناس حقا لا مرأ فيه.

٣. **محاربة الحق.** فهم لا يكتفون بالإعراض عن الحقائق ثم تزييفها، بل إنهم يسعون بكل قواهم وجهودهم وأموالهم إلى محاربتها والقضاء عليها. يحاربون الحرية والعدالة، يحاربون الشورى والنزاهة، يحاربون الكرامة والصدق، يحاربون التطور والرقى... يحاربون الحق وحملته، يحاربون أولياء الرحمن وأنصاره، ويختلفون لذلك شتى المسميات، حتى تروج بضاعتهم، ويستغفلوا غوغاء الناس وعامتهم، قال تعالى مشيرا إلى هذا المظهر (وَكَذَّبُوا).

هذه المظاهر الثلاثة: الإعراض عن الحق، وتزييفه، ومحاربتته، - تتجلى في تاريخ البشرية كلما استمرت الطغيان، وركنت إليه.

▪ أسباب الطغيان

وأما الأسباب الرئيسية للطغيان، فهي:

١. **اتباع الهوى**، قال تعالى (وَائْتَمُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝٣). إن الطغيان لا ينشأ من استقرار الحقائق؛ لأن الأمور إذا استقرت، وعُرف الحق فيها، فليس أمام الإنسان العاقل خيار إلا اتباعها. ولكن النفس المريضة تلجأ إلى اتباع الهوى حتى لا ترى عيناها الأمر المستقر، ومن ثم يخلق الهوى في النفس شرعية الطغيان والانحراف، ولهذا سماه القرآن الكريم إلها {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان ٤٣]. إذا فالإنسان إما أن يتبع الأمر المستقر - وهو الحق البين - وإما أن يتبع الهوى المضطرب، فيشقى ويضل ويطنى.

٢. **تعطيل البصائر**. (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۝١٠ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُعِنُّ الشُّرُكُوهُ). تبين الآيات أن السبب للطغيان هو تعطيل البصائر، وتخديرها عن رؤية الحق، فمهما تكن الآيات الزاجرة، والعظات البينة، والنذر البليغة - فإنهم يصمون آذانهم عن سماع الحقيقة، ويعمون أبصارهم عن رؤيتها، ويكفون أفواههم عن الاعتراف بها {صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فُهُمْ لَا يَعْتَلُونَ} [البقرة ١٧١]، ولهذا ما تغنيهم نذر الله ﷻ التي ينصبها في الآفاق، ولا رسله الذين يرسلها من الناس.

وإذا عرف السبب بطل العجب، فإن حملة الحق إذا استطاعوا أن يزلزلوا هذه الأسباب، ويقتلعوا جذورها من النفوس - فإنهم يحولون بين الإنسان وبين الطغيان. ولهذا عندما تخلصت بلقيس من السبب الثاني، وأيقظت بصيرتها، آمنت بالله ﷻ، وبين الله ﷻ سبب كفرها بأنه تعطيلها لبصيرتها {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ} (١) [النمل ٤٣]. ومهما أُنذر الإنسان فإن النذر لا تغنيه إذا عطل بصائرته؛ ذلك أنه يضع مواد عازلة على قلبه وعلى جوارحه، تمنع وصول الحق إليه.

(١) لهذا الأمر مزيد بيان في سورة النمل.

ثالثاً: موقف المؤمن منهم

يتلخص الموقف في شيئين، الأول: التولي عنهم (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ)، أي فأعرض عن طغيانهم، أعرض عن باطلهم - وهذا كقوله: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا} [النجم ٢٩]. وقد بينا المراد بالإعراض والتولي عن الطاغين في سورة النجم.

الثاني: الاعتبار بحالهم (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ مُّكْرًا) {حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَشِيرٌ} {٧} مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ {٨}. ففي ذلك اليوم ستخضع الأبصار التي عميت عن رؤية الحق، وسيبصرون بعد عمى، ويسمعون بعد صمم، وينطقون بعد بكم، ولكن لا ينفعهم ذلك شيئاً في ذلك اليوم العصيب.

محور السورة: رصيد الطغيان الإنساني [من آية: ٩ إلى ٤٢: ٤]

ترصد السورة طغيان البشر عبر التاريخ، وتتناول هذه الظاهرة من زوايا عديدة، وهو ما سوف تقوم بتحليله هنا، وذلك عبر خمس زوايا.

الزاوية الأولى: الخط الرأسي للطغيان

يتناول هذا الخط بيان طغيان البشر من خلال خمسة أقوام جاءوا في أجيال متلاحقة: قوم نوح، ثم عاد (قوم هود)، ثم ثمود (قوم صالح)، ثم قوم لوط، ثم آل فرعون (قوم موسى عليه السلام). وهؤلاء يمثلون منعطفات بارزة في تاريخ الطغيان البشري، ولكنهم جميعاً يتفقون في التكذيب برسول الله . عليهم السلام . ونذره {أَنوَاصُوا بِهِ بَلَاءٌ لَهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات ٥٣]. وسورة القمر لم تفصل الحديث في طغيانهم - كما فصلت سور أخرى - إنما بينت أنهم جميعاً طاغون، طغوا وتمردوا وكذبوا، ولم ينتفع باللاحق منهم بالسابق؛ وذلك بسبب اتباع الهوى، واللجاج في العمى.

ويمكن للنظر رصد حلقات أخرى من بعد نزول القرآن الكريم، طغت وكذبت ولم تعتبر بمن سبق، كقريش، ودولة فارس، والروم، وغيرهم. والجامع الذي يجمع هؤلاء أن اللاحق لا يعتبر بالسابق؛ لأنه عطل بصيرته وألغى عملها، فلم يعظه من سبقه، فيتبع هواه في الطغيان والعصيان حتى يهلكه الله عز وجل.

ونلاحظ من ناحية ثانية أن رصد القرآن التاريخي لهذه النماذج قد عرضها كنماذج للطغيان الجماعي، حيث يكون الطاغون قوماً، كقوم نوح وعاد...، وحتى فرعون أشهر نماذج الطغيان الفردي، عرضه كطغيان أمة، فجاء بلفظ (آل) (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ

الثُّدْرُ{٥}. ذلك أن الفرد إذا طغى واستبد، ولم يصدده قومه، سواء أعانوه أم تركوه سادرا في غيه، فإن طغيانه - حينئذ - يصبح طغيان أمة، وإذا ما نزل عذاب عمهم جميعا، قال تعالى {وَأَقْوَمُ قِتَّةً لَّا تُصَيِّنُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال ٢٥].

وإذا نظرنا في سياق الآيات نجد أنها لم تفرق بين المستكبرين (الملا) والمستضعفين - كما في سورة أخرى، كسورة الأعراف - وإنما عمتهم جميعا، تأمل (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)، (كَذَّبَتْ عَادٌ)، فكلهم مكذبون، وكلهم طاغون، قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم، نعم. **إن طغيان الأقوياء استبداد، وطيغيان الضعفاء رضا بالاستبداد... وإن طغيان الأقوياء استعلاء، وطيغيان الضعفاء استخذاء... وإن طغيان الأقوياء استكبار، وطيغيان الضعفاء استحمار.**

ولن يكون الضعف عذرا لضعيف، ولا الفقر عذرا لفقير {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء ٩٧].

الزاوية الثانية: الخط الأفقي للطغيان

إن الطغيان ليس له وجه واحد، بل إن له أوجها عديدة، ويمتد سمه في مجالات كثيرة. والقاعدة العامة هنا أن كل انحراف عن الخط الإلهي في أي مجال من مجالات الحياة - فهو طغيان وتمرد، ومن هنا فإن الطغيان الإنساني نوعان:

الأول: الطغيان المعرفي. فالإنسان - كما عرفنا في سورة اقرأ - يجب أن تستند معرفته على الهدى الإلهي، وأسس هذه المعرفة، هي الإيمان بأن الله ﷻ حق، وأن ما جاء من عنده حق، وأن ما أخبرنا به حق، ونؤمن بقدره، ونؤمن بالبعث والنشور، وبالحساب والجزاء، وبالجنة والنار. هذا هو الأساس العريض للإيمان، فأى انحراف عنه فهو طغيان، والنماذج الخمسة قد اجتمعوا في هذا الطغيان فكلهم كذبوا وكفروا.

الثاني: الطغيان التطبيقي. وهذا طغيان في الممارسة والتطبيق (العطاء) حيث ينحرف الإنسان بممارساته عن خط الحق الذي رسمه الله ﷻ له، ويتنوع الطغيان العملي بتنوع التطبيقات الحياتية، فمنه:

١. **طغيان عسكري:** وهو الانحراف في استعمال القوة، حيث يختال الإنسان - فردا أو جماعة - بما آتاه الله ﷻ من قوة، فيستخدمها استخداما سيئا، ليحصد من وراء هذا الاستخدام استبدادا، واستعلاء، واستكبارا، وليجني نشوة بالونية بإذلال الآخرين، وسحق

كرامتهم. وقد يستخدم قوته في تخريب البيئة التي يعيش فيها، وإساءة استخدامها. وقد يستخدم قوته في تأليه نفسه، والاستعلاء على ربه، ومحاربة دينه... كل هذا انحراف بالقوة. والنموذج الذي يمثل هذا الطغيان هو نموذج (عاد)، قال تعالى عنهم {فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت ١٥]، ولهذا كان عقابهم أن أرسل الله ﷻ عليهم (ريحا صرصرا في يوم نحس مُسْتَمِرًّا) {تنزغ الناس كأنهم أحجار نخل مُتَقَرِّرٌ}، أي: ريحا باردة شديدة تقتلعهم فتحطمهم ثم تتركهم كأنهم أعجاز نخل مقلوعة من أصولها (قعورها). فهذا العقاب كشف عن أن قوتهم إنما هي ضعف وخور.

٢. طغيان اقتصادي: وهو الانحراف في استعمال المال والثروة، حيث يظن الإنسان أنه على كل شيء قدير بما لديه من مال. والانحراف في استعمال الثروة يتوجه إلى ناحيتين، الأولى: الاكتساب، حيث لا يهم الإنسان من أين يكتسب ماله: أمن حلال أم من حرام؟ بل يكون هدفه جمع الثروة، ولو على حساب الآخرين وكرامتهم وأعراضهم، ولو على حساب القيم والمثل والمبادئ. والثانية: الإنفاق والتوزيع، حيث لا يضع الإنسان ثروته في موضعها، بل يبدها في الحرام، وفي العلو على الآخرين، وقد يمنعها عن مستحقيها، وقد يمنع حق الله ﷻ فيها. وهذا كله من الطغيان الاقتصادي.

والنموذج الذي يمثل هذا هم (ثمود) - كما هو واضح في سورة الأعراف والشعراء - ولهذا كان عقابهم أن أرسل الله ﷻ عليهم (صيحة واحدة فكأنوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)، أي الهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة لحيواناته، فالثروة التي جمعوها لم تنفعهم، بل صاروا مثل الهشيم الذي تغلفه الحيوانات، وهذا نهاية طغيانهم.

٣. طغيان اجتماعي: وهو الانحراف في استعمال العلاقات الاجتماعية، فالإنسان مع الإنسان يدور في فلك ضوابط من العلاقات لا يتعداها. هذه العلاقات تنظم دوائر التعامل من أصغر دائرة وهي علاقة الإنسان بأسرته - إلى أكبر دائرة وهي علاقة الأمم بالأمم. وأي انحراف عن هذه الضوابط يؤدي بالإنسان إلى الطغيان. ومن هذه الضوابط أن علاقة الذكر بالذكر ليس فيها دوائر للشهوة الجنسية والرغبة الجسدية، بل لها دوائر أخرى كالأخوة والصداقة والزمانة... الخ، أما دوائر الشهوة والجنس فإنها تكون بين الذكر والأنثى - وهذا عرف إنساني وليست أي أنثى صالحة لأي ذكر، فالعرف الديني قد نظم هذه العلاقات، إذن فعندما ينحرف الإنسان عن هذه الضوابط، ويختار الذكر ذكرا لشهوته - فإن هذا طغيان عظيم.

وهذا يمثله نموذج قوم لوط، ولهذا كانت عقوبتهم شديدة؛ إذ الطغيان هنا جمع بين شيئين، بين تمرد الطاغية، وقذارة المعصية، وكان جزاؤهم أولا هو الحرمان من النظر،

والنظر من أهم وسائل التواصل مع المجتمع، (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ)، ثم (صَحَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٍ مُّسْتَقَرًّا {٣٨})، وهذا العذاب . كما جاء في سورة هود: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَحَابٍ مِّنضُودٍ {هود٨٢}}، وفيه إبادة شنيعة لهؤلاء الطغاة، فهم حين بدلوا سنن الله ﷻ في العلاقات الاجتماعية، بإتيان الذكور، فقد عوقبوا بتبديل فطبع لمعالم القرية، حيث جعل عاليها سافلها، وأمطرت بالحجارة.

وتأمل أخيرا أن التعقيب الإلهي بعد كل عذاب يأتي بلفظ (فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَتُذِرِ)، إلا مع قوم لوط، فكان التعقيب بلفظ (فَنذَرُوهَا وَعَدَّاهَا وَتُذِرِ)، وتكرر مرتين، فكان الخطاب مباشرا لهم، وفي هذا مزيد من التشنيع والتكليل، لكل من طغى، وسعى إلى تغيير سنن الله ﷻ في العلاقات الاجتماعية.

٤. طغيان سياسي: وهو الانحراف في استعمال الجاه والمكانة والقيادة، فالأصل في سياسة الناس أن تقوم على احترام الحقوق، وتوفير الحريات، وصيانة الكرامة، وإقامة العدل، وإتاحة الفرص بالتساوي، ومساواة الناس أمام القوانين، وإتاحة المشاركة الإيجابية من الرعية، وحرية الرأي... الخ. والانحراف عن هذه الأصول هو طغيان سياسي، أي طغيان في سياسة الناس، وهو من كبائر الإثم، وهذا ما وقع فيه فرعون {فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف ٥٤]، {إِنَّكَ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ} [الدخان ٣١]، {لَئِن فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص ٤].

وإذا تأملت الآيات التي ذكرت عقابهم في هذه السورة ستجد أنها مطلقة (فَأَخَذْنَا هُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ {٤٢})، وهي تدع السامع في خيال واسع، وهو يتخيل هذا الأخذ، إنه أخذ العزيز المقتدر. ولم يذكر هنا إغراقهم، بل جاء بها مطلقة مبهمة، لتحمل ظلال الرهبة في نفوس الناس، فالطغيان في سياسة الناس هو أخطر أنواع الطغيان؛ لأنه يسوق الناس إلى جهنم، ذلك أن القوي يستبد، ويغريه ضعف الضعيف، وسكوت العامة . فيزداد في غيه، والضعيف يستكين ويخاف من التضحية وتحمل المسؤولية فيذعن ويستسلم.

ولو أصغيت بأذنيك لسمعت أنات المعذبين في جهنم، وكلهم يبين أن سبب دخولهم النار هو الطغيان السياسي الذي يقع فيه الرئيس والمرؤوس، قال تعالى عنهم {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا} [سبا ٣١-٣٣].

هذه بعض تطبيقات الطغيان، ولكنها أهمها في حياة الناس، وهي التي تسوق الناس إلى المهالك، طغيان القوة، وطغيان الثروة، وطغيان العلاقات الاجتماعية، وطغيان الجاه أو السياسة. **وهذه النماذج لا تزال تكرر نفسها في كل زمان وفي كل مكان، فإن تغيرت الأسماء، فإن الحقائق لا تتغير.**

والناظر في عالمنا المعاصر يرى إلى أي حد أفادت البشرية من رصيدها وتجاربها. إن الواقع يقول إنها لم تفد، فالطغيان قد شمل نواحي الحياة، وسرى فيها سريان النار في الهشيم، وهذا ينذر بكارثة خطيرة تطل بقرونها على هذا الجيل.

الزاوية الثالثة: رصد الموقف البشري في طغيانه

بتحليل النماذج الخمسة نخرج بعدة صور تبرز زوايا مختلفة لشيء واحد اسمه (الطغيان)، وهذه الصور تتكرر دائما، إما بذاتها، وإما بعد أن تأخذ أوضاعا مختلفة، فالطغيان البشري يتمثل في: التكذيب، والإعراض عن الحق وتزييفه ومحاربتة، والممارسات الخاطئة.

١. **التكذيب:** (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)، (كَذَّبَتْ عَادٌ)... والتكذيب هو إنكار ما تبين صدقه، فهو أخص من الإنكار الذي يعني عدم التصديق بالشيء حتى لو لم يتبين صدقه. والتكذيب - كما تنص الآيات - كان بثلاثة أشياء:

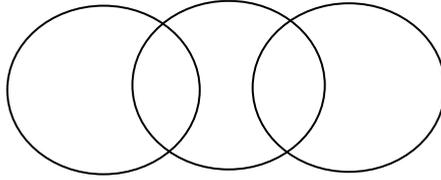
الأول: **تكذيب بالرسول**، كقوم نوح (فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْذُونٌ وَارْدُجِرْ)، فهم لم يكتفوا بتكذيبهم أنه رسول من عند الله ﷻ، بل اتهموه بالجنون وزجره.

الثاني: **تكذيب بالآيات**، كما قال تعالى عن قوم فرعون (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُفْرًا)، وآيات الله ﷻ هي الدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس التي تبين للناس الحق، وقد تكفل الله ﷻ بنصبها {سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت ٥٣].

الثالث: **تكذيب بالنذر**، كما قال تعالى عن ثمود (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)، وقال عن قوم لوط (وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)، والنذر هي ما يرسله الله ﷻ تخويفا للناس جراء طغيانهم، سواء أكان النذير رجلا رسولا، كما قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)، أم كان آية من آياته كما في الحديث "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده"^(١)، وقال تعالى {وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء ٥٩].

(١) رواه البخاري (٩٩٠)، والنسائي (١٤٤٢)، من حديث أبي بكر.

وأوجه الاتفاق والاختلاف بين الرسول والنذير والآية، هي أن الرسول يكون نذيراً، ويكون دليلاً إلى الحق، ولكنه ليس آية، والآيات هي الأدلة المنصوبة، وقد تكون للتخويف والإنذار أيضاً، والنذر يمكن أن تكون آيات أو رسولا، ويمكن بيان هذه الأوجه من خلال هذا الشكل:



الرسول النذر الآيات

من هنا، فإن تكذيب الطاعين بهذه الثلاثة، إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ العنت والعناد الذي وصلوا إليه، حتى لم يعد يجدي معهم شيء، وهذا يعطيك صورة حقيقية عما يفعله الهوى يصاحبه عندما يتخذه إلهاً.

٢. **الإعراض عن الحق وتزييفه ومماربته.** وقد تحدثنا عن هذه سابقاً كمظاهر من مظاهر الطغيان، وفي الوقت نفسه فهي مواقف يستخدمها البشر في طغيانهم. ولن أعيد الحديث هنا عنها، إنما أشير إلى أمثلتها في الآيات.

▪ مثال الإعراض عن الحق

المثال الأول: مثال الإعراض عن الحق، ويمثله قوم ثمود حين قالوا: (أَبشراً مَّنا وَاحِداً نَّسُبُهُ إِنا إِذا لَفى ضَلالٍ وَسُعُرٍ)؛ { أَلْقَى الدَّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ يَمِينا }، فهم أعرضوا عن اتباع الحق المتمثل في الرسول الذي جاء يهديهم إليه، وبنوا إعراضهم على عدة أمور:

الأول: استنكارهم أن يكون الرسول بشراً، ويدل على هذا تقديم المفعول به بعد همزة الاستفهام الإنكارية (أَبشراً)، حيث يكون محل الإنكار هو ما يلي الهمزة، وهذا استنكار توأسي عليه المكذبون، {وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمَرُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرا رَّسُولاً} [الإسراء ٩٤].

الثاني: أن الرسول منهم، وهذه قضية أخرى، فهم يقولون: لو سلمنا أن يكون الرسول بشراً، فما اختاره الله ﷻ من قوم آخرين غيرنا؟! والذي يدل على هذا الفهم المجيء بـ الصفة (منا) ليس الغرض منها مجرد وصف الرسول بأنه منهم، بل تكون صفة إنكارية تبنى

على أساس الاستتكار، ولا أدري ما وجه إنكار ثمود لأن يكون الرسول منهم - إنما هي الحماقة والعمى، وهو نفس الحمق الذي أصاب قريشا حين عجبت أن يأتي الرسول منهم، كما قال تعالى {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ} [ص ٤].

الثالث: أن يكون الرسول واحدا، وبمعنى آخر، فهم يقولون: لِمَ لَمْ يَأْتِ مجموعة من الرسل إلينا حتى نؤمن؟ وهذا تعنت فمن لم يؤمن برسول جاء بالحق - هل يؤمن برسول آخرين يأتون بالحق نفسه. وأيضا فإن أصحاب القرية عندما جاءهم أكثر من رسول لم يؤمنوا، قال تعالى عنهم {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَشْمُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَشْمُ إِلَّا تَكْذُوبٌ} [يس ١٤-١٥].

الرابع: أن يكون هو الرسول بعينه، فهم يقولون: لو سلمنا بأن يكون الرسول بشرا، ويكون منا، ويكون واحدا - أما لقي الله ﷻ غيره منا ليرسله؟! (أَلَيْقَى الدُّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا)؟! وهذا بعينه هو كلام قريش عن محمد ﷺ {أَنْزَلَ عَلَيْهِ الدُّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} [ص ٨]، ولو أرسل الله ﷻ غيره منهم لقالوا في حقه نفس الكلام.

هذه الأمور الأربعة هي حجة المكذبين بالرسول، وهي حجج واهية ولكنها متعلّ الملاحدين، **والحقيقة أن هناك أسبابا حقيقية وراء هذا التكذيب - سبق أن ذكرناها - وهي اتباع الهوى وتعطيل البصائر.** هذان السببان هما الدافع للتكذيب، ولكنهم يخفون هذين السببين ويتعللون بهذه العلل الصببانية.

وبناء على ما سبق، يصلون إلى النتيجة فيعلنون (إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعْرِ)، أي: إنا لو آمننا مع هذه الإشكاليات . التي افترضوها . لكننا في ضلال، وسعر كثيرة (جمع: سعير)، فجعلوا الإيمان هو الضلال والقائد إلى السعير، وجعلوا الانحراف هو الهداية والنجاة من السعير، وهذه كدوى فرعون حين قال: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر ٢٩].

▪ مثال تزيف الحق

المثال الثاني: مثال تزيف الحق، هنا مثالان:

الأول: عن قوم نوح (وَقَالُوا مَجْثُونُونَ)، والثاني: عن ثمود، حيث قالوا عن صالح (بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ). أما قوم نوح فيعلمون أن نوحا أعقلهم، وثمود تعلم أن صالحا أصدقهم وأعفهم، ولكن حتى يدلّسوا على الناس ويصرفونهم عن الحق - فلا بد من أن يقوم الملائم بتزيف الحق، فيشوهون صورة حامله - وهذا جزء من تزيف الحق، ويسخرون لهذا

وسائلهم الإعلامية، وهذه الوسيلة هي ذاتها التي استخدمها كفار قريش مع رسول الله ﷺ، وهي هي ما تستخدمه اليوم أساطين الطغاة في العالم لتشويه الصورة الإسلامية وتشويه صورة رجالها، ورميهم بكل نقيصة.

▪ مثال محاربة الحق

المثال الثالث: مثال محاربة الحق، كما قال عن قوم نوح (فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْذُونٌ وَازْدُجِرَ)، "أي انتهروه وزجروه وتوعده" (١).

٣. **الممارسات الخاطئة:** وهذا موقف يرصده القرآن في مسيرة الطاعين، فممارساتهم خاطئة، أي مصابة بداء الانحراف عن مسارها الصحيح، كما عرضنا في الزاوية الثانية بما يغني عن الإعادة هنا. ومثال ذلك هنا عن ثمود (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرُوا) (٢)، فهذه ممارسة خاطئة حيث اعتدوا على ناقة جعلها الله ﷻ آية لهم، لكنهم عقروها وقد أمروا بأن يدعوها. وأيضا قوم لوط (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ)، وهذه ممارسة خاطئة اقتترفها قوم لوط، وقد سبق إيضاح هذا.

الزاوية الرابعة: رصد الموقف البشري في صد الطغيان

يتمثل الموقف البشري ذي العمل الصالح في ثلاثة أمور: القيام بتبليغ البيان، والاعتصام بالإيمان، والعمل لإزالة الطغيان.

القيام بتبليغ البيان: أول واجب على حملة الرسالة أن يقوموا بتبليغ بيان الـ الله ﷻ، فهذه هي الأمانة التي كلف الله ﷻ الإنسان بحملها، فإن لم يقم بتبليغ رسالة الله ﷻ فما بقي له إذن من حمل الأمانة؟! لِيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [المائدة 67]، فتبليغ البيان هو القيام برسالة الله ﷻ، وهو واجب منوط بذمة الإنسان حتى يؤديه.

وتبليغ البيان له أوجه عديدة، فمنه الإعلام بمنهج الله ﷻ ووصيته، كما في سورة القمر حين أمر الله ﷻ صالحا (وَبَيِّنْ لَهُمْ أَنْ الْمَاءِ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)، فهي وصية من الله ﷻ لثمود، وقد أمر صالحا بإعلامهم، فأعلمهم. ومن التبليغ الإنذار بخطورة الانحراف ووخيم عاقبتها، كما فعل لوط (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا)، ومن التبليغ الإرشاد إلى آيات الله ﷻ ونذره في الآفاق وفي الأنفس، (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ)، وقام موسى - عليه السلام -

(١) تفسير ابن كثير، ٣٦٥/٨.

بإرشادهم إلى هذه الآيات {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ} [الإسراء ١٠١].

الاعتصام بالإيمان: وهذا واجب أساسي في حياة الإنسان، به يبدأ، ومعه يستمر، وإليه ينتهي. والإيمان هو الطاقة التي تمنح الإنسان قوة هائلة، يستطيع بها أن يقاوم الطغيان، ويطيع الرحمن، والإيمان هو الشيء الذي يحقق للإنسان كينونته، وذاته. ومن دون الإيمان فإن الإنسان ذرة في هواء تتلاعب بها الرياح، أو قطرة من ماء تتقاذف بها الأمواج، أما الإيمان فيجعل الإنسان بحرا خضما، وكونا متراميا، وآفاقا واسعة ممتدة.

فهذا نوح - عليه السلام - يلجأ إلى ربه، يمد كفيه متضرعا، متذللا بأثرة ضعيفة، يملأها الأسى على قوم مكث فيهم عشرة قرون يدعوهم ويبلغهم فلم يستجيبوا، بل آذوه وزجروه وانتهروه، وبعد ذلك رفع كفه (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)، دعوة أرسلها العبد المغلوب بعد أن استنفد كافة الوسائل في إصلاح قومه، ولكن دون فائدة. فلما نادى - بعد أن بذل كل جهد - فلما نادى ربه (أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ). كان النصر أقرب إليه من يده، (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ) { وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } { وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُسُرٍ } { }، وكل هذا (جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا)، والذي كُفر هو نوح، حيث كفر به قومه، فلما بذل ما بوسعه تولى الله ﷻ نصره وفقا للقانون الإلهي {إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد ٧].

العمل لإزالة الطغيان: إنه لا بد للمخلصين - حملة الرسالة - أن تنتظروا جهودهم، وتتكاثر أيديهم، وتتأزر طاقاتهم؛ من أجل إقامة المعروف الذي أمر الله ﷻ به، وإزالة المنكر الذي نهى الله ﷻ عنه، وهدم حصون الطاغين التي أقاموها في الحياة مناوئين خالقهم ودينه.

إن النصر لا يأتي لقوم كسالى نائمين، بل لا بد من أن يبذلوا جهودهم، ويضحوا في سبيل الرسالة بالغالي والنفيس، يضحوا بأوقاتهم وأموالهم وطاقاتهم وأنفسهم ودمائهم. يضحوا بالدنيا وشهواتها، فيسهرون إذا نام الناس، ويتعبون إذا ارتاح الناس، ويستيقظون إذا غفل الناس.

إنه لا بد من عمل صحيح لأجل إزالة الطغيان، ولا يمكن أن يزول بأمنيات ورغبات. والنصر لا يأتي إلا لرجال يستحقونه، يعملون من أجله. وهذا ما تعلمنا سورة القمر، فنوح عليه السلام، كان الله ﷻ قادرا على أن ينصره دون أن يقوم بإتباع نفسه في صناعة السفينة، ولكن حتى نتعلم أن النصر غالي الثمن، فقد أمره الله ﷻ بصناعة السفينة

- وهذا عملٌ من أجل النصر وإزالة الطغيان - فعند ذلك نصره الله ﷺ، وقال (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)، ولحكمة لم يقل: وحملناه على سفينة، بل قال على ذات ألواح ودسر، أي سفينة ذات ألواح ودسر (والدسر: المسامير)، وفي هذا لفظة قرآنية إلى العمل الذي بذله نوح في صنعها، وهو يصنع الألواح، ويغرز المسامير، وإشارة واضحة إلى أن النصر لم ينله نوح إلا بعد بذل السبب.

وهكذا تعلمنا السورة مقومات النصر: التبليغ والدعوة، والإيمان والتقوى، مع العمل والاستعداد. بهذه الأمور نضع أقدامنا على الطريق الصحيح للنصر.

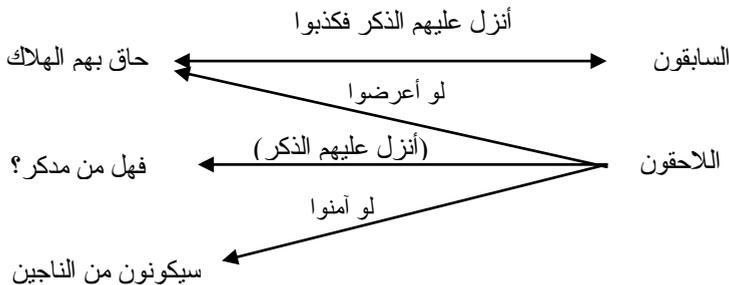
الزاوية الخامسة: رصد الموقف الإلهي

يتجلى الموقف الإلهي في ثلاثة أمور: إنزال البيان، وتأبيده، وتحقيقه.

١. **إنزال البيان:** وهذا ما تكفل الله ﷻ به فقال {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} [الليل ١٢]، فالله ﷻ تكفل بالهدى وهو هدى البيان، فأنزله إلى الناس، وبعث له رسلاً تبليغه. وقد اتسم هذا البيان باليسر، اليسر في الفهم وفي التطبيق، {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة ٢٨٦]، ولهذا نفهم السر في تكرار الآية (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ) بعد كل نموذج من النماذج المعوضة في سورة القمر.

ففي هذه الآية إشارتان، الأولى: أن الله ﷻ قد يسر لكل قوم من الهالكين بيانا أنزله إليهم، فيسره للذكر، ولكنهم لم يتذكروا ولم يتعظوا. الثانية: أن فيها إشارة لمن نزل عليهم القرآن إلى يوم الدين - أن القرآن قد يسره الله ﷻ للذكر، فهل في الناس من يتعظ وينتفع به؟ أو أنهم يقعون في نفس الخطأ الذي وقع فيه السابقون، فيحل عليهم ما حل بمن سبقهم من الهلاك.

ففي الآية - إذن - كما هو واضح تعانق بين النص والحاضر والماضي والمستقبل، ويمكن توضيح هذا التعانق من خلال الشكل التالي:



ففي النموذج الأول (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)... (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)، يكون المعنى: لقد أنزلنا إلى قوم نوح بيانا ويسرناه لهم فلم يتعظوا، وها أنتم أنزلنا إليكم القرآن ويسرناه للذكر، فهل تتعظون وتتفكرون؟ أو أنكم لا تتعظون كقوم نوح فيحقيق بكم ما حاق بهم. وهكذا في كل نموذج.

٢. **تأييد البيان:** يؤيد الله ﷻ البيان المنزل بالآيات، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)، وقال: (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ). وهذا هو الوعد الثاني الذي وعد الله ﷻ، فالوعد الأول تكفل بإنزال البيان {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} [الليل ١٢]، والوعد الثاني تكفل بنصب الآيات الدالة عليه، قال تعالى {سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أُنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت ٥٣].

ويختلف التأييد من جيل إلى جيل، فالناقة كانت آية، أيد الله ﷻ بها الحق الذي جاء به صالح، والعصا واليد كانتا تأييدا للحق الذي جاء به موسى ﷺ، وهكذا كل رسول من الرسل. عليهم السلام. وكان تأييد القرآن بالقرآن نفسه، ففيه من الدلائل ما يشهد على أنه الحق، وهذه الدلائل تلتقي مع الدلائل المنصوبة في الأفاق والأنفس، لتشهد بالحق الذي جاء به محمد ﷺ.

ومن الآيات التي تؤيد البيان. الوعيد الذي يحققه الله ﷻ فيمن سبقنا من الأمم، فهو بالنسبة لهم تحقيق للبيان، وبالنسبة لمن بعدهم تأييد للبيان، حيث نرى وعد الله ﷻ قد تحقق فيمن سبق، قال تعالى: (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ).

٣. **تحقيق البيان:** البيان الإلهي جاء متضمنا منهج الله ﷻ وهديه، وقد أمر الله ﷻ الإنسان بإقامة دينه في نفسه وفي مجتمعه، ووعد من فعل ذلك بالثواب ووعد من تولى بالعقاب، فإثابة العامل هو تحقيق للبيان، وعقاب العاصي هو تحقيق للبيان. والله ﷻ قد جعل التحقيق الكامل للبيان في الدار الآخرة، ففيها الحساب والجزاء، أما الدنيا فهي دار ابتلاء وليست دار جزاء، ولكن الله ﷻ قد يحقق بعض البيان في الدنيا، فينجي المتقي ويمكن له، ويهلك المكذب ويخزيه.

وفي سورة القمر نرى **نماذج لمن نجا:** (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجَانِ وَدُسِّرَ {٣} تَجْرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا {٤})، (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ {٢٥} نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ {٢٥}).

ونماذج لمن هلك: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿٣١﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّثَعِرٍ ﴿٣٢﴾)، (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣٣﴾)، (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا)، (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٤﴾)، (فَأَخَذْنَاهُمْ أَحَدًا عَزِيزٍ مُّتَدِيرٍ ﴿٣٥﴾). وهذا إهلاك لهم في الدنيا.

وقد يكون العقاب مصائب، ولكنه ليس إهلاكاً ودماراً، كما حصل لقوم لوط في بادئ الأمر حين طمس الله ﷻ أعينهم بالليل (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَكُذِّبِ ﴿٣٧﴾)، فسامه عذاباً، قال ابن كثير: "فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم، يقال إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أديبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً إلى الصباح" (١).

فقد يرسل الله ﷻ عذاباً جزئياً على قوم، إما أوبئة أو يصابون في أموالهم وذراريهم، أو غير ذلك، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ١٣٠].

والذي ينبغي أن يُعلم أن تحقيق البيان الجزئي يكون تأبيدا للبيان في حق أولئك القوم، فهي رسالة تحذير إلهية للقوم لعلمهم يتذكرون، أما تحقيق البيان الكلي فإنه تأييد للبيان في حق اللاحقين؛ إذ يصعب هلاك السابقين عبرة لمن بعدهم، كما قال (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ)، أي: تركنا هذه الحادثة، وهي غرق قوم نوح، آية لمن جاء بعدهم.

خاتمة: قانون الطغيان بين التخلف والسريان [آية: ٤٣ إلى آخرها]

نصل إلى خاتمة السورة، لتبين لنا حقيقة مهمة، فبعد أن رأينا ما أصاب أولئك الطغاة نتساءل: هل هذا العقاب خاص بهم فلا يتعدى إلى غيرهم، وعليه يحكي القرآن قصصهم للتسلية؟ أو أن ذلك العقاب هو قانون إلهي يسري على غيرهم كما سرى عليهم - إذا استوفى أسبابه، وعليه فالقرآن يحكي قصصهم للعظة والعبرة. دعونا نعرض سياق الخاتمة، حتى نعرف الحقيقة التي تحملها.

(١) تفسير ابن كثير، ٣٦٨/٨.

❖ فروض ثلاثة

يقول تعالى (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ {٤٣}) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ {٤٤}). أمامنا ثلاثة فروض، إما أن يكون الكفار المعاصرون خيرا من السابقين، وبالتالي تتخلف شروط سريان القانون، فلا يستحقون الهلاك، وإما أن يكون لهؤلاء الكفار براءة عند الله ﷻ بأنه لا يصيبهم ما أصاب الأولين، وإما أن يتحدثوا القانون، ويقولون: نحن جمع قوي، ونحن قادرون على إعجاز القانون، فلا أحد يقدر على إهلاكنا؛ لأننا نملك أسباب النصر والقوة والمنعة.

ولنتخبر الفروض الثلاثة:

أما الأول فلا يقوم على معطيات صحيحة، ويخلو من التحقيق، وليس هناك ما يثبتته، فهل في تأخر جيل فضل على سابقه، لمجرد أن هذا متأخر، وذلك متقدم؟! وأما الثاني فهو يحتاج إلى إثبات، وهي دعوى تذروها الرياح، وتتبئ عن تفاهة مدعيها، فلو كان ثم براءة فأين هي؟! وبيقى الفرض الثالث، ويبدو للوهلة الأولى أنه فرض قوي، فله أنصار كثير، وخاصة الآن في الأوساط المادية التي تتكر قوة الله ﷻ، ولا تؤمن إلا بما تراه في الطبيعة، ويحسبون أنهم قد امتلكوا أسباب القوة والغلبة، حتى ليقول زعيمهم: نحن قوة عظمى ومن أشد منا قوة؟! ينطلقون مستكبرين في الأرض، ويقولون: نحن جميع منتصر، وها هي قواتنا تملأ الأرض، فإن كنا طغاة فأين هذا القانون!؟

وقد تولى الله ﷻ تنفيذ هذا الفرض بعدة طرق:

١. وعد أولا بانهزام جموعهم، وإن طال الانتظار، لكنها ستنهزم. وهذه بشرى للمؤمنين الذي سيجري على أيديهم أقداره، ولكن أين هؤلاء المؤمنون؟! (سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلَّوْنَ الدُّبُرَ {٥٥}).
٢. ثم كسر الله ﷻ غرورهم، فبين أنه حتى لو سلموا في الدنيا، فإن الساعة موعدهم، وهناك سيسري عليهم القانون، وهنالك الضلال والسعير، والخزي والهوان، (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ {٥٦}) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {٥٧} يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ {٥٨}).
٣. ثم أخبر بأن كل شيء مخلوق بقدره، وهذا القانون له قدر، فمتى قدر الله ﷻ له السريان سرى، عندما يستكمل المؤمنون أسباب النصر، (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ {٥٩}).

٤. ثم أخبر بقوة العزيز القهار الذي لو شاء أهلهم ب(كن) - كلمة واحدة، لا يعيدها كلمح بالبصر، فليحذر أولئك المدعون أنهم أقوى وليحذر أولئك المنكرون قوة الله جلَّ العظمى، (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَحٍ بِالْبَصْرِ {٥}).

٥. ثم يلفت أنظارهم إلى استقراء التاريخ، والتساؤل: أين الإمبراطورية الفلانية؟ وأين الإمبراطورية الفلانية؟ أين تلك القوى؟ أين تلك الهيمنة والسلطنة؟ ما الذي أذهبها وأفناها؟ طغى القوم ونسوا الله جلَّ حتى أخذهم أخذ عزيز مقتدر، (وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا شَيْئًا عَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ {٥}).

أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوزَ فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى، فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

٦. ثم يأتي تهديد الله جلَّ الشديد، بأن كل شيء يفعلونه ويقولونه فهو مسطور مسجل، وهناك عند الله جلَّ يكون الحساب، فلن تذهب أعمالهم وأقوالهم دون محاسبة. لا. إن الله جلَّ شديد الحساب. فهو الذي يتولى محاسبتهم، وليس أحد من الخلق - وفي هذا عزاء للمؤمنين، فليطمئنوا فهم المنتصرون، وهم الذين سيظفرون بجنات ربهم، فيقعدون عنده في مقاعد صدق، (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ {٥}) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ {٥} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ {٥} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ {٥}).

وبهذه الخاتمة تتجلى الحقيقة المهمة، والقانون المطرد وهو أن: الطغيان عاقبته الهلاك والدمار في الدنيا والآخرة.

الخشوع لله والإذعان (سورة ص)

ينتهي بنا المطاف إلى سورة (ص) وفي هذه السورة يتجلى الوجه المشرق للإنسان، الوجه الإيجابي، وجه العابد الأواب، الصابر المنيب، المجاهد القائم، الحاكم بالحق، المقيم للدين، العامل الذي يأبى الدعة والكسل، الإيجابي الذي يشارك الناس قضاياهم ... كل هذه الزوايا المنيرة تجليها سورة (ص) واقعا ملموسا في هذا المخلوق العظيم. وتتجلى بعد ذلك عناية الله ﷻ بالإنسان في كل حركة من حركاته، وسكنة من سكناته.

وتأتي هذه الصورة المشرقة للإنسان بعد أن عرضت السورة السابقة صورة قاتمة للإنسان حين يطغى ويستكبر، ويتمرد ويفجر. ولما كانت هذه الصورة القاتمة لا تعبر عن الإنسان الحقيقي، الإنسان الفعال، فقد بدأ القرآن بعرضها، وكأنه يقول: هذه صورة غير مرضية، دعونا نتجاوزها إلى الصورة المرضية، الصورة الحقيقية حتى نستقر عندها، وننتهي إليها. ولهذا السبب - والله أعلم - كانت (ص) أطول من (القمر)، حتى يعلمنا القرآن أن الصورة المشرقة هي الباقية والمستمرة، وهي النافعة {فَأَمَّا الرَّبُذُّ فَيَذَّهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد ١٧].

هذا هو موضوع السورة، وقد سبق بمقدمة عرضت لطغيان قريش خاصة، وانتهت السورة بخاتمة تناولت الرسالة - رسالة الله ﷻ الأخيرة إلى البشرية.

مقدمة: طغيان قريش - موقف بشري متكرر [من: ١ إلى: ١٦]

لم يكن طغيان قريش وهم يواجهون رسالة الله ﷻ الأخيرة - بالأمر الجديد، بل إنه صورة طبق الأصل لطغيان البشرية القديم، وفي الوقت نفسه، فإن طغيان قريش في مواجهة محمد رسول الله ﷺ، لم يكن بالطغيان الأخير، بل إن هذا الطغيان سيكرر نفسه بتعاقب الأجيال، وهي تواجه أتباع محمد رسول الله ﷺ، وها هي البشرية اليوم تشهد عاصفة عاتية من الطغيان تريد اقتلاع دين الله ﷻ، وإطفاء نوره، ولكن {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة ٣٢].

أولاً: القرآن وصدود الكافرين

كما بينت سورة القمر بأن القرآن قد يُسرّ للذكر، وأن المطلوب من البشرية هو الاتعاظ والانتفاع به، {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر ١٧]. فقد ابتدأت سورة (ص) ببيان هذه الحقيقة، (ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ} {١})، فهو رسالة الله ﷻ التي جاءت بتذكير البشرية وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وهي رسالة ميسرة تناسب طبيعة الناس، ولا تكلفهم إلا ما في وسعهم؛ لأن الذي أنزلها هو الذي خلق البشر {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك ١٤].

ولكن لماذا يصد الكافرون عن هذه الرسالة؟ ولماذا يعرضون عن اتباعها؟ هناك سببان قد بينتهما سورة القمر وأكدتها سورة (ص)، هذان السببان هما: اتباع الهوى، وتعطيل البصائر. وقد سبق الحديث عنهما في القمر. وهذا ما تشير إليه الآية (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} {٢})، فهم في عزة عن الخضوع للحق بسبب اتباع الهوى، وهم في شقاق وعناد ومعارضة للحق بسبب تعطيل بصائرهم، والحيلولة بينها وبين الاهتداء إلى الحق. وتكرر صور الطغيان في كل مكان بسبب تكرر الأسباب، حيث يتبعون الهوى فيقعون في عزة واستكبار، ويعطلون بصائرهم فيقعون في شقاق وضلال - وهذا الطغيان البشري يقابله عقاب إلهي (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَواْ وَلا تَحِثْ مَنَاصٍ} {٣})، ولكن ليس بمغنى حينئذ عنهم الندم (وَلا تَحِثْ مَنَاصٍ).

ثانياً: صور من طغيان قريش

كما رأينا الموقف البشري في طغيانه - في سورة القمر، فإن طغيان قريش يكرر تلك الصور نفسها. فهم (عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ)، كما عجبت ثمود قالوا: {أَبَسْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ}؟ [القمر ٢٤]. وقريش قالوا عن رسول الله ﷺ: (هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} {٤})، كما قال قوم نوح عن نوح {وَقَالُوا مَجْنُونٌ} [القمر ٩]، وقالت ثمود {بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ} [القمر ٢٥]. وفي هذا تزييف للحق عبر اتهام الداعية نفسه، وتشويه سمعته، وقد يزيّف الحق بتزييف الدعوة نفسها، والقدر فيها، والطعن في أسسها التي تقوم عليها، كما قالت قريش (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} {٥})، فالدعوة تقوم على أساس الوحدانية، وقريش سخرت من هذا الأساس، ثم انطلق أكابرها يحذرون الناس من خطورة هذا الأساس، وسلوكوا ثلاث وسائل في التحذير:

الأولى: إصدار الخطابات التشجيعية التي تشجع الناس على ما هم فيه من باطل، وتصوير أن هذا الباطل هو الحق، وأنه ينبغي علينا أن نتعاون ونلتف حول حقنا، حتى لا يسحب البساط من تحتنا، (وانطلقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ).

الثانية: اتهام الدعوة بخبث الطوية، وسوء النية، وأنهم ما جاءوا بهذه الدعوة إلا لأجل أن يتسلفوا بها إلى مصالح ومنافع ذاتية، وأنهم يريدون إيقاع الفتنة بين الناس؛ وهذا لأجل صرف الناس عن معرفة الحقائق والوعي بها. (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ {٦}).
قال سيد قطب: "كما يصور طريقتهم في مقاومة هذه الحقيقة في نفوس الجماهير، وتثبيتهم على ما هم عليه من عقيدة موروثية متهاقنة، وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيثا غير ظاهرها، وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيث... فليس هو الدين، وليست هي العقيدة، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة، شيء ينبغي أن تدعه الجماهير لأربابه، ولمن يحسنون فهم المخبات وإدراك المناورات... إنها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشئون العامة والبحث وراء الحقيقة، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطيرة، ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة، وخطر على الكبراء، وكشف للأباطيل التي يغرقون فيها الجماهير، وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير في الأباطيل"^(١).

الثالثة: رمي حقائق الدعوة بالزور، والأمر الخطير هنا أنهم حين يزيفون حقيقة الدعوة، يدعون الإحاطة علما بهذه المسألة، وأنهم قد أفنوا أعمارهم في تتبع خيوط هذه الحقيقة، ثم وصلوا إلى هذه النتائج - وهي نتائج مضللة، قد نسج خيوطها الهوى المتبع، فيخدع بها الناس؛ حيث يرونها مكسوة بثياب العلم والنزاهة العلمية، وهي في الحقيقة ملطخة بدم البراءة العلمية.

وإلى هذا تشير الآية حين زعمت قريش أنهم بعد اطلاعهم على الملل الأخرى - فإنهم لم يجدوا أساس الوحداية، وأن جعل الآلهة إلها واحدا أمر غريب وشاذ (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ). وبناء على هذا يصلون إلى النتيجة التي يظن الناس أنها مبنية على مقدمات صحيحة (إِنَّ هَذَا إِلاَّ إِحْتِلَاقٌ {٧}).

وفي هذا من الاستخفاف بالحقائق ما فيه، والحقيقة أن الأديان السماوية كلها انبثقت من أساس التوحيد الخالص، فما من رسول إلا ويدعو قومه إلى {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف ٥٩]. ولكن تلك الأيدي البشرية الملوثة عندما امتدت إلى هذه الحقيقة - زيفتها وجعلت الإله الواحد آلهة عديدة!!

(١) في ظلال القرآن ٣٠٠٩/٥.

كذلك قالت قريش (أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا)، كما قالت ثمود: {أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا} [القمر ٢٥]. والغريب المضحك أنهم يقولون هذا الكلام فيعترفون بالذکر، في حين أنهم "في شك من الذکر ذاته، لم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله ﷻ، وإن كانوا يمارون في حقيقته"^(١). وإنما كان هذا الشك؛ لأنهم لم يذوقوا عذاب الله ﷻ اللاحق بالشاكين الممارين المكذبين بهذا القرآن.

ثالثاً: من الذي يملك حق اختيار الرسول؟

يعترض الطاغون على اختيار محمد ﷺ رسولا، وهو اعتراض غريب؛ ووجه غرابته أنه يصدر عن لا يملك حق الاختيار، فالذي يملك حق الاختيار هو الذي يملك شيئين: الرزق، والملك.

الرزق: فالذي يرزق الناس، ويتحكم في أرزاقهم وأقواتهم - يستطيع أن يأمر فيهم وينهى، وهذا ما لا تملكه قريش، ولا أمثال قريش (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ {١})؟ فهو الوهاب الذي يرزق بغير حساب، وهو العزيز الذي يفعل ما يشاء.

والمَلِكُ: فصاحب القرار هو القوي الذي يملك من يأمر فيهم وينهى - ولو أمر رئيس دولة رعايا دولة آخرين لما أطاعوه؛ لأنه لا يملكهم، والله المثل الأعلى فهو الذي يملك السماوات والأرض ومن فيهما وما بينهما - فهو صاحب الاختيار، وليس سواه (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ {١}). ولو كان لقريش هذا الملك فلم يقيمون في الأرض؟ هل اطلعوا على موقع المراقبة، حتى يشرفوا على ما يجري في الأرض؟! وبعبارة أخرى، نقول إن من يملك القوة الاقتصادية والوجاهة السياسية فهو الذي يفرض رأيه على الآخرين، وهذا هو السائد في واقع الناس، والله ﷻ يخاطب الناس بما يعرفون. فهو يقول لهم: لو أخذنا بما تعرفون، فمن الذي يحق له أن يختار رسولا، ويأمر بما شاء، وينهى عما شاء؟ أنتم أيها البشر الذين لا تملكون أقواتكم، ولا ملك شيء؟ أم أنا الرزاق الملك؟ بناء على هذا {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام ١٢٤].

وإذا استمر البشر في طغيانهم فمآلهم كمال السابقين من الطغاة، تنتظرهم الهزيمة والخيبة (جُنْدًا مَّا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ {١١} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ {١٢} وَتَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ {١٣} إِنْ كُنتُمْ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ {١٤}). وتأمل لفظ (جند ما) فهم جند حقيرون حين يظنون أنهم يتحدون الله ﷻ

(١) في ظلال القرآن، ٣٠١٣/٥.

ويحاربون دينه، فَمَنْ هُوَ الصغار الذين يرفضون الخضوع للكبير المتعال؟! واما قريب تدرّكهم الساعة وفيها العقاب الذي لا يفر منه أحد منهم، (وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ {٥})، فلا يستعجلوا العذاب، فهو آت، ولكن الحمقى يقولون: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ {٦})، أي: عجل بنصيبنا من العذاب قبل يوم الحساب.

موضوع السورة: صورة الإنسان المشرقة [من آية: ١٧ إلى: ٦٤]

ندلف إلى موضوع السورة الذي هو عرض لصورة الإنسان المشرقة، حين يطيع ربه، فينطلق في الحياة إنسانا إيجابيا، فترعاه عين الله ﷻ، ويحوطه الله ﷻ بعنايته. وهنا محوران تدور حولهما هذه النماذج المشرقة، الأول: رصد المهام الأساسية للبشر، والثاني: رصد مظاهر العناية الإلهية. والنماذج التي ذكرتها السورة هي نماذج أنبياء الله داوود وسليمان وأيوب، وإشارة إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل . عليهم السلام جميعا.

المحور الأول: المهام الأساسية للبشر

بالتأمل في النماذج التي تعرضها السورة، نستخلص خمس مهام تقوم عليها حياة الطائعين المتقين، بعض هذه المهام قلبية، وهي الإرادة والصبر، وبعضها علمية، وهي معرفة النفس، وبعضها عملية، وهي العمل الصالح والفكر الصائب. هذه المهام الخمس هي منارة للعاملين في كل زمان، وعلى قدر جهادهم في اكتسابها والقيام بها يكون التوفيق حليفهم، وترعاهم عناية ربهم.

١. الإرادة القوية طريق العبودية

قال تعالى (وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ)، قال ابن عباس والسدي وابن زيد، الأيد: القوة، وقال مجاهد: القوة في الطاعة، وقال ابن كثير: "الأيد: القوة في العلم والعمل"، وقال قتادة: "أعطي داوود ﷺ قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه كان يقوم

ثلث الليل ويصوم نصف الدهر^(١). وكل هذه المعاني تتفق على أن (ذا الأيدي) تعني: ذا القوة، هذه القوة هي التي تدفعه إلى العمل والطاعة، وتدفعه إلى العلم وفقه الدين، وهذه القوة ليست إلا إرادة تقود من انشغل قلبه بهمّ ما إلى القيام به.

والآية تمدح داوود عليه السلام بأنه كان ذا أيدي، وجاء هذا المدح بعد وصفه بالعبودية مما يوحي بارتباطهما، فلم تتحقق له صفة العبودية إلا بعد أن نهضت به إرادته القوية نحو تحقيق مقام العبودية. فالخطوة الأولى في تحقيق العبودية هي تقوية الإرادة.

وكيف تقوى الإرادة؟ تقوى بشيئين، الأول: تحديد هدف واضح، ثم السعي إليه، والتضحية في سبيل الوصول إليه بكل غال ونفيس. فهذا سيملاً القلب بالهم، وإذا امتلأ القلب هما أصبح قلباً حساساً، وأصحاب القلوب الحساسة هم أرباب الإرادات القوية. **والثاني:** الصبر في المثابرة والمداومة، وهذه المهمة الثانية التي سنتناولها.

٢. الصبر طريق الظفر والنصر

الحديث عن الصبر هو حديث عن أعظم أسس النصر في حياة الأمة، والظفر بالمراد في حياة الفرد، وهذا ما تشير إليه سورة (ص)، ففي قصة نبي الله أيوب عليه السلام بعد أن دعا ربه واستجاب الله جل جلاله له وهب له أهله وماله، وأوجد له حلاً في مشكلة يمينه - جاء الحق بجملة تعليية فقال (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)، أي: لأننا وجدناه صابراً فقد أنلناه ما أراد، فبالصبر ظفر بمراده. وحين يأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر (اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) فإنه يهديه إلى أساس النصر، فبصبرك يا محمد على ما يقولون ويعملون ستظفر بمرادك، وتتنصر عليهم.

ولو أردنا أن نوجز معنى الصبر في ألفاظ يسيرة بليغة، لقلنا إن **الصبر أن تتحمل**

مشقة السير، وأذى الغير، ونفرة الناس من فعل الخير، وأن تخالف هوى النفس.

ولهذا كان الصبر هو المنزلة الأولى والأساس للنصر، والله جل جلاله قد جعل الصبر في منزلة الجهاد فقال: {وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد ٣١]، فابتلاء الله جل جلاله من أجل أن يتميز صنفان من الناس هما المجاهدون والصابرون. وبالصبر نستطيع أن نغلب على كيد الأعداء ومكرهم ومؤامراتهم {وَأَن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [آل عمران ١٢٠]. وبالصبر نستطيع أن نتفوق على الخصم ولو كان أقوى منا وأكثر عدداً {إِن يَكُن مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ

(١) انظر في هذه الأقوال: تفسير ابن كثير ٤٠٧.

كَفَرُوا} [الأنفال ٦٥]، فلم يختَر صفة غير الصبر، فلم يقل: عشرون مؤمنون أو متقون أو ... إنما قال (صابرون).

والصبر هو طريق القيادة، وبه يدين الناس لصاحبه، ويتبعون أثره ويهتدون بهديه، قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} [السجدة ٢٤]، ولهذا لا نعجب حين نجد أن القرآن قد أمر رسول الله ﷺ بالصبر في تسعة عشر موضع، وكأنه يقول له: بالصبر تفقد الناس، وبه تهديهم، وبه يستجيبون لك، وبه تملك قلوبهم. والصابرون يخطون بمعية الله ﷻ ومحبه. والصابرون {يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص ٥٤]. ولما كانت هذه منزلة الصبر فقد استحقوا أعظم وسام ألا وهو {إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر ١٠]. هذا هو الصبر ليس لفظاً تلوكه الأفواه، لا. إنما هو قيمة عظيمة لا يقوى على دفع ثمنها إلا صناديد الرجال، وعظماء الأبطال، فإذا ما امتلكوا ناصيته فقد امتلكوا ناصية النصر.

٣. معرفة النفس طريق إصلاحها

لا تصلح حياة الناس إلا بإصلاح نفوسهم أولاً، ولا تصلح النفس إلا بمعرفتها، معرفة ضعفها وحاجتها، معرفة سلبياتها وإيجابياتها، معرفة نوازع الخير ودوافع الشر فيها. فإذا ما عرف الإنسان نفسه فقد وقف على الطريق الصحيح للإصلاح لا أقول لإصلاح نفسه، بل لإصلاح مجتمعه؛ إذ لو صلحت نفسه لسعى في إصلاح غيره. والنماذج التي ذكرتها سورة (ص) قد ركزت على هذه القضية تركيزاً شديداً، فداوود عليه السلام عندما عرف ضعف نفسه، بادر بإصلاحها (فَاسْتَقْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ {٤}).

والآيات تبين لنا أن لإصلاح النفس ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: إدراك ضعفها وعجزها وحاجتها إلى الإصلاح، كما قال تعالى عن

داوود عليه السلام (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ)، أي: أدرك أن هذا ابتلاء وقع فيه، وكانت نفسه أضعف من أن تواجه هذا البلاء وحدها. فإدراكه لهذا كان الخطوة الأولى في الإصلاح.

المرحلة الثانية: اتخاذ خطوة عملية تجاه النفس، بتزكيتها وترقيتها، وسد

الخلل الذي هي فيه، وتلافي العيوب والسلبيات. وهذا ما عمله داوود عليه السلام مباشرة بعد أن أدرك ضعف نفسه، (فَاسْتَعْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ). ولمعرفة معنى الاستغفار يمكن مراجعة ما كتبناه حوله في سورة المزمل.

المرحلة الثالثة: الوصول إلى الهدف. وهذه يمن بها الله جل جلاله على العبد الذي

سعى وجاهد لإصلاح نفسه، فالمطلوب من الإنسان أن يبدأ، والله جل جلاله سيتكفل بإيصاله إلى نهاية الطريق، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) [العنكبوت ٦٩]. هذه المرحلة ليست بيد الإنسان، وإنما بيد الله جل جلاله، ومتى رأى الله جل جلاله عبدا قد سلك المرحلتين الأولىين فإنه يبلغه هذه المرحلة، وهي مرحلة الوصول إلى الهدف، قال تعالى بعد أن استغفر داوود عليه السلام وأتاب (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ) {٥}.

وهكذا نجد في بقية النماذج أن العبد يدرك الخلل فينصب إلى ربه ويصلح نفسه فيوقفه الله جل جلاله، (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ) {٣٥} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) {٣٥} فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ حَيْثُ أَصَابَ) {٣٦}. فالآيات تبين أن سليمان عليه السلام عرف ضعف نفسه عندما فتن، وأدرك أنه ليس بوسعه أن يواجه الفتنة وحده، فسعى إلى إصلاح نفسه وتزكيتها بالإجابة، والتوجه إلى الله جل جلاله بطلب المغفرة، وأن يهب له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وهنا من الله جل جلاله عليه فاستجاب دعاءه، وغفر له، وسخر له الريح والشياطين يعملون بأمره.

كذلك تعرض السورة نموذجا آخر لسليمان عليه السلام، (إِذْ غُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ {٣} فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ {٣} رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ {٣})، فقد وقع في فتنة، حيث شغلته الجياد عن ذكر ربه كما قال (إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي)، والخير: المال، أي: شغلني عن ذكر ربي حتى غربت الشمس - قام بمعالجة هذا الضعف، فعقر الخيل متقربا بها إلى الله جل جلاله، المال الذي شغله عن ذكر الله جل جلاله - قربه إلى الله جل جلاله، كي يتوب عليه.

ونموذج نبي الله أيوب عليه السلام أيضا حين أخذ البلاء منه مأخذا، فلجأ إلى ربه يناديه (أَتَى مَسْنَى الشَّيْطَانِ بُصْبٍ وَعَذَابٍ {١١})، فأجاب الله جل جلاله نداء عبده، ومنَّ عليه فرد إليه صحته وعافيته، ووهب له أهله وماله برحمته.

إن الخطوة الأولى التي ينبغي أن تخطوها لإصلاح نفسك أن تقف معها وقفة طويلة، وقفة محاسب يمسك بالورقة والقلم ليحاسب نفسه، فيحصى جوانب الضعف والقصور في قائمة، ويحصى جوانب إيجابياتها في قائمة أخرى، ثم يخطو الخطوة الثانية فيقوم بمعالجة تلك الجوانب القاصرة، وتهذيبها وتركيتها، ويتضرع إلى الله جل جلاله في أن يعينه على هذا - ثم ينظر في الجوانب الإيجابية فينتقل منها، وهذا هو مفهوم الاستغفار. وعندئذ ستجد أن الله جل جلاله قد منَّ عليك بالخطوة الثالثة، حيث سيحقق لك أمنياتك، ويثبتك على نصرته الحق والقيام به، ويعطيك الظفر والنصر.

٤. العمل الصالح والفكر الصائب قوام الحياة

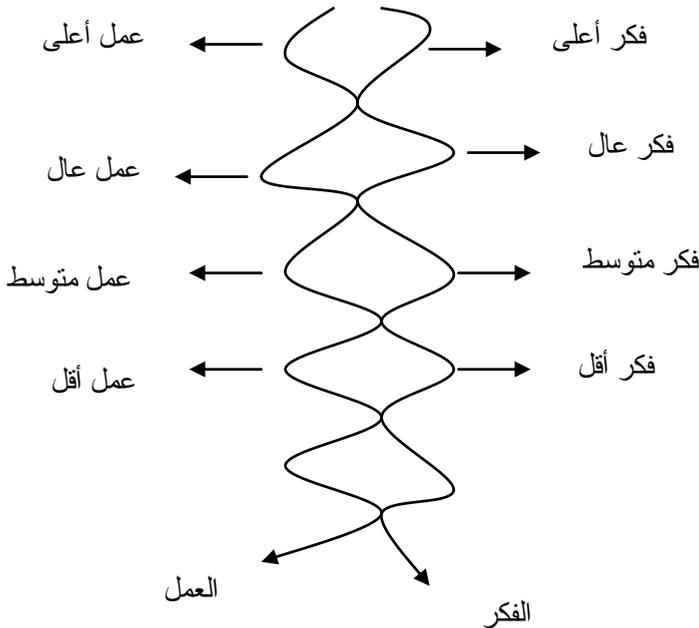
قال تعالى (وَذَكَرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {٥٠}). قال ابن كثير: "يعنى العمل الصالح والعلم النافع ... وعن ابن عباس (أولى الأيدي): أولى القوة والعبادة، و(الأبصار): الفقه في الدين ... وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة، وبصرا في الدين"^(١). وهذه التفسيرات تعنى بـ (أولى الأيدي): العمل الصالح، ومنه قوة العبادة،

(١) تفسير ابن كثير ٥٥/٧.

وأولي الأبصار أي البصيرة والفقّه. وهو ما أسميناه بـ (الفكر الصائب)، فالله ﷻ قد أثنى على عباده هؤلاء بأنهم أصحاب عمل صالح وفكر صائب، والعمل الصالح هو العطاء الإيجابي، والفكر الصائب هو المعرفة التي ينطلق منها الإنسان في هذه الحياة، والفكر يقوم على العلم الدقيق والفقّه العميق لمختلف شئون الحياة، وعلى قدر صواب هذا الفكر يكون صلاح العمل الذي يقوم عليه.

فالفكر والعمل سلّمان متقاطعان، كلما كان الفكر أكثر إصابة كان العمل أكثر صلاحاً، وبهذا نعرف مكانة العلماء في ديننا، قال تعالى {يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة ١١]، وتأمل الآية، حيث قرنت بين درجات العلماء واطلاع الله ﷻ على أعمالهم، وقال تعالى {إِنَّمَا يَحْشَى اللَّهُ مِنَ الْعِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر ٢٨]، وهي الخشية التي تدفع صاحبها إلى العمل الصالح.

وهذا الشكل يبين تقاطع درجات الفكر والعمل:



فإذا كان الفكر الصائب لدى الإنسان في أسفل السلم فإن عمله الصالح لن يتعدى أسفل السلم أيضا، وإذا كان الفكر لديه في أعلى السلم فإن العمل الصالح سيكون في أرقى السلم، ولهذا فأصلح الناس أعمالا هم أصوبهم أفكارا، وليست العبرة في الفكر بكثرتة بل العبرة بصوابه، وليست العبرة في العمل بكثرتة، بل العبرة بصلاحيته.

وتختلف تطبيقات الأعمال الصالحة في الحياة، وهي تجتمع تحت عنوان واحد، وهو أن كل ما تحتاجه النفس ويحتاجه الناس للإصلاح والبناء - فإنه موطن للعمل الصالح.

٥. إقامة الحق والحكم به - أساس الرسالة

وهذا من تطبيقات العمل الصالح التي ذكرتها سورة (ص)، وقد خُص بالذكر؛ لأنه الأساس الذي من أجله جاءت الرسالات، وبعثت الأنبياء، ولأجله تحمل رسل الله . عليهم السلام . كل أذى، ومن أجله ضحى المخلصون بأوطانهم وبأموالهم وبأهليهم وبأنفسهم. إن أعظم الأعمال الصالحة هي إقامة الحق والحكم به في حياة الناس، فهو العمل الذي اختار الله ﷻ للقيام به أكرم خلقه - وهم الرسل، وهو العمل الذي ارتضى الله ﷻ من أجله أن يضحى بالنفوس، وتنفق الأموال.

والنموذج الذي ذكر في سورة (ص) هو نموذج نبي الله داود -عليه السلام- حين جاءه الخصمان (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ) ... إلى آخر القصة. ونلاحظ أن الخصمين طلبا منه (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط)، وهو نفس الأمر الإلهي (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله). والحكم بالحق يناقضه اتباع الهوى، فلا يلتقيان في غمد. وقد أوضحنا في سورة القمر هذه المناقضة، فاتباع الهوى سبب لكل ظلم وزور وضلال، والحكم بالحق لا يكون إلى بعد التخلص من شوائب الهوى.

إن قضية الحق هي جوهر الوجود، فالله ﷻ حق، وكتابه حق، ونبيه حق، ووعدته حق، والساعة حق، والسموات والأرض خلقهما الله ﷻ بالحق، وعدل الله ﷻ من أجل إحقاق الحق، ورسل الله ﷻ جاءوا لأجل إقرار الحق، فالتهاون في إقامته أو الحكم به هو تضييع لأعظم فروض الدين، وهو ضلال عن سبيل الله ﷻ (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما تسوا يوم الحساب {٣}).

▪ الخلق والقيم والمنهج أمور قامت على الحق

وقد ذكرت آيات السورة ثلاثة أمور بعد قصة داوود عليه السلام، كلها قامت على الحق، الخلق (كخلق السماوات والأرض)، والقيم (كالعدل)، والقرآن.

١. (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾)، أي: فلم نخلقهما باطلا، بل خلقناهما بالحق، ولكن الكافرين الذين يتبعون الهوى يظنون أن الله جل جلاله خلق خلقه عبثا. ليظنوا ما شاءوا (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

٢. ومن الحق العدل، والعدل أن يجزى المحسن بإحسانه إحسانا، والمسيء بإساءته إساءة (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٨﴾). فلا يستوي من يعمل الصالحات ومن يفسد في الأرض، ولا يستوي المتقون والفجار (*).

٣. وبالحق نزل القرآن ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، قال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾).

إن الجمع بين هذه الأمور الثلاثة (الخلق، والقيم، والقرآن) يريك إلى حد تبلغ أهميتها، فبعد أن أمر الله جل جلاله داوود عليه السلام بالحكم بالحق، بين للناس إلى يوم القيامة لماذا الأمر بالحق. فخلق السماوات والأرض بالحق، وسن القيم والشرائع بالحق، وإنزال القرآن بالحق، وفيه الحق، ولهذا طلب من الناس أن يتدبروا آياته حتى يصلوا إلى الحق الذي فيه وقيمومه، فيتذكر بهذا الحق أولو الألباب – أصحاب العقول النيرة والفطر السليمة.

وبالتأمل ثانية في هذه الآيات التي جمعت بين (الخلق، والقيم، والقرآن) نستخلص معنى آخر، فالآيات تشير إلى أخطر القضايا المتعلقة بالإنسان. فإذا كان خلق السماوات والأرض بالحق، فإن خلق الإنسان من باب أولى. وهو خليفة الله جل جلاله. بالحق. وهذا الإنسان المخلوق بالحق تحكمه في حياته قيم معينة ومعارف من خلالها ينسج معاملته مع المخلوقات عاقلها وغير عاقلها، هذه القيم يستمدّها من منهج، ويصوغها وفق أسس هذا المنهج. فلو كان المنهج لا يحيط صانعه علما بالإنسان بخلقه وطبيعته – لكان المنهج قاصرا. من هنا جعل الله جل جلاله للإنسان منهجا حكيما ألا وهو القرآن، فهو الحق وجاء بالحق، ومن ينابيعه تستقى القيم، فالقيم التي حسنها الله جل جلاله هي القيم الحسنة، والقيم التي قبحها الله جل جلاله هي القبيحة.

(* راجع مفهوم التقوى والفجور في سورة الشمس.

ومن ناحية أخرى فإن النماذج التي ذكرتها السورة تبين أن العبد ما بلغ هذه المنزلة إلا بأن أقام قيمه على الحق، واستمدها من منهج الحق - فبذلك بلغ ما بلغ.

بعد هذا فقد تعلمنا أن:

١. أساس العبودية هو الإرادة القوية.
٢. أساس النصر والظفر هو الصبر.
٣. أساس إصلاح النفس هو معرفة النفس.
٤. أساس الحياة القويمة هما العمل الصالح والفكر الصائب (العلم والعمل).
٥. أساس الرسالة وهداية الناس هو إقامة الحق والحكم به.

الاحور الثاني: رصد مظاهر العناية الإلهية

إن العباد متى قاموا بمهامهم التي أمرهم الله ﷻ بها، وهي المهام الخمس السابقة، فمتى قاموا بها، فإن الله ﷻ سيحوطهم بعنايته، ويرعاهم برحمته. ولو تأملنا في سورة (ص) فسندرى أن مظاهر العناية الإلهية بعباده هؤلاء تتمثل في: تيسير أسباب التمكين، وتهيئتهم للريادة والقيادة، واصطفائهم في الدنيا، وتكريمهم فيها، وتكريمهم في الآخرة.

١ . تيسير أسباب التمكين

وأسباب التمكين بعضها مادي، وبعضها معنوي.

❖ أسباب التمكين المادية

تفصح سورة (ص) أن الله ﷻ قد يسر لعباده أسباب التمكين المادية، كما في قصة سليمان عليه السلام (فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ {٣١} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ {٣٢} وَأَخْرَيْنَ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ {٣٨})، فهو قد سخر له الريح وهي من أسرع المواصلات التي عرفها الإنسان، والحقيقة أن هذه التقنية يصعب اليوم على الإنسان تخيلها - رغم طفرة التقنية والتكنولوجيا في عصرنا - فقد كانت الريح لا تتقل سليمان عليه السلام فقط، أو ثلاثمائة راكب معه، بل كانت تتقل جيشا كاملا بعده وعدته، بخيله وإبله، بكل ما يحملون، فتخيل معي أنك ترى جيشا في الهواء تحمله الرياح - إنها آية عظيمة.

وكذلك هيا الله ﷻ له أعظم قوى عاملة عرفها الناس، إنهم الشياطين ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورَ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ ١٣]، (وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَاءَ وَغَوَاصٍ)، ومنهم العفريت الذي أوتي قوة عظيمة، فكان بقدرته أن يأتي بقصر بلقيس في سويغات قليلة، يطير به في الجو ﴿قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل ٣٩].

كذلك هيا الله ﷻ له قوة العلم، فكان من أتباعه ذلك الرجل صاحب القوة العلمية الباهرة، وهو الذي نقل عرش بلقيس بقوة علمه من اليمن إلى الشام، في لحظة واحدة، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل ٤٠].

كذلك سخر الله ﷻ لداوود عليه السلام بعض الكائنات، (إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْآشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾)، كما في سورة سبأ ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ ١٠]، فهيا الله ﷻ هذه الكائنات تتجاوب معه في تسبيحاته، يسبح فتسبح معه الجبال والطيور كما سخر الله ﷻ له الحديد ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ ١٠-١١].

والخلاصة أن الله ﷻ قد سخر لهذين العبيدين من أسباب التمكين المادية شيئا عظيما، سخرت لهم قوى الطبيعة وقوى الجان، وتلخصها كلمة سليمان عليه السلام، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَطْيَقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل ١٦]. فقد أوتوا من كل شيء. .

❖ أسباب التمكين المعنوية

(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ ﴿٢٠﴾)، قال ابن كثير: "أي جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك، وعن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطانا" (١). وفسر ذلك الإمام علي . كرم الله وجهه . باشتداد هيبته في بني إسرائيل، (والحكمة)، فسرهما مجاهد ب: "الفهم والعقل والفتنة"، و(فصل الخطاب) فسرهما مجاهد ب "الفصل في الكلام وفي الحكم" (٢).

وكل هذه الأمور: الهيبة، والفتنة، والحزم الذي يعني الفصل في الكلام والحكم، وهو فصل يقوم على علم وحزم - كل هذه من أسباب التمكين المعنوية التي يسرها الله ﷻ

(١) تفسير ابن كثير ٤١/٧ .

(٢) المرجع نفسه.

لعبدته داوود - ﷺ، كما قال تعالى عن داوود وسليمان . عليهما السلام ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء ٧٩]. والله ﷻ سيبسر هذه الأسباب وغيرها للعبد متى سعى إلى تحصيل ما يجب عليه، فالله ﷻ أخبر عن نفسه فقال (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ) فهو الذي قوى ملك عبده، وهو الذي أتى عبده الحكمة، ولكن متى؟ بعد أن سعى العبد.

٢. تهيئتهم للريادة والقيادة

إن الله ﷻ يهيئ عباده لإقامة الحق والحكم به، يهيئهم لهداية الناس، وقيادتهم إلى الحق، إنها دورات تأهيلية إلهية. ومن مظاهر هذه التهيئة:

أ- وضعهم في محكات عملية؛ لصقل تجاربهم وخبراتهم، ومضاعفة أجورهم.

فسورة (ص) حين تتحدث عن الفتن التي تعرض لها داوود وسليمان وأيوب . عليهم السلام، (وَوَطَّنَ دَاوُودَ أُمَّمًا فَتَنَاهُ)، (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ)، (وَأَذَكَّرْنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ {١١}). فهذه الابتلاءات التي تعرضوا لها إنما هي محكات عملية، ودورات تأهيلية، تزيد العبد خبرة بتجارب الحياة، وكيف يتصرف التصرف الصحيح، ومن ثم يأتي توجيه الله ﷻ لعبده بعد أن يرى كيف يصنع، فيوجهه إلى مواطن الزلل حتى يفيد من التجربة. وهذا منهج ينبغي أن يتبعه المربون والمعلمون وصانعو القادة - أن يضعوا تلاميذهم في محكات علمية، ثم يقيّمون تصرفاتهم فيرشدونهم إلى الصواب. وقصة داوود ﷺ هي مثال لما نقول (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ {١١})... الخ.

قصة داوود عليه السلام

سنقوم الآن بعرض القصة في ثوبها الحوارية، حتى نتخيل الموقف.

(١) - داوود عليه السلام كان في محرابه، قد أغلقه عليه، وجلس يتعبد وحده.

موقف داوود عليه السلام

موقف الخصمين

- (٢)
- تسوروا الحراب
 - فلم يشعر بهم
 - دخلوا عليه فجأة
 - ففزع منهم حين رآهم بين يديه، ولم يكن قد شعر بهم حين تسوروا الحراب، ولو شعر بهم لما فزع
 - فقالوا: لا تخف، فنحن خصمان قد بغى بعضنا على بعض
 - وهنا يبدأ داوود عليه السلام، ويعلم أن الخصومة هي التي ألبتاهم إلى هذا التصرف
 - ثم يطلبون منه أن يحكم بينهم بالحق
 - وهنا يتخذ داوود عليه السلام موقف الحاكم، ويأمر أحد الخصمين بالكلام

- (٣)
- الخصم الأول يشرح المشكلة من وجهة نظره: " إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تَسَعٌّ وَتَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْمَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ "
 - يستمع إليه داوود عليه السلام، وربما أثاره كلام الخصم، واستجاش عاطفته. وكان المنطق أن يسمع إلى الطرف الآخر، ولكنه ما فعل ذلك.

- (٤) -
 يحكم داوود عليه السلام لصالح الخصم الأول: "لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَيَّ يَفَاجِهٍ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ".
 وبهذا عرّض بأن الخصم الآخر باغ

إلى هنا تنتهي أحداث القصة، ثم تأتي مرحلة أخرى فيها، (وَضَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ). والسؤال هنا: كيف ظن داوود عليه السلام هذا الظن؟ والجواب - والله أعلم - أن مصدر ظنه أحد افتراضين:

الأول: أن الخصم الآخر اعترض علي الحكم، فظن داوود عليه السلام أنه وقع في الفتنة حين حكم دون أن يستمع إليه.

والافتراض الثاني: أن داوود عليه السلام بعد أن ذهب الخصمان بدأ يراجع الموقف، وهنا تبين له أنه حكم دون أن يسمع من الآخر، ففي هذه اللحظة - علم أنه وقع في الفتنة، وخاصة أن الخصمين قد غادروا. وهذا هو الافتراض الأقرب، فلو كان الخصم الآخر اعترض عليه لأعاد الحكم.

ويعد أن أدرك داوود عليه السلام هذا استغفر وتاب فتاب الله عليه.

وأخيرا جاء التعقيب الإلهي حتى يفيد داوود عليه السلام من القصة (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ {٣٦}). فالتعقيب جاء ليقيم الموقف، ويرشد إلى موضع الخلل. والملاحظ أن التعقيب تعلق بالحكم بين الناس، مما يوحي بأن الفتنة كانت في هذه القضية، وليست في قضية الفرع أو الخلوة في المحراب، وإلا كان التعقيب متعلقا بها.

وهكذا نرى أن الله عليه السلام وضع عبده في اختبار، ليرى كيف يتصرف في هذا الموقف، ثم قام بتوجيهه إلى الصواب، وهذه من عناية الله عليه السلام بأوليائه؛ أنه يؤهلهم لقيادة الناس تأهيلا عمليا، ليس مجرد مواظ فقط، بل تأهيل عملي، وبعد أن تستعد النفس لقبول التوجيه يأتي دور التوجيه فيقم في أحسن موقع.

ب- إيجاد الحلول لما يواجههم من أزمات

في قصة نبي الله أيوب عليه السلام دليل على ما نقول. وقصة أيوب عليه السلام كما في الظلال - وهو ما نرتضيه - "إن أيوب عليه السلام كان عبدا صالحا، وقد ابتلاه الله عليه السلام فصبر صبيرا جميلا، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا، ولكنه ظل على صلته بربه وتقته به، ورضاه بما قسم الله عليه السلام. وكان الشيطان يوسوس لخصائمه القلائل الذين بقوا على وفائهم له - ومنهم زوجته - بأن الله عليه السلام لو كان يحب أيوب ما ابتلاه، وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء، فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله عليه السلام ليضربنها عددا عيته - قيل مائة. وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقي من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء في نفسه: (أَتَى مَسْنَى

الشَّيْطَانُ بُئِصِبَ وَعَدَابٍ) ... فأراه (ربه) أن يضرب الأرض بقدمه فتفتجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفي ويبرأ...^(١).

ثم قال: "فأما قسمه أن يضرب وزجه، فرحمة من الله ﷺ به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله ﷺ أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده، فيضربها به ضربة واحدة، تجزئ عن يمينه فلا يحث فيها، (وَحَدَّ يَدِكَ ضِعْمًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ)"^(٢)، وهذا محل الاستشهاد، فالله ﷻ قد أوجد لعبده حلا من المأزق الذي ألم به، فهو قد حلف ليضربن وزجه، وهي كانت بارة به صابرة معه، فكان هذا المخرج أن يضربها ضربة واحدة بمجموعة من العيدان تبلغ العدد الذي حدده.

إن الله ﷻ عندما يرى صبر العبد وإخلاصه وصدقه، فإنه لن يتركه وحده يواجه المشاكل، بل سيقف معه مؤيدا ومسددا وموقفا، يلهمه الرأي السديد، ويريه الحل الصحيح، بأي وسيلة من الوسائل، ولهذا فقد شرع ديننا مجموعة من العبادات يستطيع العبد من خلالها أن يهتدي إلى الحق بهدي الله ﷻ وتوفيقه، كصلاة الاستخارة، والحاجة، وكان رسول الله ﷺ إذا أمه الأمر رفع رأسه إلى السماء فقال: سبحان الله العظيم^(٣)، يفرج إلى ربه حتى يجد حلا لمشكلته عنده. ليس شرطاً بالوحي، فالله ﷻ سيسوقك سوفا إلى الحل الصحيح في أي مشكلة تواجهك إذا ما قمت بالمهام الخمس السابقة.

ج- توفيقهم لتحديد الأهداف والوصول إليها

إن تحديد الهدف ثم السعي إليه، وصرف النظر عما سواه بغية الوصول إليه - فهو أمر عسير لا يطيقه إلا كبار النفوس التي تستلذ في تحقيق أهدافها كل مرّة، وتستسهل كل صعب. وكمن من رجل يجد في تحديد هدفه أولا، ثم السعي إليه ثانيا - عقبات عصبية! وكمن من رجل يحدد له هدفا بعيدا ثم تعتوره الصوارف والشواغل التي تشوش عليه رؤية الهدف، فلا يتضح عنده هدفه، ولا يخلص لهدفه.

وفي سورة (ص) يبين الله ﷻ أنه يمن على أوليائه بوضوح الهدف، ويمكنهم من رؤيته بكل وضوح، والسعي إليه، ويصرف عنهم العوائق والشواغل حتى يصلوا إليه، قال تعالى (إِنَّمَا أَحْلَصْنَاكُمْ بِحَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ {١٦})، قال مجاهد في تفسيرها "أي: جعلناهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣٠٢١/٥.

(٢) المرجع نفسه، ٣٠٢٢/٥.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٥٨)، من حديث أبي هريرة، وضعفه الألباني.

يعملون للأخرة ليس لهم همٌ غيرها^(١). فقد كان هدفهم وهمهم الذي يشغلهم واضحا لا لبس فيه، كانوا يعملون وأمام أعينهم الدار الآخرة، ليس لهم هم غيرها، ومن ثم تكون سائر الأعمال كسواقي تنتهي إلى مصب كبير، فتستقر فيه. ومن هنا نتعلم أن تحديد الهدف ووضوحه والسعي إليه، وصرف الذهن عن الشواغل - شيء أساسي في حياة القائد الذي يريد أن يقود الناس إلى الله ﷻ، ويهديهم إلى سبيل الحق.

٣. اصطفاؤهم في الدنيا

قال تعالى (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)، إن الله ﷻ يصطفي الرجال من خلقه للمهام الجسيمة. ولما كان الرسل أكمل الناس فقد اصطفاهم الله ﷻ للرسالة، إن المهام الإلهية لا يقوم بها العجزة والضعفة من الناس، لا يقوم بها الأراذل والأصاغر، إن الله ﷻ ينزه مهامه عن هؤلاء الذين لم يحترموا إنسانيتهم، إنما يقوم بمهام الله ﷻ في الأرض الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله ﷻ عليه، فلا يزالون يخلصون للمولى، ويفرغون لحمل رسالته حتى يستخلصهم الله ﷻ فيجعلهم من المخلصين، اللهم اجعلنا منهم يا رب.

٤. تكريمهم في الدنيا

هناك مظاهر كثيرة لتكريم الله ﷻ لهم في الدنيا، نقف مع بعضها مما ذكرته سورة (ص)، فمنها:

أ - العفو عن سيئاتهم والتجاوز عن زلاتهم:

من كرم المولى أنه يعفو عن هؤلاء - أصحاب المهام الإلهية - يعفو عنهم إذا هفوا، ويمحو خطيئاتهم، ويبدل سيئاتهم حسنات، بل يمن عليهم ويعطيهم ما يطلبون منه بعد انكسار المعصية، فسلیمان ﷺ عندما طلب من ربه المغفرة بعد أن وقع في الفتنة، اقتنص فرصة الرضا الإلهي، وطلب من ربه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وداوود ﷺ عندما استغفر ربه غفر له، وأخبر الحق بأنه قد منّ عليه بالدرجات العليا في الدنيا والآخرة (فَقَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ).

(١) تفسير ابن كثير ٥٥/٧.

ب- الاستجابة لدعائهم:

فهذا أيوب عليه السلام لما نادى ربه أجابه الله جل جلاله، ورفع عنه بلواه، وكشف ما به من ضرر، وهياً له ما يصلح حاله ويذهب أسقامه، (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ).

ج- الإنعام عليهم:

ينعم الله جل جلاله على هؤلاء الرجال بالنعمة الفياضة في أنفسهم وأموالهم وأوقاتهم وأعمالهم وإنتاجاتهم، ولهذا تجد الرجل منهم يعمل في شهر ما لا يعمله غيره في دهر، وينجز في ساعة ما لا ينجزه غيره إلى قيام الساعة. ولو تأملت سير العظماء والمصلحين والعلماء لوجدت أنهم في سنوات قليلة قد حققوا أشياء عظيمة، وخير من يستشهد به هنا محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إمام المصلحين وزعيم العظماء، فخلال ثلاث وعشرين سنة غير معالم التاريخ، ونقل البشرية من طور التخلف والجهل والغوغائية إلى طور النضج والتقدم والرقي العلمي والتنظيم والإتقان.

ولك أن تتأمل ما شئت من سير العظماء لتلحظ نعم الله جل جلاله عليهم بما يعطيهم من توفيق وبركة وقبول عند الناس، وحسن صيت، ومهابة، ومحبة ... قال تعالى عن أيوب عليه السلام (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ {٥٣})، فالله جل جلاله برحمته قد أنعم على عبده أيوب عليه السلام بعد الضر الذي مسه بنعم عظيمة في أهله، قال الحسن وقتادة: "أحياهم الله له بأعيانهم، وزادهم مثلهم معهم" ^(١).

كما تشير الآية إلى أن أيوب عليه السلام قد مضى، ولكن بقي ذكره، وقصة حياته بين الناس عبرة وذكرى يتذاكرها الخلق، ويفيد من دروسها أولو الألباب. وهذه نعمة أخرى أن الله جل جلاله يجعل حياة هؤلاء العباد حافلة بالعبير والعظات، فإذا ما ماتوا بقيت آثارهم يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، فيعيشون ما عاشت سيرهم. وهذا هو طلب إبراهيم عليه السلام من ربه حين قال (وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) [الشعراء ٨٤].

٥. تكريمهم في الآخرة

ينمثل تكريم الله جل جلاله لعباده في الآخرة في شيئين:

الأول: حسن مأبهم ومنزلتهم (وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَأَبٍ {٤١}) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّتَّحَةً لَهُمُ الْأَنْبَابُ {٥} مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ {٥١} وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٍ {٥٢} هَذَا مَا تَدْعُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ {٥٢} إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ تَفَادٍ {٥٤}).

(١) تفسير ابن كثير ٥٥/٧.

وقصة الكرامة الأخروية للمتقين، قد حفل بها القرآن الكريم، وعرضها بصور عديدة في مختلف السور. وسورة (ص) عرضت لقصورها ذات الأبواب المفتحة، ومجالسها حين يتكئون عليها ليتحدثوا فيطلبون الفواكه والشراب، فيحضرهم ما طلبوا، وعندهم زوجات من أحسن ما خلق الله ﷻ، فهذا وعد الله ﷻ وهو رزق لا ينفد.

الثاني: خزبي أعدائهم وإذلالهم (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيَتِ لَشَرَّ مَآبٍ {٥٥} جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فِيئِسَ الْمَهَادُ {٥٦} هَذَا فَلْيَدُقُّوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ {٥٧} وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ {٥٨} هَذَا فَوْجٌ مُتَّحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ {٥٩} قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فِيئِسَ الْقَرَارُ {٦٠} قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ {٦١} وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ {٦٢} أَتَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ {٦٣} إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ {٦٤}).

والآيات تصور ما سيلفاه الطاغون الذين رأينا صفاتهم ونماذجهم وأعمالهم في سورة القمر، الذين يحادون الله ﷻ ورسوله ﷺ، فلهم كل هوان بدار الآخرة، مهادهم سعير، ولحافهم سعير، وشرابهم حميم، وهو الماء الحار، وغساق (وهو الماء الذي لا يطاق لتناثته)، فهو مستنقع آسن. وغير ذلك من ألوان العذاب التي يذوقونها شرابا وطعاما، وتشوى بها جلودهم.

كما تعرض الآيات مشهدا من مشاهد تخاصمهم في النار وتصور تنازعهم وهم في نيران السعير، فبعضهم يلعن بعضا، وتحيتهم بينهم (لا مَرْحَبًا بِهِمْ)، والآخر يلقي على السابق مغبة الكارثة (بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فِيئِسَ الْقَرَارُ)، ودعاؤهم لبعضهم (رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)، ثم يتسألون عن المتقين الذين كانوا يحسبون أنهم في الدنيا الأشرار، يتسألون: مالنا لا نرى هؤلاء؟ أهم على حق وكنا نسخر منهم؟ أم إنهم على باطل مثلنا فزاغت أبصارنا؟! يتسألون، وقد علمنا أين مقر هؤلاء، وسيعلمون هم أيضا.

خاتمة: رسالة الله إلى البشرية [من آية: ٦٥ إلى آخرها]

بعد الحديث عن مسيرة الطاغين في سورة القمر، وعن سيرة المتقين في سورة (ص) نختتم السورة بحديث عن الرسالة، ليتبين لنا أن مشكلة الطغيان تكمن في الإعراض عن الرسالة، وأن التقوى ميزة تميز بها الرجال الذين آمنوا بالرسالة رسالة الله ﷻ إلى البشرية عبر التاريخ، والتي اختتمت بمحمد ﷺ. وقد تحدثت الخاتمة حول عناصر الرسالة، وطبيعة الرسول، والمرسل إليه، وعن حقيقة الرسالة.

أولاً: عناصر الرسالة

للرسالة أربعة عناصر - أو أركان: المرسل (وهو الله ﷻ)، المرسل إليه (وهم الناس)، والرسالة نفسها، وحامل الرسالة (وهو الرسول ﷺ). وقد عرضت سورة (ص) لهذه الأركان الأربعة في خمس آيات (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {٦٥} رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ {٦٦} قُلْ هُوَ تَبَّأٌ عَظِيمٌ {٦٧} أَأَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ {٦٨}).

العنصر الأول: الرسول

الرسول (إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ)، يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يخبر الناس بوظيفته، فهو منذر، ووظيفته الإنذار^(١). فهو يقول: أنا رجل مثلكم غير أنني أحمل عبء أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها. وبعيدا عما تزعمون يا معشر قريش من أنني ساحر كذاب، أو منقول على الله ﷻ، أو ... فالحقيقة هي أنني رسول الله جئت لأندركم.

العنصر الثاني: المرسل

المرسل (وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ)، فالذي أمر رسوله ﷺ بالإنذار هو الله ﷻ الذي لا إله إلا هو، فهو الأمر وهو المرسل، ولا توجد آلهة أخرى في هذا الكون، وإلا فأين رسلها؟! وأين رسالاتها؟! وما المؤهلات التي تجعل منها مرسل؟! تبين السورة في آيتين أن الصفات التي تخول للإله أن يقوم بإرسال الرسالة إلى الناس جميعا، ويأمرهم بالتزامها، ويعاقب من يخالفها - هذا الإله يتصف بصفتين هما: الألوهية والربوبية، فهو الإله وهو الرب.

الأولى: الألوهية

الإله هو المعبود الذي يؤلهه الناس، والتأليه هو العبادة، كما قال رؤية:

الله در الغانيات المدّه سبّحن واسترجعن من تألهي^(٢)

أي من تنسكي وعبادتي، فالإله هو الذي يستحق أن يُعبد.

وقد يدّعي الألوهية من ليس بإله، إما صراحة، كما قال فرعون يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي {القصص ٣٨}، وإما ضمنا، كمن يشرع لغيره وفق ما يشاء، وهذا هو المراد بحديث رسول الله ﷺ عندما سمع عدى بن حاتم قوله تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

(١) راجع مفهوم الإنذار في بداية سورة المدثر.

(٢) المدّه: أي المدّح، وهو من قلب الحاء هاء.

وَرَهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ{[التوبة ٣١]، فقال: ما عبدوهم، فقال رسول الله ﷺ: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه، فتلك عبادتهم"^(١).

فإذا كان هذا حاصلًا، فما الدليل على الألوهية؟ وبأي دليل نعرف الإله الحق من الإله المزيف؟!

❖ الواحد القهار

هناك دليلان على معرفة الإله الحق هما: دليل الواحدية، ودليل القهر. وهذا هو الوارد في آية (ص) (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)، فدليل كونه إلهاً هو أنه **الواحد القهار**، فما المراد بهذين الدليلين؟

الواحد: الواحد هو الذي لا ثاني له. والله ﷻ يخبرنا بأنه إله، لأنه واحد لا ثاني له، ومن هنا نعرف أن أضخم حقيقة جاء القرآن لتقريرها هي وحدانية الله ﷻ، وقد بين القرآن هذه الحقيقة وعرضها بمختلف الأوجه، وحاوَر ذلك الإنسان . كثيرا . الذي يتعجب ويقول (أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا)، وقد أثبت القرآن الوحدانية بدليل المنطق {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَنَسَدْتَا{[الأنبياء ٢٢]، وبدليل الخلق كما في سورة النمل {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}...{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ{[النمل ٦٠-٦٤]، ولهذا كان التعقيب بـ(إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ)؟! وهذه الحقيقة هي أبرز كلمة تنطق بها آيات الوجود^(٢).

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
وفي كل تسبيحة ناطق وفي كل تحريكه شاهد

والخطورة في هذه القضية أن أصحاب الديانات الأخرى قد وقعوا في آفة الشرك، فألوهوا مع الله ﷻ آلهة أخرى، كالمسيحية التي جعلت الآلهة ثلاثة، واليهودية التي جعلت عزيراً ابناً لله ﷻ وألتهته معه . فإذا كان هذا شأن أهل الدين فكيف بمن ليس لهم دين؟! ولهذا كان أول حديث لرسول الله . عليهم السلام . إلى أقوامهم هو إثبات هذه الحقيقة، فلو آمن الإنسان بها لعبد الله ﷻ {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ{[المؤمنون ٢٣]. لماذا نعبد؟ يأتي الرد {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، فلأنه واحد؛ إذن فهو يستحق العبادة وحده.

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٠)، من حديث عدي بن حاتم، وصححه الألباني.

(٢) تحدث سيد قطب عن دليل الوحدانية في الكون حديثاً رائعاً، انظر: في ظلال القرآن ٣٠١٠/٥.

القهار: نلاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر صفة (القهار) إلا مقرونة بـ (الواحد)^(١). والقهار هو الذي يستطيع أن يفعل بغيره ما يشاء، ولهذا ترد صفة القهر متعلقة بالفوقية، كما في قوله {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام ١٨]، و{قَالَ سَتَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف ١٢٧].

من هنا نعرف معنى اقتران (الواحد) بـ (القهار)؛ فهو قهار قادر على أن يفعل بغيره ما يشاء؛ لأنه واحد متفرد في الملك، فهو {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [البروج ١٦]، ولو لم يكن واحدا لما كان قهارا. ويمكن أن نقرب هذا بمثال من واقع الحياة، فوجود أكثر من قوة على الساحة يخلق توازنا فلا يستطيع أحد أن يقهر غيره، وهذا بخلاف ما لو تفردت قوة واحدة على الساحة، فإنها تستطيع قهر غيرها.

ودليل القهر قد أثبتته القرآن الكريم بمختلف الطرق، فالإحياء والإماتة، والضرب والنفع، والخفض والرفع، والقبض والبسط، والإعزاز والإذلال، والبدء والإعادة، والتقديم والتأخير، والرقابة والشهادة، والحفظ، والإعطاء والمنع، والبطش والانتقام. كلها من مظاهر القهر، فالله ﷻ يتصرف كيف شاء في خلقه.

الثانية: الربوبية^(٢)

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}، إن الرب هو المتكفل بشئون من يعول، فرب البيت هو الراعي المتكفل بشئون أسرته، ورب العمل هو المتكفل بشئون العمل، كمدير شركة أو مصلحة... والله المثل الأعلى، فرب السماوات والأرض وما بينهما من خلق، هو المتكفل بشؤون هذه المخلوقات، عاقلها وغير عاقلها، هو الوالي الذي يقوم على خلقه، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران ٢]. وللرب صفتان أساسيتان، هما: العزة والمغفرة، فما المراد بهاتين الصفتين؟

❖ العزيز الغفار

العزيز: العزيز هو المؤهل لرعاية من يعول، فعزیز قومه هو ذلك الرجل الذي لديه القدرات والإمكانات التي يقود بها قومه، ويقوم على مصالحهم، ولهذا يسمى الوزير الأعظم بـ(العزيز)، كـ(عزيز مصر)، فلا يكون الإنسان عزيزا سيذا في قومه إلا بعد أن يملك المؤهلات التي تجعله يتبوأ هذه المكانة، ولهذا لما سال معاوية الأحنف بن قيس: بم سدت

(١) جاءت في ستة مواضع، هنا، و{أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف ٣٩]، {قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد ١٦]، {وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم ٤٨]، {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر ٤]، {لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر ١٦].

(٢) راجع مفهوم الرب في سورة الفاتحة.

قومك؟ أي: بأي شيء أصبحت عزيز قومك؟ فقال: بالحلم والأمانة - والله المثل الأعلى، فهو العزيز الذي يحسن القيام على الخلق، بما لديه من صفات قدسية،

وهذه الصفات تنقسم إلى:

أ. **الصفات الذاتية:** وهي الصفات التي تبين أن الله ﷻ صاحب الكمال المطلق فيما يمتلك من صفات يرب بها العالم، فهو العليم الحكيم الخبير، وهو السميع البصير، وهو القوي المتين، وهو الحكم العدل المقسط، وهو الحسيب الرقيب الحفيظ الشهيد الشاهد المحصي، وهو القيوم، وهو الواسع، فله في كل ذلك الكمال، فهو صاحب العلم الكامل والحكمة المطلقة، والقوة العظيمة...

ب. **الصفات المتعدية:** وهي تلك الصفات التي يتصف بها المولى مما يتعلق بخلقه، فهو رب العالمين يقوم عليهم بما يصلحهم، فهو الكريم الوهاب الرزاق الفتاح، وهو المغني المعطي، وهو الصمد الذي تصمد الخلائق وتلجأ إليه في حوائجها، وهو الهادي الذي يهدي كل شيء إلى ما يصلحه وبقيمه، إما هداية تسخير وإما هداية تخيير.

هذا هو العزيز رب السماوات والأرض وما بينهما، فما بال تلك الآلهة التي يتخذونها من دون الله ﷻ معبودات وأربابا؟!

الغفار: الغفار هو واسع المغفرة الذي يعفو ويصفح ويتسامح، وهذه هي الصفة الثانية التي يتصف بها السيد؛ لأن الراعي المتكفل بشئون الناس، سيجد في الناس شقاقا، ولن يكون الناس له على ما يريد. فمثلا المدير الذي يدير الشركة سيلقي مشقة من قبل الموظفين، من موظف يقصر في عمله، وآخر يغيب وثالث يسئ، ورابع...، وخامس... فمهما تكن كفاءة المدير - إذا لم يكن متسامحا واسع الصدر عطوفا لينا، فلن ينتظم عقد الشركة.

ولهذا قال الله ﷻ لرسوله ﷺ الذي وصف بأنه على خلق عظيم - قال له {وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْضُوًّا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران ١٥٩]. إذن فالمغفرة والتسامح هي الصفة الثانية التي تكمل الكفاءة، والقدرة على الإدارة القائمة على المهارات والإمكانات، وبالتسامح الذي يعد أساس التجميع، ورباط القلوب، بالتسامح يشعر الموظف بالأمن الوظيفي فينتج ويبذل.

ولله المثل الأعلى فإن الله ﷻ يدير العالم بالكفاءة وبالتسامح، الكفاءة التي عبر عنها القرآن بلفظ (العزيز)، والتسامح الذي عبر عنه بلفظ (الغفار)، فالله ﷻ غفار للناس جميعا {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَِا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر ٤٥]. وعن هذه

الصفة تتبثق معاني عدة، فالله ﷻ هو الرحمن الرحيم الرؤوف، وهو السلام المؤمن الودود، وهو التواب العفو الغفور، وهو الحليم الصبور، وهو الحميد الشكور، وهو المجيب اللطيف. وهكذا تأخذ هذه الصفة مفهومًا أوسع من مجرد مغفرة الذنوب الذي يعني التوبة، فـ الله ﷻ واسع المغفرة يتسامح حتى مع أعدائه، ولهذا يرزقهم ويعطيهم ويحييهم، وهم يحادونه ويشاقونه.

العصر الثالث: الرسالة

الرسالة: (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ)، أي: هذا القرآن الكريم، فيأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يعلن للناس بأن هذا القرآن هو نبأ عظيم، "إنه قدر من قدر الله ﷻ في نظام هذا الوجود. ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشا في مكة، والعرب في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان، ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها، ويكيف مصائرنا منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله ﷻ له ... ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم، ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال، وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض، ويوجه سير التاريخ، ويحقق قدر الله ﷻ في مصير هذه الحياة، ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها، ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة، يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة"^(١).

هذا رسالة الله ﷻ التي سماها بـ (النبأ العظيم)، وما هي عظمة هذا النبأ تتجلى في هذا العصر، ويتحقق وعد الله ﷻ {سُرِّهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت ٥٣].

(١) في ظلال القرآن ٣٠٢٦/٥.

العنصر الرابع: المرسل إليه

المرسل إليه: ثم أوضحت السورة المرسل إليه، وهم البشر المخاطبون في قوله تعالى (أَتُمْ عَنَّهُ مُتْرَضُونَ)، فحددت المرسل إليه، وبينت موقفهم السلبي من الرسالة الذي يتمثل في الإعراض عن بيان الله ﷻ ورسالته، وهذا الإعراض عن الرسالة يدفعهم إلى الإعراض عن المرسل والجهل به، فمرة يزعمون أنه آلهة عديدة، ومرة يجعلون مهمته هي الخلق دون الأمر، ومرة ينكرون وجوده.... وهكذا يتنوع الإعراض عنه وعن رسالته إما بتجاهلها أو الطعن فيها، أو إنكار مصدرها، أو القدر في حاملها... وبهذا يكون حديث السورة واضحا عن أركان الرسالة الأربعة، وهو حديث شامل وملء بالدروس التي يمكن استنباطها منه.

ثانياً: طبيعة الرسول

عرفنا أنفاً أن وظيفة الرسول هي الإنذار، وتؤكد هذه الوظيفة مرة أخرى في آيات السورة، وفي الآيات التالية تتحدد طبيعة الرسول، قال تعالى (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} {١١} {إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} {١٢}). وبالتأمل نجد أن طبيعة الرسول الذي يبلغ رسالة الله ﷻ إلى البشر - وخاتمهم محمد ﷺ - طبيعة الرسول تتمثل في ما يلي:

١. أنه بشر ذو طبيعة بشرية، فهو غير إله، وهو ليس ذا طبيعة مختلطة، كما يزعم النصارى عن المسيح أنه بشر إله، وهو ما يعرف عندهم ب(الناسوت واللاهوت)، إنما هو بشر مثلهم. وهذا ما يثبته القرآن في مواطن عديدة، والعجب أن يعجب الكفار من مجيء الرسول بشراً - كما رأينا في أول السورة - وفي هذا المواطن تؤكد السورة على هذه الطبيعة البشرية، فهو لا يعلم الغيب - مثله كمثل البشر، وما علمه من الغيب إنما هو وحي من الله ﷻ أوحاه إليه، وليس غيباً يدعيه، فهو يعلن للناس (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} {١١} {إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} {١٢}).

٢. أنه يتميز عن البشر بأن الله ﷻ اختاره واصطفاه - فكلفه يحمل الأمانة وتبليغها إلى الناس، وفي ذلك يجد من الأذى ما لا يجده أحد من الناس، فاصطفاه الله ﷻ للرسول سيجعله أكثر الناس عرضة لاستهداف الأعداء، ومن ثم فعلية أن يبذل من التضحية والجهد والصبر ما لا يبذله سائر الناس. وطالما أن الرسول هو اختيار من الله ﷻ، كما قال تعالى {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام ١٢٤]. فليس لأي بشر أن يطلب من الله

ﷺ إرساله للناس، ولهذا قال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص ٨٦]، وهذا ما تؤكد سورة (ص)، فالله ﷻ يأمر رسوله ﷺ أن يعلن للناس أنه اختار الله ﷻ، فالله ﷻ اختاره وأوحى إليه أمره بتبليغ الرسالة.

يقول سيد قطب - رحمه الله -: " فالقرآن يوجه أنظارهم، (أي أنظار الناس) بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جدا، وأنه أكبر منهم ومن محمد بن عبد الله ﷺ، وأن محمدا ﷺ ليس إلا حاملا لهذا النبأ ومبلغا، وأنه لم يبتدعه ابتداء، وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله ﷻ إياه، وما كان حاضرا ما دار في الملاء الأعلى منذ البدء، إنما أخبره الله ﷻ" (١).

ثالثا: حقيقة البشر وأصلهم

البشر هم العنصر الذي تتوجه إليه رسالة الله ﷻ، والسورة بعد أن بينت خصائص المرسل، وطبيعة الرسول، قامت ببيان حقيقة المرسل إليهم، فبينت أصل الخليفة وتكريم الله ﷻ لهذا المخلوق منذ نشأته، بل منذ أن أعلن الجبار أنه سيوجد في الأرض خليفة، وهذا هو أول موطن تذكر فيه قصة الخلق، وحوار الحق مع إبليس. وبالنظر إلى القصة (سورة ص: ٧١-٨٥) نخرج بعدة حقائق:

الأولى: طبيعة البشر

١. الإنسان مخلوق - وهذه أول حقيقة، فهو مخلوق قد أوجده خالق قادر على الخلق والإيجاد، هذا الخالق هو الله ﷻ، وفي ضوء الحقيقة تتحدد مهمته في الأرض، فهي مهمة المخلوق الذي ينتظر هديه من خالقه. **الإنسان مخلوق، إذن فهو ليس بإله، وليس هو الذي يحدد مهمته في الأرض،** وليس هو الذي يرسم علاقاته مع ما حوله ومن حوله. كذلك فالإنسان مخلوق خلقه الله ﷻ، ولم تخلقه الطبيعة، ولم يوجد بالصدفة.

٢. بدأ الله ﷻ خلق الإنسان من طين، كما في سورة ص، وفي السجدة ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن طِينٍ﴾ [السجدة ٧]، ف (مِن) في (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ) تفيد الابتداء، أبتدئ خلقه من طين. ومن هذا الطين الذي يداس بالأقدام صنع الخالق الإنسان العظيم خليفة الله ﷻ في الأرض.

(١) في ظلال القرآن ٣٠٢٦/٥.

وفي خلق الإنسان من طين ثلاثة معاني:

▪ تذكير للإنسان بأصله، فاستكباره واستعلاؤه يدل على غباوته وسوء فهمه، قال الشاعر:

نسي الطين ساعةً . أنه طينٌ (م) حقيِر . فصال تيتها وعريدُ

▪ شحذ همة الإنسان للعمل في عمارة الأرض واستخراج ثرواتها، وكشف المخبوء تحت الطين وفوق الطين. فأنت أيها الإنسان من الطين، فاعمل في تفجير كافة قدراتك للإعلاء من شأن الطين، كنت طينا فأصبحت بيد الخلاق إنسانا، وهذا الطين في الأرض هل يصبح بيدك عمراناً؟!

▪ تنبيه الإنسان إلى مصيره الذي سيصير إليه بعد الحياة، فهو من الطين وسينتهي إلى الطين، كما قال تعالى {مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُحْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه ٥٥]، وفي هذا ذكرى وعظة لمن يعتبر، والإنسان الكافر يعرف هذه الحقيقة، ولهذا نجده يقول {أَيُّدًا مِمَّنَّا وَكُفًّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَيُّدًا لَمَبْعُوثُونَ} [المؤمنون ٨٢]. فهم يؤمنون بأنهم سيصيرون ترابا، ولكنهم لم يعرفوا كيف يأخذوا الاستعداد لذلك اليوم.

هذه ثلاثة معاني تشكل حياة الإنسان في نشأته وحياته ومصيره. ثم ينبغي

أن نعلم أن الله ﷻ يخلق ما يشاء مما شاء، فليس كل شيء مخلوقا من طين، فالجان خلقه الله ﷻ {مِن مَّارِجٍ مِّن تَارٍ} [الرحمن ١٥]، والملائكة خلقت من نور.

٣. كرم الله ﷻ الإنسان حين خلقه بثلاثة أمور تميّز بها من سائر المخلوقات:

سواه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بالسجود له.

▪ الأول: سواه بيديه، قال تعالى (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ)، نحن لا نعرف (كيف)، ولكن الذي نجزم به أن الله ﷻ خلق الإنسان بيديه، وهذه ميزة تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات، ولو لم تكن ميزة لما كان في ذكر اللفظ (بيدَي) مع خلق الإنسان فائدة، فكان يقول: ما منعك أن تسجد لما أمرتك أن تسجد له؟ فقله (لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ) لفظ خاص بـ(الإنسان)، وهو يعادل قوله: ما منعك أن تسجد للإنسان. فلو قال: ما منعك أن تسجد لما خلقت؟ لما فهم أن السجود للإنسان؛ لأن الله ﷻ خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق كل شيء ولهذا لم يرد هذا اللفظ إلا في هذا الموطن، أما في خلق ما عدا الإنسان، فيأتي بلفظ الخلق مجردا عن أي قيد {لَيْتَمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس ٨٢].

▪ الثاني: نفخ فيه من روحه. استطاع الإنسان اليوم أن يعرف حقائق كثيرة عن خلقه، ووصل إلى حد بعيد في معرفة ما يتعلق بجانبه الطيني والعضوي، ولكنه

وقف حائرا مندهشا عاجزا عن معرفة السر الذي تكمن وراءه روح الإنسان. ولو تأملنا في كتاب الله لوجدنا أن القرآن الكريم قد أمر الإنسان بالنظر في بدء الخلق، وفي كيفية الخلق {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [العنكبوت ١٩]، أما حين جاء الحديث عن الروح فقال {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء ٨٥]، فهو خاصة اختص الله ﷻ بها نفسه، وعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة. وبهذا فلن يستطيع أن يشرع للإنسان إلا من أحاط بخلقه، وعرف ما يصلح طينه وروحه، فهل عرف الإنسان ذلك!؟

من هنا، فلن يعرف الإنسان حقيقة هذه الروح، فهي من أمر ربي، "ولكننا نعرف آثارها، فآثارها هي التي ميزت هذا الكائن الإنسان عن سائر الخلائق في هذه الأرض. ميزته بخاصية القابلية للرفي العقلي والروحي. هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي، ويصمم خطط المستقبل، وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس، والمدرك بالعقول، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول. وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصة إنسانية بحتة لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض... لقد نفخ الله ﷻ من روحه في هذا الكائن البشري؛ لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض. لقد أودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة، ومن يومها وهو يرتقي كلما اتصل بمصدر تلك النفخة، واستمد من هذا المصدر في استقامة، فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإن تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسب المتجه إلى الأمام، وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطرا على سلامة اتجاهه، إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي ولو تضخمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة"^(١).

▪ **الثالث: (فَتَقَوُّوا لَهُ سَاجِدِينَ)**، وهذه الكرامة الثالثة التي اختص بها الإنسان، حيث أمر الله ﷻ العقلاء من خلقه بالسجود له، وقد علمنا سابقا أن المخلوقات العاقلة، هي: الإنسان والملائكة والجان، فأمر الله ﷻ الملائكة والجان أن يسجدوا لهذا المخلوق العظيم. وهذا يدل على أن الله ﷻ فضل الإنسان عليهم.

وبالمثال يتضح المقال، لو أن مع رجل ثلاثة أبناء، وأحد أبنائه أنجب من سواه، فلما كبر الرجل جمع أبنائه، ثم قال مخاطبا ولديه: إنني أوصيكم بأن تحفوا بأخيك، وأن تظهروا

(١) في ظلال القرآن ٣٠٢٧/٥.

فضله أمام الناس، وأظهروا طاعتكم له، فهذا يدل على أن هذا الولد هو أفضلهم وأنجبهم. والله المثل الأعلى، فإن الله ﷻ قال (إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ {٧١} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ {٧٢})، فأما الملائكة فقد سجدوا كلهم دون استثناء، وأما الجن فقد أخبرنا عن إبليس بأنه أباي {إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف، ٥٠]. ولا ندري إن كان هناك من الجن غيره أم لا؟ وهل سجدوا أو لا؟

وأمر الله ﷻ الملائكة والجان بالسجود للإنسان؛ لأنه سيتولى خلافته في الأرض. ومن العادات الدبلوماسية أن الخليفة أو الرئيس عندما يعين نائباً له على إقليم من الأقاليم فإنه يصنع له حفلاً قبل ذهابه إلى عمله يدعو فيها كبار المسؤولين، وفي هذا الحفل يشيد به وبجهوده. والله المثل الأعلى فإن الله ﷻ صنع للإنسان حفلاً؛ لأنه خليفته في الأرض، وفي هذا أمر الملائكة بالسجود فسجدوا، وأمر إبليس فأبى.

هذه هي قصة نشأة الإنسان، وقصة خلقه، وهذه هي كراماته التي كرمه الله ﷻ بها، وهذا فضله على سائر الخلق. فجنس الإنسان أفضل المخلوقات؛ خلقه الله ﷻ بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته فسجدوا، وجعله خليفته في أرضه، وأنزل إليه رسالة ثلاثم طبيعته الطينية والروحية، حتى ترقى به وتحقق إنسانيته الكاملة.

الثانية: بداية الفتنة

اغتاظ إبليس، ودخله الحسد؛ أن ميز الله ﷻ الإنسان، وفضله عليه، وكرمه بتلك الكرامات - فما كان منه إلا أن رفض أمر ربه وأبى السجود (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {٧٣} إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {٧٤}).

وبالرغم من أن الله ﷻ يعرف أن امتناع إبليس كان استكباراً وطغياناً، فإنه لم يصدر عليه أي حكم حتى يترك له الفرصة للكلام وإبداء رأيه، فسأله المولى عن سبب امتناعه وقد أمر بالسجود، وخاصة أن الامتناع كان في مقام التكريم، فهل امتناعه بسبب علو مقامه؟ أو بسبب استكباره وظنه أنه الأعلى؟ (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ {٧٥}).

وهنا نفت إبليس بما أكل قلبه من حسد وحقده، فقال (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ)، إذن فهو لا يرى أنه استكبر بل يرى أنه الأعلى والأفضل فكيف يسجد له؟! واستدل على ذلك بأنه خلق من نار وادم خلق من طين، وهذا دليل فاسد، فادم لم يكرم لأنه خلق من طين، بل كرم بغير ذلك - كما رأينا - بأن خلقه الله ﷻ بيديه ونفخ فيه من روحه. وهذا دليل على غباوة إبليس،

أو أنه أخفى بهذا الدليل الاستكبار الكامن في نفسه. فلما قال ذلك، وتبين أنه ليس له عذر في معصيته - ففي هذه الحالة عاقبه الله ﴿﴾ بالآتي:

١. منح لقب الشيطان، وقيل ذلك كان اسمه (إبليس)، والدليل على ذلك أن القرآن عندما يذكر قصته مع آدم فإنه يذكره باسمه (إبليس)، حتى يتبين استكباره فعندئذ يتغير الخطاب (فإِنَّكَ رَجِيمٌ)، ولهذا يذكر في القرآن بلفظ (الشيطان) فيما وراء ذلك (وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) [الإسراء ٦٤]. (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ۙ).

٢. طرد من الجنة؛ لأنها دار المتقين الذين يؤمنون بالله ﴿﴾ ويطيعونه، (قَالَ فَاحْرَجْ مَهَا).

٣. حلت عليه اللعنة الأبدية، (وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ {٨٠})، فهو ملعون مطرود من رحمة الله ﴿﴾، لا ينالها في الدنيا، ولا في الآخرة، ومن ثم يدخل النار، فهو طرد من الجنة في حياته، وسيدخل النار بعد مماته.

وكان العقاب بهذه الشدة، لعظم الجرم الذي ارتكبه في حق الله ﴿﴾ وفي حق خليفته - فلما رأى الشيطان هذا العقاب، وأيقن بهلاكه، عزم في نفسه أن يهلك معه من استطاع من البشر الذين عوقب بسببهم، فقال (رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْتَمُونَ {٨١}) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ {٨٠} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ {٨١}).

وهذا من عدالة الله ﴿﴾، وفيها عظة لنا، فمع الجرم العظيم للشيطان إلا أن الله ﴿﴾ سمح له أولاً بالدفاع عن نفسه، ثم سمح له ثانياً بأن يطلب ما شاء، فطلب هذا الطلب، فأجابه الله ﴿﴾ إليه. فبعد ذلك أعلن عن عزمه (قَالَ فِعْرَتُكَ لَا غَوِيَتْهُمْ أَجْمَعِينَ {٨٢})، وفي الأعراف (قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ) [الأعراف ١٦]، وهو الذي أغوى نفسه باستكباره واستعلائه، وقد جعل الله ﴿﴾ له سلطان الغواية على الناس إلا من استعصم منهم بربه (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) [الحجر ٤٢]، ولهذا عندما أقسم الشيطان استثنى من استثنى الله ﴿﴾ فقال (فِعْرَتُكَ لَا غَوِيَتْهُمْ أَجْمَعِينَ {٨٢}) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {٨٣}).

فيعلن الله ﴿﴾ القول الحق (لَا تَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ {٨٥}).

وهكذا تتلخص أطراف القضية في الآتي:

١. استكبر الشيطان وأبى السجود لآدم، ورأى أنه أفضل منه.
٢. عاقبه الله ﴿﴾ بالطرد واللعنة.
٣. طلب من ربه أن يترك له فرصة لإغواء بني آدم.
٤. وحكمة الله ﴿﴾ اقتضت أن يكون تكليف الإنسان في الحياة، وهذا مقتضى التشريف والتكريم الذي حظي به، وفي التكليف حرية الاختيار، وفي التكليف فتن واختبارات.

٥. أذن الله ﷻ للشيطان أن يبقى في الأرض حتى قيام الساعة، ويمارس إغواءه.
٦. أعلن الله ﷻ أنه سيعصم عباده الذين يستعصمون به من كيد الشيطان.
٧. حذر الله ﷻ البشر من اتباع الشيطان وبين لهم عداوته، ومكره بهم، ثم من استمع إليه بعد ذلك فموعه جهنم.
٨. وحتى لا تكون للناس على الله ﷻ حجة بعد الرسل، فقد أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وختم رسله بمحمد ﷺ، وختم رسالاته بالقرآن الكريم.

ومن هنا يتبين مغزى القصة، حيث أعاد المسألة إلى جذرها، وفصل القول من أصله، وعلى الإنسان أن يختار إما سبيل الرحمن وإما سبيل الشيطان، وعليه أن يتحمل نتيجة اختياره.

رابعاً: صفة حامل الرسالة

إن حامل الرسالة ومبلغها له صفتان أساسيتان، ذكرتا في سورة ص (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) (٨٣). فالآية تشير إلى صفتين: التجرد من المصالح الشخصية، والتجرد من التكلف.

▪ **التجرد من المصالح الشخصية**، (مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)، إن هذه الصفة مهمة جداً ينبغي أن يتحلى بها حامل الرسالة، فهو لا يريد من وراء هداية الناس أي مصلحة منهم، ولا يبتغي أي منفعة ذاتية. وهذا المفهوم قد أكد عليه القرآن في أكثر من خمسة عشر موضعاً، وكل نبي كان يؤكد هذه القضية {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٤٥، ١٢٧، ١٠٩، ١٦٤، ١٨٠]. وقد أنكر الحق على من أعرض عن اتباع الرسول بأنه لم يسألهم أجراً {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُّقْتَلُونَ} [الطور: ٤٠]، بل أمر الله ﷻ بجعل هذه الصفة معياراً لصدق الداعية فقال {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ} [يس: ٢١].

وهذه الصفة تجعل من صاحبها رجلاً ربانياً، لا يأسي على إعراض البشر، ولا يحزن لإيذائهم {إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧٢]. وعندما يتصف الداعية بهذه الصفة، فلن يستطيع أحد من الناس أن يلوي ذراعها، ولن يطأ رأسه أمام أحد؛ لأنه لا أحد له فضل عليه، فهو لم يأت لأجل جمع الثروات وكنزها، أو التسلق على ظهر دعوته لبلوغ الجاه والمكانة، كلا. إنما أجره على الله ﷻ.

ولهذا عندما سووم الداعية المسلم الأول - رسول الله ﷺ، بأن يُعطى ما شاء من مال أو ملك أو نساء، فأرسل صرخته الشهيرة "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهر الله أو أهلك دونه"^(١).

ومن ثم فإن التجرد من المصالح الشخصية هو المقوم الأساسي للصبر والثبات والصمود حتى تحقق الهدف، وعندما يتجرد الداعية من مصالحه الشخصية فإنه يلتحم بالحق حتى يجري الحق على لسانه، ويتمثل في أفعاله، فيكون غضبه ورضاه لأجل رسالته، ويكون حديثه وصمته لأجل رسالته، يعيش لها، ويموت من أجلها، يحمل همها في كيانه وأحشائه، يسير بها أينما سار، ومن ثم تثمر دعوته، وببارك الله ﷻ في جهوده.

▪ **التجرد من التكلف.** التكلف هو السم القاتل لنصاعة الرسالة، فما من عمل يتخلله التكلف إلا غاضت ماؤه، وذهبت بركته، وجفت روحه. وأخطر شيء يتهدد روح الرسالة هو التكلف. فالتجرد من التكلف هو الضمان الحقيقي لبقاء الرسالة سارية التأثير، ناصعة الروح.

وعندما يتجرد حامل الرسالة من التكلف فإنه يصل إلى قلوب الناس، ويدق أوتار الوجدان؛ لأنه يخاطب الفطرة الصادقة، والطوية السليمة. لكن التكلف هو الستار الفولاذي الذي يحجب الدعوة عن القلوب، وإذا ذهب التكلف - ذاب ذلك الستار، وأنت تجد الداعية الذي يدع التكلف والتصنع أكثر قبولا بين الناس.

إن المتكلف مصاب ببرود العاطفة، وجفاف الروح، واهتزاز الثقة بينه وبين الناس، فيرتابون منه ومن رسالته. أما الداعية الذي تنزه عن التكلف والتصنع فإنه ملتهب العاطفة، يمد جسور الثقة بينه وبين الناس، فيصدقونه ويلتفون حول رسالته، يؤمنون بها ويناضلون من أجلها، ورسول الله ﷺ يعلن للناس (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)، فأنا صادق في ما أدعو إليه، برئ من التصنع، لا أحتاج إلى بضاعة التكلف، فهي بضاعة المفلسين لا بضاعة المرسلين.

وقد كان رسول الله ﷺ في حياته نموذجا للداعية صاحب الفطرة الصادقة، بعيدا عن التكلف، فقد كان في قوله وفعله وملبسه ومعاملاته وحياته كلها صادقا مخلصا، لا يشوبه شيء من التكلف. وقد كانت رسالته هي الأخرى - بعيدة عن التكلف، فرسالته هي رسالة الفطرة السليمة، رسالة اليسر والسهولة، رسالة تقي بجميع الحاجات الإنسانية، لا يطغى فيها جانب على حساب جانب آخر، رسالة يستطيع أضعف الناس أن يتمثل فروضها.

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، (٢٨٤/١)، وضعفه الألباني.

وقد كان اليسر والتخفيف هو الطابع العام لهذه الرسالة {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ} [النساء 28]، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج 178]، "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" (1)، "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" (2)، وما كان رسول الله ﷺ يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما (3). وإذا فقه الدعوة اليوم - هذا الطابع - ثم انطلقوا منه في دعوتهم - فإن الدعوة ستنتشر، ويكثر عدد الملتزمين بها، وستحول الجماهير إلى الدعوة وإلى حملتها، فاليسر اليسر يا دعاة الإسلام.

خامساً: حقيقة الرسالة

إن الرسالة هي الحق الذي قامت عليه السماء والأرض، وهي كلمة الإله العظيم الأخيرة للبشرية، فجاءت للعالمين (إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} {٨٠})، ذكّر يذكرهم بواجباتهم وحقوقهم، ذكّر يذكرهم بمنهج حياتهم، ذكّر يذكرهم بالقيم وأسس العلاقات، ذكّر يذكرهم بما يسعدهم وما يشقيهم، ذكّر يذكرهم بنشأتهم ومصيرهم، ذكّر يذكرهم العدو الذي يترصص بهم، ومكائده، وطرق التخلص منه.

ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ حوى من العبر والعظات والأنباء - الشيء العظيم، وقد جاء بأخبار الماضي والمستقبل في الدنيا، والمستقبل في الآخرة، وها هي آياته تتجلى وتتحقق يوماً بعد يوم، وتراها البشرية رؤيا العين، فتعلم عن يقين ما أنبأ به (وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} {٨١})، وسوف تأتي أنباء الآخرة ونعلمها علم اليقين، (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} {٢} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} {٤} كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} {٥} لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} {٦} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} {٧}) [التكاثر: ٣-٧].

وبهذه الخاتمة تنتضح معالم الرسالة كل الوضوح، ويتبين ما الذي يشقي البشرية وما الذي يسعددها، ويتبين واجب البشر تجاه الرسالة التي أنزلها الله ﷻ إليهم. ونصل بختام سورة (ص) إلى جذور القضية التي تربطنا بالعبودية، حيث نرى أن طريق العبودية الحقيقية للرحمن هو اتباع رسالته التي جاءت من عنده، والقيام بها في الناس، فهذه هي العبودية، وهذه هي التقوى، وهذه هي ثمرة المعرفة الصحيحة، وهي أعظم عطاء يقدمه الإنسان، وهي العطاء الذي خلق الله ﷻ العباد لأجل أن يقوموا به {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(1) رواه البخاري (٢١٣)، من حديث أبي هريرة.

(2) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (٣٢٦٤)، من حديث أنس بن مالك.

(3) رواه البخاري (٣٢٩٦)، ومسلم (٤٢٩٤)، من حديث عائشة.

لِئَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات ٥٦]، ووفقا لهذا العطاء يكون الجزاء {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ} [الشورى ٧].
اللهم وفقنا لطاعتك واصرفنا عما يغضبك.

الخاتمة والنتائج

١- المعرفة والعطاء يعنيان الوجود الإنساني، والجزاء يعني كرامة الوجود الإنساني. والمعرفة هي القاعدة التي يرتكز عليها الإنسان، والعطاء هو البناء الذي سيقومه الإنسان في هذه الحياة.

٢- بينت الدراسة سبب انقسام الحياة والسلوك عن الدين لدى كثير من المسلمين، وأن ذلك يعود إلى نظرية المعرفة الحاضرة والمعرفة الغائبة.

٣- أعظم وسائل المعرفة هي القراءة الشاملة لكتاب الله المسطور (آيات القرآن)، وكتابه المنظور (آياته في الآفاق)، وكتابه المنشور (آياته في الأنفس) - على أن تتجه القراءة مباشرة إلى الدليل دون اتخاذ أى وسائط بينها وبين الدليل، وإلا انتلمت - سواء أكانت هذه الوسائط شخصية واجتماعية أم معنوية. فكل ما يمنع الإنسان عن التعامل المباشر مع الدليل وساطة، وإذا انحرفت القراءة عن مسارها الصحيح أدى ذلك إلى الطغيان البشري، واستحق صاحبه السفع بناصيته سواء أكان فرداً أم أمة.

٤- إن النتائج والأعمال تتوقف صحتها أو خطؤها في هذه الحياة على تفاعل الإنسان مع نعم الله ﷻ ومعطاته في هذا الوجود. وتفاعل الإنسان توجهه المعرفة الموجودة لديه. والقرآن يسم المخطئ في تعامله مع نعم الله ﷻ بسمات منها: مجنون، مفتون، ضال، مكذب، ويطلق على من يتعامل تعاملًا صحيحاً ألفاظاً منها: مهتدى، على خلق عظيم، والله ﷻ قد توعد الصنف الأول بوسم الخرطوم، وينزع النعمة منه، وأعظم معطى إلهي هو القرآن الكريم وقد توعد الله ﷻ من يكذب به بالاستدراج والإملاء. والبشرية اليوم بكافة أممها قد كذبت بهذا الحديث من كافر به جملة وتفصيلاً، وبين مؤمن به وبما فيه كشعائر فقط ويكذبون بالعمل به - وبذلك أعلنت الحرب مع الله ﷻ ذى الكيد المتين.

٥- مفهوم السجود في القرآن يعنى التعامل الصحيح مع معطيات الحياة ثم الانطلاق في محرابها سجوداً وخشوعاً وتبتلاً للوكيل الحق، وهو يحفظ الإنسان ويقيه المساوئ والمتاعب في الدنيا والآخرة. والسجود بهذا المعنى ينتظم الحياة كلها كما ينتظم الدين، وإن من يرى أنه يمكن أن يدين الله ﷻ بمعزل عن الحياة فإنه بشرخ في دين الله ﷻ شرخاً عظيماً. وإن مفهوم الدين والدنيا، ورجال الدين ورجال الدنيا، وعلوم الدين وعلوم الدنيا - كلها مفاهيم لم تتبعث من حقيقة إسلامنا، إنما هي دخيلة على معتقداتنا السامية التي ترى أن الله ﷻ خلق الدنيا وجعلها معاشاً للناس وأمرهم بعمارتها، وأنزل الدين وجعله هداية للناس وأمرهم بإقامته.

٦- إن أى عطاء إنسانى - أى كان نوعه، وأياً كان مظهره- له ثلاث مراحل: **مرحلة التفكير** ثم **مرحلة التقدير**، ثم **مرحلة التعبير**. والإسلام أمر بالأولى أمراً مطلقاً، وشجع عليها، ولكنه وضع ضوابط لمرحلة التقدير حتى يكون حسناً، وأما المرحلة الثالثة فهى عبارة عن إظهار نتائج المرحلة الثانية، ولهذا تتبعها سلباً أو إيجاباً.

٧- تتنوع عطاءات الإنسان فى حياته، ولكن تبقى السمة المميزة للعطاء الصحيح أنه إيجابى ينتظم الحياة كلها، فيعطى مجتمعه ونفسه وحياته وخالقه عطاءات مختلفة تجعل له كياناً حقيقياً، وتعطيه امتداداً جذرياً يتصل بأول الخلق كما يتصل بأخراهم، أما العطاء السلبي فهو ذو جانبين: جانب منع الخير، وجانب عمل الشر، وسببه الرئيسى هو عدم الإيمان باليوم الآخر.

٨- إن العطاء الإيجابى العالمى لا يتولد إلا عن معرفة قدسية شاملة، أما المعرفة الناقصة الأرضية فإنها تولد عطاء سلبياً. وقد جاءت سورة الفاتحة لتضع الأطر القدسية للمعرفة، ولتفتح آفاق العالمية للعطاء، ولتبين أن **قدسية المعرفة وعالمية العطاء** يهديان الأمة إلى الصراط المستقيم، وأبرز آثار الهداية إليه تحقيق صلاح العالم.

٩- إن ابتعاد الإنسان عن المعرفة المقدسة يؤدى به إلى الضلال، والضلال هو اللفظ القرآنى الدال على سلبية العطاء، وقد ألمحت سورة المسد إلى أن جزاء الضالين هو **التياب فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة**، ومظاهر التياب: **النقص والخسار، والرداءة، والضعف، والهلاك**. فأما **النقص** فهو مظهر التياب لضلال علاقة الفرد مع الله ﷻ، و**الخسار** مظهر التياب لضلال علاقة الجماعة مع الله ﷻ، و**الرداءة** بسبب ضلاله فى علاقته مع الإنسان، و**الضعف** بسبب ضلال العلاقة مع البيئة، و**الهلاك** بسبب ضلال العلاقة مع الحياة.

١٠- ولا سبيل إلى الخروج من مستنقع الضلال إلا بصيانة المعرفة من الاضطراب وذلك ببقائها قدسية تتلقى من الوحي، وبصيانة العطاء من السلبية وذلك بالإيمان باليوم الآخر.

١١- إن فلاح الإنسان أو خسارته لا يتوقفان على مجرد اهتدائه، بل على هدايته مع سعيه فى هداية الآخرين وإصلاحهم، كما تنطق بذلك سورتا الأعلى والعصر.

١٢- إن سبب الشقاء الإنسانى يتلخص فى كلمة واحدة وهى: **إيثار الحياة الدنيا وبذلك يجعل هؤلاء الأشقياء من الدنيا عقيدة كبرى توجه كافة العلاقات والتصرفات**.

١٣- كما خلق الله ﷻ الخلق مختلفين، وجعل عطاءاتهم مختلفة - فمن العدل أن يكون الجزاء مختلفاً، فالمحسن له الحسنى، والمسىء له السوأى.

١٤- حياة الإنسان كلها وما يكون فيها من أعمال - عبارة عن مقدمة فقط للحياة، وأما خاتمتها فستكون في الآخرة. وإذا كانت المقدمة من صنع الإنسان، فهو الذي يختار ويعمل ويصوغها كما يشاء، فإن الخاتمة والنتائج النهائية من صناعة الخالق فهو الذي يقوم بها. وعلى الإنسان أن يتحمل نتائج أعماله.

١٥- انشراح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، واليسر بعد العسر، كلها فيوض إلهية يمنّ بها على عبده متى التجأ إليه ورغب في ما عنده، ونصب في سبيله، وهي تدل على رعاية الله ﷻ وتكريمه لهذه النفس المطمئنة التي استمدت معارفها منه، وانطلقت في عطائها كما يريد.

١٦- إن العمل الصالح هو نتاج للإيمان النظري المتمثل في قدسية المعرفة، والإيمان الوجداني المتمثل في إلهية الرغبات - معاً. وتختلف العمل الصالح هو نتيجة لتختلف أحد الإيمانيين. وهذا يفسر لنا حال العالم الإسلامي اليوم.

١٧- تتخذ المعارف طرقاً عدة للوصول إلى الإنسان، والطريق الأساسي أن تدخل إليه عبر العقل، ومن ثم يحولها إلى القلب بعد غرلتها، والقلب يصدر أوامره للجوارح بالتنفيذ. ولكن قد تتعدى المعارف بوابة العقل لتصل إلى القلب مباشرة، أو إلى الجوارح. وهذه طرق خطيرة يعتمد عليها أهل الباطل في الترويج لباطلهم، وهي تفسر لنا التأثير العاطفي الذي يحدث للمسلم فترة ثم يخبو.

١٨- الانحراف عن صواب العمل مثله مثل الانحراف عن مقصد العمل، كلاهما يعد تكذيباً بالدين - كما تعلمنا سورة الماعون.

١٩- إن المعبود الحق هو: صاحب القدرة والقوة المطلقة، وصاحب الملاذ الآمن الذي يأمن عنده من فزع إليه، وصاحب العصمة الذي يعصم أتباعه من كل أذى وشر، وهو المتفرد في هذا الكون تصمد إليه الخلائق. والملاذ الآمن هو الذي يوفر الأمن والحماية من الشرور التي تأتي من خارج النفس، أما العاصم فهو الذي يوفر الأمان والحماية من الشرور التي تنبعث من داخل النفس. وأما المعبودات الأخرى. فهي معبودات بحاجة إلى وقفة متأنية معها، ومناقشة أولئك الذين اتخذوها معبودات من دون الله ﷻ. هل هي معبودات ذات قدرة وقوة وتفرد. تستحق العبادة، وتستطيع أن تقدم لعبادها الملاذ الآمن، والعصمة الدافعة للأذى؟ أو أنها معبودات زائفة لا تملك نفعاً ولا ضراً؟

٢٠- تتجلى قيم المعبود الحق بين سورتَي (الكافرون) و(الإخلاص)، ففي سورة (الكافرون) بيان واضح لما يجب على الإنسان العاقل أن يتخلى عنه - وفي سورة (الإخلاص) بيان واضح لما يجب على الإنسان العاقل أن يتخلى به؛ فيجب أن يتخلى

عن كل معبود سوى الله ﷻ، ويجب أن يتحلى بعبادة الله ﷻ. هاتان السورتان تفصحا كل الإفصاح عن هوية المسلم الحق الذي يرفض كل ما عدا الله ﷻ، ويذعن كل الإذعان لله ﷻ.

٢١- إن اتباع الحق يؤدي بالإنسان إلى الإصابة في العمل، وصحة المقصد يؤدي به إلى الإخلاص في العمل - وهذا هو العمل الحسن الذي يقوم على هذين الركنين ﴿يَلْبِسُكُمْ أَكْمَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك ٢]. ومتى اجتمع هذان الركنان أنتجا إنتاجا حسنا. و أخطر داء يُصاب به الإنسان . داء الانحراف، انحراف العلم والقصد؛ فأفة العلم الظن، وآفة القصد الهوى. وإذا أصيب إنسان بهذا الداء أو تقشّى في أمة، فإن بُرءها لا يُرجى. وإن التخبط الذي يقع فيه الإنسان ينشأ من اتباع الظن والهوى، وترك الحق والهدى، كما أنه ينتج عن عدم الإيمان باليوم الآخر، حيث ينطلق الإنسان يفترى ما يشاء دون شعور بمسئولية تجاه ما يقول.

٢٢- إن فريق الضلالة هم الذين أساءوا في حياتهم، أساءوا في فهم الحياة وحقيقتها، وأساءوا في التعرف على خالقهم وعبادته، وأساءوا في التعامل مع الدين. إن صفة هؤلاء البارزة هي التولي والإعراض عن الحق وعن أهله، وإذا أعطوا قليلا وأقبلوا . فعطأؤهم قليل، وإقبالهم قليل. وضلال هؤلاء . كما تبين سورة النجم . مرده إلى ثلاثة أمور: الجهل بالغيب، والتخلي عن المسؤولية، والجهل بحقيقة الرب وآياته التدبيرية والتدميرية.

٢٣- إذا كانت الآلاء التدبيرية هي مقتضى ربوبية الله ﷻ . فالرب يدبر الأمور ﴿الآلَهُ الْحَقُّ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف ٥٤] . فإن الآلاء التدميرية يستوجبها ظلم الإنسان وطغيانه، فالظلم والطغيان من الإنسان يستوجبان من الله ﷻ التدمير والإهلاك.

٢٤- إن العبودية لها جانبان، جانب يتعلق بالمعرفة التي يتلقاها الإنسان، وجانب يتعلق بالسلوك (العطاء) الذي ينتجه الإنسان. وما يتعلق بالمعرفة يراد به أن يتلقى الإنسان معارفه من الله ﷻ، والمعرفة لها ثلاثة جوانب: القيم والمنهج وأسس العلاقات، إذن فعبودية الإنسان لربه تقتضي أن يستمد منه . وحده . القيم، والمنهج، وأسس العلاقات - أي علاقات الإنسان بغيره من المخلوقات.

٢٥- إن أول شيء يلزم الإنسان إذ أقر بعبوديته لله ﷻ - أن يفصل من كافة الرواسب التي استقرت فيه، وأن يغلق كافة القنوات التي اتصل بها - ليتصل بقناة واحدة فقط هي التي تملئ عليه الصحيح من الخطأ، وتريه الميزان الصائب في مقياس الحياة ووزن الناس. فمصدر وجود الإنسان ووجود مقوماته هو مصدر تقرير القيم والمبادئ.

وأى قيمة لم تتصف بثلاث صفات، الأولى: كرامتها، فلم تحقرها أهواء الناس. والثانية: رفعتها، فقد جاءت من عند العلي الغفار، ولم تنبعث من الأرض. والثالثة: طهرها فهي مصنونة عن كل دنس، بعيدة عن كل حَبَث. فهي مرفوضة ومردودة على أصحابها.

٢٦- إن التقوى في القرآن الكريم مفهومها واسع، ومدلولها شامل، يشمل جميع العلاقات، ولا يقتصر على علاقة الإنسان بخالقه فقط، كما يحسب كثير من الناس، إنها تعنى التعامل الصحيح مع كل شيء، وفقه قوانين هذا التعامل. أما الفجور فهو على النقيض من ذلك، إذ يعنى التعامل الخاطئ، أو عدم فقه قوانين التعامل، أو عدم تطبيقها. وقد جعل الله ﷻ للإنسان نذيرين يحولان بينه وبين الفجور: النذير الخارجي (يوم القيامة)، و النذير الداخلي (النفس اللوامة)، كما جعل الله ﷻ له بيانين تهديه إلى الأسس القويمة في التعامل مع كل شيء: آيات الله ﷻ في كتابه، وآيات الله ﷻ في الآفاق والأنفس.

٢٧- إن العبادة تحفظ الخلق الإنساني من التردى، وتحفظ النعم الإلهية من الانتقاص، وتصون العطاء الإنساني من التبدد، وتصون العلاقات الإنسانية من الفجور.

٢٨- هياً الله ﷻ للإنسان للتكليف، وهياً له ما يلزم من زمان ومكان، وبين أنه سيحاسب الإنسان، إذ جعله حراً مختاراً، فهو من يتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه.

٢٩- إن الحق الذي كذب به الكفار يتفق مع نواميس الكون، ويتناسق مع قوانين الفطرة، فالتكذيب به يعنى خلخلة التوازن النفسي، وتحطيم التوافق بين الكون والنفس.

٣٠- يستطيع الإنسان إزاء الظواهر الكونية أن يجيب على السؤال (كيف): كيف حدثت الظاهرة؟ وكيف سارت من البدء حتى وصلت إلى نقطة معينة... الخ، أما السؤال (لماذا) لماذا حدثت الظاهرة؟ فلا يستطيع العقل الإنساني أن يجيب إجابة واضحة عليه. وعندما يتعدى العقل خطوطه، ويتجاوز حده، فيجيب على هذا السؤال - فإنه يقع في تهافت سخيف، واضطراب عجيب، وقد يعلل العالم الكبير بتعليقات بدائية يسخر منها الطفل الصغير. ولقد أوكّل الله ﷻ إلى الإنسان أن يستخدم عقله فيجيب عن (كيف) وسيصل إلى نتائج مدهشة، وحقائق مذهلة عن هذا الكون - أما إجابة (لماذا) فإن الله ﷻ قد بين للإنسان بيانا شافيا، بين له الحكمة من خلقه، وخلق السماوات والأرض وما بينهما، وأبان له الحكم والأسرار الكامنة وراء ذلك. فعندما يقرأ الإنسان كتاب الله المنظور - فإنه يجد جواب (كيف)، وعندما يقرأ كتاب الله المسطور - فإنه يجد جواب (لماذا)، وبهذا يتآزر الكتابان، فكل منهما فيه دليل على الآخر.

٣١- إن حياة الإنسان، حياة جنسه ونوعه بالماء النازل، وحياة فكرة وروحه بالمنهج النازل. فما نزل من السماء يثمر وينبت، سواء أكان ماء فينبت أشجارا وحدائق، أم كان منها فينبت رجالا وحقائق.

٣٢- إن الأدلة القاطعة على حتمية البعث . هي ضمانات إلهية للإنسانية، تعيش في الدنيا حتى يقضى الله ﷻ بزوالها، وعندئذ تبعث الخلائق كلها. ومن ثم فالإنسان يحيا وهو يرى مصيره الذي ينتظره، وجزاء أعماله التي قدمها. وهذه الضمانات، هي: الرقابة الإلهية والهيمنة، والقداسة الإلهية، والعدل الإلهي، والانتقام الإلهي، والقدرة المطلقة.

٣٣- التسبيح يعني: التعظيم القائم على الدليل. وعليه فلا يكون من المسيحين إلا من عظم الله ﷻ بلسانه وبأعماله - وهؤلاء هم الرجال الذين ورد ذكرهم في آية النور. وبهذا التسبيح يستطيع الإنسان أن يزكي نفسه، ويسمو بها، فيعيش رجلا لا يهرب أحدا، ولا يذل لأحد. وبهذه العدة يدور العصاة، ويقارع الطغاة.

٣٤- إن الصبر هو الركيزة الأساسية لأمان النفس، ومصدر قوتها، وطاقتها التي لا تتضب في التحمل والمواجهة. أما اليقين باطلاع الله ﷻ وعمله ومراقبته لما تقدمه هذه النفس من تضحيات في سبيله، ثم يقينها بأن الله ﷻ يعلم ما يحدث لها من أذى واضطهاد وتضييق، ثم يقينها بأن ذلك لن يذهب سدى، بل إن الله ﷻ حكم عدل، وسيثيب المحسن بإحسانه، ويأخذ المسيء بإساءته - هذا اليقين هو الركيزة الأساسية لأمن المجتمع واستقراره، وانطلاقه في الحياة بفعالية وإيجابية، حتى يكون مجتمعا بناء؛ ذلك أن المجتمع عندما يوقن بأن أي جهد يبذله أفراد له لن يضيع، فإن هؤلاء الأفراد سيبادرون إلى فعل الخيرات، وإقامة اللبانات الأساسية لمجتمع سليم بعيد عن الأمراض. ومن دون هذا اليقين وذلك الصبر فإن المجتمع يقع عرضة للأمراض الداخلية وفريسة للتآمرات الخارجية.

٣٥- إن الكيان الإنساني لا يوجد إلا بسنة التوالد، فبهذه السنة يوجد الإنسان ويستمر وجوده. ولكن هذا الكيان لا يتحقق إنسانيته إلا بسنة أخرى، هي سنة العبودية، ولا عبودية صحيحة إلا عبر منهج محمد رسول الله ﷺ - القائم على التوجه إلى مكة، فسنة التوالد تُوجد الكيان الإنساني، ومحمد رسول الله ﷺ ومكة هما مصدر تحقق الكيان الإنساني.

٣٦- إن الله ﷻ قد جعل على نفسه - حين كلف الإنسان - أن يحفظ هذا الإنسان بشيئين، الأول: بقدرته عليه، والثاني: بمراقبته له. فالإنسان من أول ما ينشأ - حين يكون نطفة - وحتى يموت ثم يرم عظمه، ثم يجمعه ويبعثه - في حفظ الله ﷻ. وأدلة الحفظ ثلاثة: حفظ الإنسان في نشأته، وحفظ الإنسان في مصيره، وحفظ الكون.

٣٧- إن مؤهلات التكليف هي ما وهبه الله ﷻ للإنسان من وسائل يستطيع بواسطتها أن يعرف الحق فيقوم به في نفسه وبقيمه في الناس، ويعرف الباطل فيبتعد عنه، وينهى عنه الناس. هذه المؤهلات تتمثل في شيئين: الأول: وسائل المعرفة وهي الحواس، والثاني: وسائل الهداية، وهو المراد بقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ {١٠})، و للهداية وسيلتان: الوسيلة الأولى: الهداية الذاتية، وتتمثل في العقل. والوسيلة الثانية: الهداية الخارجية، وتتمثل في الوحي.

٣٨- إن مظاهر الطغيان في نفوس الطغاة تجاه الحق . تتمثل في: الإعراض عن الحق، وتزييف الحق، ومحاربة الحق. وهذه المظاهر تتجلى في تاريخ البشرية كلما استمرت الطغيان، وركنت إليه. وأما الأسباب الرئيسية للطغيان، فهي: اتباع الهوى، وتعطيل البصائر.

٣٩- قد يقع القوي في الطغيان كما قد يقع فيه الضعيف، فطغيان الأقوياء استبداد، وطغيان الضعفاء رضا بالاستبداد، وطغيان الأقوياء استعلاء، وطغيان الضعفاء استخذاء، طغيان الأقوياء استكبار، وطغيان الضعفاء استحمار.

٤٠- إن تطبيقات الطغيان في الحياة مختلفة، ولكن أهمها في حياة الناس، هي تلك التي تسوق الناس إلى المهالك، وهي: طغيان القوة، وطغيان الثروة، وطغيان العلاقات الاجتماعية، وطغيان الجاه أو السياسة. وهذه النماذج لا تزال تكرر نفسها في كل زمان وفي كل مكان، فإن تغيرت الأسماء، فإن الحقائق لا تتغير. والناظر في عالمنا المعاصر يرى إلى أي حد أفادت البشرية من رصيدها وتجاربيها. إن الواقع يقول إنها لم تفد، فالطغيان قد شمل نواحي الحياة، وسرى فيها سريان النار في الهشيم، وهذا ينذر بكارثة خطيرة تطل بقرونها على هذا الجيل.

٤١- إن الموقف الإلهي تجاه خلقه . كما تبين سورة القمر . يتجلى في ثلاثة أمور: إنزال البيان، وتأيبه، وتحقيقه.

٤٢- إن أساس العبودية هو الإرادة القوية، وأساس النصر والظفر هو الصبر، وأساس إصلاح النفس هو معرفة النفس، وأساس الحياة القويمة هما العمل الصالح والفكر الصائب (العلم والعمل)، وأساس الرسالة وهداية الناس هو إقامة الحق والحكم به.

٤٣- ناقشت الدراسة بعض المفاهيم الشائعة بين الناس، وقامت بتصحيحها وفق النص القرآني، مثل: مفهوم القراءة الشاملة، وخطورة اتخاذ الوسائط في قراءة الأدلة، ومفهوم الطغيان، (سورة اقرأ). ومفهوم النعم والتعامل معها، ومفهوم العذاب، ومفهوم الاستدراج والإملاء، (سورة القلم). ومفهوم الذكر، ومفهوم الدين والدنيا، ويسر الدين، والاستغفار، (المزمل). ومفهوم الإنذار، وتفاعل المسلم مع المجتمع، وقضية حرية التفكير، (سورة

المدثر). ومفهوم السلوك والمعرفة وارتباطهما وانفصالهما، ومفهوم العبادة، ومفهوم الصراط المستقيم الفردي والجماعي، (سورة الفاتحة). ومفهوم الضلال، (سورة المسد). ومفهوم العمل، (سورة الليل). ومفهوم الرزق وأنه ليس من الجزاء، (سورة الفجر). ومفهوم السعادة والشهرة، (سورة الشرح). ومفهوم الإيمان، والعمل الصالح، والعبادة الجماعية، (سورة العصر). ومفهوم الانحراف، ومفهوم الماعون (الماعون). ومفهوم التقوى، والفجور (سورة الشمس). ومفهوم التسييح (سورة ق). ومفهوم الإطعام، والمسكين (سورة البلد). ومفهوم الصبر، ومفهوم العمل الصالح والفكر الصائب، (سورة ص). وغير ذلك.

التوصيات

- ١- على المسلم تجاه الطغيان واجبان، الأول: ترك ما هم عليه، ونبذ مناهجهم، ورفض مولاتهم، والثاني: السجود لله ﷻ وذلك بالطاعة المطلقة له، والاقتراب منه وذلك بالمعرفة الحقيقية له. وطريق السجود والاقتراب هو القراءة الشاملة لآيات الله ﷻ.
- ٢- على المسلم تجاه من كذب بربه وبقرآنه أن يتعامل معهم بحكمة وأن يصبر على لأوائهم وجهالتهم، وأن يتحلى بطول النفس معهم، وألا يترك لهم الميدان ويولى، فمن تولى استحق نبذ الله ﷻ.
- ٣- على الإنسان أن يستمد طاقته في في تفاعله مع معطيات الحياة ومع نفوس الناس من المصدر الإلهي العظيم؛ حتى يقوم بالحق وبالعدل، لا يكل ولا يبنى مهما واجه من صعاب. فالإنسان من دون هذه الطاقة يضعف ويصغر؛ إذ تنضب طاقته وتضعف قوته.
- ٤- على المسلم فرداً أو أمة- أن يقوم بالوظيفة الاجتماعية المأمور بها في هذه الأرض، وهي الإنذار، حيث يقرأ الواقع ثم يحلله فيفزع لأي انحراف يلحظه، فينذر - فإذا استمر الانحراف فإنه ينقلب محذراً لقومه من سوء الكوارث والعواقب.
- ٥- على الدعاة - أفراداً أو أمماً - أن يندروا البشرية بقراءة مظاهر التباب التي وقعت فيها قراءة شاملة دقيقة تقوم على الواقع وإحصائه، وبهذا يحققون وظيفة الإنذار ثم يوجهون البشرية إلى المخرج من الضلال وذلك بغرس الإيمان باليوم الآخر في النفوس، وتفعيه من مجرد إيمان نظري إلى حقائق يقينية تؤثر في سلوك الإنسان وقراراته وعطاءاته، وإرشادهم إلى مصدر المعرفة القدسي.
- ٦- على الدعاة أن يشعلوا وجدان الناس بالإيمان، حتى يوجدوا لديهم الإيمان الوجداني الصحيح المتمثل في جعل رغبات النفس خاضعة لإرادة الله ﷻ، وأن يملئوا النفوس بحب الله ﷻ، فلا ترغب إلا فيما عنده، ولا ترهب إلا منه. والإيمان الوجداني هو العنصر المفقود في حياة المسلمين اليوم، ولو جعله الدعاة الهدف الأكبر لأيقظوا الناس من سبات، وجمعوهم من شتات. وهو الطريق الأساسي لإصلاح القلوب التي لو صلحت لصلح بصلاحها الإنسان.
- ٧- على الإنسان أن يستند الإنسان إلى خالقه القوى العظيم كي يعصمه ويمنعه من القوى الشريرة التي تسعى لاقتلاع كيانه من داخله، وتحاول هدم بنيانه من أصله. فلا أحد

يقدر أن يعصم الإنسان إلا الربُّ الذي يدبر كل الأمور، الملكُ الذي بيده ناصية كل شيء، الإلهُ المستعلي على جميع الخلق. وما سواه فيعجز أن يعصم نفسه، فضلا عن أن يعصم غيره

٨- على أمة الرسالة اليوم أن تقوم بمهمتها في الأرض، ومهمتها هي تصحيح العلم والمقصد، فتحمل البشرية على صحة العلم بالتعليم القائم على الحق، وعلى صحة المقصد بالتركية القائمة على هدى الله ﷻ.

٩- على الإنسان أن يستمدَّ أسس علاقاته من الله ﷻ، بحيث تكون علاقاته بما حوله من الكائنات (علاقة تقوى) لا (فجور). وعلاقة التقوى تؤدي إلى الترقية التي مآلها الفلاح، أما علاقة الفجور فتؤدي إلى التُدسية التي مآلها الخيبة. والتقوى، هي: حسن العلاقة مع الخالق، ومع خلقه، وآياته. ووظيفة الرسل والمنذرين في هذه الأرض هي دعوة الناس إلى التقوى، أي: إلى أن يقيموا علاقاتهم مع الله، ومع خلقه، وآياته على أسس قويمه.

١٠- الواجب علينا في دعوتنا . سواء دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، أو دعوة المسلمين إلى الالتزام . أن نعتد قضية اليوم الآخر اعتمادا أساسيا، فهذا الركن هو الذي يردع المخالفين، ويزجر الغافلين، حتى يقيمهم على جادة الصراط. إن علينا أن نذكر الناس دائما بهذا الأمر، وأن نشغل أذهانهم به، وألا نترك لهم فرصة لنسيانه، فإن نسيانه تماما يؤدي بالإنسان إلى الاستكبار على ربه، ونسيانه جزئيا يؤدي بالإنسان إلى عصيان ربه.

١١- يجب على المؤمن تجاه المتمردين على ربه . أمران، الأول: عطاء للنفس، وهو التسبيح والاستعداد ليوم الرحيل، والثاني: عطاء للغير، وهو التذكير بالقرآن. وعمل المصلحين تجاه القرآن يتمثل في جانبين: الأول: التذكير بالقرآن، والتذكير به يعني، تبصير الناس بالحقيقة الخالدة التي فيها صلاح جميع أمرهم، واستقامة كل أحوالهم، واستقرار حياتهم. تبصيرهم بنيل الكرامة، وأخذ الحقوق، وإقرار السلام والأمن، وتحقيق العدالة والمساواة، والعيش في ظلال الحرية والإخاء. أما الجانب الثاني من عمل المصلحين فيتمثل في إقامة القرآن في ممارسات الناس وحياتهم. وهذا الجهد اضطلع به رسول الله ﷺ في الفترة المدنية، أما الجانب الأول فقد اضطلع به في الفترة المكية.

١٢- إن حملة الحق عليهم أن يزلزلوا أسباب الطغيان في النفوس، ويقتلعوا جذورها من النفوس - وبهذا يستطيعون أن يحولوا بين الإنسان وبين الطغيان. وأسباب الطغيان، هي: اتباع الهوى، وتعطيل البصائر. ومهما أُنذر الإنسان فإن النذر لا تغنيه إذا عطل بصائرهم؛ ذلك أنه يضع مواد عازلة على قلبه وعلى جوارحه، تمنع وصول الحق إليه.

١٣- على البشرية تجاه الطغيان أن ترسم موقفها بدقة، وهذا الموقف يتمثل في ثلاثة أمور: القيام بتبليغ البيان، والاعتصام بالإيمان، والعمل لإزالة الطغيان. وتبليغ البيان له أوجه عديدة، فمنه الإعلام بمنهج الله ﷺ ووصيته، والإنذار بخطورة الانحراف ووخيم عاقبته، والإرشاد إلى آيات الله ﷻ ونذره في الآفاق وفي الأنفس.

١٤- لا بد للمخلصين - حملة الرسالة - أن تتصافر جهودهم، وتتكاتف أيديهم، وتتآزر طاقاتهم؛ من أجل إقامة المعروف الذي أمر الله ﷻ به، وإزالة المنكر، وهدم حصون الطاغين التي أقاموها في الحياة مناوئين خالقهم ودينه. إن النصر لا يأتي لقوم كسالى نائمين، بل لا بد من أن يبذلوا جهودهم، ويضحوا في سبيل الرسالة بالغالي والنفيس، يضحوا بأوقاتهم وأموالهم وطاقاتهم وأنفسهم ودمائهم.

١٥- على الإنسان أن يقوم بالمهام الخمس المقدسة التي رسمها الله لنا في سورة (ص)، وهي الإرادة، والصبر، ومعرفة النفس، وإقامة الحق والحكم به، والانطلاق بالعمل الصالح والفكر الصائب. ومتى قام العباد بمهامهم التي أمرهم الله ﷻ بها، فإن الله ﷻ سيحوطهم بعنايته، ويرعاهم برحمته. وهذه المهام الخمس هي منارة للدعاة في كل زمان، وعلى قدر جهادهم في اكتسابها والقيام بها يكون التوفيق حليفهم، وترعاهم عناية ربهم.

١٦- ينبغي على حامل الرسالة أن يتصف بصفتين أساسيتين: التجرد من المصالح الشخصية، والتجرد من التكلف. فهو لا يريد من وراء هداية الناس أي مصلحة منهم، ولا يبتغي أي منفعة ذاتية، أما التكلف فإنه أخطر شيء يتهدد روح الرسالة. والصفة الأولى تجعل من صاحبها رجلا ريانيا، لا يأسى على إعراض البشر، ولا يحزن لإيذائهم، وعندما يتصف الداعية بهذه الصفة، فلن يستطيع أحد من الناس أن يلوي ذراعها، ولن يطأطئ رأسه أمام أحد؛ لأنه لا أحد له فضل عليه. وعندما يتجرد حامل الرسالة من التكلف فإنه يصل إلى قلوب الناس، ويدق أوتار الوجدان؛ لأنه يخاطب الفطرة الصادقة، والطوية السليمة.

الفهرس

٥	إهداء
٦	تقديم: القاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني
٨	تقديم: الشيخ محمد بن علي الغيلي
٩	مقدمة
٢١	الباب الأول: الإنسان معرفة وعطاء
٢٤	الفصل الأول: المعرفة والعطاء
٢٥	أصول المعرفة (سورة اقرأ)
٢٥	أولاً: القراءة الشاملة أساس المعرفة
٢٧	ضرورة تكامل القراءة
٢٨	ضرورة شمول القراءة
٢٩	ثانياً: الإيجاد والإعطاء - أدلة المعرفة
٣٠	ثالثاً: كيف تسيير القراءة في مسارها الصحيح
٣٣	رابعاً: خطورة الانحراف عن هذا المسار
٣٧	خامساً: جزاء الطغيان
٣٩	العلاقة بين القراءة والطغيان
٤٠	سادساً: ما واجب المؤمن بربه تجاه طغيان العصاة؟
٤١	تفاعل الإنسان مع المعرفة (سورة القلم)
٤٢	القلم وتسطير المعرفة
٤٣	مقدمة عامة في النعم

- ٤٣ المحور الأول: موقف رسول الله ﷺ من النعم
- ٤٤ المحور الثاني: الضلال والاهتداء
- ٤٥ المحور الثالث: وجوب مخالفة من فسد عقله
- ٤٥ (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)
- ٤٦ النموذج الأول: صاحب الخرطوم (العقل الزنيم)
- ٤٧ النموذج الثاني: أصحاب الجنة
- ٤٨ (كَذَلِكَ الْعَذَابُ)
- ٥٠ حرب الاستدراج
- ٥٥ السجود للوكيل الحق (سورة المزمل)
- ٥٥ المحور الأول: دعوة للسجود
- ٦١ المحور الثاني: عاقبة النكوص عن السجود
- ٦٢ المحور الثالث: مظاهر السجود
- ٦٦ الإنسان بين العطاء والمنع (سورة المدثر)
- ٦٦ ماذا يعطى الإنسان؟
- ٦٧ عطاء للمجتمع: القيام فيه بالإنذار
- ٦٨ عطاء لله: تكبير الرب
- ٦٩ عطاء للنفس: (وَيَبَّاكَ فَطَهَّرْ)
- ٧٠ عطاء للحياة: هجر الرجز (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)
- ٧٢ قانون العطاء (عطاء الإنسان يقابله زيادة النعم)
- ٧٣ العطاء السلبي
- ٧٩ أسباب الشح والعطاء السلبي
- ٨١ قدسية المعرفة وعالمية العطاء (سورة الفاتحة)
- ٨٢ المحور الأول: قدسية المعرفة
- ٨٢ الزاوية الأولى: المعرفة التي تقدمها

- ٨٣ أساس الأوهية
- ٨٤ أساس الربوبية
- ٨٧ أساس الرحمة
- ٨٨ أساس العدل
- ٨٩ الزاوية الثانية: قدسية هذه المعرفة
- ٩٠ المحور الثاني: عالمية العطاء
- ٩١ المحور الثالث: تزاوج المعرفة والعطاء العالمى
- ٩٣ أهمية تلاحم المعرفة والعطاء الإيجابي
- ٩٤ أسباب غياب المعرفة المقدسة (الضلال)
- ٩٦ الضلال الإنساني بين التباب والعذاب (سورة المسد)
- ٩٧ [المحور الأول: نماذج الضلال]
- ٩٧ النموذج الأول: الصاد عن سبيل الله ﷻ (نموذج العطاء السيئ)
- ٩٧ النموذج الثاني: الذى لا ينتفع بنعم الله ﷻ (نموذج التفاعل الخاطئ مع النعم)
- ٩٩ [المحور الثاني: جزاء الضالين]
- ٩٩ أولاً: التباب
- ١٠١ أولاً: النقص والخسار
- ١١٠ ثانياً: الرداءة
- ١١٣ ثالثاً: الضعف
- ١١٥ رابعاً: الهلاك
- ١١٦ ثانياً: العذاب
- ١١٧ ما المخرج من الضلال (سورة التكويد)
- ١١٧ المحور الأول: الإيمان باليوم الآخر
- ١١٨ المحور الثاني: تلقى المعرفة من الوحي

١٢٢	الفصل الثاني: العمل والجزاء
١٢٤	قانون الفلاح والخسارة (سورة الأعلى)
١٢٤	[مصادر الذكر]
١٢٤	١- الفكر
١٢٤	٢- القرآن
١٢٥	٣- اليسرى
١٢٦	[الذكر والتذكير]
١٢٦	سبب عدول الناس عن الحق
١٢٨	قانون اختلاف الأداء يستلزم اختلاف الجزاء (سورة الليل)
١٢٨	الاختلاف في الخلق
١٢٨	الاختلاف في السعي والعمل (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)
١٣٠	(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)
١٣١	(الْأَشْقَى وَالْأَتَقَى)
١٣٢	قانون لكل مقدمة خاتمة (سورة الفجر)
١٣٢	الفجر والليل
١٣٢	الطغيان والعذاب
١٣٤	هل بسط الرزق أو تضيقه يعد من الجزاء؟
١٣٥	هل كل مقدمة لها خاتمة؟
١٣٦	الخاتمة النهائية
١٣٧	النفس مطمئنة (سورة الضحى) و(سورة الشرح)
١٣٧	من طمأنينة الكون إلى طمأنينة النفس
١٣٨	عطاء بلا حدود

- ١٤١ اتفاقية العمل المقدسة (سورة العصر)
- ١٤٢ الإيمان
- ١٤٤ العمل الصالح
- ١٤٨ التواصى بالحق، والتواصى بالصبر
- ١٥٠ حقيقة القوة وطبيعة الإنسان (سورة العاديات)
- ١٥٠ طبيعة القوة
- ١٥١ طبيعة الإنسان
- ١٥١ نهاية المطاف
- ١٥٢ هدية الله (سورة الكوثر)
- ١٥٣ مسؤولية الإنسان عن النعم (سورة التكاثر)
- ١٥٤ وماذا بعد؟ (سورة الماعون)
- ١٥٧ الباب الثاني: العبودية بين تكليف الرحمن وصيد الإنسان
- ١٥٨ الفصل الأول: المعبود الحق
- ١٥٩ براءة ومفاصلة (سورة الكافرون)
- ١٦١ القوي القادر (سورة الفيل)
- ١٦٣ الملاذ الآمن (سورة الفلق)
- ١٦٥ العاصم المانع (سورة الناس)
- ١٦٨ الواحد الصمد (سورة الإخلاص)
- ١٦٨ أولاً: حقيقة التوحيد
- ١٦٩ ثانياً: واجب الناس تجاهه

١٧١ معبودات أنى عُبِدت؟! (سورة النجم)

١٧١ المحور الأول: الوحي والاتصال بين السماء والأرض

١٧٣ المحور الثاني: ما بال المعبودات الوضيعة؟

١٧٧ المحور الثالث: هل يستويان مثلاً؟

١٨٢ الفصل الثاني: معنى العبودية

١٨٢ (أ) المعنى المعرفي للعبودية

١٨٣ أولاً: استمداد القيم من المعبود (سورة عبس)

١٨٣ عتاب رقيق

١٨٥ مكانة هذه القيم

١٨٦ وحدة المصدر والمرجع

١٨٨ ثانياً: استمداد المنهج منه (سورة القدر)

١٨٩ ثالثاً: استمداد أسس العلاقات منه (سورة الشمس)

١٩٠ التقوى والفجور

١٩٣ من نماذج الفجور

١٩٤ (ب) المعنى السلوكي

١٩٤ القيام بدين الله (سورة البروج)

١٩٥ المشهود

١٩٦ الشاهد

١٩٧ الفصل الثالث: أهمية العبادة

١٩٨ ١. صيانة الإنسان من التردّي (التين)

١٩٩ ٢. صيانة العطاء الإلهي من الانتقاص (سورة قريش)

٢٠١ ٣. صيانة العطاء الإنسان من التبدد (سورة القارعة)

- ٢٠٢ . ٤ . صيانة العلاقات الإنسانية من الفجور (سورة القيامة)
- ٢٠٢ أولاً: النذر
- ٢٠٢ النذير الأول: النذير الخارجي (يوم القيامة)
- ٢٠٤ النذير الثاني: النذير الداخلي (النفس اللوامة)
- ٢٠٦ ثانياً: البيان
- ٢٠٩ من لم ينتفع بالنذر (سورة الهمزة)
- ٢١٠ **الفصل الرابع : تكليف الله للإنسان ومؤهلاته و ضماناته**
- ٢١١ المهمة العظمى (سورة المرسلات)
- ٢١١ تمهيد
- ٢١٢ لوازم التكليف
- ٢١٢ الزمان
- ٢١٣ الإنسان
- ٢١٣ المكان (الأرض)
- ٢١٤ خاتمة
- ٢١٦ تمرد الإنسان على عبودية الرحمن (سورة ق)
- ٢١٧ المحور الأول: مقدمة
- ٢١٧ الكتاب المنظور دليل على الكتاب المسطور
- ٢٢٠ المحور الثاني: ضمانات البعث
- ٢٢١ ١ . الرقابة الإلهية والهيمنة
- ٢٢١ ٢ . القداسة الإلهية
- ٢٢٢ ٣ . العدل الإلهي
- ٢٢٥ ٤ . الانتقام الإلهي
- ٢٢٥ ٥ . القدرة المطلقة

- ٢٢٦ المحور الثالث: واجب المؤمن تجاه المتمردين
- ٢٢٦ أولاً: عطاء النفس
- ٢٣٠ ثانياً: عطاء للغير (التذكير بالقرآن)
- ٢٣٢ مؤهلات الإنسان للعبودية (سورة البلد)
- ٢٣٢ المركز الإشعاعي الأخير لهداية البشر
- ٢٣٢ الكيان الإنساني بين تحققه ووجوده
- ٢٣٣ الكبد وحمل الأمانة
- ٢٣٣ ضمان التكليف
- ٢٣٤ مؤهلات التكليف
- ٢٣٥ (فَلَا اقْتَحَمَ الْعُقَبَةَ)
- ٢٣٥ رعاية الناس
- ٢٣٧ رعاية النفس
- ٢٣٧ الصبر والرحمة
- ٢٣٨ ضمانات التكليف: الحفظ (سورة الطارق)
- ٢٣٨ الحقيقة المقسم عليها
- ٢٣٩ أدلة الحفظ
- ٢٣٩ الدليل الأول: حفظ الإنسان في نشأته
- ٢٤٠ الدليل الثاني: حفظ الإنسان في مصيره
- ٢٤٠ الدليل الثالث: دليل الحفظ في الكون
- ٢٤١ الخلاصة
- ٢٤٢ الفصل الخامس: الرصيد الإنساني في العبودية
- ٢٤٣ التمرد والطغيان (سورة القمر)
- ٢٤٣ مقدمة: ظاهرة الطغيان

- أولاً: ناقوس الخطر ٢٤٣
- ثانياً: مظاهر الظاهرة وأسبابها ٢٤٣
- ثالثاً: موقف المؤمن منهم ٢٤٦
- محور السورة: رصد الطغيان الإنساني ٢٤٦
- الزاوية الأولى: الخط الرأسي للطغيان ٢٤٦
- الزاوية الثانية: الخط الأفقي للطغيان ٢٤٧
- الزاوية الثالثة: رصد الموقف البشري في طغيانه ٢٥٠
- الزاوية الرابعة: رصد الموقف البشري في صد الطغيان ٢٥٣
- الزاوية الخامسة: رصد الموقف الإلهي ٢٥٥
- خاتمة: قانون الطغيان بين التخلف والسرمان ٢٥٧
- الخصوع لله والإذعان (سورة ص) ٢٦٠**
- مقدمة: طغيان قريش - موقف بشري متكرر ٢٦٠
- أولاً: القرآن وصدود الكافرين ٢٦١
- ثانياً: صور من طغيان قريش ٢٦١
- ثالثاً: من الذي يملك حق اختيار الرسول؟ ٢٦٣
- موضوع السورة: صورة الإنسان المشرقة ٢٦٤
- المحور الأول: المهام الأساسية للبشر ٢٦٤
١. الإرادة القوية طريق العبودية ٢٦٤
٢. الصبر طريق الظفر والنصر ٢٦٥
٣. معرفة النفس طريق إصلاحها ٢٦٦
٤. العمل الصالح والفكر الصائب قوام الحياة ٢٦٨
٥. إقامة الحق والحكم به - أساس الرسالة ٢٧٠
- المحور الثاني: رصد مظاهر العناية الإلهية ٢٧٢
١. تيسير أسباب التمكين ٢٧٢

٢٧٤	٢. تهيئتهم للريادة والقيادة
٢٧٨	٣. اصطفوا وهم في الدنيا
٢٧٨	٤. تكريمهم في الدنيا
٢٧٩	٥. تكريمهم في الآخرة
٢٨٠	خاتمة: رسالة الله إلى البشرية
٢٨١	أولاً: عناصر الرسالة
٢٨٦	ثانياً: طبيعة الرسول
٢٨٧	ثالثاً: حقيقة البشر وأصلهم
٢٩٢	رابعاً: صفة حامل الرسالة
٢٩٤	خامساً: حقيقة الرسالة
٢٩٦	الخاتمة والنتائج
٣٠٤	التوصيات
٣٠٧	الفهرس